تنويرُ
الباب السَّابع
من علم المعانـي

في الفَصل والوصل من المُطول للسعد

بقلم

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ غير المتفرغ في جامعة الأزهر الشريف

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُلله ربِّ العالمين . الرَّحمنِ الرَّحيمِ. مالكِ يومِ الدين.

اللّهم صلِّ وسلّم وبارِكْ على سيِّدنا محمّد وعلى آلِهِ وَصحبِهِ وسلّم .

أمّا بعدُ، فهذه توثيقٌ كِتابيٌ لمدراساتٍ ومحاضراتٌ تلقَى في طالباتِ الفرقةِ الثّانيةِ من مرحلةِ التّخصّص«الماجستير» شُعبة «البلاغةِ والنقدِ» في كليّةِ الدّراساتِ الإسلاميّة والعربيّةِ للبناتِ بالقاهرة – جامعة الأزهرِ الشريف في العام الجامعي (١٤٤٤هـ =٢٠٢٢ /٢٠٢٣)

حرَصتُ فيها على مُراعاةِ أمْرَيْن رئيسيْن:

الأوّل : المستوَى العِلمي الّذي عليه الطّالباتُ المُبتغَى تَربيةُ عقولِهن وأذواقِهن وملكاتِهنّ الفهميّة والإفهاميّة .

والأخر: طبيعةُ العِلم والسِّفرِ الّذي قُرِّرَ عليْهن مدارستُه ومناقدتُه واستثمارُه . فمن كانت طبقته في العلم فوق طبقتهن ، فليس حسيناًأن يشغل بما في تلك الوريقات. ما فيها طعام من في طبقتهن، لا من فوقها أو دونها.

والقولُ في «علم البلاغة العربيّ» ليس كمثله قولٌ في غيرِه من علومِ العربيّة.

والقولُ في نتاجِ «السّعد»(٧٢٢ -٧٩٢هـ) ليس كمثْلِه قولٌ في نتاجِ غيره سواءً كان من مدرسةِ« البيان والتّبيين» أو مدرسة «الأسرار والدلائل» أوْ مدرسة « مفتاح العلوم»

هذه ثلاثُ مدارسَ ،لكلّ مدرسةٍ مجالُها المعرفيّ والعلميّ والتّربويّ معًا، ولها وروافدها ،ولها منهاجُها الّذي تسلكُه إلى ذلك ، ولها بيانُها الّذي تعربُ به عَن ذلك.

الذي يدرُسُ كتاب« تحرير التحبير في صناعةِ الشّعر والنّثر» لابن أبي الإصبع (ت: ٦٥٤هـ) ليس سبيله فهمًا وإفهامًا سبيل الذي يدرسُ « الأسرار والدلائل »أو «المطول» ونظائره من مدرسة«المفتاح»

وطالبُ العلم الّذي لا يعرف المدرسة التي ينتمِي إليْها "السِّفرُ" الّذي يقومُ لمدارسَته ، قد لا يكون مؤهلًا لأن يبذل ما يجبُ بذْلُه وفاءً بحق هذا السِّفر.

وكذلك الذي يقرأ كتابًا لعالمٍ ، وهو لا يعلم، أوْ لايستحضِرُ ما ينتمِي إليْه ذلك العالمُ مِن المدرس الثّلاث الآنف ذكرُها ،ولا يعلم ، أوْلا يستحضرُ ما يتسم به هذا العالم من سبُل الفهم والإفهام، قد لا يكون وفيًا بحق ذلك العالِمِ عليْه.

الكتابُ الّذي نحن بصدد مخادنته مدارسة وتثويرًا ومناقدة ينتمي إلى مدرسة «المفتاح» وصانعُه « السعد» فللمدرسةُ خصوصيّةٌ في الفَهم، وفي الإفهام فرضتها الغاية التي أسّست لها مدرسةُ "المفتاح" فالذين يريدون من علماء هذه المدرسةِ وأسفارِها ما يريدونه من مدرسة « الأسرار والدلائل» أو مدرسةِ « البيان والتبيين» يضلُون السبيل.

لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ بِحُسْنِ العرفانِ بوجهةِ كلّ مدرسةٍ ، ومنهاجِها إليها ، وأدواتِها .

الّذي إليْه نوَمّ ناظرين فيه مستبصِرين مثورين ما فيه إنّما هو كتابُ «المطوّل» وهو لِمن هو بصيرٌ بمدرسةِ« المفتاح» يعلمُ أنّه أجلُّ أسفارِ هذه « المدرسة» وأنفعها وأقدرها على تنمية الطاقات التفكيرية ، والتذوقية ، والنقدية والحجاجية أيضًا

مدرسة " المفتاح: عامّة لا تؤمُّ لتحصيل معرفةٍ في متن «علم البلاغة العربي» هي ما جاءت لتضيف جديدًا في هذا المتن كما صنعتْ مدرسة« الأسرار والدلائل» وما جاءتْ لتفعم العقلَ والقلبَ وتروى الذوق بفيضٍ من البيان العالي شعرًا ونثرًا ثم بأقباس من النظر العلمي والذوقيّ في هذا البيان ، كما جاءت مدرسة« البيان والتبيين» كلاّ إنّما هي مدرسة جاءت لتنظِّم ما تمّ إنجازُه في المدرستين السابقتَيْن عليْها، ولتحيل المعرفةِ إلى علم يتسم بثلاثة أمور هي عمود شخصية العلم: الموضوعية، والانتظام، والاطراد ، فعنيت هذه المدرسة باستنباطِ الكليات واستنتاجها، أيْ أنّها لمّا رأت عناية المدرستين السابقتين عليها قد عنيتا بحق « التّحليل والتّأويل والتعليل" ورأت أن هذا الذي انجز بحاجة إلى استنباط الكليات والقواعد والضوابط عمدت إلى هذا الذي افتقرإليه « علم البلاغة العربي» في هذه الحقبة، فقامت إليْه وبِهِ .

كذلك أفهم حركة التّأليف في هذا العلم منذ بدأ التدوين العلميّ فيه القرن الثاني الهجري .

ونحن في عصرنا هذا بجانب مدارسة نتاج هذه المدراس الثلاث بحاجة إلى أن يكونَ منا طلاب علم والمشتغلين به بجانب ذلك أن نُعيد افتتاح مدرسة «البيان والتّبيين» فيما أنتجه سحرة الكلمة العالية شعرًا ونثرًا أدبيًا، فنقيم من هذا البيان العالي سفرًا عديلًا لأسفارِمدرسة « البيان والتبيين» ثم نعمد لنصنع شيئًا في هذا سفرًا أو أسفارًا على منهج مدرسة «الأسرار والدلائل» ثم سفرًا على منهاج مدرسة «القتاح» وهكذا في كلّ قرن من الزّمان ، فهذا الاتجاهاتُ الثلاثةُ في التأليف في هذا العلم هي عندي متسمةٌ بأربع سِمات كليّة رئيسة: هي متكاملة ، وهي متصاعدة ، وهي متآخذة يأخذبعضُها بحجزِ بعضٍ ، وهي مترافدة، يرفُد بعضُها بعضاً .

أمّا العالم الصّناع لكتاب«المطوّل" فإنّه سعدُ العِلم، المسعودُ بتوفيق ربّه تعالى ، المُسْعِد قراءه بدقائق فكر،ولطائف ذوقِه وفصيح بيانِه ، وكفاه ذلك ، فهو مِن أحبّ علماء مدرسة «المفتاح» إلى عقلي ؛ لِما يغذُوه مِن دقائقِ النّظر ، وأنا لا أقرأ «المطول» لأعرفَ الفرق بين «التّشبيه» و«الاستعارة»و«الإيجاز والإطناب» ونحو ذلك ، أقرأ لأبصر حركة عقلِه ، ونفاذ بصيرته ، واسترفاده العلوم لخدمة عقله البلاغيّ .

إذا ماأردتَ أنْ تعرفَ معالمَ شخصيتِه العلميّة ، فخادِن مستبصرًا أربعة أسفار مننتاجه العلميّ :

«المطوّل»، ثم شرحَه «الكشّاف» للزمخشريّ (لم يتمه)، ثم شَرحه «المقاصد» في علم العقيدة ، ثم «التّلويح» في أصول الفقه ،ثم اختتمَ بشرح الأربعين النووية.

ستجد في كلّ سفرٍ ما يُبين لك عن جانبٍ مِنْ جوانبِ شخصيّة «السّعد التّفتازاني» اقرأه ، ولا تقرأ عنه ، لا تجعلن غيرك، يأخذ بعلك، يأخذك حيث يريدُ هو،وهومنهج«الاستنعاج« الذي هو منهاج الطواغيت في معالة شعوبهم في وطننا العربيّ : إنّما أنت لله وحدَه عبدٌ ، لا لأحدٍ سواه - سُبْحانَهُ وَتَعالَى - والله الهادي إلى سواءِ السبيل.

وكتبه

محمود توفيق محمّد سعد

الأستاذ غير المتفرغ في جامعة الأزهر الشريف

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

القاهرة :مدينة الشّروق

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

إِضَـــاءَةٌ

يقُولُ الإمامُ عَبْدُ القاهرِ الجُرجاني - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - (ت:/٤٧١هـ):

" إنَّ الذوق إلى أن تقرَّ الأمورُ قرارَها ، وتُوضعَ الأشياءُ مَواضِعَها، والنزاعَ إلى بيانِ ما يُشْكِل، وحلّ ما يَنْعَقِد، والكَشْفِ عمّا يَخْفَى، وتلخيصَ الصفةِ حتى يزدادَ السامعُ ثقةً بالحُجة ، واستظهاراً على الشبهة، واستبانة للدليل، وتبيناً للسَّبيلَ ، شيءٌ في سُوسِ العَقْلِ ، وفي طباع النَّفس إذا كانت نَفْسًا "

(دلائل الإعجاز. قرأه محمود شاكر .ص:٣٤ فقرة ٢٦)

*****

ويقُول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني: كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق

وأفصل أجناسها وأنواعها

وأتتبّع خاصّها ومُشاعَها

وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل، وتمكّنها في نِصَابه، وقُرْب رَحِمِها منه، أو بُعدها حين تُنسب عنه... "

(أسرار البلاغة . قرأه محمود شاكر، ص:٢٦ فقرة٢٢)

******

ويقول العلامة محمد الطّاهر ابن عاشور رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

"أما القواعدُ العلميةُ الّتي أسّسها لنَا السّلفُ ،فإنَّ الطالبَ يقرؤها ،ويكتسِبها لِتخدمَ فكرة أو لِتَسْتَعيد أفكارَه ،ومَتَى استَأثرتِ القواعدُ الأفكارَ بانَ خطرُ النّظرِ.

واعْلَمْ أنّا مَتى اقتصرْنا في تَعليماتِنا على ما أسّسَهُ لنا سلفُنا، ووقفْنا عند ما حدّدوا، رَجعْنا القَهقَرَى فِي التّعليمِ والعِلم ؛ لأنّ اقتصارَنا على ذلك لا يؤهّلُنا إلاّ للحصولِ على بعضِ ما أسّسوه، وحفظِ ما استنبطُوه، فنحنُ قد غُلبنا بما فاتَنا مِن علومِهم ولو قليلًا، أمّا متَى جعلْنا أصولَهم أسسًا لنا نَرتقِي بالبناءِ عليْها، فإنّا لا يسُوؤُنا فواتُ جزءٍ مِن تَعلُّمَاتِهم متَى كُنّا قد استفَدْنا حظًّا وافرًا قَدْ فاتَهم."(أهـ)

(أليس الصبح بقريب. دار سحنون للنشر والتوزيع – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط(١) عام : ١٤٢٧ هـ .ص١٥٥)

أمّا قبل

توطئة في سعد الدين وكتابِه المطول

في الربع الأوّل من القرن الثامن كان ميلاد سعد الدين التفتازاني في الثاني والعشرين من القرن الثامن الهجري(٧٢٢هـ) ولد سعد الدين التفتازاني في « تفتازان» إحدى قرى« نسا» بخراسان.

(اسمه ونسبه)

مسعودُ بن عُمر بن محمّد بن عبد اللهِ ، يكني بأبي سعيد، ويلقبُ بسعد الدين أو السعد ، وبالتفتازانيّ

وهو من أسرة علم، فقد كان أبوه قاضيًا كما أن له ولدًا يدعَى محمدًا وهو مِن أهل العلم، ولمحمد ولدٌ يسمى""يحيى" ذو حظ من العلمِ، وليحيى ولد يدعَى"أحمد بن يحيى بن محمد بن مسعود الشافعي (ت: ٩١٦هـ) كان يلقب بشيخ الإسلام، ويدعى الحفيد السعدي ، وله حاشية على« المطول» وله كتب ورسائل جمعت تحت عنوان «الدر النضيد في مجموعة الحفيد» وهو من أهل العلم المشهورين في زمانه وكان قاضي« هراة» ثلاثين عاما، قتله « شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي ،عام»(٩١٦هـ) مع مجمع من علماء هراة .

وبقاءُ العلم النَّفيعِ في بيتٍ مِن البيوتِ آيةٌ على أنّ بركةَ العلمِ مقيمةٌ فيهم، مِن أنَّها وَجَدَتْ منهم ما يُغريها بالمقامِ فيهم ، وفي هذا آيةٌ - أيضًا – على أنّ الله - سُبْحانَهُ وَتَعالى – قد جعل لهم وفيهم ما يهذي إلى منزلتِهم عنده عزَّ وجهُه وجلّ جاهُهُ ، فإنَّ بقاءَ النِّعمِ العليّةِ المُفضي إنعامُ الله - تعالى - بها على قومٍ إلى الزُّلفى إليْه مِن أنَّها ممَّا لا تَشغَلُ مَن أُنعِمَ بِها عَلَيه عَن مَن أنعَم بها عليهم - سُبْحانَهُ وبِحمْدِه - ، وهذا آيةٌ بملكِك أن تعرِفَ شريفَ النِّعمِ وجليلِها إنْ بقيَتْ فيك وفي ذريّتِك، وشغلتْك بحقّ منعِمها عليك عَن أن تُشغَلَ بها، فاعلمنَّ أنَّ الله تعالى إرادَ أن يجعلَك آيةً مِن آياتِ إكرامِه أهلَ طاعتِه، وأهلَ العلمِ به، فكُنْ على مِثلِ ذَلِكَ أحرصَ من حرْصِ سوادَ النَّاس ودهمائهم في عصْرِك ومصْرِك علَى تلْك المَناصبِ الَّتي يُرادُ بها إذلالَ أعناقِ الرِّجالِ واسْتِلابَ أموالِهم لهم وانتهاكَ أعراضِهم.
وقد كثُر طالبو هذِه المناصبِ ومغتصبُوها ، ولو بقطعِ الرِّقابِ وكشْفِ العوراتِ ، واستلابِ الأموالِ. وإنَّ عينَك للترَى في ما أنت مقيم فيه صباحَ مساءٍ فُنونًا وَصُنوفًا وتكاثرًا من أولئك المُفسدين في الأرضِ .

(مجالاتُه المعرفيّة)

اتّسعت مجالاتُ السعد المعرفيّة ،والعلمية، فهو ذو قدمٍ في علومِ العربيّةِ، وعلومِ العقيدةِ أو أصولِ الفقهِ، وفِي الفقهِ...وهي علوم تترافد وتتكامل ، فتترابح، مما يفضِي إلى رحابتها وعمقِها فِي الفؤاد .

يقُول ابن خلدون:« ولقَد وقفتُ بمصر على تآليفٍ في المعقول متعددةٍ لرجل من عظماء "هراة" من بلاد "خراسان" يشتهر بسعد الدِّين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان، تشهد بأن له ملكةً راسخةً في هذه العلوم. وفي أثنائها ما يدلُّ له على أن له اطلاعاً على العلوم الحِكميّة وتضلعاً بها وقدماً عاليةً في سائر الفنون العقليّة. والله يؤيد بنصره من يشاء. »

وقال عنه محمدُ بن علي الشوكاني في كتابِه« البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»:

« فاق في النّحو والصّرف والمنطق والمعانى والبيان والأصول والتفسير والكلام وكثير من العلوم وطار صيته واشتهر ذكره ورحل إليه الطلبة وشرع في التصنيف وهو في ست عشرة سنة....

وبالجملة فصاحب الترجمة متفرد بعلومه في القرن الثّامن لم يكن له في أهله نظير فيها وله من الحظ والشهرةِ والصّيتِ في أهلِ عصره فمن بعدِهم مالا يلحق به غيره ، ومصنفاتُه قد طارت في حياته إلى جميع البلدان وتنافس النّاسُ في تحصيلها ...وهو لعلوّ شأنه يلقب بـ«العلّامة الثّاني » بيْنا العلامة الأول هو« قب الدين الشيرازي(ت: ٧١٠هـ)

(مصنفاتِه)

للسعد تصانيف عديدة في علومٍ متنوعةٍ أوّلها تأليفًا كتابه «شرح التّصريف الزّنجاني »في علم« الصرف» ويسمى أيضا بتصريف العزّي نسبة لـ« عز الدين إبراهيم بن عبد الوهاب الزنجاني(ت: ٦٥٥هـ) تقريباً، فرغ منه عام(٧٣٨هـ) وهو في السّادسةعشرة من عمره.

ومن أهم ما صنف « الشّرح الكبير لتلخيص مفتاح العلوم للخطيب القزويني»وهو المعروف في طلابِ العلمِ بـ« المُطوّل» بدأ في تأليفه عام(٧٤٢هـ) وهو في العشرين من عمرِه، و فرغ منه في شهر صفر، عام (٧٤٨ هـ) بهراةَ وكانت سنه (٢٦) سنةً وعشرين عامًا، وهو من أجل شروح تلخيصِ المفتاح، كما أنّ «تَلْخيصِ المفتاح» للخطيبِ القزوينيّ (٦٦٦- ٧٣٩هـ) منْ أجلِّ الكتبِ الّتي اختصرتْ «مفتاح العلوم» للسكاكي(٥٥٥ -٦٢٦هـ)

وكأنّي بالسّعد قد أدرك قيمةَ كتاب «التلخيص» للخطيب، وما يميزه عن كتاب «المصباح تلخيص المفتاح » لابن الناظم صاحب الألفية :« بدر الدين محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) ، وكذلك كتاب «العضد الإيجي:عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الإيجي»(٦٨٠-٧٥٦خـ) المسمى« الفوائد الغياثية» و«الغياثية» نسبة إلى الوزير«غياث الدين محمد» ومن أهل التراجم من يذهب إلى أن العضد الإيجي شيْخٌ للسعد ، وثلة من أهل التحقيق ينفي ذلك، وإن كانت له عناية بتأليف العضد .

وبعضُ أهلِ العلم على أنّ« السّعد» لم يسمّ هو كتابه الشرح الكبير للتلخيص بـ«المطوّل» وهذا وإنْ كان كتابه« المطول» ليس فيه نصٌ على أنّه سماه المطوّل ، فإن هنالك نصٌ إجازةٍ بخطِ يده لتلميذه : «سعد الدين ابن جلال الدين الزّرنوقي في خوارزم سنة(٧٧٧هـ) وقد نقلها الأستاذ الدكتور المحقق البحاثة :ضياء الدين عبد الغني القالش » - أحسن الله إليه - في تحقيقه كتاب المطول :نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطريّة (عام ١٤٤٢هـ) الطبعة الأول ،ص: ٢٣) قال فيها السّعد:

« استخرتُ الله تعالى وأجزتُ له أن يروي عني ما قرأه عليّ أو سمعه مني أوْ صَحَ عنده أنّه مِنْ مقروآتي ومسْموعاتي أومؤلفاتي كشرح "التنقيح" و فوائد شرح الأصول وشرحي التّلخيص المختصر والمطوّل وغير ذلك... »

وهو لم يذكره في كتبه البلاغية باسم "المطوّل" ، وإنما يذكره باسم شرح التلخيص ، ممّا قد يوهن القطع بأنه سماه «المطول» وهي تسمية عند التدقيق لا تليق به ، ذلك أنّ "التّطويل"" كما ذكر هو في هذا الكتاب بأن التّطويل يشترط فيها شرطان:

الأول: أن يكون اللفظ زائدًا على أصل المراد لا لفائدة
والآخر: ألّا يكون اللفظ الزائد متعينًا .
وهذا لا يصحُّ وصف صنيعه فيه بذلك، لأن قوله « لا لفائدة» من قبيل القدح، فلعله في الإجازة السابق الإشارة إليها ذكره باسم "المطوّل" تمييزًا له عن مختصره. ولو أنه ذكره بـ« المبسوط» أو«البسيط» لكان أولى .
وذهب محمّد زكي الجعفري « الإماميّ الصفوي» أنّ السعد سماه« الإصباح» ونشر الجعفريّ في «دار الحجة – قم – إيران عام ١٤٣٤هـ»الكتاب بهذا الاسم، والشيخُ النّاشر ما أتقن قراءة عبارة السعد في شرحه الكبير للتلخيص وعِبارة السعد في مقدمة كتابه « مختصر شرحه الكبير للتلخيص » نصُّها :
« فأغنيته بالإصباح عن المصباح»،وهذه العبارة لا يُفاد منهاما ذهب إليه الشيخ محمد زكي الجعفريّ ، بل هي تُشير إلى أنّ الشّرح الكبير للتلخيص كأنّه الصبحُ بالنسبة لكتاب «المصباح» لابن الناظمِ ، فكأنّ السعد يقول إذا طلع كتابه« الشرح الكبير للتلخيص » فإنّه يغني عن كتابِ ابن الناظم «المصباح» إغناء طلوع الصبح عن المصباح.
أيّما كان الأمر فالأهم أنّه لمّا كان شرحه الكبير للتلخيص من أجلّ ما شرح به « تلخيصُ المفتاح» للخطيب، لقب السّعد في الشروح والحواشي بالشّارح .([1])
وهذا الشرح من قبيل ما يعرف بالشرح «الممزوج» وهو في مقابل (الشرح بالقول):
الممزوج هو ما يعمد فيه الشارح إلى المزج بين عبارة المتن والشرح بحيث لا يفصل بينهما إلا ما يُميّز عبارة المتن بوضعها بين قوسين :«(.........) »
وهذا النّهج تكون فيه العبارة متناسقة بين المتن والشرح،ومثل هذا لا يطيقه إلا الكبار.
والشرح بالقول هو أن يقول قال المصنغف ثم ينقل عبارة الماتن، ويعقب هو بشرحها،وهذا فيه حرية للشارح .لا يتقيد بنص عبارة الماتنوذلك انفع لطالب العلم لما أنه يمكن للشارح من أن يبسط عبارته الشارحة.
ومن بعد فراغ السعد مما سُمي بعد بالمطول بثمانيةأعوام (٧٥٦) فرغ من اختصاره الشرح الكبير للتلخيص، وهوكما سمق هو المسميه بالمختصر .
ولا يعني أنه تسميته بالمختصر أنه ليس إلا اختصارًا لعبارتِه في« المطول» بل هنالك صنعة في « المختصر» فيها تقديم وتأخير ،وتبيين، وفيها إضافة، ومِن حق الكتابيْن أن تقام دراسة موازنة بين المنهاج في كلّ ، وبيان ما كان في المطول، وترك في المختصر،وما جاء في المختصرِ ولم يكن في المطول،وما قدم وأخر في المختصر، وما قاله بحروفه في المختصر، وما نقل بعبارة أخرى .
وكلّ ذلك مهمّ لتبيين الباعثِ على الاختصار، وكان بملك السعد ألى أن يستأنف تأليفًا أخر أجز وأبين . في الاستئناف ما قد يجعله أوفر حرية في التّفكير والتّنسيق التّعبير، وسأبين إن شاء الله تعالى حكمة أهل العلم في اتخاذ منهاج الشروح والحواشي فيما بعد القرنِ السبع .

[1] إذا رأيتهم في كتب الشروح والحواشي والتقارير البلاغية يقولون الشارح أو العلامة الثاني فإنهم يريدون "السعد" وإذا رأيتهم يقولون العلامة الأول ، فإنهم يريدون" القطب الشيرازي" وفي كتب التفسير بعد القرن السابع إذا قالوا" الإمام "فإنهم يريدون » الفخر الرازي «وإذا قالوا فيها« القاضي »فإنهم يريدون " القاضي البيضاوي"

فرق بيْن ان تخدم سفرًا في علم، وأن تخدم العلم نفسه بسفر، فهما وإن تفاضلا فإن لكل من النّفع ما ليس للاخر ،والاكتاف بأخذ السبيل ليس كمثل الجمع بينهما .

في خدمة كتابٍ في علم، تمكين لتراث هذا العلم وإحياء له، وفي استئناف كتاب في العلم تجديد وتطوير وتفسيح.

ومن اسفاره العلية النفع كتابه «حاشيته على تفسير الزمخشري: الكشاف» وهو قد لقي ربّه - سُبْحانَهُ وَتعالَى – عام(٧٩٢هـ) ولما يفرغ منها، وقد توقف عن العمل فيها في عام(٧٨٩هـ) وهو في السّابعة والستين من عمره، أيْ قبل رحيله بثلاثةأعوام، ولا أعلم ماأعاقه عن اتمامها.

وهذه الحاشية ما تزال مخطوطة،وقد حققها الأستاذان الجليلان أد عبد الفتاح عيسى البربري بارك الله في علمه وعمله (عام:١٣٩٨هـ) واد فوزي السيد عبد ربه رحمه الله سنة ١٣٩٩هـ) وحصل كل بتحقيقها على درجة العالمية " الدكتوراه" في البلاغة والنقد من كليةاللغة العربية جامعة الأهر بالقاهرة. ولعلّالله ييسر نشرها.وفي خزانة كتبي نسخة مخطوطة صورتها من المكتبة المركزية في جاعة الإمام محمد ب سعود الإسلامية بالرياض عام(١٤١٩هـ)

ومنها: «شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم» فرغ منه بسمرقند في شوال عام(٧٨٩هـ) وقد حقق ونيل به درجة العالمية الدكتوراه من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة،

وحققه أيضا الدكتور عجاج عودة برغش،ونشرته دار التقوى بدمشق في ثلاث مجلدات عام١٤٤٣هـ

ونحن بحاجةٍ إلى من يوازن لنا بيْن منهاج السعد والسيد الشريف في شرحيهما كنا مفتاح العلوم (ج٣) فذلك بابٌ من العلم عريض وعميق لا يقوم له إلا فتي العزم عليّ الهمة .

ومن تصانيفه المهمة جدًا كتاب« التلويح حاشية على شرح التوضيح متن التنقيح» في أصولِ الفقهِ الحنفي ، والشرح والمتن للعلامة صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود المحبوبي الحنفي (ت: ٧٤٧هـ) وقد فرغ السعد من« التلويح» عام(٧٥٨هـ) في تركستان،وهو في السادسة والثلاثين من عمره(٣٨ عامًا ،

وهذا الكتب من الكتب المحببةإلي في أصول الفقه وارى أنه بالغُ الأهمية لطلابِ علم البلاغة العربيّ، فيه ما يرفد ذلك العلم، ولا يليقن التعرضُ لمسألة بلاغية لها ذكر في المطول ،وحاشية الكشاف،وفي شرحه المفتاح وفي التلويح،ولا يجمع النظر المستبصر ما جاء فيها في الأربعة الأسفار. ولو أنّ باحثًا عمد إلى الموازنة بين ما في « المطول» و« التلويح» من ثمارِ التفكيرِ البلاغي فيهما لكان عملًا نفيعًا تحت عنوان« التفكير البلاغي عند السعد التفتازاني بين كتابيه« المطول»و« التلويح» .

ومنها « حاشية على شرح العضد الإيجي على مختصر ابن الحاجب في الأصول المعروف بمنتهى الإرادات » فرغ منه عام(٧٧٠هـ) وهو مطبوع متداول.

ومنها كتاب« المقاصد» في علم الكلام،وقد شرحه بنفسِه، فرغ من منهم عام (٧٨٤هـ) وهو في الثانية والستين من عمره ،وهو منشور متداول.

وله شرح كتاب« نوابغ الكلم للزمخشري،ويعرف بكتاب« النعم السوابغ في شرح النوابغ» وقد طبع محققًا.

ومنها« شرح العقائد النسفية»:شرح على متن العقائد الذي وضعه الإمام نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (ت:٥٣٧هـ) وله شروح عدة أهمها شرح السعد .

ومنها شرحه الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية،وفرغ منه عام(٧٥٢هـ) وهومطبوع متداول

وله شرح كتاب« نوابغ الكلم للزمخشري،ويعرف بكتاب« النعم السوابغ في شرح النوابغ» وقد طبع محققًا.

(عقيدته ومذهبه الفقهي)

السعد أشعريّ المعتقد، و شافعيّ المذهب على الرا جح، ومن أهل العلم من عده حنفيًا ، ومنهم من قال هو محقق فيهما معًا.

والغالب على أهل وطنه أنهم شافعية.ولايصلح ها دليلا على شافعيته وتأليفه في فقه مذهب أوْ أصول فقه لا يقع بانتسابه إليه ، فقد ألف في الفقهين،وفي أصولهما أيضًا.

(وفاته) توفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٧٩٢ اثنتين وتسعين وسبعمائة بسمرقند ثم نقل إلى سرخس فدفن بها يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من العام نفسه .

إضاءات

من خواصّ
العقلِ البلاغيّ العربي

ممّا يجبُ أن يكونَ متقررًا حاضرًا في وعيك دائمًا مِن الحقائقِ أمران كليّان هما مِن خصائصِ العقلِ البلاغيّ العربيّ :

(الأمر الأوّل):

أنّ العقلَ البلاغيّ العربيّ إنّما هو مهمومٌ بما فيه يتفاضلُ أهلُ البيان ، أمّا ما لا مجال لتفاضُلِهم فيه ، لخلوّه من صنعة المتكلم في الكلام ، فإنّه منصرفٌ عنه .

وقد قرّر عبدالقاهر تلك الحقيقة في سفره العمدة:« دلائل الإعجاز»قائلا :« لا فَضِيلةَ حتّى ترَى فِيالأمرِ مَصنعًا، وحتّى تَجدَ إلى التّهيرِ سبيلًا ،وحتّى تكونَ قد استَدركتَ صَوابًا» (١)

لذا كانت صورةُ الكلام الّتي بها لا يتحقّق بها إلّا أصلُ المعنى من الكلام إذا اختلّ شيْءٌ منها لم يكن ثمّ معنى، وهوما يعنى به علم النّحو، ليْسَتْ مناطَ عِنايةِ العقلِ البلاغيّ .

يقول السكاكي في «مفتاح العلوم»

هو يشبه الكلام الذي لا يتحقق به إلّا أصل المعنى بأصوات الحيوان في عناية «العقل البلاغي العربي » به، لا أنّه لا فائدةَ فيه، فمناطُ المشابهة اعتناء العقل البلاغي به، لا خلوه من الفائدة ، فمعاذ الله تعالى أن يزعم السكاكي أن قولنا :"كتبَ محمّدٌ الدّرسَ" خلاءٌ من الفائدة ، وأنّه وأصوات الحيوان سواء في عدم الفائدة، هو يريد إنّه خواءٌ من طَلِبة العقل البلاغي وبغيته الّتي هي المعاني الزائدة على أصل المعنى المستولدة بصحيح النّظر وعميق التّبصر من النّظم فِي سياقِه ، كالمعنى الزّائد على أصل المعنى المستفاد من النظم في سياقه من قولنا: «كتب الدرس محمد، ومحمد كتب الدرسَ، والدّرسَ كتب محمّدٌ، والدّرسُ كتبَ محمّدٌ، ومحمّدٌ الدّرسَ كتب » فهذه الصور المتولدة من أصل التركيب: " كتبَ محمّدٌ الدّرس» هي التي أحدثت زيادة في أصل المعنى، وهذه الزّيادةُ هي مناط طلبة «العقلِ البلاغيّ العربيّ »

والجملة الفعلية التي تنسق على النّحو التالي:"الفعل فالفاعل فالمفعول به" هي الجملة الأصل التي لاعدول فيها، أمّا الجملة الاسمية، وما يطرأ على نظم الجملة الفعلية " فعل ، ففاعل ، فمفعول به" فذلك عدولٌ عن الأصل .

إنْ جاء وفقَ مقتضى الحال ، فإنّ فيه معنى زائدًا على أصل المعنى ، وذلك ما يلتفت إليه «العقل البلاغيّ العربيّ » ويستجنيه . وأنت لا تستطيع أن تدرك المعنى الزائد إلا بمناظرته بما يكون له أصل التركيب. ومَن لم يكُ عليما بأصل المعنى لن يكون مؤهلا لأن يعلم ما زاد عليه بالعدول عن أصل التركيب . وأصل التركيب إنّما يعلم من علم النحو، مما يحدوك إلى فريضة أن يكون البلاغي عليما بعلم النّحو وما هو به قائمٌ .

---

(١) دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر نشر مكتبة الخانجي بمصر ص 9 فقرة 85

علم النحو قائم بالقول في ثلاثة:

في ما يجب أن يكون(الواجب)

وفي ما يجوز أن يكون (الجائز)

وفي ما لا يجوز أن يكون (الممتنع)

والعقل البلاغي لا يشتغل بما هو من قبيل ما يجبُ أن يكونَ ، وبما لا يجوز أن يكون.

هو منحصرٌ في ما يجوز أن يكون، فيبحثُ عن اقتضاء اختيار هذا الوجه الجائز في هذا السياق ، ثم في ما أحدثته الصّورة الجائزة في المعنى ، ثم في دلالة هذه الصورة الجائزة على هذا المعنى الزائد على أصل المعنى، ووجه دلالتها عليه ، ومستوى هذه الدلالة ، ثم في أثر المعنى الزائدِ في متلقيه.

وإذا ما قلت إنّ «العقل البلاغيّ العربيّ»لا يعني بما لا يتحقق به إلّا أصلُ المعنى ، فإن ذلِك لا يعني أنّه ليس ما به أصل المعنى بلاغةٌ بالمعنى العام لا المعنى الاصطلاحي الخاصّ . كلّا، فيه بلاغة، لكنّها ليست بلاغة متكلمٍ بل هي بلاغة لسان والمتكلّم ليست له في هذا صنعة، إنّما هو وارثها من واضع اللّغة على هذا الأصل ، فتقديم أداة الاستفهام وتصدّرها في الجملة إنما هو بلاغةُ لسان ،لا بلاغةَ إنسان. والمتكلمون إنما يتفاضلون فيما كانت له فيه صنعةٌ.

(الأمر الآخر):

«العقل البلاغي العربيّ » رغوبٌ عن بسط العناية بما كانتْ عطاياه على طرف الثمام تنالُه كلُ يد، ولا يقتضي مزيدَ مخادنةٍ ومباحثةٍ ممّا قد تتقاربُ العقول في إدراكه وتحصيلِه، وما تلين عريكته لكلّ عاركٍ ، فذلِك مرغوبٌ عنه، خلاه العقل البلاغي لغيره،فإنّ الأسود لا تأكل الجيف، بلْ لا تأكلُ مما لاتنالُه براثنها ،ومما لم تنغرس فيه أنيابها ، فالمعني السافرة قبيح في شرعة العقل البلاغي قبح سفور محاسن المرأةِ في شرعة الإسلام ،بل وفي شرعة العقلاء جميعًا .(١)

فكلّ ما كان كذلك فالعقلُ البلاغيّ العربيّ ساكتٌ عنه سكوتك نبيلا عن أن تطعم الصدقات

أوَ لا ترَى أن الصدقات قد حرمتْ على آل بيت النبوة ، ومنزِلُ العقل البلاغيّ العربيّ من العقول منزلُ آل بين النبوة من الخلائق.

واستحضار هذا يُبين لك حكمة رغبة العقل البلاغيّ من بسط العناية ببعض التّراكيب على الرّغم من صحتها ومن أنها ليست خلا من الفائدة. ذلك شأن النبلاء.

جمْعةُ القول: العقل البلاغي هو الرّغوبُ في ما لا يدرك إلا بحسن تبصر وديمومته وفي ما إذا زدته بصرًا زادك عطاءً، وفي ما يمتنع عليك أوّلا حتى تبذل له صداقه من حسن التبصر والتدبر ، ورشيد التّذوق.

(١) ألّا تجد امرأة تسفر عن محاسنها وتبذلها لكل ناظر إلا إذا كانت خلاء من الحياء، وخلاء المرأة من الحياء هو هو خلوّها من العقل، فهي والأنعام حينذاك سواء.

قولٌ
فِي القِيمةِ العِلميّة التَّربَويّة
لأسفار الشُّروحِ والحَواشِي

كان الغالب على علماء الإسلام في القرن السّابع الهجريّ وما بعده انتهاجَ سبيلِ قولٍ على قولٍ شرحًا وتحشيةً... وقلّ من سلك سبيلَ انتناف قولٍ في قضيةٍ أو مسألةٍ .

وهذا ما لقيَ مناقدة من طلاب العلم وأهلِه في زماننا ، وزعموا أن في ذلك تحجيرًا وتجميدًا للعلم. وهذا ما رغبتُ في محاورته ، كشفًا للغطاءِ عَن الحقيقةِ الغائمة .

لعلّك تسألُ : لِمَ لَمْ يسلُك العلماءُ في القرن السّابع الهجريّ وما بعده مسالك انتناف التّأليف فيما يريدون قوله ، ورغبوا في أن يعمدوا إلى ما قال الأعيان من قبلهم ، فيشرحون ثم يحشون، ثم يصطنعون تقارير؟

أمَا كان أيسرَ عليهم أولًا،وأنفعَ للعلمِ ثانيًا أن يستأنف كلٌّ القول في ما يريد إزجاءَه لطلاب العلم ؟

أمَا أنّه أيسرُ عليهم ، فحقًا تقول ، إلا أن من وراء انتهاج سبيل قول على قولٍ شرحا وتحشيةً حكمةٌ :

الأسفارُ التي إنتنف فيها القول في قضيةٍ أوْ مسألةٍ كـ«كتاب الصناعتين» للعسكريّ أو« المثل السّائر»لابن الأثير أوْ « تحرير التّحبير» لابن أبي الإصبع إنما هي كتب صنعت لأسس عرفانا بقولٍ علمي في الخواصّ التّركيبة والدلاليّة للبيان البليغ، وهي تسعى إلى تمكين العلم بالقضايا والمسائل البلاغية للبيان البليغ فيمن يقرأ تلك الأسفار، فالمستهدف بها من لم يكن قد اكتملَ فيه العرفان بهذه القضايا والمسائل.

بيْنَا الإسفار التي انتهت سبيل قول على قول: أسفار الشّروح والحواشي ، فإنما هي تساقُ لمن اكتمل فيه العرفان بالقولِ علمي في الخواصّ التّركيبة والدلاليّة للبيان البليغ .

ومنهاج الشّرح والتّحشيةِ أعسر أكثر تكاليف من انتنافك القول غيرَ مرهونٍ بقول آخر.

شرحُك مقالة عالم فيها يجعلُك أسيرَ مقالته ، ويفرض عليك تكاليف نقدِ مقالته بكلّ ما تتطلبه كلمة «نقد» من استحقاقات .

«النقد» ذو وجوهٍ كلّ منها جدُّ حميزٍ لا يطيقُه إلّا فتيّ العزم ، مليك مهاراتٍ وأدواتٍ تحقّق ما قام إليه على الوجه الأمثل : من النقد ما هو نقدٌ تفسيريّ ، ولعلّه أيسرها، ونقدٌ تَنظيريّ ، ونقدٌ تتميميّ تكميليّ ، ونقدٌ تقويميٌّ : سواء كان تقويمَ عِوجٍ أو تقويم تقدير.

♦♦♦♦♦

(المقتضي منهاج الشرح والتحشية)

صُنّاعُ الشّروح والحواشي والتقريرات لمّا رأوا وفرة ما انتنف تأليفه في القرن السابع وما قبله أدركوا أن هذه الأسفار المنتنفة بحاجةٍ إلى أن تُحسن قراءتها ، فرغبوا في أن يقدموا نماذجَ للقراءة الاحترافية المثمرة لِما كتبَ الأعيان . ورغبُوا أيضًا إقامة علاقةٍ وثيقة بيْن أبناءِ العصر بتراث أجدادهم لما في ذلك من صلة الرّحم العلميّ .

♦♦♦♦♦

(ما تقرأ له أسفار الشُّروح والْحواشيّ)

نحنُ في مدارستنا كتب الشّروح والحواشي لا نهدفُ إلى تحصيل معلومات متعلّقة بالقضايا والمسائل و مذاهب العلماء وآرائهم فيها، فذلك يمكن أخذُه من غيرأسفارِ الشُّروح ، إنّما نحنُ نقرأ أسفار الشّروح والحواشِي لِنتعلّم منهجية القراءة الاحترافية للأسفار ، ولا سيّما أسفار الأعيان في هذا العلم.

ولذا لا يعمدُ إلى أسفار الشّروح والحواشِي إلّا من كانَ متضلعًا بما قالت العلماءُ فِي القضَايا والمسائل المعقود القول فيها في الكتابِ المشروح، فمن عمد إلى قراءة أسفار الشّروح والحواشي ،وهو غير قوامٍ على ما في الأسفار السوابق من القضايا والمسائل ،ومذاهبِ العلماءِ وآرائهم، إنما عرض نفسَه لما ليست هي له بأهلٍ.

لما حَسِب بعضٌ أن أسفار الشّروح والحواشي جاءت لتضيف جديدًا في متنِ العلم ، فلم يجدوا كانوا ناقمين على صانعيها ،ولو أنّهم سألوا أنفسهم : لِمَ كتبت هذه الشروح والحواشي لكان لهم أن يدركوا ما صنعت له ، فإذا نظروا فيها بموضوعيةٍ أدركوا أنّ صانعيها قد أحسنوا، ووفوا ما كانت له تلك الأسفار.

وأمر آخر : غير قليل من المشتغلين بعلم البلاغة ينعون على أعيان هذا العلم أنهم كانوا إلى التّنظير ،وأنّهم استهلكوا أعمارهم وجهودهم في القول النظريّ دون أن يمارسُوا قراءة الإبداع الأدبي شعرًا ونثرًا ، فكانوا أشبه بمن علم ولم يعمل، ومَن أعدّ طعامًا ، ولم يطعم.

حسبُوا ذلك ، وحسبوا قبل أنّ العقل البلاغيّ التّطبيقيّ الناقد لا يعملُ في البيان البشري إلّا في ما كان من قبيل الشّعر والنثر الأدبي . جهلوا .

النّثر العلميُّ عديلُ النّثر الأدبيّ في استحقاقه أن يكونَ مجالَ العقل البلاغيّ التّطبيقيّ النّاقد .

ذلك أنّ الإسلوبَ العِلميّ منْ مقوماته أنْ يكونَ مطابقًا مقتضَى حالِ ما يتكلم فيه من القضايا والمسائل ، وحال ما يتكلّم مِن أجله ، وحال مَن يتكلم معه أوْ لَهُ . وتلك هي حقيقةُ «البلاغة» فنًّا إفهاميًّا .

لو أنّ المُمتَطِين صَهوة التّثريب والملامة والتّجريح تجردّوا وكانوا ناظرين في هذه الأسفار الشّارحةِ المحشيةِ نظرًا موضوعيًّا ، لتبيّنَ لهم أنّ هذه الأسفارَ الشّارحة المُحشّية إنّمَا هِي تَطبيقٌ لما هُو مُحرّرٌ من القضَايا والمسائلِ البلاغيّة.

لا تكادُ الأسفارُ الشّارحةُ والمُحشّية إلّا أن تكونَ عملًا ناقدًا لما هي شارحتُه أومحشّيتُه ، ولو أنّك أخليْتها مِن هذا النّقد لما وجدتَ شيئًا ، فليْست المَعابةُ في هذه الأسفار إنّما المعابةُ فِي مَن لم يُحسن العرفانَ بما صُنعتْ له تلك الأسفار ، فطلبَ مِنها ما لم تكنْ له .

وهذا يُبيّن لك أنّ هذه الأسفارَ إنّما هي مِن قبيلِ البلاغة التّطبيقيّة التّحليليّة ، فليْس حسنًا أن تجعلَ كتاب« المطول» مِن جنسِ كتابِ «المثل السّائر» . طَلِبَتُكَ مِن قراءتك « المطوّل» لابدّ أن تكونَ غيرَ طَلِبتك من قرائتك «المثل السائر»

إنّ أولَ خطواتِ التّوفيق أن تُهدَى إلى تحقيقِ ما تطلبُه مِن الكتابِ الّذي تقرأ ، فمنْ تشابَه الأمرُ عليْه، لا يُلْقِينّ بالائمةِ علَى غيرِه. وليَعُدْ إلى ذاتِه يُقوّمُها ، ويُقيمُها أهلًا لأن تقرأ ولأن تطلبَ الأشياءَ من مظانّها .

ليس الأهمّ أن تقرأ ، وإنّما الأهمّ أن تكونَ العليمَ الخَبيرَ بماذا تقرأ، ولِمَ تقرأ وكيفَ تقرأ ما أردت قراءته ، فإنّك إن تمكّنت مِن ذلك ، فلن يكونَ لك ممّا تقرأ إلا ما أنت تطلب .

موقع

القول في الفصل والوصل من أبواب « علم المعاني» عند البلاغيين المتأخرين.

لمّا كان من مقاصد علم النحو الاحترازُ من الخطأ في الإعراب عن أصل المعنى ، كان من مقاصد علم البلاغة العربيّ العتيدة الاحتراز عن الخطأ في تصوير المعنى الزائد عن أصلِه.

ومن مقاصده الاقتدار على إيراد ما زاد على أصلِ المعنى في صور متنوعةٍ في مستوياتِ وضُوحها ، فبعضُها أوضح من بعض وفق ما يقتضِيه المقامُ. والا حتراز عمّا يُعيق عن إدراكه على حالِه .

ومن مقاصده تحقيق حسن المعنى الزائد على أصل المعنى في القلبِ ؛ ليتمكن فيه، ويأنس به ، فيعمل المعنى الزائد في الفؤاد ما يحقق مراد المتكلم منه.

لما كان ذلك جعل علماء البلاغة الضرب الأول: ما يحترز به عن الخطأ في تصوير المعنى الزائد عن أصلِه فنا اصطلحوا على تسميته باسم« علم المعاني» وتسميته بـ« علم» إيماء إلى وجوب الاعتناء به ، فكأنه علم مستقل يستوجب استقلالا في الاعتناءِ به.

وقولهم المعاني يُرادُ به المعاني الزائدة عن أصل المعنى المستولدةَ منه ، والتي لا تدرك إلا بحسن النظر في النظم في سياقِه، فكأنّ ما عداها عندهم ليست هي المعاني، فـ«ال» في قولهم« المعاني» للاستغراق الادعائي .

وجعلوا الضرب الثّاني: ما يُحقّق أمرين كليين:

الاقتدار على إيراد ما زاد على أصلِ المعنى في صور متنوعةٍ في مستوياتِ وضُوحها ، فبعضُها أوضحُ من بعض وفق ما يقتضِيه المقام.

والا حترازُ عما يُعيق عن إدراكه على حالِه بعصمته من« التعقيد المعنويّ» فنّا اصطلحوا على تسميته «علم البيان » والعلاقة بين« البيان» وموضوع ذلك العلم :تنوع طرائق الإبانة، وتنوع مستويات وضوحها علاقة فنّية، فمن لوازم معنى«البيان» الوضوح والظهور .

وجعلوا ما به تحقيق حسن المعنى الزائد على الأصل في القلبِ ، ليتمكن فيه،ويأنس به فنا ثالثًا اصطلحوا على تسميته « علم البديع» والعلاقة بين مدلول كلمة «بديع» ومنا التجدّد والتفرد وموضوع ذلك العلم علاقة فنّية.

وعند التّحقيق في ما هو موضوع « علم البديع» تجد أن شطرًا منه إنّما هو مُنتمٍ إلى« علم المعاني» ومنه ما هو منتمٍ إلى علم «البيان» :

ما كان منه المحقق الحسن للمعنى هو التركيب« صورة المعنى» فهو إلى «علم المعانِ» كالمقابلة، واللف والنشر والاحتباك، والجمع التقسيم...

وما كان منه المحقق الحسن للمعنى هو الدلالة، فهو إلى "علم البيانِ" كالتورية، والاستخدام والإرصادِ....

زبدة القول:

البحثُ في التراكيب باعتبارها هيئةً تؤدّي معنًى أصليًا هو ميدان «علم النحو»

والبحثُ فيها باعتبار أفادتها معاني زائدةٍ على الأصلِ مستمدة منه هو ميدان «علم المعاني»

والبحثُ فيها باعتبارها كيفية الإفادة في مراتب الوضوح ميدان «علم البيان»

والبحث فيها باعتباره هيئة تحسين المعنى في النفسِ ، فميدان «علم البديع»

فتقسيم علم البلاغة ثلاثة علومٍ إنما هو بالنظر إلى الجهة التي يبحث باعتبارها في التركيب ، فكلُّ أسلوبٍ يمكن أن تنظر إليه بالاعتبارات الثلاثة، فتجعله باعتبار من المبحوث في تركيبه في علم المعاني، وباعتبار آخر تجعله من المبحوث في تركيبه في علم البيان، وباعتبار آخر تجعله من المبحوثِ في تركيبه في علم البديع.

فالتصنيف ليس للأساليب، هذا من أسايب المعاني، وهذا من أساليب البيان وهذا من أساليب البديع

كلّا هو تصنيف من حيثُ جهةِ النَظر فيه ، فمن حيث نظرت صنفت. فالزم.

وأهل العلم يلفتون إلى أن إدراك الكليات هو العلم ، وإدراك الجزيات هو المعرفة، وأنّ العلم له ثلاثة إطلاقات:

يطلق على الإدراك الكلي

ويطلق على ملكة هذا الإدراك وحضورها

ويطلق على ما يقع عليه الإدراك، وهو القضايا والمسائل

والغالبُ الثالث ، فعلم البلاغة هو القضايا والمسائل المتعلق بأحوال الكلام الّتي يُطابِق بها مقتضى الحال ، فكلُّ ما لا تتحقق به تلك المطابقة هو ليس بداخلٍ في علم المعاني. فالاعتداد من الأحوال بما له أثر في تحقيق المطابقة وإن كان دقيقًا ، فربَّ حركةَ مبنى ذات أثر في تحقيق هذه المطابقة، فمناط النظر والاعتداد إنما هو أمرٌ وظيفيّ ، لا ذاتيّ .

وهذا يلفتُنا إلى أمرٍ تربويٍّ إصلاحيّ جليلٍ : الأشياءُ والإنسانُ ليستْ قيمته في ذاتِه ، أي ليستْ في نسبِه وهيئته ، بلْ فِي عملِه ووظيفتِه ، في أثرِه فِي الحياةِ ، فِي حَسبِه لا فِي نَسبِه .

وقد جعل البلاغيون المتأخرون «علم المعاني» متضمنا ثمانية أبوابٍ نسقت على النحو التالي:

الكلام إما خبر وإما إنشاء

إن كان خبرًا فلا بد له من ثلاثة : إسناد ومسند إليه ومسند. ولكل قضايا ومسائل متعلقة بأحواله ، بهذا يكون لدينا ثلاثة أبواب:

الأول القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال الإسناد الخبري والإنشائيّ

والثّاني : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال المسند إليه

والثالث : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال المسند.

والرابع : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال متعلقات المسند

والخامس: القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال الإسناد تخصيصا وتعميما،وهو باب« القصر»

والسادس : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال الإسناد الإنشائي بقسمية الطلبي والتّنبيهي الإفصاحي المسمى بالإنشاء غير الطلبي.

والسابع : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال اقتران الجمل ببعضها فصلا ووصلا

والثّامن : القضايا والمسائل المتعلقة بأحوال زيادة صورة الكلام على الإسناد المحقق أصل المعنى كما ذهب إليْه السّكاكيّ .

.....

باب « الفصل والوصل » هو سابع ثمانية، وهو متضمّن قضايا ومسائل الأبواب السّتة السابقة أي أن طرفيه من الجملة وما فوقها تشتمل على قضايا والمسائل والأبوابِ التي سبقته ففي ما يتعلق بالإسناد ، وما يتعلق بالمسند إليْه وما يتعلق بالمسند ومتعقاته، وما يتعلق بالتّخصيص ، بل إنك لتراه حين يكون فصلا ووصلا بين مجموع جمل ومجموع جمل أخرى ما يتعلق بالإيجاز والإطناب. فلو جعل ثاني الأبواب وخاتمتها لكان أحكم ، بناء على مد طرفي الفصل والوصل إلى ما فوق الجملتين.

وللسّعد في المطوّل نظرٌ آخر .

يقول معلقًا على صنيع التلخيص في توجيهه حصر «علم المعاني» في الثمانية الأبواب :« هذا كله ظاهرٌ ، لكن لا طائل تحته ؛ لأن جميع ما ذكر من القصر والفصل والوصلِ والإيجاز ومقابليه[المساواة والإطناب] إنما هي من أحوال الجملة، أو المسند إليْه أو المسند، فالذي يهمه أن يبين سبب إفراد هذه الأبوابِ عمّا سبق ، وجعل كل منها بابًا براسِه.

وإلّا، فنقول: كلّ من المسند والمسند إليه مقدّم أو مؤخر ، معرف أو منكر إلى غير ذلك من الأحوال ، فلم لم يجعل كلّ واحد من هذه الأحوال بابًا على حدَة . ومَن رام تقرير هذا بالتّرديد بيْن النّفي والإثباتِ ، ففساد كلامه أكثر وأظهر. »

لو أنّهم جعلوا الظّواهر التّركيبية هي مناط التّقسيم ، فجعلوا كلّ خاصية تركيبية من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير ، وتخصيص وتعميم ، وإطلاق وتقييد، وإيجاز وقصر ، وفصل ووصل لكان أجمل وأحكم.



....تنبيه وإيقــاظ ....

البلاغيّ إذا قالَ المعنى فإنّما يريدُ ما هو منسولٌ مِن النّظم في سياقِه، ولا يُريدُ أصلَ المَعنَى الّذِي هو طلبة النّحويّ والذي لا يتغير بتغير شيءٍ في التركيب، ولا بتغير كلماتِ النظم بما يقاربها

أصلُ المعنَى الّذِي هُو طَلِبةُ النّحويِّ فِي قولِنا:« رتّل سورة البَقرة » وقولنا :«محمدٌ قرأ صحيح البخاريّ » سواء، وهُو إسنادُ فعلٍ إلى فاعلٍ ووقوعِه على مفعولٍ معيّنٍ ، ذلك هو أصلُ المه=عنى الذي هو عناية النحوي، وما زاد على ذلك هو مناط عناية البلاغيّ، فإذا رأيت في أسفارِ النحاةِ عنايةً بما زاد على أصل المعنى، فاعلم أنه ينظر هنا نظرًا بلاغيًا، ويفكر تفكيرًا بلاغيًا

وإذا ما كنت قائلًا إنّ المعنى البياني النّظميّ قد يُفاد بأكثر من صورة من صور نظم إلا أنّه يجبُ عليك أن تكونَ علَى ذُكرٍ أنّ المفاد في كلّ صورة لا يكون هو هو المفاد من الأخرى .

يكون المعنيان متقاربين لا متطابقين، فإنّ أدنَى مغايرة في النظمِ يفضي لامحالةَ إلى درجةٍ ما مِن المغايرة .

وحين يكونُ القصدُ إلى ما تفق فيه الجملتان هو مناطُ القصد والاعتناء والاحتفاء ، فالواجبُ بلاغة حينئذٍ تركُ العطف"بالواو".

وإذا ما أريد اللّفت إلى ما بيْن مفاد كلّ صورةٍ من المغايرةَ يكونُ الواجبُ بلاغةُ الإتيان بـ" الواو"

وهذه الواو لن تأتِ واصلةً، كلّا جاءتْ للفت البصائرِ إلى ما بيْن المَعنيين المفاديْن من النّظمين من تُغاير، فذلك التّغايرُ هو مناطُ القصد، لا ما اتفقنا فيه.

وبهذا تُدرك أنّه يَمكن بلاغةً أن تأتي " الواو" بيْن جملتيْن الثّانيةُ مؤكدةُ الأولى، ،وذلك حين يكونُ القصدُ إلَى لفتِ العِنايةِ بما بيْن المَعنيين مِن تغاير، فهُو مناطُ القصد.

وعلَى ذلِك يَكونُ لِقصدِ المُتكلمِ أثرٌ بالغٌ في اقتضاءِ الإتيانِ بـ"الواو" وترك الإتيانِ بها بيْن جملتيْن اتفقتا في المعنى النظميّ .

ذلِكَ أصلٌ قويمٌ يجبُ عليْك أن تجعله حاضرًا في وعيك، لأنّك ستقرأ فِي كتابِ الله تعالى، وغيره ما جاءتْ فيه "الواو" بيْن جملتيْن الثانية مؤكدةٌ للأولى.

تَــثْويـرِ القولُ في

البابُ السابِع «الفصل والوصل»

إذا ما كان الخطيبُ القزوينيّ قد جعل «الفصل والوصل» في تلخيص المفتاح الباب السّابع من أبواب علم المعاني الثمانية ، فالسّكاكيّ في «المفتاح» جعل القول في «الفصل والوصل» في «الفن الرّابع» من بعد أن فرغ من القول في أحوال متعلقات الفعل خاتما هذا الفصل بقوله:

« واعلمْ أنّ مستودعاتِ فصولِ هذا الفنّ لا تتّضح إلا باستبراء زناد خاطرٍ وقّاد ، ولا تنكشفُ أسرار جواهرها إلّا لبصيرة ذي طبع نقاد ، ولا تضع أزمتها إلّا في يدٍ راكض في حلبتها على أنّ أىَ مدى باستفراغ طوق متفوّق أفاويق استثباتها بقوّة فهمٍ ومعونة ذوقٍ مولعٍ مِن لطائف البلاغة بما يؤثرها القلوب بصفايا حباتها وتبثر عليها أفئدة مصاقع الخطباء خبايا مخبأتها متوسل بذلك أن يتأنق في وجه الإعجاز في التّنزيل متنقّلا ما جمله عجز المتحدين به عندك على التّفصيل طامع من رب العزة والكبرياء في المثوبة الحسنى والفوز عنده يوم النشور بالذخر الأسنى. »

مستفتحا القول في الفن الرابع بقوله:« الفن الرابع :

مركوزٌ في ذهنك لا تجدُ لرّدِّه مقالًا ولا لارتكاب جحدِه مجالا أن ليس يَمتنعُ بيْن مفهومَي جُملتين اتحادٌ بحكم التّآخِي وارتباطٌ لأحدِهما بالآخرِ مستحكَم الأواخِي ، ولا أن يُباينَ أحدُهما الآخر مباينة الأجانبِ لانقطاع الوشائجِ بيْنهما من كلّ جانبٍ ، ولا أن يكونا بيْن لأصرةِ رحمٍ ما هنالك ، فيتوسّط حالهما بيْن الأولى والثّانية لذلك . ومدارُ «الفصل والوصل» وهو ترْك العاطف وذكره على هذه الجهاتِ . وكذا طيُّ الجمل عن البيّن ولا طيها ،

وإنّها لمحكّ البلاغة ومنتقد البصيرة ومضمار النظّار ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم ومسبار غور الخاطر ومنجم صوابه وخطئه ومعجم جلائه وصدائه .

وهي الّتي إذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك مِن البلاغة بالقدح المعلى وإن لك في إبداع وشيها اليد الطُّولى.

وهذا فصلٌ له فضلُ احتياج على تقرير وافٍ وتحرير شافٍ. »

وهو يقدّمه على القول في باب« القصر»

وهذا منه ليس بالعالِي ، فـ«القصر» قد يكونُ في أحدى الجملتيْن المفصولتين أو الموصولتيْن ، وأو فيها معًا ، فحقّ «القصر» أن يقدم على «الفصل والوصل».

وكذلك جعله «الإنشاء» عقبَ «الفصل والوصل» وعقبَ «القصر» ليس بالعالي فقد يكون «الإنشاء» في جملة من المتعاطفين أوْ هما معًا ،فحقُّه أن يقدّم على «الفصل والوصل»

ومِن ثَمّ ترى صنيع الخطيب في «التّلخيص» أوفر تناسقًا :

جعل «الفصل والوصل» عقب القول في كلّ ما يتعلق بالقول في الجملة ، ثم انتقل إلى القول في ما بين الجملتين من «وصل وفصل». وقد تجتمع الأبواب السّتة السّابقة في جملة من جملتي «الفصل والوصل» أو فيهما معًا، فيكون العقل مستحضرًا ماسبق فيهما.

.....

والخطيب في «التلخيص» قدّم في عنوان «الباب السابع الفصل على الوصل» لأنَّ «الفصل» هو الأصل لأنّه خلاء من خارج عنه ، بينا «الوصل» يكون بأداة عطف.

وفي تعريف «الفصل والوصل» قدم «الوصل» لأنَّ«الوصل» إنّما يكون بأداة ، فهو ملكةٌ ، بيْنا «الفصل» لا يكون بشَيْءٍ ، فهو عدمٌ ، وإنّما يعرف العدم بالملكة.

ولذا قال:

(الوَصْلُ عطفُ بعضِ الجُملِ علَى بعض والفصل تركه) أي ترك عطف بعضها على بعضٍ ، فبينهما تقابل «العدم» و«الملكة» ولهذا قدّم "الوصل" لأنّ الإعدام إنّما تعرف بملكاتها،وأمّا في صدر الكتاب ، فقدم الفصل ،لأنّه الأصلُ والوصل طارئ عليْهِ

(التّنوير)

يشير السّعد إلى العلاقة بيْن المصطلحين: (الفصل) و(الوصل)، فالفصلُ عدم عطفٍ ، والوصل إثباتُ عطف أيْ ملكة وفعلٌ ، فبيْن المصطلحين ما بين المتقابلين ، كالذي بيْن (الحياةِ والموتِ)

والملكة هنا لا يراد بها القوة الرّاسخة في النّفس ، كما فسرت في تعريف بلاغة المتكلم، بل الملكة هنا ما يقابل العدم ، فللملكة تعريفان:

- تعريفٌ ناظر إلى مقابلتها «العدم»كما هنا.
- تعريف ناظر إلى استحضار القدرة على الفعل حال السّكوت .

والتقابل بين الأشياء أربعةُ أنواع :

= تقابل بين « الملكة»و« العدم»

= تقابل التّضايف ، كالتّقابل بين الوالد والولد، والتلميذ وأستاذه .

= تقابل التّضادّ ، كالأبيض والأسود

= تقابل الإيجابِ والسّلب.

وهذا البَصرُ بأنواع التّقابل ينفعك في دراسة أسلوب الطّباقِ والمقابلة في علمِ البديع.

والخطيبُ في عنوان الباب قال : (الباب السّابع الفصل والوصل) وفي تبيين ماهية كلٍّ قدم (الوصل) فأشار السّعد إلى مقتضِي تقديم «الوصل» في بيان الماهيّة، وتأخيره في ذكر عنوان الباب ، ومن قبله عند تبيان وجه انحصارِ «علم المعاني» في الأبوابِ الثّمانية.

تقديم «الوصل» في التّعريف مقتضيه أنَّ «الفصل» عدمٌ ، فهو لا يفتقر إلى زيادةِ شيءٍ ، وما لا يفتقر فيه إلى زيادة حرف إنّما هو فرعٌ عمّا لا يفتقر فيه ، مثلما كان التّأنيث فرعًا عن التّذكير، والتّثنيَة فرعًا عن الإفراد فـ«الوصل» الّذي هو ملكة فرع على «الفصل» الذي هو عدم

ولمّا كان العدم لا يُعرف إلّا بالملكة والفعلِ وجب بيان الملكة ، الّذي هو« الوصل» ؛ لِيتوصّل إلى تعريف (الفصل) «العدم»

و يُبين وجه حصر موضوعات (علم المعاني) في ثمانية أبواب.

وفي عنوان الباب فقدّم الأصل الّذي هو ترك العطف ، والمقام هنالك ليس مقام تعريف، وصنيع السّعد في "المطول" غيره في مختصره:

فِي "المطوّل" استهلّ ببيان كلام التّلخيص ، ثمّ عقب عليْه ، بيْنا هو في "مختصر المطول" استهل بتبيين المقتضِي ، ثم أردفه بصنيع التلخيص :

في«المختصر » قال:« الباب السّابع الفصل والوصل.

بدأ بذكر «الفصل» لأنّه الأصل و«الوصل» طارٍ - أيْ عارضٌ- عليه حاصلٌ بزيادةِ حرفٍ مِن حروفِ العطفِ، لكن لمّا كان «الوصل» بمنزلة الملكةِ و«الفصل» بمنزلة العدم والأعدام إنّما تعرف بملكاتِها بدأ في التعريف بذكر «الوصل». فقال (الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه) أي ترك عطفه عليه » (أهـ)

هذا الّذي فعله السّعد في «المختصر » أليقُ بحال النّفس في تلقّيها ممّا في «المطوّل» :

في «المختصر» هيّأ النّفسَ لِتقبَلَ ما سَيأتِي مِن مقالِ الخطيبِ قبْلَ وُرُودِ مقالتِه ؛ لتأتِيَ مقالتُهُ والنّفسُ مُتهيّأةٌ ، فلا تَجِدُ فِيها ما يُعيقُهاعَن التّوغّل ، أوْ ما يحملُها على التّوقف حتّى تتبيّنَ العِلّة.

في المطوّل بدأ بمقال الخطيب، فإذا جاءت إلى النّفسِ لم تفتح لها الباب لِتلج حتى تعلم ، وجه المفارقة، والتّهيئة قبل القدوم أليقُ وأعون على الفعلِ .

وهذا كما ترَى نظرٌ بلاغيّ مَرعِيّ فيه حال النّفس في التّلقّي، ومراعاةُ ما تكونُ عليه في تلقيها ولم تهيّئ لما يلقى إليْها، وما تكونُ عليْه ، وقد قد تحقق لها التّهيّؤ لما سيلقى عليْها.

أوَ ليْس الّذي تراه مِن صنيع السّعد، ومراجعتَه ما كان منه في المطوّل ، وعدوله عنه إنّما هو ضربٌ مِن النّظر البلاغيّ واسترفاد المعرفة بحال النّفس . فهلْ ترَى السّعد قد أقحم على التّفكير البلاغيّ ما ليس منها أو تراه يتورّك عقليًا ، كما قد يتوهّم الّذين يعشقون الثّلبَ والتّثريبَ من قبلِ أن يتبصّروا.

إذا ما كان صنيع السّعد قد أفادك أمرًا في فقه النّظم، فإنّه أفادك منهجًا في النّظر، وفي تأوِيل الأساليب وتعليلها. وذلك هو النّظر العلميّ الّذي تصنعه الألباب.

وهذا من السّعد نظرٌ بلاغيّ في أسلوبِ الخطيبِ ، فهو يتعامل مع أسلوبِ الخطيب تعامله مع بيان بليغ كتبه أديب، فهم يرون لكلام العلماء بلاغة كبلاغة كلام الأدباء في رسائلهم ، والشّعراءِ في قصائدهم ، لا يرون البلاغةَ في ما يسمى بالإبداع الأدبي شعرًا ونثرًا، الكلام البليغ قد يكون أدبًا ، وقد يكونُ علما ، ومتون الفقهاء وغيرهم هي نصوصٌ بليغة بلاغة تطابقُ مقتضى حال العلم الّذي يُتكلم فيه ، وهذا من اتساع علماءِ الشّروح والحواشي. فهذا موضع بيان بلاغة التّقديم في عنوان الباب،وفي تعريف مصطلحي الأسلوب.

والدّرسُ البلاغيّ لأساليب مَعْنِيّ بأمور:

١) معنيٌّ ببيانِ المقتضِي ما جاء عليْه الأسلوب

٢) معنى بالدّال عليه الأسلوب

٣) معنيّ بوجه دلالة الأسلوب على المعنى

٤) معنيٌّ أثره في المعنى

٥) معنيّ بأثر الصورة والمعنى في من يتلقاه.

هذه هي مناطات النّظر البلاغيّ في الأسلوب ، كلّ ذلك في صحبة السّياق ومغزَى الكلام،لأنّ النّظم والسّياق والمغزَى هما ما يستمدّ منهما معنى الكلام ، فليس بالنّظم وحده يفهم الكلام ، فالنّظم وحده قد يكونُ في سياق مفهمًا معنى، يفهم ضدّه في سياق آخر. فالنّظر البلاغيّ نظرٌ سياقيّ .

ومن لا يُحسن البصر بالسّياق لن يفلحَ في فهم ما يدلّ عليه النّظم ، وكذلك مَن لا يبصر مغزَى الكلام ومقصده لن يُحسن فهم ما يدل عليْه النّظم.

يقول السّـعد :

ولمّا قَال : «عطف بعضِ الجمل» دون أن يقول : " عطف كلام على كلامٍ" ليشمل الجملَ الّتي لها محلٌّ من الإعرابِ ،وذلِك لأنهمْ وإن جعلوا الكلامَ والجملة مترادفين لكن الاصطلاح المشهور على أنّ الجملة أعمّ من الكلام، ؛ لأنّ الكلامَ ما تضمّن الإسناد الأصليّ ، وكان مقصودًا لذاتِه ، والجملة ما تضمّن الإسناد الأصلّي سواء كان مقصدًا لذاتِه أوْ لا ، فالمصدر ، والصفاتُ المسندةُ إلى فاعلها ليستْ كلامًا ولا جملةٌ ؛ لأنّ إسنادَها ليس أصليًا . والجملة الواقعةُ خبرًا أو صفةٌ أو حالًا أو شرطًا أو صلةٌ أوْ نحو ذلك جملة ، وليست بكلامٍ ؛لأنّ إسنادَها ليس مقصُودًا لذاتِه.

(التّنوير)

يُبين السّعد وجه إعراب الخطيب بقوله في تعريف الوصل:«عطف بعض الجمل» معرضًا عن الإعراب بقوله عطف بعض الكلام على البعض لما هو قائمٌ من المفارقةِ الاصطلاحية بين «الجملة» و«الكلام» عند بعض أهل العلم

تتمثل المفارقة بينهما أنّ الكلام يُشترط فيه شرطان :

(الأوّل) أنْ يكونَ الإسناد فيه إسنادًا أصليًا كأسناد الفعل الفاعل ، والخبر إلى المبتدإ .

و(الآخر) أن يكون الإسنادُ مقصودًا لذاته بحيثُ يتمّ الكلام به ، ولا يحتاج إلى شيْءٍ منْ خارجه ، كما في قولك :« جاء محمد» فإذا قلت: «إذا جاء محمد» فالإسناد أصليّ أفاد أنّه ليس مقصودًا لذاتِه ، فإنّه لا يصلح السّكون عليْه. فهذا يسمّى اصطلاحًا كلامًا .

والجملةُ ما كان أسناده أصليًا ، ولايشترط أن يكون مقصودًا لذاته أي لا يشترط صحة السّكوت عليه ، وتمام الكلام به ، كما في قولك : " إذا جاء محمد" فالإسناد هنا أصليّ ، بيد أنّه لا يصحّ السّكوتُ عليْه ، وهذا معنى أنّه ليس مقصودًا لذاته. فما لم يكن الإسناد فيه أصليًا كإسناد المصدر " إجتهاد محمد" أو الصّفة المشتقة المسندة إلى فاعليها "حسنه وجهه" ، "حاضرٌ أخوه" فهذا لا يُعد كلامًا ولا جملة

والإسناد في الجملة الواقعة خبرًا : "محمّد يكتُبُ درسه"، أوْ وصفًا أو حالًا أوْ شرطًا أوْ صلة موصول ، كلّ ذلك وإن كان جملة ، فليس بكلام .

وكلامُنا هنا في ما هو جملة ، وإن لم يكن كلامًا يحسن السّكوت عليه، فيكونُ معنا الوصل الّذي بيْن قول الله - سُبْحانَهُ وَتَعالَى - :« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا »(مريَم: ٩٦) عطف « عملوا الصَّالحاتِ» ،من عطف جملة على جملة، وليْس من عطف كلام على كلامٍ .

*****

يقول السعد:

(فإذا أتت جملة بعد جملة ، فالأولى إمّا أن يكون لها محلّ من الإعراب أوْ لا، وعلى الاول) أيْ على تقدير أن يكون للاولى محلّ مِن الإعراب (إن قُصد تشريك الثّانية لها) أي للأولى (في حكمه) أيْ في حكم الإعراب الّذى كان لها مثل كونها خبر مبتدأ أو حالا أو صفة أو نحو ذلك. (عطفت) الثّانية (عليها) ليدلّ العطف على التّشريك المذكور (كالمفرد) فإنّه إذا قصد تشريكه لمفردٍ قبله فِي حكم إعرابه من كونه فاعلًا أوْ مفعولًا أوْ غير ذلك يَجبُ عطفه عليه

والجملةُ لا يكون لها محلٌ من الإعرابِ إلا وهي واقعةٌ موقع المفرد، فيكون حكمها حكمَ المفرد

وإذا كان كذلك (فشرط كونه) أيْ كون عطف الثّانية على الأولى (مقبولا بـ«الواو») ونحوه ان يكون بينهما) أي بيْن الجملة الأولى

والثّانية (جهة جامعة نحو "زيد يكتب ويشعر") لما بيْن الكتابة والشّعر مِن التّناسب (أو يعطى ويمنع) لِما بيْن الإعطاء والمنع من التّضادّ، بخلاف نحو "زيد يكتب ويمنع" أو "يَشْعِرُ، ويُعطِي" ، وذلك لأنّ هذا كعطف المفرد على المفردِ ، وشرطُ كون عطف المُفرد على المفردِ بـ«الواو» مقبولا أن يكون بيْنهما جهةٌ جامعةٌ نحو «زيد كاتبٌ وشاعرٌ» ، بخلاف «زيدٌ كاتبٌ ومعطٍ» .

التّنْوير:

استهلّ السعد بيان أحوال الجمل متعاقبة فصلًا ووصلًا، فنظر ، فرأى أنَّ إيراد جملةٍ عقيب جملة إمّا أن تكون الأولى لها محلٌ من الأعرابِ أيْ واقعة موقعًا الشّأنُ أن يقع فيه مفردٌ ، وهي سبعُ جمل فصّل النّحاة بيانها، وموقع كلّ وإما ألا يكون لها محلّ من الإعراب ([1])

([1]) راجع ما جاء به ابن هشام الأنصاري في كتابه مغني اللبيب وفي ما له محلّ من الإعراب وما لا محل له من الإعراب.

فإن كان لها محل، أو كان لها قيدٌ أو كانت صلة موصولٍ وكان هنالك قصدٌ إلى إشراك الثَّانية في هذا الحكم الإعرابيّ أو ذلك القيد أو في أن تكون مثلها صلة للموصول ، فحقُّ الثانية أن تعطف على الإولى لتشاركها في حكمها الإعرابيّ أو قيدها أو في الصلة .

«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(يونس:٥٦)

ذلك أنها لما كان لها محل من الإعراب كانت كالمفرد أريد إشراك التَّالي له في حكمه الإعرابيّ ، وقصد هذا التَّشريك يوجبُ العطف بعاطفٍ ينبئُ عن قصد التشريك، فأداة العطف أداة إنباء بقصد التَّشريك.

ولدينا شرطان لعطف جملةٍ على جملة لها محلٌّ من الإعراب

الشرط الأول: أن يُقصد إشراك الثانية للأولى في هذا الحكم الإعرابيّ

والآخر :أن يكون بين الجملتين جامع إذا ما كان العاطفُ هو «الواو».

وهذا الشرط يؤخذ من قوله:«وشرطُ كون عطف المُفرد على المفردِ بـ«الواو» مقبولا أن يكون بينهما جهةٌ جامعةٌ» قوله «بالواو» أمّا أن يكون على سبيل التخصيص الحصريّ : «تخصيص الثبوت» فيكون العطف بغيرها لا يشترط فيها الجامع ، وأمّا أن يكون قوله" «بالواو» من قبيل التَّخصيص الذكري أي «التَّخصيص بالإثبات» فهو لا يُفيد نفي الحكم عن غير «الواو» فيكون الشرط قائمًا مع أيّ عاطف آخر.

والّذي إليْه أذهب أنّ العطف بغير «الواو» في اشتراط الجامع بيْن المتعاطفين كالعطف بـ«الواو» فهما عنديِ سواءٌ . ذلك أنّ الفارقَ بين «الواو»وغيرها من أدوات العطف ، ليس في هذا الفارق في معنى كل أداة ، فليس مِن الحسن بلاغةً أن تقول : "محمّد يزور صاحبه ، ثمّ اشترى خالدٌ مسْكنا . فمثل هذا لا يكون في بيان أولي الألباب.

إذا لم تكن هنالك جهة جامعة فلا يصح العطف ، بأي عاطف فلو قلت : "محمدٌ يتكلم العربية و يحب الشتاء . أوْ محمدٌ يتكلّم العربيّة فيحبّ الشّتاء ، أو محمدٌ يتكلّم العربيّة ، ثُمّ يحبّ الشتاء " لمْ يَستقم لك ، فليْس بين الفعلين قُرْبَى وإنْ كان المسند إليْه واحدًا .

والجامعُ المشترط هنا لابدّ أن يكونَ خاصًا، وليس عامًّا . فالجامع بيْن المخلوقات لا يصلح في هذا الباب .

وهم في العطف على جملة لها محل من الإعراب لايشترطون أن تتفق الجملتان في النسبة خبرا وإنشاء في المعنى، فيصحّ عندهم عطف جملة إنشائية معنى على أخرى خبرية معنى، فالاتحاد في النسبة ، لا يشترط عندهم حين تكون الجملة المعطوف عليْها(الأولى) لها محلّ من الإعرابِ سواء كان هذا في المحكي أوالحكاية.

.....

(تذييل)

أوّلًا : علينا أن نفرق في هذا الباب بيْن« الواو» العاطفة، و«الواو» التي تكونُ لغيْر العطفِ كواو القسم، وواو المعية،وواو الاعتراض، و«واو التّذييل» ،و«واو الحال» ، فالقصدُ هنا إلى «الواو» العاطفة. فليست كل واو هي محل عناية في هذا الباب ،وحقّ على من قام لمدارسة هذا الباب في أسفارِ البلاغيين أن يكون قد تضلع بمقالات النحاة في باب العطف وأدواتِه ،وفي معاني الحروف .

وابن هشام في المغني يقول إن «انتهى مجموع ما ذكر من أقسامها الى خمسة عشر حتى يحمي عقله من أن يتشابه عليْه شيْءٌ من ذلك ، وما توقّف عليه الوفاء بالواجب كان الوفاءُ به واجبًا.

ثانيًا: البلاغيُّون في أسفارهم في «باب الفصل والوصل» معنيُّون بما كان الناسق فيه هو «الواو» دون غيره من حروف النّسق الأخرى ، وهذا لا يعني أنّهم لا يرون في العطف بغيرِ «الواو» معنى غير جديرٍ بالعناية، كلاّ

اختصاص «الواو» بالعناية في هذا الباب من أنّه النّاسق الّذي لا كون إلّا لمطلق الجمع بين المتعاطفين في أمرٍ ، فهي خالصةٌ لذلك، وكلّ أداةٍ خلصتْ لمعنى فدلالتها عليْه هي الأعلى والأمكن، فما يدلُّ على شيْءٍ واحدٍ يتفرّغ له ،وهو فيه أمكن ممّا يدل عليه وعلى غيره معه ، كالفاء هي تدل على الجمع بين المتعاطفين،وعلى التعقيب أيضا

ولذلك إذا أرادوا أن يمكّنوا لدلالة شيْءٍ على واحد ممّا يدل عليه، جردوه من المعاني الأخر ، وجعلوه لذلك المعنى ، كما تراه في صيغ المفاعلة، حين يريدون الدّلالة على قوة الفعل ، فإنّهم يجردونه من الدلالة على المفاعلة بيْن طرفين، وكذلك صيغةُ «استفعل» قد يجردونها من الدّلالة على معنى الطلب، لتفرغ للدلالة على الحدث ، فتكون دلالته عليْه أقوى. وكذلك صيغة «اسم التفضّل» قد تجرد من ذلك ، وتتفرغ للدلالة على تمكن الصفة في الموصوف.

ولما كان باب «الفصل والوصل» منظورًا فيه إلى ما هو الألطف إدراكًا صرف البلاغيون عنايتهم ببعضِ الصور، كالعطف على ما له محلّ من الإعراب، لا لأنه خلاء من المعاني الثانوية، بل لأن إدراك الحكمة من العطف قريبٌ لا يتفاضلُ فيه الناظرون، وكذلك العطفُ بين المفردات ، والعطف بغيرِ «الواو».

يقول عبد القاهر في«الدلائل»(الفقرة:٢٥٠) :« واعلمْ أنه إنما يَعرِضُ الإشكالُ في "الواو" دونَ غيرِها مِنْ حروفِ العطفِ، وذاك لأن تلكَ تفيدُ مع الإشراكِ معانيَ، مثْلَ أنَّ "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و "ثم" توجبه مَع تراخٍ، و "أوْ" تردّدُ الفعلَ بينَ شيئين وتجعلُهُ لأحدِهما لا بِعَيْنِه، فإذا عطفتَ بواحدة منها الجملةَ على الجملةِ، ظهرتِ الفائدةُ، فإذا قلت: "أعطاني فشكرته"، ظهرَ بالفاءِ أنَّ الشكرَ كانَ مُعقَباً على العطاءِ ومسبَّباً عنه وإذا قلتَ: "خرجتُ ثم خرجَ زيدٌ"، أفادتْ "ثم" أن خروجَه كان بَعْدَ خروجِك، وأن مُهْلَةً وقعتْ بينهما وإذا قلتَ: "يعطيكَ أو يكسوكَ"، دلّتْ "أو" على أنه يفعلُ واحداً منهما لا بِعَيْنِه.

وليس "للواو" معنى سوى الإشراكِ في الحكمِ الذي يقتضيهِ الإعرابُ الذي أتبعتَ فيه الثانيَ الأولَ. فإذا قلتَ: "جاءني زيد وعمرو" لم تفد بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبتَّه لزيدٍ، والجمْع بينَه وبينَه، ولا يُتصوَّرُ إشراكٌ بينَ شيئين حتَّى يكونَ هناك معنى يقعُ ذلك الإشراكُ فيه. وإذا كانَ ذلك كذلكَ، ولم يكن مَعَنا في قولنا: "زيد قائم وعمرو قاعدٌ" معنى تزعمُ أن "الواو" أشركتْ بَينَ هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسئلة. »(أهـ)

ولهذا كان لغير« الواو» في بيان الوحي قرآنا وسنة، وفي بيان الإبداع البشري العالي من الدقائق ما لا سبيل إلى الرّغبة عنه. فإنت إن شئتَ أن تتبصر مواقع« الفاء» أو «ثم» في شعر أيِّ شاعرٍ في القرون الأُول رأيت في ذلك ما يدعوك إلى مزيد من الاجتهاد تبصرًا وتدبرًا، فكيف إذا ما كان ذلك في بيان الوحي. تبصر قول الله تعالى:

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)

« قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)(عبس)

إنك إن سعيت فتيًا رأيت أنك بحاجة إلى مزيد من التّبصر والتدبر ،وأن الأمر أكبر من ملاحظة التعقيب والتراخي ([1]).

....

يقول السعد:

> وقوله «ونحوه» الظاهر أنّه أراد به نحو« الواو» من حروف العطفِ الدالة على التشريك كـ«الفاء» و«ثم» و«حتى»؛ وهذا فاسدٌ ، لأنّ هذا الحكم مختص بالواو لأنَّ لكلٍّ مِن «الفاء»، و«ثم»، و«حتّى» ، معنى إذا وجد كان العطفُ مقبولا سواء وجد بين المعطوف والمعطوف عليْهِ جهةٌ جامعةٌ أوْ لا ، نحو : "زيد يكتبُ ، فيعطي، أو ثمّ يُعطي ، إذا كان يصدر منه الإعطاءُ بعد الكتابةِ ،بخلاف «الواو» فإنّه ليس له هذا المعنى ، فلا بدَّ من جامعٍ .

(التّنوير)

السعدُ ينتقدُ قول الخطيب:« فشرطُ كونه مقبولا بالواو ونحوه » فيستظهر أنّ مراد الخطيب بقوله «أو نحوه» ما كان من حروفِ العطفِ دالا على التّشريك كـ«الفاء» و«ثم» و«حتّى». فهذه الأحرفُ فيها معنى العطفِ وزياده، فهي نحو « الواو» في الدّلالة على التّشريك إلا أنّ « الواو» كانت خالصة للتشريك، فإذا ما أريد « التّشريك » وحده كانت هي الأولى بالإعرابِ بها ، فإنْ أعرب بغيرها ممّا فيه معنى التّشريك كان في عرف البلاغيين غير حميد، لإيهامه أنك أعربت به لقصد غير التّشريك.

ونحن في سلوكنا نفعلُ ذلك إذا كنّا نريد شراء شيئًا معنينا من متجرٍ ، ولا نريد غيرَه ، وكان أمامنا متجران أحدهما متخصّصٌ في بيع ما نريد، والأخر يتاجر فيه وفي غيره، فإنّا نعمد إلى المتجر المتخصّص في ذلك الّذي نريد ، كذلك إذا أردت «التّشريك » وحده، فحقٌّ أن تعمد إلى «الواو» لا إلى «الفاء» أو« ثُمّ»

ولا يحسُن أنْ تعمَد إلى غير «الواو» من عروف العطفِ إلّا إذا كنت تريدُ التّشريك ومعنى آخر .

وهنا يعقبُ السّعد على قول «الخطيب» :« وَنحوه»بأنّ«هذا فاسدٌ » أيْ فاسدٌ ذكره في هذا السياقِ .

وعلّل الحكم بفساد ذكر قوله «ونحوه» بأن اشتراط الجامع بيْن المتعطفين إنما هو شرطٌ خاصٌ بالعطف بالواو دون غيرها من أدوات العطف.

وهذا يعني أنّ قوله هنا« ونحوه» جاء فساد ذكره من أنّه ذُكر في سياق اشتراط الجامع، لا أن نحو «الواو» لا يكون مقبولًا، لأن هذا لا يقول به عاقلٌ ، فإنّ لـ«الفاء؛ و«ثمّ» وكل عاطِف مقامًا لا يصلح أن يقوم غيره فِيه. ففساد ذكرة « نحوه» مخصوص بسياق اشتراط الجامع

وهذا يعني أنّ السّعد لا يرَى اشتراط الجامع بيْن متعاطفين بغيرِ « الواو» المتجردة للإفادة « الجمع والتّشريك»

ولهذا كان عنده العطف بـ«الفاءِ» و«ثُمّ» و«حتّى» مقبولًا وإن لم يكن جامعٌ بيْن المتعاطفين بأي منهما، فلا حرج أن تقول : "زيد يكتبُ ، فيعطي، أو ثمّ يُعطي، إذا كان يصدر منه الإعطاءُ بعد الكتابةِ ، بخلاف «الواو» فإنّه ليس له هذا المعنى ، فلا بدَّ من جامعٍ .

---

[1] (فضل الله - سبحانه وبحمده -، علينا فأجرى إلينا على يد أخي أ. محمد أمين الخضري رحمه الله تعالى، فأخرج إليا سفره المعنى «الفاء وثم ومواقعهما في الذكر الحكيم» ومن بعد أن أخرج سفره الفريد «الواو ومواقعها في الذكر الحكيم» ولا تكاد طالب علم بكتاب الله - سبحانه وتعالى - هو مستغنٍ عن أن يخادن هذين السفرين فالحمد لله تعالى على هذا ، والحمد لله أن اختص الصديق الأمين بهذه العطية.

ما كان من حكم السعد على قول الخطيب« ونحوه» بأنه فاسدٌ فيه نظرٌ.

كان الأولى بالسعد أن يقول إنّ قول الخطيب« ونحوه» يفيدُ أنَّ الخطيبَ يذهبُ بهذا إلى اشتراطِ الجامع بيْن المتعاطفيْن أيًا كان العاطف « الواو» أو نحوه ، ويكون هذا مذهبًا للخطيب ، ثم من بعد ذلك يُبين السّعد عن مذهبه ،ورده ما يذهب إلي الخطيب، لا أن يحكم بفساد ذكر « ونحوه»

وعلى هذا يكون لدينا مذهبان

الأوّل اشتراطُ الجامعِ بيْن المتعاطفيْن أيًا كان العاطِف « الواو» أو غيره، وهذا ما يفهم من عبارةِ الخطيب.

الأخر : اشتراطُ الجامعِ بيْن المتعاطفيْن خاصّ بما كان العطف بـ« الواو» . أما غيرها، فلا يشترط، وهذا مذهبُ السعد.

والذي هو أليق - عندي - وجوبُ اشتراط الجامع بين المتعاطفين أيًا كانا مفردين أو جملتين وما فوقهما، وسواء كان العاطف «الواو» أو غيره من أدواتَ العطف ، فليس حسنًا أن تقول: خالدٌ يزور المريض فيشربُ اللبن أوْ ثم يشتري كتابًا ، فمثلُ هذا لا يكون من أولي الألباب.

....

ولما كان شرطًا أن يكون جامعٌ خاصّ بيْن المتعاطفين عيب على أبي تمامٍ بعض ما جاء به . يقول السّعد:

(ولهذا عيب عيب على ابى تمام، قوله:
لا والذى هو عالم ان النوى ▪▪▪ صبر وان ابا الحسين كريم)
إذ لا مناسبة بين كرم ابى الحسين ومرارة النوى. سوَاءٌ كان نواه أو نوَى غيرَه ، فهذا العطف غير مقبول سواءٌ جُعل عطفَ مفردٍ على مفرد ، كما هو الظّاهرُ أوْ عطف جملةٍ على جملةٍ باعتبار وقوعِه موقع مفعولي العلمِ ، لأنَّ وجودَ الجامعِ شرْطٌ فيهما جميعًا.
وقوله " لا " نفى لما ادَّعته الحبيبةُ عليه مِن اندراس هواه ، يدلُّ عليْهِ البيت السّابق ، وهو قوله
زَعمتْ هواكَ عفا الغداةَ كما عفا ▪ مِنْها طِلالٌ باللّوَى ورُسُومُ
فاعل "زَعمتْ" ضميرُ الحبيةِ ،والخطابُ في "هواكِ" للنفس،وجوابُ القسَمِ البيْتُ بعدَه،وهو قوله:
مازُلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ ولاغَدَتْ ▪ نفسي على ألفِ سواكَ تحومُ » (أهـ)

السّعدُ والخطيبُ ومَن كان مثلهما تابعان لما جاء عَن عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» يقول الإمام:

« إنْ جِئتَ ، فعطفتَ على الأوَّل شيئاً ليس منه بسببٍ ، ولا هُوَ ممَّا يُذْكَرُ بذكره ، ويتَّصِلُ حديثُه بحديثِه لم يستقم . فلو قُلتَ : "خرجتُ اليومَ من داري" . ثم قلتَ : "وأحسنُ الَّذِي يقولُ بيتَ كذا" . قلتَ ما يُضحَكُ منه .

ومِن هاهُنا عابوا أبا تمامٍ في قوله :

لا والَّذِي هُوَ عالِمٌ أنَّ النَّوَى ▪ صَبِرٌ ، وأنَّ أبا الحُسَيْنِ كريمُ

وذلك لأنّه لا مناسبةَ بينَ كَرَمِ أبي الحسين ومرارةِ النَّوى ، ولا تعلُّقَ لأحدِهما بالآخرِ ، وليس يقتضِي الحديثُ بهذا الحديثِ بذاك»(أهـ)

يذهَبُ السّعدُ إلى أن مناطَ العيبِ في بيتِ أبي تمامٍ عطفُه الإخبارَ بأنَّ المَمدوح أبا الحسيْن كريمٌ على الإخبار بأنَّ النَّوى صَبِرٌ ، وجعلهما معًا في حيِّز علم الله تعالى، فذلك جامعٌ عامٌ إنْ أُخِذ به لم يكنْ شيْءٌ في العالمين إلّا وصَحّ عطفُه على شيْءٍ في العالمين، وهذا لا يقولُ به عاقلٌ قطّ. فمقتضى العقلِ الفِطريّ أن يكونَ بيْنَ المُتعاطفَيْن جامعٌ خاصّ وهنا تتفاوتُ مستوياتُ الخُصوصيّةِ ممّا يجعلُ ذلك مناطَ تفاضلٍ ، وكلّ ما كان مناطَ تفاضلٍ بيْن المُتكلِمين كانت حاجتُه إلى مَزيدٍ من التّبصّر والتّربّص والتّفرّس جدّ قويّةٍ .

وليْس العقلُ البلاغيُّ عامّةً ، والعربيّ خاصّةً إلّا فعولًا فيما يكوْنُ فيه التّفاضلُ بيْن المتكلمين قويًا متنوعًا . هُو عقلٌ حريصٌ على أن يُبرزَ لك خصوصيتَك الّتي فضّلتَ بها ؛ ليَحمِلَك على أن تَعرفَ تفضلَ اللهِ تعالى عليْك ، فتُقبل عليْه تعالَى مُحبًا حامدًا شاكرًا متأدبًا ، لا تملك إذا ما قال لك : افعل ولاتفعل إلّا أن تقولها بكل ذرةٍ فيك صادقًا : سَمِعْنا وَأطعْنا غُفرانك ربّنا وإليك المصيرُ.

مِن هنا تُدرك الباعثَ للسعد ومعه ومَن قبلَه مِن أهلِ العِلم على مَعابة عطفِ أبي تمامٍ الإعلامَ بكرم أبي الحسيْن علَى الإنباءِ بمرارةِ الفِراق ، فليْستْ مناسبةٌ خاصّةٌ بيْنَ كَرَمِ أبي الحُسين ومرارةِ النّوَى ، ولا تعلُّقَ لأحدِهما بالآخرِ ، وليْس يقتضِي الحديثُ بهذا الحَديثِ بذلك، كما يقُول عبدُ القاهرِ

وقولُ السّعد « سواء كانَ نَواه أوْ نَوَى غيره" يريدُ به سواء كان هذا النّوَى الّذِي وصفَه بأنّه صَبِرٌ هو نواهُ هُو وفراقه أو نَوَى غيْرِه وفراقُه .

والسّعدُ في « المُختصر» حذف هذه العبارة ، كأنّه استشعر أنّه لا فائدةَ مِن ذكرها، فهو فيه يحرصُ على تجريدِه مِن العِبارات الّتِي لا فائدة مِن التّصريح بذكرها ، لِتحقّق إدراكها بغيرِ تصريحٍ بذكرٍ، وكأنّه كتب "المطوّل" لمن كان في فاتحة الطّلب، وجاءَ بـ"المختصر"لمن اقتدرعلى أن يمتطي صهوةَ الجِيادِ .

ثُمّ يقرّر السّعدُ في أنّ هذا العطفَ الّذِي كان من أبي تمام إنّما هو غيرُ مقبولٍ سواء كان المتعاطفان مِن قبيلِ عطفِ المُفردِ على المُفرد نظرًا إلى تَأويل "أنّ" مع اسمها وخبرها في تأويلِ مفردٍ . والمعنى حينئذٍ : والّذِي هو عالمٌ مرارةَ النّوى وكرم أبي الحسيْن ، أوْ كان المتعاطفان مِن قبيلِ عطفِ جملةٍ على جملةٍ باعتبارِ وقوعِه مَوقعَ مفعُولي العلم«عالمٌ» أيْ هُو عطفُ جملةٍ على جملة باعتبار الأصل

وهُو يعلّل عدم القبولِ على الوجهين بأنّ « وجودَ الجامعِ شرطٌ فيهما جميعًا» أيْ فِي العَطف بـ« الواو» فأنت عالمٌ أنّ السّعد لا يقولُ بوجوبِ الجامع حين يكونُ العطفُ بغيرِ « الواو» فقد سبق أن سمعته يقول :« هذا الحكم ــ أيْ اشتراطُ الجامعِ ـ مختصٌ بـ«الواو» ؛ لأنّ لكلٍّ مِن «الفاء»، و«ثمّ»، و«حتّى» ، معنى إذا وُجِد كان العطفُ مقبولًا سواءٌ وُجِد بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليْه جهةٌ جامعةٌ أوْ لا»

وقد سبق أن بيّنت لك أنّ الّذِي أذهب إليْه إنّما هُو وجوبُ تحقّقِ الجامعِ الخاصّ بيْن المتعاطفَيْن أيًا كان نوعُ العاطفِ واوًا أوْ غيْرَهُ ، وأيًا كان نوعُ المتعاطفَيْن، فوجودُ الجامعِ الخاصّ شرطٌ عندي أيًا كانت درجة ظهوره أو

خفائِه ، وكلّما كان الجامِع خفيًا كان أطرف أيْ كان أكثرَ تجدُّد عطاءٍ ، وكلّما كان الجامِع أظهر كان أقربَ إدركًا، وأقوَى ، وفرْقٌ بيْن ما كان أقوى ، ومَا كان ألطفَ .

العقلُ البلاغيّ العربيّ ما كان ألطف وأطرف هو عندَه مقدمٌ على ما كان أقرب . هُوعقلٌ رغوبٌ عن أن يطعمَ ما كان على طرْف الثُّمام، تَنالُه كلُّ يدٍ ، فما لا يَرُدُّ يدَ لامِسٍ لا يَقتاتُه العقلُ البلاغيّ العربيّ ؛ إنّه عقلٌ نبيلٌ استَقى بمعاني الهدَى الإحسانيّة فِي بيان الوَحي وهي جدّ لطيفةٍ وطريفة ومَن استقى بماء« النيل» يومَ أن كان نيلًا يَحميه أشرافُ العبادِ عاف ماءَ العيونِ. احذر أن تطعم عقلك ما يطعم الدّهماء .

ومن بعدِ أن أبان السّعد عن الباعثِ على ردّ صنيع أبي تمامٍ في هذا البيْت عمد إلى بيان ما تسلط عليْه النفي في«لا» في أول البيت: لا ، والذي هو عالمٌ ... » فهدَى إلى أن«لا» نافيةٌ لِما أدّعت الْحبيبةُ عليْه من اندراسِ هواه، على ما تراه في قوله قبل هذا البيت

زَعمتْ هواكَ عفا الغداةَ ، كما عفا ▪ مِنها طِلالٌ باللّوَى ورُسُومُ

فالمنفي بـ«لا» إنّما هو مزعومُ حبيبته وادعاؤها عَليْهِ ، وشأن الحبيبة تهييجًا للهوى في قلب مَن تهوَى أن تَزعُم عليْه أمورًا، وتَدّعي وهي العليمُ بأنّ ما أدّعتْ ليس بحقٍ ، وما فعلتْ إلا لتقيم منْ تهوَى مقام المدافع المستَجدِي غفرانًا، وأهلُ الهوى يعلمون ذلك مِمّ،وبه يستمتعون .

حيْه تزعمُ أنّ هواه الّذِي كان متقدًا قد عفَا، وتبصَّرْ كيف أنّها اصطفتْ هذا الفعلَ المصوّرَ فناءَ هواه ، فالعفو فوق الغفران والكُفران ، وهو إنّما يكون من الله تعالى لمن يحب. « عَفا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذنْتَ لَهم» وحق عليْك لنفسِك أن تستقرئَ المواضع الّتِي جاء الإعرابُ فيها بالفعل «عفا» والفعل«غفر» والفِعل« كفَّر» وتتبصّر المُقتضِي الإعراب بكلٍّ فِي موضِعه، لِتعلمَ ما الّذِي يجعلُك في مقام مَن يجودُ عليْه ربّه - سُبْحانَهُ وَتَعالَى – باسمِه العفوّ .

ويقُولُ السّعدُ :"فاعل "زَعمتْ" ضميرُ الحبيبةِ ،والخطابُ في "هواكِ" للنفس ، وجوابُ القسَمِ البيْتُ بعدَه،وهو قولُه:

مازِلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ ولاغدَتْ ▪ نفسِي على ألفِ سواكَ تحومُ (أهـ)

****

(تعقيب)

أنتَ إذا ما كُنْتَ قد سمعتَ الّذِي قالت العلماء في بيْتِ أبي تمام ،و كنتَ العليم بأنّ الله تعالى قد نهاك أن تقفو ما ليس لَكَ بِه علْمٌ، وكنتَ العليمَ بأنّ أهل الحكمة قالوها : لا يكنْ أحدكمْ إمّعة" فحقّ نفسِك عليك، وهو الأولى بقيوميّتك رعاية وحماية أن تتبصر بيت أبي تمامٍ في سياقِه ، ثم تتربّصْ وتفرّس ،فإن انتهى بِك صنعُك هذا إلى ما قالَ عبدُ القاهر ،والسكاكيّ والخطيبُ والسّعدُ ،وهم الأكابر، فالزمْ ما انتهَت أنتَ إليْه عن تبصّرٍ ، لا عن تقليدٍ واجترارٍ.

يقول أبوتمام في مدحتِه محمد بن الهيثم الشّيباني :

زَعمتْ هواكَ عفا الغداةَ كما عفتْ ▪منْها طُلولٌ باللّوَى ورُسُومُ

لا والذِي هوَ عـالمٌ أنّ النـوى ▪ صَبِرٌ وأنّ أبَا الحُسيْنِ كَرِيمُ

مازِلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ ولاغَدَتْ ▪نفسي على ألفِ سواكَ تَحومُ

لِمُحَمَّدِ بنِ الهَيثَمِ بنِ شُبَانَةٍ ▪ مجدٌ إلى جنبِ السِّماكِ مقيمُ
مَلِكٌ إذا نُسِبَ النَّدَى مِنْ مُلتقًى ▪ طرفيهِ فهوَ أخٌ لـه وحميـمُ
كالليثِ ليثِ الغابِ إلاَّ أنَّ ذا ▪ في الروعِ بسَّامٌ وذاكَ شتيمُ

وحقٌّ لكلِّ شاعرٍ على من قام متلقيًا شعرَه أن يكونَ على ذُكرٍ أوّلًا أنّه إنّما يتلقى بيان شاعرٍ ، وأن يكون بصيرًا باستحقاقاتِ الشِّعرِ جنسًا من أجناسِ البيانِ الإنساني العالي ، وأن يكون بصيرًا بمذهب الشّاعر الذي قام ينفقُ جزءًا من عمره ؛ ليتلقّى بيانه . كلُّ ذلك حقٌ لا مسامحة في شيءٍ منه .

.....

الذين عابوا صنيع أبي تمام إنّما لاحظُوا حظَّ طرفَي العطفِ مِن العلاقةِ الخاصّة ، ولم يلتفتوا إلى حالِ المُتكلّم ، وما يعنيه مِن الجمع بينَهما. ومِن حقِّ البيان على متلقِّيهِ أن ينظرَ إلى حالِ المُتكلم به لعلَّه ينظرُ علاقةً خاصّةً بين المعاني لا يبصرُها غيرُه وهو يُريدُ اللّفتَ إليها ، على نحوِ ما هُو مقررٌ في «بابِ التّشبيه» ، فإنَّ المشبِّه (الشّاعر) قد يُشبِّه شيئًا بشيءٍ لا يترَاءى لكثيرٍ ما بينَهما من علاقةٍ لِلطفها ودقتها ، فكان له من الفراسةِ البيانيّة ما يجعله بها بصيرًا. كذلك يُمكنُ أن يكونَ المتكلّمُ مبصرًا علاقةً خاصَّةً بيْن معنييْن لا يُبصرُ غيرُه سوى العلاقةِ العامّة بينهما وهنا يكونُ من حقِّ الشّاعرِ على مستقبِلِ إبداعِه إحسانُ الظنِّ به ، ولاسيّما إذا ما كان الشّاعرُ فحلاً ، وإذا ما كان ممَن عُرِف عنه نفاذ البصيرة ، وإتقانُ التدسّس في عالم المعاني على نحو ما هو مشهودٌ بِه لأبي تمام . ([1])
لذا نجد بعضَ أهلِ النظرِ يذهبُ إلى أنّ الجامع بيْنهما أمرٌ وهميّ في نفسِ أبي تمام ، وهو ما بيْنهما من التضادّ في الأثرِ النّفسيّ : النّوى صَبِرٌ ، وقد صرّح بذلك ؛ لأنّه ليس محلّ منازعةٍ، وكرمُ أبي الحُسين ذا أثرٍ حسنٍ بالغِ الحُسنِ في نفسِ مَن يقعُ عليْه ، أو يكونُ بيْنهما ما بيْن الدّاءِ ودوائه ، فالنّوى داءٌ علاجُه كَرَمُ أبي الحُسين ، فكلُّ نوًى إلى دياره يبطلُ أثره في لقيا كرمِ أبي الحسين ، ورأسُ كرمِه القربُ من حِماه.
أوْ أنّ أبا تمامٍ لاحظ أنّ كلاً مِن الصّبر وكرم أبي الحسين دواءٌ، فالصَّبِرُ دواء العليلُ وكرم أبي الحسين دواء الفقير([2])
ومِن السّابقين مَن رأى في انتقال أبِي تمامٍ مِن الغَزَلِ إلى المَديح مسلكًا لطيفًا طريفًا . ([3])

([1]) غيرُ قليلٍ مما رمي به شعرُ أبي تمامٍ من نقودٍ مبعثُه التهاون في ملاحظة حالِ أبي تمام وما هو عليه من تكوين نفسي وعقلي ، وماله في عالم الكلمة الشاعرة من تفرّدٍ في التصور والتصوير ، فأريد منه أن يكون" إمعة : "يجري على ما جرى عليه الآخرون، وأن يكفر بنعمة ربه سبحانه وتعالى جدّه ، وما كان لأبي تمامٍ إلا أن يقضي حق شكران نعمة التميز ، وأن يمضي صادحًا بما لم لا تفهم ما يقال ؟!!!
ألقى في وجه نقاده جريرة التقصير في حسن التلقي . كذلك الشعراء هم أمراء البيان، كما قال" الفراهيدي "أصاب الحق

([2]) ينظر في هذا مواهب الفتاح لأبي يعقوب المغربيّ ، وحاشية الدسوقيّ على مختصر السعد في البلاغة [ضمن شروح التلخيص [طبعة مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة . ج 3 ص12 -11 وشرح الفوائد الغياثية لطاشكبرى زاده ط.تركيا 1312 هـ ص 148

([3]) استحسنه أبو عليّ الحاتمي : محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي ت388هـ في حلية المحاضرة قائلاً في فصل منظومٍ له في الموازنة بين الطائيين ، فقال مستطيلاً شأن أبي تمام في الابتداء والتخلص" : ومن أبدع ابتدائاته قوله كامل:
أسقى طلولهم أجشّ هزيم * وغدت عليهم نضرة ونعيم
جادت معاهدهم عهاد سحابة * ما عهدها عند الديار ذميم
ثم تخلص إلى المدح فقال ، وأحسن كل الإحسان:
لا والذي هو عالم أن النوى * صبر وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت * نفسي على إلف سواك تحوم

والّذي هو أعلى عندي أن يُلحظ حالُ الأشياءِ عند المتكلّم ، فمن الأشياءِ ما هو غيرُ متجانسٍ أو متقاربٍ عند كثيرٍ إلا أنّ له من هذا التقاربُ عند شاعرٍ ما ليس عندَه ، وقد يكونان في الواقعِ كذلك غيرُ متقاربين إلا أنَّ الشّاعر بفراستِه الشّاعرة أدرك شيئًا حمله إلى أن يجمع بينهما ؛ لأنّه يريدُ أن يُقيمَه في صدرِ السّامع من القرنِ بينهما ،وبغيرِ هذا القرن لا يتحقق له ما يريد.

في الشعر الأمر عندي مردّه الرّئيس إنّما هو إلى الشّاعر ، وليس إلى الأشياء في وعينا نحن، بل ولا إلى الأشياءِ في عالمِها ، فلو كان الشّاعرُ لا يقُول إلا ما هو مشهودٌ أو موجودٌ غيرُ مشهودٍ لما كان له كبيرُ فضلٍ .

الشاعرُ يخلقُ ممّا هو موجودٌ ما ليس بموجودٍ. ولذا كان أمرُ الشّعرِ قائمًا على الخيال الذي يتفاضلُ فيه الشّعراء ليحقق بصُورِه الشعرية للمتلقين تخيّل ما لا يستطيعون تخيله، فالشّاعر يتخيّل ما ليس بموجودٍ، فيصوره ، فيجعلُ من المتلقين مقتدرين على تخيل ما خلقَه بخياله. (١)

وهنا تتحقق البهجة والإدهاش، وإلاَّ فأيُ بهجةٍ وأيُّ إدهاشٍ إذا كنت تصوّر لِي ما أرى.؟!! (٢)

ثم عاد إلى المدح فقال:

لمحمد بن الهيثم بن شبانة * مجد إلى جنب السماك مقيم

ملك إذا نسب الندى من ملتقى * طرفيه، فهو له أخ وحميم"

وانظر معه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،لضياء الدين ابن الأثير) ت637 هـ (تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، ط :دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة ، ج3 ص. 123

ويقول ابن حجة الحموي في خزانة الأدب "هذا المخلص مقدّم على مخالص البحتري من وجوه :أحدها، التخلّص من النسيب إلى المدح، والثاني حسن الانسجام، والثالث، وهو جل القصد، الوثبة في بيت التخلص من الشطر الأول إلى الشطر الثاني بأسرع اختلاس. وهذا الذي عقد المتأخرون الخناصر عليه وصار لهم فيه اليد الطولى) "خزانة الأدب وغاية الأرب ،لابن حجة الحموي) ت837 هـ (تحقيق : عصام شقيو ، ط: دار ومكتبة الهلال ،بيروت، دار البحار ،بيروت ،الطبعة :الطبعة الأخيرة 2004 م ج1 ص332

وباب التخلص من أدقّ أبوابِ علاقات المعاني ، ومنزله في علم التناسب منزل عليّ وما الفصل والوصل إلا أداةٌ من أدواته ، وهو بابٌ لا يحسنه إبداعا وفهما إلا فنيّ فحلٌ .والدرسُ البلاغي بحاجة إلى مزيدٍ من العناية به في بيان مذاهب الأعيان من الشعراء الأئمة ، ليكون حسنُ فقه ذلك بابًا إلى حُسن فقه إعجازِ القرآنِ الكريم فيه.

(١) يقُول حازم (الأنصاري) ت684 هـ (مبيناً عن حقيقة الشعر وماهيته ووظيفته " الشّعر كلام مُخيَّل موزونٌ ,مختصٌ في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك ,والتئامه من مقدمات مخيّلة ,صادقة كانت أو كاذبة ,لا يشترط فيها ـ بما هي شعر ـ غير التّخييل) "منهاج البلغاء , ص(89/

ويقُول "الشعر كلام موزونٌ مقفًّى من شأنه أن يُحبّب على النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكرّه إليها ما قصد تكريهه ,لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ,ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام ,أو قوة صدقه أو قوة شهرته ,أو بمجموع ذلك .وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب .فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها) "السابق , ص(71 /

ويقُول "والتخييل أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه ,وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها ,أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض ".

)السابق ,ص (89منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم الأنصاري القرطاجني ،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة , ص71 ،(98

وراجع معه كتاب شيخنا :تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني .الطبعة الأولى ,عام1427 هـ ,مكتبة وهبة , القاهرة , ص (71وما بعدها(

وهنا من حازم بالغ البصر بحقيقة الشعر ووظيفته ، وهو إذا ما استحضر في تذوق الشعر ونقده تفسيرا وتقويما كان فيه من البصر باتساع الرؤية الشعرية التي لا سبيل إلى تحققها لغير الشعراء ، فلا يكونُ عدلاً أن يقصر من لا يستطيع أن يرى من هو المقتدر على أن يرى وأن يُحيط .

(الشعراء الفحول يرون في العالمين وحدانية الموجد ـ سُبحانه وتعالى ـ تتراءى في وحدة الموجودات ، أي أنّ بين الخلائق أيًّا كانت أجناسُها وأنواعها وحدة تجمعها ، فهي ذات نسب عريق . وهذه الوحدة القائمة بين الموجودات ليست هي وحدة الوجود عند الغلاة من الفلاسفة والصوفية : وحدة الوجود عند الفلاسفة والصوفية هي وحدة الخلق والخالق ـ تعالى الله عمّا يقُولون علوًّا كبيراً ، كبُرتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم إن يقُولون إلا كذبًا.

ووحدة الوجود الشّعرية) بل والعلمية (هي وحدة الخلق فيما بينهم ، ومن ثم فإن وحدة الخلق دالةٌ على وحدانية الخالق.

(نشر العلامة أ.د أحمد زكي رئيس جامعة القاهرة الأسبق والرئيس الأول والأعظم لتحرير مجلة" العربي "الكويتية في العقد السابع من القرن الميلادي السابق مقالات علمية متتالية في هذا الباب تحت عنوان :وحدة الخلق تدل على وحدة الخالق (ثم جمعها في كتابين جليلين : الأول" مع الله في السماء" والآخر "مع الله في الأرض. "

إنّ بين المخلوقات عند الشعراء نسبا عريقًا، يجعل الفراسة الشاعرة تجمع بين الأشياء التي لا تجتمع في بصر أو بصيرة غير الشعراء.

ولو اننا تجاوزنا التّمسك بمنطقية العلاقة بين المتعاطفين وبمعقوليتها في الكلمة الشاعرة على الأقلّ لكان لنا أن نتحرك قليلا أو كثيرًا نحو استبصار علاقة غير منطقية بين المتعاطفين في بيتِ أبي تمام ، وهو شاعر لا يمسحُ ظاهر الكون والأشياء بيْن رأسِه ، هو شاعرٌ يتفرس بواطن الأشياء ببصيرته النافذة التغورة المحيطة ، يبصر بعين الصقر ما هو غائر بينها من وشائج القربى ، شاعرٌ يبصر في المتضادات والتنافرات مقومات التآخي بله التقاربُ ، فمن يجعل منطقية العلاقة بين الأشياء هي مفتاح الفهم للمعنى الشعريّ عند أبي تمام فقد ظلَم الشعر والشاعر.

وإذا لم يكن المتلقي لشعره من قبيله الفني ، فلن يستطع أن يلمس مفتاحا من مفاتح خزائن شعرأبي تمام .

وهذا قد لفت إليه أبو تمالم فيما يُحكى من قصته مع أبي العميثل إذ قال له: لم لا تقول مَا يفهم ؟ فصكه في وجهه، بقوله : ولم لا تفهم ما يُقال ؟([1])

يهديك بمقالته تلك إلى أن يكون السّامع أهلًا لأن يحسن التلقي عمَّن إليْهِ يستمع، ولا يسارعن بالعتبى على من يقول، بل عليْه أن يسارع بمراجعةِ مهاراته وأدواتِه في التلقّي أوّلًا .

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيْحًا ... وَآفَتهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيْمِ

وَلَكِنْ تَأخُذُ الأَفْهَامُ مِنْهُ ... عَلَى قَدَرِ القَرَائِحِ وَالعُلُوْمِ كأنب بابي تمام يذهبُ إلى أنه وإن تكن مرارة النوى عن المحبوب عامة، أمرٌ كريه ، فإنَّ النوى عن محبوبته خاصة أمرٌ جللٌ لا يطاقُ ،فإن له خصُوصية ، يجعلها ممَّا لا سبيل لأحد من الخلائق أن يعلم حقيقتها غير خالقها – سبحانه وتعالى - ، وتلك مبالغةَ يقتضيها القول الشعريّ ، فمن تكن تلك حال النوى عنها ، أنّى للشاعر أن يمارس شيئًا من ذلك . وهنا تتداعى المعاني تداعِيَ الأشياء المتآخِية في الخصوصيةَ ، هنا تبصر البصيرة الشاعرة أن هنالك أمرًا آخر لا يعلم حقيقته غير خالقه . إنّه كرم أبي الحسين . وكأنّه يريد أن يقُول لها إنّ ثم أمرين في حياته لا يمكنه أن يطيقَ أدنى البعد عنهما : وصلها وكرم أبي الحسين ، هما معا أكسير حياته . فحياته في الجمع بينهما لأنها من جذم واحد .

.....

وممَّا يحسنُ الالتفات إليه مابين المقسم به والمقسم عليْه، فالشأن في شرعة البيان العالي أن يكونَ اصطفاء ما يُعربُ به عن المقسَمِ به ملاحزة المناسبة بينه وبين ما يُقسم عليْه، وهذاما أنت تراه قائمًا في كل ماجاء في القرآن الكريم من أساليب القسم،وقد عُني أهل العلم بذلك كما تراه في كتاب ابن القيم «التبيان في اقسام القرآن» وما تراه في كتاب عبد الحميد الفرهي «الإمعان في أقسام القرآن» غيرهما، ولا تحسِبن أنّ أبا تمام يغيم على مثْله ذلك، فهو البصير بمسالك البيان بالعربيةِ،والبصيرُ بطاقات هذا اللسان وقدارته ، ما جعله يتصفُ فيه تصرف الشّجاع ،ويسلك مسالك غيرمطرّقةٍ ،ولا سيما ما يتعلّقُ بالتحوّل الدلالي المعروف عند البلاغيين بـ«المجاز»

من ثمّ للشعراء الفحول أن يعتنوا بالجوامع التي لا تراها بين الأشياء ، وعليهم أن يعتنوا السبل للمتلقين ليحسنوا البصر بما لم يبصره بأنفسهم ,فليس على الشاعر ألا يجمع إلا بيْن ما ترى بينه جامع ، بل له أن يجمع بين ما تراه فراسته الشاعرة مجموعًا ، ثمّ عليه أن يجتهد في حسن الدلالة على ذلك وتمامها وتوجيه في صُورة هي أبهى وأزين ,و أنقُ وأعجب.

ليس العيب في الشاعر أن يجمع بيْن الأشياء، إنما العيبُ في أن لا يُحسن دلالتنا على ذلك .ليس العيبُ في تصوّره ، بل العيبُ في تصويره .

وكان حريّ بالذين عابوا بيت أبي تمام الأنف أن لا يكون مناط التّعيُّب هو الجمع بين مرارة النّوى، وكرم أبي الحسين، بل في تصويره ذلك وفي دلالتنا عليه

[1] [خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي تحقيق: عصام شقيو ط بيروت 2004 م - دار ومكتبة الهلال-بيروت] - ج 1ص354

أبو تمام أقسم بالله تعالى معربًا عنه بأنه عالمٌ بأمرين:
الأول عظيم مرارة النوى عن محبوبته خاصّة، فذلك من غرائب ما يعلم، فالله تعلى هو المتفرد بعلم حقيقته وقدره ومقداره ، فهو من خواصّة جلّ جلاله،
والآخر: عظيم كرم أبي الحسين، فذلك أمرٌ جليلٌ لا يعلم حقيقته وقدره ومقداره سوى الله تعالى، فتلاقى هذان في اختصاص الله تعالى بالعلم بحقيقةِ كلٍ وقدرِه ومقدارِه
ويأتيك المقسم عليْه :

مازُلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ ولاغَدَتْ ▪ نفسي على ألفٍ سواك تحومُ

ذلك مما لا يعلم حقيقته وقدره ومقدره وصدقه سوى اللهِ - سُبْحانَهُ وَتَعالَى - . فكان هنالك تناسبٌ بين جزئي ما أعرب به عن المقسم بِه عزّ وجلّ من جهة، وتناسب بين المقسم به والمقسم عليْه من جهةٍ أخرى.
ومما هو جدير اللفت إليه الحاجة إلى دراسة اسلوب القسم في الشعر العربي ثم في العصور التّالية، بحيث تتناول دراسة هذا الأسلوب ثلاثة قضايا كلية : الاقتضاء والصّورة والدّلالة، فذلك مشروع علميٌّ جديٌّ بالدراسة الجادة.

....

بيانُ حال الجملة الآتية بعد جملة لها حكم ولم يرد إشراكها في الحكم .

يعمد السعد إلى بيان حال الجملة الآتية بعد جملة لها محل من الإعرابِ ولا يراد إشراك الثانيةَ الأولى في حكمِها، فيقضي بوجوب فصلها، فإذا قلت: "قال محمّدٌ:" إنّ الأميرَ قضى بسجن وزيره" . إن الأمير لايقضي بنفسِه ذلك للقاضي"
جمْلةُ " إنّ الأمير قَضى بسَجن وزيرِه ، مقول قول محمّد في محل نصبٍ، وما بعدها "إنّ الأمير لايقضي بنفسِه ذلك للقاضي" جاءت بعدها،ولا يراد إشراها الأولى في أنها من مقول محمدٍ ، فوجب فصلها عنها، ذلك أنه لو عطفت عليها بالواو لكانتْ الثّانيةُ من مقول محمّدٍ ، وما هي من مقولِه ، بل هي تعقيبٌ منك على مقولِه . فلو عطفت بالواو لأفسدت المعنى. ذلك هو ما يُبينُ عنه السعد في الفقرة التّالية.
يقُول السّعدُ:

(وإلّا) أيْ وإن لم يُقصدْ تشريكُ الثّانيةِ للاولَى فِي حكمِ إعرابها (فُصِلَتْ) الثّانيةُ (عنها) لئلاً يلزم من العطفِ التّشريكُ الّذي ليْس بمقصودٍ (نحو «وإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »(البقرة) لم يُعطف [قولُه تعالى]:« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » على إِنَّا مَعَكُمْ ؛لأنّه ليْس منِ مقولِهم)
يعنِي أنّ قولهم :«إنّا معكم» جملةٌ في محلّ النّصبِ على أنّه مفعول قالوا ، فَلَو عُطفَ [قوْله تعالَى] « اللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِم» عليْها لَزِمَ كونُه مشاركًا لَها فِي كونِهِ مَقولُ "قالوا" وهذا باطلٌ ؛لأنه ليْسَ منْ مقولِ قَولِ المنافقين ،وإنّما قال [أي الخطيب]على« إنّا مَعكُم» دونَ
تشريكه له في كونه مفعول قالوا ،فيلزم ان يكون مقول قول المنافقين وليس كذلك. وانّما قال على «إنّا مَعكُم» دون « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »

لأنّه بيانٌ لـ«إنّا معكم» فحكمه حكمه.(أهـ)

في هذه الفقرة يُبين السعد عن مقتضي عدم عطف قوله تعالى « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »على ما قبله ، فيقرّر أن ما قبله في محلّ نصبِ مقول قول المُنافقين،ولو عطف على مقول قولهم لكان قولُه تعالى « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » من مقول المنافقين ،وهذا ظاهرُ التّناقض بين المعطوف والمعطوف عليه ، ذلك أنّ قوله « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » هو من مقول الله تعالى وليس منْ مقولِ المنافقين ، ولا يعطف كلام متكلّم على كلام متكلم آخر إلا فيما يُعرف بعطف التلقين والّذي معنا ليس من "عطف التّلقين" كالذي في قوله تعالى:« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »(البقرة:١٢٦)

قوله :« ومن كفر» من عطف التلقين، فهو من مقولِ الله تعالى ، وليس من مقول سيدنا إبراهيم عليْهِ الصلاةُ والسلام.

تبيّنت لك أنّ قولَه تعالى « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » لم يعطف على «إنَّا مَعكُم» لئلا يتوهمَ أنّه من مقول المنافقين.

ويلفت السعد إلى وجه قول الخطيب إنه لم يعطف على «إنَّا معكم» دون قوله« إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » وهو الأقرب، والأقرب أولى بأن يعطف عليْه ، بأنّه قال «إنا معكم» لأنه هو المتبوع، وقوله« إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » تابع له، فحكمه حكم ما يتبعه.

وأمر أخر يمكنك أن تلتفت إليْه:

لو قال الخطيبُ عطف على « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» لفهم أن استهزاء الله تعالى بهم من أنّهم قالوا :«إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» ولو لم يقولوها لما استهزأ الله بهم، فأراد الخطيبُ أن يُبين لك أنَّ استهزاء الله بهم مبنيٌّ على أنّ المنافقين قالوا لأخوانهم وشياطينهم اليهود :" إنّا معكم" ، بل هو تعالى يستهزئُ بهم لا عتقادِهم الأخوة والمعية ، وإن لم ينطقوا بذلك. يكفي أن يكون ذلك في قلوبهم، وإن لم يجر على ألسنتهم. فمن والى الكافرين بقلبه ولم ينطق لسانه ، ولم تفعل جوارحه ما يدلُّ على تلك الموالاة ، فأمر جزائه مرتبٌ على ما في قلبه، فاحذر أن يميلَ قلبُك إلى كافرٍ أو فاسقٍ أو مجاهرٍ بمعصيةٍ، أوْ موالٍ لهم، أو أو مستحسن حالهم وإن لم ينطق لسانُك ، ولم تتحرّكْ جوارحك بما يشير إلى موالاتك لكافر أو فاسق أو عاص مجاهر بمعصيته، أو موالٍ لهم .إن الأمر جدّ دقيقٍ وخطير.

يقول الله سبحانه وتعالى :« إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (فاطر: ٣٨)

ويقولُ :« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»(الملك:١٤)

إذا ما تبينَ لك ذلك، فيحسُن بك طالبَ علمٍ سبيلاً لمرضاة ربك أن تتبصّر قول الله تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا

نَّقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)(البقرة)

تبصَّر أوّلا ما فيها من قضايا الفصل والوصل .

تبصَّرْ وجه عدم عطف قوله تعالى:« أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» وقوله تعالى « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ» وقوله تعالى:« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى»

وتبصَّرْ وجه عطف قوله تعالى:« وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» وقوله تعالى:« وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»

فإذا فرغت من حق النظر البلاغي في الآياتِ، فاعمد للوفاءِ بحقّ النَّظر الإيماني فيها .

تبصر ما فيها من قصّ الله تعالى علينا ما كان من المنافقين وعلاقتهم بيهود، وما في ذلك من الهدى لنا والتبصرة.

الله تعالى إنّما يقص علينا نبأ من قبلنا لنعتبر « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف :١١١)

وانظر في من حولك : أتراهم صورة لمن قصّ الله تعالى عليك في الآيات خبرهم ؟

أترى في من حولك من حاله مع بني صهيون في زماننا كمثل حال المنافقين في زمن النبوة مع يهود المدينةِ .

ما تقرأ من الهدى في القرآن أنت تراه عيانا من حولك، كأنك تعيش مع من يقصّ الله تعالى عليك نبأهم.

أنت لست بحاجةٍ على من يفسّر لك الآيات، ما ترى عينك تفسيرٌ وتأويل عمليّ لها، فاقرِ الآياتِ في ضوء واقعك المحيط بك ،وأنت سادر في غفلتك، تأكل وتشربُ وتلهو كأن الأمر لا يعنيك في شيْءٍ . فاعتبروا يا أولي الأبصار .

....

ومن بعد أن فرغ السّعد من هذه المسألة عمد إلى مسألة أخرى . عمد إلى بيان حال الجملة الأولى مقابلة لحال الجملة الأولى في السابقة.

السابقة كان للجملةِ الأولى حكمٌ ،ولا يرادُ إشراكُ الثّانية لها فيه ، فوجب الفصل

والآتية كانت الجملة الأولى ليس لها حكمٌ أعرابيٌّ أوْ قيدٍ معنوي، وقصد ربطُ التاليةِ لها بها بغيرِ حرف «الواو » فوجب ربطُها بها بغيرِ«الواو» ، وإن لمْ يكُن جامع خاصٌّ بيْن الجملتين ، ذلك أنَّ اشتراط الجامع الخاصّ عندهم مخصوصٌ بما إذا كان الرّابطُ هو«الواو» أمّا غيرُ «الواو» مِن حروفِ العطفِ ، فلا يُشترطُ للعطف به أن يكونَ هنالك جامعٌ خاصٌّ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليْهِ .

يقُول السّعد:

(وعلى الثّاني) أيْ على تقدير أن لا يكونَ للأولى محلّ من الإعراب (وإن قصد ربطُها بها) أيْ ربطُ الثّانيةِ بالأولى (على معنى عاطفٍ سِوَى "الواو" عُطِفَت به) أيْ عطفتْ الثّانيةَ على الأولى بذلك العاطف من غير اشتراط شَيْءٍ آخر (نحو "دخل زيدٌ، فخرج عمرٌو" أو "ثُمّ خرجَ عمرو" إذا قُصد التّعقيب أو المهملة) وذلك لأنّ ما سوى «الواو» مِن حروفِ العطفِ يفيدُ مع الاشتراك معانِيَ محصّلةً

يقرّر السّعدُ ما سبق أن أشارَ إليْه مِن أنّ العطفَ بـ«الواو» المُستوجبَ عِنده أن يكونَ بيْن المُتعاطِفيْن بها جامعٌ خاصٌ ، أمّا إنْ كان العَطفُ بِغير «الواو» فلا اشتراطَ ، لِهذا الجامعِ الخاصّ.

والباعثُ له على عدم الاشتراط أنّ هنالك معنًى في العاطف غيرِ «الواو» زائدًا على ما في «الواو» يكون هو المقتضي الإتيانَ بذلك العاطفِ، وهذا يكفي في العطفِ ، وإن لم يكُن ثمّ جامعٌ خاصٌ بيْن المتعاطفيْن بغير «الواو».

فأنت إذا قلت: « دخل زيدٌ وخرج عمرٌو » لم يجز إلّا أن تكونَ هنالك علاقة خاصّة بيْن دخولِ زيدٍ وخروجِ عمرو، سوَى التّقابل بيْن الفعليْن مثل أن يكونَ مخاطَبك بحاجةٍ إذا أعلمتَه ما كان من زيدٍ إلى أنْ يَعلم ما كان من عمرو، فتجمعُ له بيْن الخبرين، مِن أنّه في حاجةٍ إلى العلم بهما معًا لما بيْن زيدٍ وعمرو مِن علاقة عنده.

وهذا يعني أنّ حالَ المخاطبِ هو الّذي اقتضَى الجمعَ عن خبريْهما ، فلو كان المُتكلّم، أوالمخاطب إذا أخبرَ أوْ أعلمَ بما كان مِن "زَيْد" ، لا يتواردُ على قلبِهِ أن يعلمَ ما كان من عمرو، فليس مقتضٍ حينذاك للعطف بـ«الواو»،ويكون إتيانُك العطفَ بـ«الواو» غير حميد .

وعلى هذا تدركُ أن قولنا: « دخل زيدٌ وخرج عمرو » يكون بليغًا مِن وجهٍ وغيرَ بليغٍ منْ آخر، وذلك لأمر خارجٍ عن "النّظم".

هو لأمرٍ متعلّق بسياق الحالِ : حالِ المتكلّمِ أوْ حالِ المخاطَب أوْ حالِهما معًا ، فاعتبارُ سياقِ الحالِ في مثلِ هذا النّظمِ للحكمِ عليْه فريضةٌ .

فإن قلتَ: «دخل زيدٌ، فخرجَ عمرو» كان مقبولًا، وإن لم يكن هنالك جامعٌ خاصٌ بيْن الجملتين، فالعطفُ هنا ليس القصدُ فيه منحصرًا في إرادة الجمع بيْن الخبرَيْن، بل القصدُ إلى إفادة التّعقيبِ، وذلك متحققٌ بـ"الفاء". ولولا ذلك لكانت« الواو» أولى لأنها أم الباب ،والمتخصّصة لإفادة « مطلق الجمع » ، فقولُك : «دخل زيدٌ،فخرجَ عمرو» هو مقبولٌ عند السّعد ومَن معه. أيًا كان سياقُ الحال.

وهذا عندي فيه نظرٌ

ذلك أنّ ملاحظةَ المعنى الزّائد الّذي في «الفاء» دون المعنى الّذي يلتقي فيه «الفاء» مع«الواو» تجريدٌ لا مقتضِيَ له، فالعطف قائمٌ سواء عطفت بـ«الفاءِ» أوْ «الواو»، والجامعُ الْخاصُ إنّما يقتضِيه الجمعُ والإشراك، وليس المعنى الزّائد في« الفاء» على ما في« الواو» فالّذي يقولُ: "ذهب زيدٌ فجاء عمرو " إنّما يعنيه الأمران معًا:

الأوّل: الجمع بيْن حال الرّجلين معًا

والآخر: الإخبار بأن مجيئَ عمرو كان عقب ذهاب عمرو دون مهلةٍ . وليس الإخبار بأحدهما، وإذا ما كان معنى الجمعُ والإشراك يُمكن أن قد ينفردُ عَن التّعقيب وشبهه ، كما في« الواو»، فإنّ التّعقيبَ لا ينفردُ عن الجمع والإشراكِ بتّةً في "الفاء" .

عندي غير قويم أن تقول: « جلس زيدٌ، ففهمتُ المسألةَ» : لاعلاقةَ بيْن فهمك المسألة وجلوس زيدٍ.

أذهبُ إلى وجوبِ اشتراطُ الجامع بيْن المتعاطفين سواء كان العاطفُ "الواو" أوْ غيرَه، وسواءٌ كان المتعاطفان مفردين أو جملتين الأولى لها محلٌ من الإعراب أو ليس لها محلٌ من الإعرابِ ،فحيثُ وُجِد عاطفٌ وجبَ عندي أن يكونَ بيْن المتعاطفين جامعٌ خاصٌ ولو كانَ بالغَ الخفاءِ ، ولو كان في مخيّلة المتكلّم أوْ وهمِه ..

●●●●●●●●●●●●●●

تخليص السَّعد المعاني الزّائد لأدوات العطف عدا الواو:

من بعد أن يفرغ السَّعد من بيان مذهبه في عدم اشتراط الجامع الخاص إذا أريد بغير "الواو" إشراك الثّانية الأولى الّتي لاحكم لها بغير "الواو"، عمد إلى تفصيل المعاني الزّائدة المفادة بأدواتِ العطفِ غير " الواو"
وهو في هذا معتمدٌ على ما جاء في كتب النحاة،ولاسيما شرح الرضي للكافية .

وهو إذا ما كانَ قد بسط ذلك في "المطول" فإنّه في مختصره طوَى ذلك، وكأنّه شعر أنَّ المقام يكفيه الإحالة على أسفار النُّحاة ، وهذا هو الحقُّ، فالمعاني الزّائدة الّتي تدلّ عليها أدواتُ العطف غير"الواو" محلُّ القول فيها أسفار النّحاة، وطالبُ العلم عليْه أن يستقي تلك المعاني من تلك الأسفار، لذا أحيلك عليْها . منصرفًا إلى ما هو أوْلَى .(المطول(ص ٢٤٨س٢ ن أسفل – ٢٥٩ س٧ ط تركيا (١٣٣٠هـ)(ص٤٣٦- ٤٣٨- تح هنداوي)(

****

ومن بعد أن يفصّل السّعد ما يكون لكلّ حرف من حروف العطف سوى الواو من معنى زائدٍ على مطلقِ الجمع الّذي تكون له "الواو" يهديك إلى أنّ فيعطفك بغيرِ الواو يتبين لك من العاطف المقصد من الكلامِ سواء كان المعطوف عليْه بما سوى "الواو" له حكمٌ إعرابيٌ أوغيره أو ليسَ له ذلك، أما إن كان العاطفُ "الواو" وكان المعطوفُ عليْهِ ليْسَ له حكمٌ إعرابيَ أو قيد معنويّ فإنَّ ظهور الفائدة من العطفِ يحتاج إلى تبصرٍ وتدبُّر ، ولذا كان مناطَ عناية البلاغيّ.

يقول:

إذا عرف هذا فنقولُ : إذا عطفت بواحدٍ من هذه الحروف جملة على جملةٍ ظهرتْ الفائدة فيه ،وهي حصُول معاني هذه الروف ،بخلاف «الواو» فإنه لا يفيدُ سوى مجرد الاشراك
وهذا إنّما يظهرُ فيما له حكمٌ إعرابيّ وعند انتفائه يثبتُ الإشكال.

يُشير السّعد فِي هذه إلى أنّ العطف بغير«الواو» يظهر لك القَصدُ من العطف عند استحضارك المعنى الزائد الذي يفيده حرف العطف سوى "الواو" فإذا قيل :"جاء محمدٌ فغادر خالد" ، فأنت تدركُ القصد من العطف ،وأن ذلك أريد به الإخبار بوقوع مغادرة خالد عقب مجيءِ محمدٍ دون مهلة، سواء كان هنالك جامع أو لَم يكن ، وسواءٌ كانت الأولى لها محلّ من الإعرابِ أو لم يكن لها.

إمّا إن قيل: "جاء محمد وغادر خالدٌ" فلا يدرك المرادُ إلّا إذا كان هنالك جامعٌ خاصٌّ بيْن محمّد وخالدٍ ، فمَن علم خبر محمّد عناه أن يعرفَ خبرَ خالدٍ.

******

ومِن بعد ذلِك يعرِضُ السعد لتساؤل قد يقوم في عقل سامع فيصورُه ثُمّ يجيبُ عنه .
يقول السعدُ

فإن قلتَ:«الواو » أيضًا يفيدُ الجمعَ بيْن مضموني الجملتيْنِ في الحصُولِ نصًا ؛لأنك إذا قلتَ : يضرُ زيدٌ ينفعُ" من غير«واو» احتمَلَ أن يكونَ قولُك «ينفع» رجوعًا عن قولِك « يضر» وإبطالًا له ، كذا في دلائل الإعجاز. (ص:٢٢٦)

ويجبُ السعد عن ذلك بأن هذا الأمر قائمٌ في جميع الجمل، فما مِن جملةٍ إلا وهي مفيدة تحقق الحصول، سواء جاءت بعطف أو بغيره،وسواء كان العاطف "الواو" أو غيرِه، فتحقُّق الحصول أمرٌ مشترك بين الجمل. واحتمال الإبطال إذا لم تعطف الثانية بأي عاطفٍ قائم .
وهذا ما يجعل تمييزَ المواضع التي يحسن فيها العطف والتي لا يحسن فيها العطف بالواو وغيره مما تسكب فيه العبرات لدقته .

*****

قولٌ في وجوب الفصل إذا لم يكن هنالك قصدٌ إلى ربط الثّانية الأولى على معنى عاطف غير "الواو"

في هذا المقطع يُبين السَّعد أنّ الجملةَ الأولى قد تأتِي ولها حكم ، ولكنَّ المتكلم لا يقصد إلى ربط الجملة الثانية بهذه الجملةِ التي لها حكم ؛ لئلا تشاركَها في هذا الحكم ؛ لأنَّ المشاركةَ في هذا الحكم تفسدُ المعنى، ذلك أنَّ معنى الثّانيةِ مطلق غير مقيدٍ، فلا يصحّ عطفُه على مقيّدٍ، فالعطفُ على المقيّد يُفيدُ تقييدَ المَعطوفِ بما قُيِّد به المعطوفُ عليه، فإذا قلتَ: «إذا جاء محمدٌ أكرمتُه ، وسجدتُ لله تعالى شكرًا أو فسجدتُ لله شكرًا»
أنتَ هنا بعطفكَ الجملةَ الثّانيةَ على الأولى المقيّدة بظرفِ المجيئ : أعني قولَك «أمكرمتُه»، وقيّدتَ سجودَك بالظّرف الّذي قيّدتَ به الإكرام. فإذا لم يكنْ القصدُ إلى تقييدِ الثّانيةِ بقيدِ الأولى وجبَ الفصلُ، فتقولُ: « إذا أذّن للصّلاةِ ذهبتُ إلى المسجدِ. أنصحُ أولادي بالصّلاةِ في المَسجدِ"
أنتَ لا تعطفُ جملةَ" أنصحُ أولادي بالصّلاة في المسجد" لابالواو ،ولا بغيرِه ؛ لأنكَ لا تُريدُ الإخبارَ بأنَّ ذلك يكُون منك عند الأذان ، بلْ تُريدُ أنّ ذلك يكونُ منك في كلّ وقتٍ غير مقيّدٍ بوقتِ الأذانِ. ومنْ ثمّ وجبَ الفَصلُ ؛ لئلا يُتوهّمَ تقييدُ النُّصح بزمنِ وقوعِ الأذان.
يقول السعد:

(وإلّا) أي وإن لم يُقصدْ ربطُ الثّانيةِ بالأولَى علَى مَعنَى عاطفٍ سِوَى "الواو" (فإنْ كان للأولَى حكمٌ لم يُقصد إعطاؤه للثّانيةِ ، فالفصل) واجبٌ ؛ لئلا يلزَمَ مِن الوصلِ التّشريكُ فِي ذلِك الحُكمِ (نحو [قول الله تعالى] : «وإذا

خلَوا» الآيةَ لمْ يعطف [قوله تعالى] :«اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم» على «قالوا» لِئَلَّا يشاركَه في الاختصاصِ بالظرفِ لِمَا مَرَّ) مِنْ أنَّ تقديمَ المفعولِ ونحوه مِن الظَّرفِ وغيره يُفيدُ الاختصاصَ ، فيلزَمُ أن يكونَ استهزاءُ اللهِ بهِم – وهو أن خَذَلَهُمْ ، وخلّاهم وما سوّلتْ لَهُمْ أنفسُهمْ مستدرجًا إيهامَ مِنْ حيثُ لا يَشْعرونَ - مُختصًا بحالِ خلوّهم إلى شياطِينِهم ، وليس كذلك ،بلْ هو مُتَّصِلٌ ، لا انقِطاعَ لَهُ بحالٍ

رأيت في مقالَ السّعد هذا أنّه يهديك إلى أنّه قد يكونُ للجملةِ الأولَى حكمٌ غير إعرابيّ أيْ لَها قيدٌ معنويٌ كالتقييد بالشّرط، ولا يُرادُ إشراك الثّانيةِ الأولَى فيه، فيجبُ حينذاك ألّا يكون وصلٌ ؛لئلّا يُفهمَ أنّهما مشتركان في القيد، وليس الأمر كذلك ،فيكونُ ما فهمَه السّامع على غيرِ ما قصدَه المتكلمُ، فلا يتحقّق التّواصلُ والتّفاهمُ، فيكونُ الكلامُ حينذاك عاطلا عن حُسن الدّلالةِ على المقصودِ، ممّا يقيمُه فِي ما يُسمّى بالتّعقيد المعنويّ، وهو مِنْ أنكى ما يفسد وظيفة البيان.

من هذا الذي وجب فيه فصل الثّانية عن الأولى ذات القيد المعنوي قول اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)»(البقرة)

سبق أن تَبيَّنَ لك وجه فصل قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» عن قوله «إِنَّا مَعَكم » :

تبيَّن لك أنَّ ذلك كان دفعًا لتوهّم أنّ قوله تعالى : «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» مِن مقولِ المُنافقِين. وما هو كذلك.

هنا يُبيِّن لك السّعد أنّ قوله تعالَى« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» لا يستقيمُ أيضًا أن تعطفَه على جواب شرط«إذا»:" قالوا" لئلا يكون استهزاءُ الله تعالى بهم مقيدًا بما قيّد به «قالوا» ، فقوله تعالى:« قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ» جواب شرط«إذا» فهو مقيد بزمان خلوهمْ إلى شياطينهم، فهم لا يقولون ذلك دائمًا، بلْ يقولونه حين يخلون إلى شياطينهم ، ولو عطف قوله« الهُ يَسْتَهزِئُ بَهم»على «قالوا... » لكان كمثلِه مقيدًا بما قيد به «قالوا» فيفهم أنّ استهزاء الله تعالى بهم إنّما لا يكون إلّا إذا خلوا وقالوا، والواقعُ أنّ استهزاء الله تعالى بهم، ومدّهم في طغيانهم أمرٌ مطلقٌ غير مقيد بحال خلوهم إلى شياطِينِهم، وقولِهمْ لَهمْ:«إنّا معَكمْ».

فتركُ عطفِ قوله تعالى :«اللهُ يستهزئُ بهم» لدفعِ توهّم غير المرادِ هو لحماية السّامع ووقايتِهِ من أن يفهمَ غير مراد المُتكلم أن يُفهم عنه. فالفصلُ هنا تحقيقٌ لحقّ السّامعِ،وحقّ المعنى أيضًا.

ومن هذا يتبين لك أنّ فصل قوله :«اللهُ يستهزئُ بهم» له ثلاثةُ مقتضياتٍ :

الأوّل ألّا يتوهّم أنّه مِن مقولِ المنافقين إنْ عُطف على «إنا معكم»

الثاني:ألّا يُتوهّم أنّه مقيدٌ بزمانِ خلوّهِم وقولِهم. إنْ قلْنا بعطفِه على «قالوا»

والثالثُ أنّه فُصِلَ جوابًا عن سؤال اقتضاه قوله «إنّما نحنُ مُستهزِؤن» فهو فصلٌ للاستئنافِ البياني« شبه كمال الاتصال»

وهذه المقتضياتُ متفاوتةٌ في القوة :

أقواها آخرُها: "الفصل للاستئنافِ البيانيّ"،ثم الفصلُ لدفع توهّم التقييدِ بظرف، وأدناها وأبعدها عن منطق العقل الفطريّ أوّلها ذكرا : أعني أنّ الفصل لدفع توهمِ أنّها من مقول المنافقين.

❋❋❋❋❋

وكما هي عادةَ السعد كغيره من أهل العلم لا يدع ما قد يتوهّم من تساؤل أو اعتراضٍ يحوم حول حمى مقالتِه إلّا وصوّره وأجاب عنه حمايةً للقارئ من أن يتسلّل إليه ما قد يفسد عليْه فهمَه ، فيسعَى السّعد إلى وقايته ، فالقارئُ إنّما هُو مَزرعةُ الكاتب، فعليْه حمايتُها مِن أن تَنبتَ فيها الأعشابُ الضّارةُ بما يغرسُه الكاتبُ فيها.

يفترضُ السّعدُ اعتراضًا من سامعٍ مؤداه أمران:

الأول أنّ «إذا» في قوله تعالى « إذا خلَوا... » ليستْ ظرفية ، بل هي شرطيّةٍ وأن تقدم الشرط لا يفيد الاختصاص.

والآخر أن العطف على مقيّدٍ لا يُوجب تقييدَ ما يعطف عليه بقيدِهِ.

يفترضُ ذلك فيقول:

فانْ قُلتَ : لا نُسلمُ أن "إذا" في الآية ظرفيّةٌ بلْ"شرطية" وبعد تَسْليمِ أنّ العاملَ فِي"إذا" الشرطيّة هو الجزاء ؛فلا نسلّم أنّ مثلَ هاذ التقديمِ يُفيدُ الاتصاص" بلْ هو لتجرد تَصدرِ الشرطِ ، كالاستفهامِ .ولو سلّمَ أن العطفَ علَى مقيّدٍ بِشَيْءٍ يُوجبُ تقييدَ المعطوفِ بِذلِك الشيءِ.

وهُنا يدفع السّعدُ الاعتراضَ بأنّ «إذا» الشّرطيّةَ هي الظّرفية، فهي إذا استعملت شرطًا، فلا تتخلّى عن ظرفيتِها، فذلك أصلُ ما وضعتْ له ، ومَن يَقل : إذا كان كذا فعلتُ كذا ، يفهم منه كلُّ سامعٍ عليمٍ بمعهودِ العربِ في مثلِ هذا أنّه لا يفعلُه إلّا إذا كان الّذي اشترطه، وإلّا لم يكنْ معنى لذلك الشرط ، والإعمالُ أولى من الإهمال ،اتقاء لمعرة العبث في القول والفعلِ .

وهذا التّخصيصُ يستوى أن يفاد من مفهوم التقييد بالشرط، أو من مفهوم تقديم الشّرط على العامل فيه ، فأيّ الأمرين أردت هو مفض إلى ما يفيده التّقييد من ربط المعطوفِ على مقيد بقيد ما عطف عليْهِ.

واستظهرَ السّعدُ أنّ تقديمَ القيدِ على المَعطوفِ عليه أنّه مفيدٌ مشاركةَ المَعطوفِ المعطوفَ عليْه في ذلك القيدِ، فلِتقديمِه أثرٌ، وإلّا كان لغوًا .

واستظهارُ السّعد يفهم أنّ العدولَ عن هذا الظّاهرِ لا يكونُ إلّا إذا كانت قرينةٌ تصرف عن ذلك الظاهر ، فقوله" فالظاهركذا ، يفهم منه أن ذلك هو المعهودُ في الإفهام والفهم،وما كان كذلك لا يعدلُ عنه إفهامًا وفهمًا إلا بقرينةٍ وليس هنا قرينةٌ صارفةٌ عن النزول على المعهود

وهذا أصلٌ منهجيٌّ في التلقّي ، حرًى أن يَكونَ حاضرًا.

إذا رأيتَ السّعد يستظهرُ، فاعلمْ أنّه يحيلك على المعهود، وأنّه لا يمنع العدولَ عنه إذا ما كانت هنالك قرينةٌ صارفةٌ ، فالأصلُ الجَرْيُ مع الظاهر، ولك الجَرْيُ على المجاز المبني على العدولِ في هذا لوجود قرينة .

والسعدُ يخبرك أنَّ تقديمَ القيدِ على المعطوفِ لا يُفيد القطع بمشاركةِ المعطوفِ المعطوف عليْه في القيدِ، ولكنّه السّابقَ إلى الفهمِ في الخطابيّات التي هي عديل البُرهانيّاتِ وما كان كذلك وجبَ الجَرْيُ معه. هذا الّذي قربتُه إليْك يقول فيه السعد :

«قُلْتُ:"إذا" الشّرطية هي بعيْنها "الظّرفية" استعملت استعمالَ الشّرط ،ولا شكَّ أن قولنا :"إذا خلوتُ قرأتُ القرآنَ" يفيدُ معنى لا أقرأ القرآن إلا إذا إذا خلوتُ " سواءٌ جعل ذلك باعتبارِمفهوم الشرط أوْ باعتبر أنّ التقديم يُفيدُ "اختصاص"

ثُمّ القيدُ إذا كان مقدمًا على المعطوفِ عليْه ، الظّاهرُ تقييدُ المعطوفِ به ، كقولنا : يوم الجمعةِ سرتُ وضربتُ زيدًا" وقولنا إنْ جئتني أعطك وأكسك"

نعم إنه ليس بقطعيّ ، لكنه السابقُ إلى الفهمِ في الخطابياتِ "(اهـ)

وإذا ما كان السعدُ قد صور الاعتراضَ وأجابَ عنه، فهو يردفه باقتراضِ اعتراضٍ آخر مؤداه أن العطفَ على جوابِ الشرط له وجهان:

الوجهُ الأوّلُ :

أنَّ كلاً من المعطوف عليه والمعطوف مستقلّ في الجزائيّة، ولا يتوقف أحدهما على الآخر

والوجهُ الأخرُ:

أن يكونَ الشّرطُ سببًا في كلّ من المتعاطفين ، فيكون تشارك بيْن جُزئيْ الجواب فِي أنَّ الشّرط سببٌ فيهما معًا.

فإذا كان ذلك ، فلِمَ لا يكون قوله تعالى «اللهُ يَسْتهزِئُ بهم » من الضربِ الثاني الذي يكونُ الشرط سببا في المعطوف والمعطوفِ عليْه معًا.

ويجيبُ السعد بأن استهزاء الله تعالى بهم ليس لإخبارهم عن أنفسهم بأنهم مستهزؤون، فالله تعالى يستهزئ بهم ؛ لجعلِهم ذلك في صدورهم وإن لم يقولوه، فسواءٌ قالوا :«إنما نحنُ مستهزؤون» أو لم يقولوا ، فالله يستهزئ بهم، فليس لقولهم«غنّما نحنُ مستهزؤون» دخلٌ في تحقّق استهزاء الله تعالى بهم، بل تحقّقُ ذلك في صدورهم هو السّببُ فِي استهزاءِ الله تعالى بهم ، فلو جعلنا قوله تعالى:«اللهُ يَستهزئ بهم » معطوفًا على «قالوا» لكان استهزاءُ الله تعالى بهم لا يكونُ إلّا إذا جمعوا بيْن اعتقادِ الاستهزاءِ بهم في صدورِهم، ونطقهم به معًا،وهذا غير قويم.

نعم إعتقادهم الأخوةَ والاستهزاء والقول بذلك معا يوجب عليْهم استهزاءً مِن الله تعالى أشد وأنكى؛ لأنّ المجاهرةَ بالمعصية تَزيدُ في العقوبة،ولكنها لا تنشئ العقوبة. فإضمارُ الكفر في النّفس دون النُّطق به موجبٌ للعقوبةِ ،و إظهارُه موجبٌ لشدّةِ العُقوبةِ.

يقول السعد في هذا الذي بينته لك :

« فإنْ قلتَ :إذا عطفَ شيءٌ علَى جوابِ الشرطِ فهو على ضربيْنِ :

أحدهما : أن يستقلَّ كلٌّ بالجزائيَّةِ ،نحو:" إن تأتني أعطك وَاكسك"

والثَّاني : أن يكونَ المعطوفُ بحيثُ يتوقفُ على المعطوفِ عليْهِ ،ويكونَ الشَّرطُ سببًا فِيهِ بواسطةِ كونِه سببًا في المعطوفِ عليهِ، كقولك :"إذا رجعَ الأميرُ، استأذنتُ وخرجتُ" أي إذا رجع استأذنتُ ،وإذا استأذنتُ خرجتُ ، فلِمَ لا يجوزُ أن يكونَ عطف:« الله يستهزئ بِهِمْ» على« قالوا» منْ هذا القبيلِ؟

قلْتُ :

لأنه حينئذٍ يَصيرُ المعنَى «فإذا قالوا ذلك استهزأ الله بهم ، وهذا غيرُ مستقيمٍ لأنَّ الجزاءَ – أعني استهزاءَ اللهِ بهمْ إنَّما هو علَى نفسِ استهزائهمْ وإرادتهمْ إياه ، لا علَى إخبارهم عن أنفسِهم بأنَّهم مُسْتهزِؤون بدليل أنَّهم لو قالوا ذلك لدفعهم عن أنفسِهم ،والتسلُّم من شرِّهمْ لم يكنْ عليْهم مؤاخذةٌ

كذا في دلائل الإعجاز"

*****

تفصيل
أحوال الفصل والوصل

يعمد السعد إلى أجمال بيان الأحوال التي يكون فيها الفصل (ترك العطفِ بالواو) والتي يكونُ فيها العطفُ حين لا يكونُ للأولى حكمٌ إعرابيّ أو غير إعرابيّ، أو يكون لها حكمٌ ويرادُ إعطاؤه للثَّانية فيبيّن أنَّها أحوالٌ ستَّة.

الأول: أن يكون بين الجملتين انقطاع بلا إيهام

الثاني: كمال الاتصال

الثالث:شبه كمال الاتصال

الرابع شبه كمال الانقطاع

وهذه الأربعةَ يكون ترك العطف بالواو الأول والثالث بسبب من عدم المناسبة،

والثاني والرابع، لعدم المغايرة التي هي من مقتضيات العطف، فالعطف بالواو يقتضي أن يكون بيْن طرفيْ العطف أمران: المناسبة، والمغايرة ، فإذا تخلّف أحدهما وجب ترك العطف بالواو .

الخامس : كمال انقطاع مع الإيهام

السادس التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع.

وفي هذا يقُول السعد:

« (وإلّا) عطف على قوله:« فانْ كان للاولى حكمٌ» أيْ وان لم يكن للأولى حكم لم يقصد اعطاؤه للثانية. وذلك بان لا يكون لها حكم زائد على مفهوم الجملة أوْ يكون ، ولكن قصد إعطاؤه للثانية أيضًا (فان كان بيْنهُما) أيْ بيْن الجملتين (كمال الانقطاع بلا ايهام) أيْ بدون أن يكون في الفصل إيهام خلاف المقصود (أو كمال الاتصال أو شبه احدهما) أي أحد الكمالين (فكذلك) يتعين الفصل.

(وإلّا) أي وإن لم يكن بينهما «كمال الانقطاع بلا ايهام» ولا «كمال الاتصال» ولا شبه أحدِهما (فالوصل) متعيّنٌ

وتحقيقُ ذلك أنّ «الواو» للجمع والجمع بيْنَ شيْئيْنِ يقتضِي مناسبةً بيْنهما ، وأن تكونَ بينهما مغايرةٌ ؛ لئلا يلزمَ عطفُ الشَّيْءِ على نفسِهِ .

والحاصلُ من أحوال الجملتيْنِ اللَّتيْن لا محلّ لهما من الإعرابِ ، ولمْ يكن للاولى حكم لم يقصد اعطاؤه للثَّانية ستَّةُ احوال:

الأول : كمال الانقطاع بلا ايهام.

الثاني كمال الاتصال

الثالث شبه كمال الانقطاع

الرابع شبه كمال الاتصال

الخامس كمال الانقطاع مع الايهام
السادس التوسط بين الكمالين.
فحكم الاخيرين «الوصل»
وحكم الأربعة السابقة الفصل
أمّا في الأوّل والثالث فلعدم المناسبة
وأما في الثّاني والرابع فلعدمِ المغايرة المفتقرة إلى الرابط بالعطف .
فأخذ المصنف في تحقيقِ المقامات الستة ،وقال. »

ممّا يحسن أن الفت إليه أنّ علينا أن نفرّق بين أمرين رئيسيْن
الأوّل: ما كان ترك العطف فيه بالواو لما بيْن الجملتين من استغناء عن عاملٍ خارجي يُبِين عمّا بيْنهما من اتصال ،كما في كمال الاتصال وشبهه .
والآخر: ما كان ترك العطف بينهما بالواو ،وليس بيْنهما اتصالٌ تنبئُ عنه "الواو"
فنحنُ أمام حالَيْن كليين:
حالٌ كان الاتصال على كمالِه، فليس ثم بحاجةٍ إلى ما ينبئ عنه لقوة ظهورِه بنفسِه ،وهذا له كمال الاتصال وشبهه
وحالٍ ليس ثَمَّ اتصالٌ أصلا، و"الواو" لا تؤسّسُ وصلًا ، إنما تنبئُ عمّا هُو موجودٌ يحتاجُ إلى ما ينبئُ عنه، وهنا ليس ثَمَّ اتصالٌ بل انقطاع، فلا معنى للواو ،وهذا ما يسمونه كمال الانقطاع
والقول بهذين : كمال الانقطاع بلا إيهامٍ وشبه كمال الانقطاع فيه نظر ناقد عندي سيتبين لك عند القول فيهما.
أذهبُ على بصيرةٍ أنّ تركَ العطفِ بـ"الواو" الذي يسمونه "فصلًا"وأنا أسميه "اتصالًا "ليس له إلا حالتين: كمال الاتصال وشبهه.
وليس كمال الانقطاعِ وشبهه مما نحن فيه.
هو خارجٌ عن النَّظر البلاغيّ على ما سأبينه إن شاء الله تعالى في موضِعه.
والوصلُ بذكرِ "الواو" له عندهم موضعان:
أ)= كمال الانقطاع مع الإيهام
ب)= والتّوسط بين الكمالين
والذي أذهب إليْه على بصيرة أنّ الوصلَ بـ«الواو» ليس له إلا موضعٌ واحدٌ هو ما يسمّونه «التّوسط بيْن الكمالين» وما عدا ذلك، فالوالو التي تكونُ ليْستْ «واوة» وصلٍ
ما يسمّى عندهم بـ«كمال الانقطاع مع الإيهام» ليْستْ «الواو» الّتي فيه هي «واو»الوصل . كلّا . إنما هيب «واو « دفع الإيهام. وقد يغني عنها غيرها. يغني عنها في الكتابة أن تضع فاصلة(،) أو نقطةً(.) أو نحو ذلك،ويغني عنها في الكلامِ شفاهةُ السكتةِ اللطيفة.

فجعل«الواو» التي في "كمال الانقطاع مع الإيهام" هي «واو» وصل غير قويم .وسترى ذلك إن شاء الله مبينًا في موضِعِهِ.

■■■■■■

الموضع الأوّل
من مواضع ترك العطف بالواو (الفصل)

(كمال الانقطاع بلا إيهامٍ)

يتمثّلُ كمال الانقطاع عندهم في صورتين

الأولى: انقطاعٌ في النسبة الكلامية في المعنى واللفظ أو في المعنى

والأخرى: ألّا يكون بينهما جامعٌ خاص.

(الصورة الأولى لكمال الانقاع بلا إيهامٍ

وفي هذا يقُول السّعدُ:

(أمّا كمال الانقطاع ،فلا ختلافهما خبرًا أوْ انشاءً لفظًا ومعنًى) أيْ تكون إحدى الجملتيْن خبرًا لفظًا ومعنًى والأخرى إنشاءً لفظًا ومعنى (نحو :

وَقَالَ رَائِدُهم: أَرْسُوا. نُزَاوِلُهَا * وكل حَتْفِ امرئٍ يجْري بمقدارِ

الرّائدُ :الذي يتقدّمُ القومَ لطلبِ الماءِ والكلإِ ، و"أرسوا" أيْ "أقيموا" مِنْ أرسيْت السّفينةَ حبستُّها بالمرساة و"نزاولُها" أيْ نحاولها، ونعالجها والضّميرُ للحربِ أيْ قال رائد القوم ومقدمهم :أقيموا نقاتل، فإنّ موتَ كلّ نفسٍ يجرى بمقدار الله وقدره ، لا الجبنُ يُنجيه ولا الإقدامُ يُرديه.

وقيل الضّميرُ للسفينةِ ،وقيل للخمرِ ، والوجه ما ذكرنا .

ولمّا كان"أرسُوا" إنشاءً لفظًا ومعنًى و"نزاولها" خبرًا كذلك لَمْ يعطف عليْهِ ،ولَم يجعلْ أيضًا مجزومًا جوابًا للأمرِ ؛ لأنّ الغرضَ تعليل الأمر بالإرساءِ بالمزوالةِ ، والأمرُ في الجزْمِ بالعكسِ أعني يصيرُ الإرساءُ علة المزاولةِ ،كما في :اسْلِمْ تدخلِ الجنّةَ "(أهـ)

■■■■■■

توطئة في شأن" الخبر"و" الإنشاء"

كلّ جملة في العربيّة عمادُها علاقة بيْن ركنيها تسمى هذه العلاقةُ نسبةً ، أو إسنادًا وهذه النّسبة تترتّب على نوعِ مقصدِ المتكلم بالجملة . ومقاصد المتكلمين تدور على واحد من ثلاثة :

= الإنباءُ بما وقع خارج الذاتِ الناطقة بالجملة .

= الإنباء بما هو قائمٌ في داخل الذاتِ النّاطقة بالجملة من المشاعر والانفعالات النّفسيّة والمواقف العاطفية.

= طلبُ إيجاد ما ليس بموجود قبل الكلام.

الأول تُسمَى جملتُه خبرًا، ونسبتُه خبرية، ومعيارُه عند المناطقة ومن سلك دربهم أن يحتمل الصدق والكذب لذاته ، والأولى أن يكون معيارُه أن يصحّ نفيهُ وإثباته

والثاني تسمَى جملته إنشاء غير طلبي . فهي وإن تكن في حقيقتها تخبرُ بما هو واقعٌ إلا أنَّه واقعٌ في الذات الناطقة بالجملة ، ومن ثم لا يصحّ نفيه أو إثباته أنّه لا يطلعُ عليْه إلا علام الغيوب العليم بذاتِ الصدور سُبحَانَه وتَعَالَى جدّه.

ومن ذلك أسلوب التعجب (ما أعذبَ ماء النيل) والمدح (نعم طالبُ العلم محمّدٌ) وصيغ العقود (زوجتك ابنتي) ونحو ذلك .

وهو إنشاءٌ لأنّه يُنشِئُ بهذه الجملةِ إعلامًا للسّامع لا سبيلَ له إلى علمه إلا بذلك ، ولا سبيلَ له إلى نفيه أو إثباته ، بينما الخبرُ فإنَّ للسّامع أن يعلم بما أخبر بغير الإنباء بهذه الجملة ، كان يكون قد شاهد الأمرَ بنفسِه من قبلِ أن يخبرَ المتكلم. وله سبيلٌ إلى إثباتِه أو نفيه. وهم يسمونه إنشاء غير طلبي ، والبلاغيون يؤكّدون أن الإنشاء غير الطلبيّ في أصله خبرٌ.

والثالث: تسمَى جملته إنشاءً طلبيًة ؛ لأنَّ المتكلم به إنّما يطلبُ حدوث شيءٍ أو عدمَ حدوثِه، ولا سبيل للسّامع أن ينفيه أو يثبته. وهم يجعلون هذا منحصرًا في خمسة صيغٍ: صيغة جملة الأمر، وصيغة جملةِ النَّهي ، وصيغة جملة الاستفهام، وصيغة جملة النّداء، وصيغة جملة التمني، وثَمَّ من يضيف إلى ذلك صيغة جملة الرَّجاء.([1])

والاعتدادُ في ذلك كلّه بما تحمله الجملة من المعنى والقصد ، وليس بمجرد الصّيغة ، فقد تكون صورةَ المعنى صورة الخبر والمراد به الطلبُ ، وهو كثيرٌ في البيانِ البليغ. من نحو صيغة التّسبيح: سُبحَانَه وتَعَالَى ، فهي صيغة خبر والقصد إلى إنشاءِ غيرِ طلبيّ ،وصيغةَ الصَّلاة على النبي(صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا) فقولك (صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا) صورتَه صورة الخبر، وهو إنشاء طلبي (دعاء) وقد تكون الصورة إنشاء طلبيًا ويرادُ بها الخبر، كما تراه في بعضِ أساليب الاستفهام المراد به النّفي ، فالاعتداد ليس بصورة المعنى، وإنّما بالمعنى المقصُود. فقول الله ﷻ حكاية عن مقالة المنافقين : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء ﴾ (البقرة :١٣) فالقصدُ هنا إلى النّفي أي لا نؤمن كما آمن السفهاء. ففي نظم الجملة قرينة تمنعُ أن يكون قصدهم الاستفهام على حقيقتِه، فالإعرابُ عنهم بعنوان " السّفهاء" آيةٌ بيّنة عن أنّهم لا يستفهمون، بل ينفون، ويصرحون بعلّة النّفي ، وهو الإعراب عنه باسم: السّفهاء" وإيماءٌ إلى أنهم المنزهون عن هذه المعرةِ ، فكيف يُطلب منهم أن يكونُوا مثلَهم ، ذلك مسلك المنافقين في كلّ عَصرٍ ومصرٍ ، وعينك ترى منهم فنونًا تتجدّد في نفاقها. ولذا كان البيان القرآني دامغًا : (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) قصر السّفاهة عليهم ونفاها عَمن وصموهم بالسّفاهةِ وهم منها براءٌ (ما السّفهاءُ إلا هُمْ) جعلهم فسطاط السّفاهة، وبرغمِ من ذلك هم لا يعلمون ما هم فيه ، فكيف لهم أن يعلموا حالَ غَيرِهم ، فيحكموا عليْهم بأنّهم سفهاء!!!

***

([1]) لعل الذين جعلوا أسلوب " الرجاء "من الإنشاءالطلبي استظهروا ما يفهم منه من معنى طلب محبوب غير مستبعد، ومن لم يجعلوه منه استظهروا أنّ معنى التوقع هو الأقرب من الطلب نظرًا لما في المرجو من عدم الاستبعاد، بينما التمني في المتمنى معنى استبعاد وقوع المتمنى لأمر راجع إلى الشيء المتمنى نفسه "ليت الشباب يعود يومًا" أو لأمر يرجع إلى المتمني نفسه، كتمنى الطالب المهمل أن يكون الفائز الأول أو لأمر يرجع إلى السياق كأن يتمنى مصري: "ليت رئيسنا لا يشق علينا . "فالمتمنى في كل هذا مستبعدُ الوقوع استبعادًا قد يصل إلى الاستحالة والإبلاس .

قد تبيّن لك ممّا مضى حالُ الجملة من حيثُ الإنشاء والخبر، وكلّ جملة من هذه الأنواع الثّلاثة: الخبرِ والإنشاءِ غيرِ الطّلبيّ، والإنشاءِ الطلبيّ، تحملُ معنًى يقصد إيصالُه إلى قلبِ السّامع ، ويجري هذا المعنى في سياقٍ ، وهذا يجعله ذا علاقة بما صَحبه في هذا السّياق. وهذه العلاقة هي مشغلةٌ عظمَى من مشاغل العقلِ البلاغي العربي في تلقيه البيان .

هذه العلاقة قد تستوجبُ أن يؤتى بحرف العطف (الواو) وقد تستوجبُ ترك ذلك، وسواء استوجب الإتيان به أو لم يستوجب ، فالعلاقة بيْن معنى الجملتين قائمة أيًا كان اتفاق الصّورة التي حملت هذا المعنى من حيث نوعها خبرًا أو إنشاءً ، وأيًّا كان هذا المعنى المحمول خبرًا أو إنشاءً يرادُ به تصوير ما يعتلج في النّفسِ من المشاعر (إنشاء غير طلبي) أو يراد به طلب أمرٍ ما.

العلاقات بيْن معاني الجملِ القائمةِ على لاحبِ سياقٍ واحدٍ هي علاقاتٌ حاضرةٌ ، فالبيانُ البليغُ يأبَى أن يُجري على لاحبِ سياقٍ واحدٍ معاني متدابرة.

ومنعُ البلاغيين العطفَ بيْن الخبر والإنشاءِ مشروطٌ بـ " أن لا يكونَ المقامُ مشتملا على ما يزيل الاختلاف من تضمين الطَّلب معنى الخبر، أو عكسه، فإنّ المقام إذا اشتمل عليه لم يبقَ بيْن الجملتين كمال الانقطاع لزوال ذلك الاختلاف" ([1])

****

يعمدُ السعدُ هنا إلى الوجه الأوّل من الصّورة الأولى من صورتَي "كمال الانقطاعِ بلا إيهامٍ" المتمثّلة في اختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى ، فالاختلاف هنا بيْن الجملتين اختلاف في النسبة الكلاميّة : الخبر والإنشاء

وهذا الاختلاف قائمٌ في المعنى وصورتِه في كلّ جملة، ممّا يجعلُ الاختلاف على كمالِه.

ويعمد إلى بيْت شعر منسوبٍ إلى الأخطلِ في كتاب سيبويهِ وليسوكاتّي بالبيت فريدًا ليس له قرينٌ ، وأيّما كان قائله ، فالأمرُ متعلّق بعلاقةِ الجملتيْن في الشّطر الأول من البيت:"ارْسوا" و"نزاولها"

جاء قوله "نزاولها" مرفوعًا ممّا يهدي إلى أنّه ليس جوابًا للأمر في "أرسوا" كما في"أسْلِمْ تَسْلَمْ"

والفرق بيْن رفع" نزاولها" وجزمه في جواب الأمر يتمثّل في أنّ الرّفع يجعلُ المزاولةَ علّةً للإرساء ،أيْ ما أمرهم بالإرساء إلّا لتحقيق المزاولة، فلولا هذه المزاولةُ ما كان سيأمرهم بالإرساء ،ولظلوا في أبحارهم .

بيْنَا الجزم في جوابِ الأمرِ يجعلُ الإرساء علة للمزاولة أيْ تكونُ المزاولة بسبب الإرساء، ولولا الإرساء ما كانوا يزاولون.فقولك أسلِمْ تسْلمْ جعلت الإسلام علة للسلامة من العقاب.

وليس يخفى أنّ الوجه الأوّل الذي هو الرفع هو الأولى بشطر البيْت الثّاني، فقولُه «فكلُّ حتفِ امرئ يجري بمقدار» آية على أن القصد الرئيس إنما هو مزاولة الحرب، والإرساء مأمور بِه لتحقيق ههذ المزاولة.

وبهذا يتبين لك أنّه وإن استقام جزم (نزاولها) في جوابِ الأمر، فإن سياقَ القولِ ومغزاه هو الذي يقضي بأنه لا يستقيم بلاغة،وإن استقام قاعة نحويّة ،وهذا يهديك إلى أنّ المفاضلة بيْن الوجوه المُمكِنة نحوًا من مراجعها ما

([1]) المصباح في شرح السيد على المفتاح للسيد الشريف ص318

يقتضيه سياقُ الكلام، ومغزاه ، وهذا باب جليلٌ دقيق:" أثرُ السِّياق والمغزَى فِي الترجيح بيْن الوجوه الإعرابيّة المُحتمِلة فِي التَّراكيب، وهذا يُبيِّن لك أنّ السلطان إنّما هو للسياقِ والمغزى، وليس للنظم وحده، فليس كلُّ ما يُمكن أن يدلّ عليْه النظمُ يقالُ به ، بل لابُدَّ من أن يكون السياق والمغزى معًا أنيسان بهذا الوجه المراد.

وبهذا تدرك عظيم حاجة التأويل النحوي للتراكيب إلى السياقِ والمغزى.

وإذا ما كان السياق ذا أثرٍ في ترجيح وجهٍ إعرابيّ على آخر ، فإن هذا السياق هو الذي جعل تأويل نزاولها للحرب ،وليس للسفينة أو الخمر، فقوله« فحتفُ كلّ أمرئ يَجري بمقدار " أنس بالحربِ لا بالسفينةِ أو الخمر، فتأويل المفردات أيضًا يخضع لسلطان السياق ومغزَى الكلامِ.

★★★★

وهنا يلتفتُ السعدُ إلى اعتراضٍ قد يثور في نفسٍ ، فيعرج عليْه ليدفعه . مؤداه أن كلامنا في أحوال الفصل والوصل الستة مبني على أنّ الجملة الأولى "المعطوف عليْها" ليس لها محلّ من الإعرابوليس لها قيد معنوي، والذي معنا في هذا البيات الجملة الأولى" ارسوا" في محل نصب مقول القول ، فالبيت ليس أهلا لأن يستشهد به أو يمثّل به.

يقول السعد :

«فإن قلتَ: هذه الأقسامُ كلُّها على التقديرِ الثّاني وهو أن لا يكونَ للجملةِ ألأولى محلٌ من الأعرابِ ، والجملة الأولى في هذا المثالِ ،وهي قولُه:" أرسوا" في محل النّصبِ على أنّه مفعول قال: فكيف يصح هذا؟

ذلك هو الاعتراض ،وهوكما ترى ناظرٌ إلى أصلٍ يتمثّلُ في أنّهم لا ينظروا إلى ما كان بين جملتيْن للأولى محلٌ من الإعراب ،كمثّل لا ينظرون إلى ما كان من عطف مفرد على مفرد، لا لانتفاء فائدة النظر إلى ما بيْن هذين من عطفٍ وترْكه ،بلْ لأنّ ما فيهما من فوائد لا يحتاجُ إدراكه إلى تبصّر، فإدراكه قريبٌ،وما كان كذلك ، فليس العقلُ البلاغيّ العربيّ بمهمومٍ به،

هو عقلٌ رَغوبٌ في ما هو لطيفٌ طريفٌ ؛ لأنّ ذلك هو مناطُ التفاضل بيْن العقولِ والأذواق ،وما قل فيه التفاضل ليس بأهلٍ لأن يشتغلَ العقلُ البلاغي به.

قوله :"أرسوا" لاريب في أنه في نظم البيت أيْ في الحكاية في محلّ نصبِ معمولِ فعلِ القول ،وكلامنا في هذا الباب فيما كانت الأولَى ليْسَ لها محلٌ مِن الإعراب ، أو ليسَ لها قيْدٌ معنويّ فالتمثيل بهذا البيتِ غيرُ قويم ، وكان عليْه أنْ يأتي بجملتيْن مختلفتيْن في النّسبة الكلامية لفظًا ومعنى ،وليس للأولى محل إعرابيّ أو قيْدٌ معنوي. كما تراه في قولِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لسيدنا رسول الله صلّى الله عليْه وعلى آلِه وصحبه وسلّم:« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(التوبة:١٠٣)

فقول «خذ» جملة إنشائية لفظًا ومعنًى وليس لها محلٌ من الإعراب، وقوله« تطهرهم» خبر لفظا ومعنى، فلم تعطف على الأولى لاختلافهما في النّسبة الكلامية لفظا ومعنى.

وكذلك قولُه :« صلِّ؛ وقولُه :« إن صلاتك» على ما لا يخفَى، فالتمثيلُ بالآية أحكم.
وهنا يجيبُ السّعد على هذا الاعتراضِ قائلًا:

وهذا قلتُ لمَا ذكر أنّه قدْ يكونُ بيْن الجملتيْنِ اللتيْنِ لامحلّ لأولاهما من اعرابِ كمال الانقطاع أوْ كمال الاتصَالِ ،أوْ نحوهما إشارَ إلى تحقيقِ هذه المعانِي من غيرِ نظرٍ إلى كونِها بين الجملتيْن اللتين يكونُ لأولاهما مجلٌّ من الإعرابِ أوْ لا يكون ، فهذا مثالٌ لِمجردِ كمال الانقطاع بيْن الجملتين.
وقد يقالُ :
إنّ المقصُود بالتمثِيلِ هو ما وقعَ في كلام"الرائد" والجملتان في كلامِه ليْسَ لهما محلٌ من الإعرابِ ،ولا يخفَى ما فيه من التعسفِ ؛لأنَّ المثال إنما هو هذا المصراع ،والجملتان مما له محلٌ من الإعرابِ ولهذا جعل نحو:«إنّا معَكمْ إنما نحنُمستَهزِؤون » مما لهمحلٌ من الإعراب على ما مرّ».

(التبيين)
يجيب السعد دفعًا لالاعتراض بجوابين
الأول عماده أن التمثِيل جاء غيرَ ناظرٍ إلى أن كون الأولى لها محل من الإعرابِ ، فالقصد منطرفٌ إلى مانعٍ متمثلٍ في اختلاف النسبةِ ، لا إلى أن بين جملتين الأولى لها محل من الإعراب، أو ليس لها محلٌ.
العناية مصروفةٌ إلى اختلاف النسبة الكلامية . فإذا ما كان هذا الاختلاف لم يتأثر بكونِ الأولى لها محلٌّ من الإعرب ، فهو أقوى في عدم التأثر حين لا يكون للأولى محلٌّ من الأعراب.
وكأنِي به ليفت إلى أنّ الكصنغ لم يكِ غافلًا عن أن الأولى لها محل من الإعرب في نظم الحكايةِ ،ولكنّه جاء به،وكان بملكه أن يأتي بما ليس للأولى محل من الإعراب ،ولا يفتح للاعتراضِ عليْه بابًا، لكنه آثر أن يأتي به ليبيّن قوةَ اختلافِ النسبة الكلامية بيْن الجملتين في اقتضاء عدم العطف.
ويأتي الجواب الثاني وعماده أنّا إذا نظرنا لِحال الجملتين في المحكي أي فيما نطق به" الرائد" لا في حكايةِ الشاعر فالجملتان في لسان الرائد لم يكن لأي محلٌّ من الإعراب.
والسعدُ يحكم على ذلك بأنّ ما فيه من تعسفٍ ظاهرٌ بناءً على أنّ المثالَ إنّما هُو الشّطر الأول مِن البيْت الّذِي هو مقول الشّاعر وحكايته ، لا مقول الرائد.
ويستدلُ على هذا أنَّ المصنّف فِي قولِ الله تعالَى حكايَةً عَن المنافقين :« إنّا معكم، إنّما نحنُ مستهزِؤون» جعلهما مِن مقول القول أي لمْ يقطع النّظر عن المحل باعتبارِ المحكي، ولكنّه نظرَ إليهما باعتبارِ الحكايةِ القُرآنيّة لمقالِهم.
وهذا يَهديك إلى أنَّ السّعد يستَغلِي الجوابَ الأوّل الذّاهبَ إلى عدم الاعتداد بحالِ الأولى من الإعراب أو القيد المعنويّ والذّاهب إلى أنّ النظر إنما هو مصروفٌ إلى الاختلاف في النسبةِ الكلاميّة.

•••

الوجه الآخر من الصورة الأولى لكمال الانقطاع.

ما سبق قولٌ في الوجه الأوّل من الصّورة الأولى من صورتَي كمال الإنقطاع، هذا الوجهُ كانَ الانقطاع لاختلاف النسبة بيْن الجملتَين لفظًا ومعنًى .

وهنالك وجهٌ آخر للصورة : يكون الاختلاف في النسبةِ الكلاميةِ في المعنى وحده ،وليس فيهما يقول السعد:

«أومعنًى» أي لاختلافهما خبرا وانشاء (معنى) بأن تكونَ إحداهما خبرًا معنًى والأُخرَى إنشاءً معنى وإن كانتا خبريّتَين أوْ إنشاءيَّتَين لفظا (نحو :«مات فلان رحمَه الله)أيْ لِيَرحمْه الله، فهو إنشاءٌمعنًى فلا يصحُ عطفُه على :"ماتَ فلانٌ" .

(التّنـوير)

هذا الوجهُ مِن الصّورة الأولَى كان الاعتداد بما بيْن الجملتَيْن مِن الاختِلافِ فِي النِّسبة مِن حيثُ معنيَيهما دون التفاتٍ إلى حال صورةَ المعنيين خبرًا،وإنشاءً

ذلك أنّ الاعتدادَ الرّئيس إنّما هُو إلى شأنِ المَعنى، لا إلى صورتَيهما. فقد يُؤتَى بصورةِ المَعنى علَى غيْرِ ما عليْه المَعنَى مِن النّسبةِ الكلاميّةِ خبرًا وإنشاءً لمقتضٍ وغرضٍ بلاغيّ من وراء تلك المخالفة بيْن المعنى وصورتِه في كلِّ جملةٍ مِن حيْثُ الخبريّةَ لفظًا ومعنى. فإتيان الإنشائيّةِ معنًى فِي صورةٍ خبريّةٍ، إشارةٌ إلى أنَ المتكلّمَ يومِئُ إلى أنّ المَعنى مِن شأنِه أن يكونَ متحققًا يُخبَر عنه ، لا أن يُطلَبَ وقوعه ، فذلِك مسلكٌ مِن مسالك توكيد المعانِي .

وهذا تجدُه في سياقات الدّعاء والتّرحم. يوحى إليْك المتكلّم بشديدِ رغبتِه فِي أن يكونَ ما يُطلب، وألّا يكونَ ثَمّ فاصلٌ بيْن طلبِه،وتحقُّقه ، فيخبرُ عنه.

مَن قال "ماتَ فلان رحمه الله تعالى " دونَ قوله: "مات فلانٌ .ليرْحمه الله تعالى" فإنّه يومئ إلى عظيمِ رغبتِه في أن يكون قد تَحققت له رحمةُ ربِّه مع موته مباشرة، فكما أنّ موته محقّق أخبر به، فرحمةُ الله تعالى يتطلّع أن تكون قرين امساك روحه، فكأنّه قد فُعل به أمران متلازمان، لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر، ولا يتقدمُه قيد أنملة: موتُه ورحمةُ الله تعالى ، فالذي انتزعَ روحه عن جسده، جعل له الرحمة. أخذ منه روحه، وأعطاه رَوْحَه وريحانه ورحمتَه.

وفي هذا من تَصوير ما بيْن المتوفى ،والمخبر بموتِه من عظيمِ التّآخي .

****

ومما هو جديرٌ بأن تكونَ منه على ذكرٍ أن تتأكد أن تتأكد من أنّ الإسلوب الإنشائيّ أريد به الطلب، فإن أريد بهِ غيره كأن أريد به الخبر فالاعتداد بمعناه، لا بلفظه،

وعلى هذا يتبين لك أن الوجه الآخر الذي أشار إليه عبد القاهر في الدلائل ،وهو يُبين عن وجه الفصل في قول الله تعالى:« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (البقرة:١٣)

قال :" عطف: {إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ} على ما قَبْلَه، لكان يَكونُ قد أَدْخَلَ في الحكاية، ولصار حديثاً مِنهم عن أنفسهم بأنهم هُمُ السفهاءُ، من بَعْدِ أن زَعموا أنهم إنّما تَركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء.

على أن في هذا أمر آخر، وهو أن قوله: {أَنُؤْمِنُ} استفهام، لا يُعْطَفُ الخبرُ على الاستفهام."(دلائل: ٢٣٣)

الوجه الآخر:فيه نظر.ذلك أنَّ الاستفهام الذي في« أنؤمن» أريد به النفي، فهو خبرٌ في المكعنى، فاستقام له الوجه الآخر ،بينا الوجه الآخر لم يستقم، على أنّي أرى أنَّ الأعلى أنّ الفصل في الآية للاستئناف البياني. وما ذكره عبد القاهر دون القولِ بالاستئنافِ البيانيّ .

ويبقى القول في ما إذا كانت إحدى الجملتين إنشاء طلبيًا لفظًا ومعنى،وكانت الثانية إنشاء غير طلبي. أيكون بيْنهما كمال انقطاع.

الإنشاء الطلبيّ عند الجمهور خمسةٌ : استفهامٌ وأمرٌ ونهيٌ ونداء وتمني

ومن أهل العلم من يضيفُ الرجاء،ومنهم من يذهبُ إلى أن الإنشاء الطلبي لفظا ومعنًى ثلاثة أساليب: الاستفهام والأمر،والنهي، أما النداء والتمني والرجاء، فلا طلب فيها، وهذا ما أتخذه مذهبًا.

النداء لا طلبَ فيه، فالأصل في النداء في الأساليب التي يعنى به النظر البلاغيّ لا يكون لطلبِ الإقبال الحسي الذي هو انتقال المنادى من مكان إلى مكان المنادي، بل يكون النداء للإقبال القلبي ،فهو إلى التنبيه فمثله كمثل"الأ" التي تكونُ في أول الكلام.

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (البقرة:١٢)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:٢١٤)

فالتنبيه والتحذير ونحو ذلك معانٍ إفصاحية وليست طلبيةً.

الإنشاء غير الطلبي هو من قَبيل الإفصاح كالتحسر والتعظيم والتحقير ونحو ذلك هو من قَبيل الإفصاح عن معانٍ تعتلج في النفسِ ، لا يراد بها الطّلب، وأهل العلم يقررون أن الإنشاء غير الطلبي«الإفصاحي » أصله خبرٌ .

وعلى هذا فالأسلوب إما خبر، أو طلب أو إفصاح،وهو ما يسمى بالإنشاء الطلبي، فإذا كان معنى الجملة إفصاحيّ ، فهو إلى الخبر أقربُ باعتبارِ اصله،وليس من الطلب في شيْءٍ ، ذلك ما أتاخذه مذهبًا،

ولك ان تجري على أي شريطة أن تكون على بصيرة بما أنت عليْه، لئلّا تكونَ غمعةٌ تقفو ما ليس لك به علم ، فتتردي في معصية الله تعالى.

.....

مما هو حسنٌ استحضارُه أنّ البلاغيين حين لا ينظروا إلى ما كان بين جملتيْن للأولى محلٌ من الإعراب ،كمثل لا ينظرون إلى ما كان من عطف مفرد على مفرد، لا لانتفاء فائدة في النظر إلى ما بيْن هذين من عطفٍ وتركه كلا ، هم لا ينفون الفائدةَ، ،بلْ ينصرون عما فيها من فائدةٍ لأنّها ممّا لا يحتاجُ إدراكه إلى تبصّر ، فإدراكه قريبٌ،وما كان كذلك ، فليس العقلُ البلاغيّ العربيّ بمهمومٍ به. هو عقلٌ رَغوبٌ في ما هو لطيفٌ طريفٌ ؛ لأن ذلك هو مناطُ التفاضل بيْن العقولِ والأذواق ،وما قل فيه التفاضل ليس بأهلٍ لأن يشتغلَ العقلُ البلاغي به.

ومما يدخل في هذا الوجه من الصورة الأولى قول الله تعالى لسيدنا رسول الله صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصحبه وسلّم:« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(التوبة:١٠٣)

فقول «خذ» جملة إنشائية لفظًا ومعنًى وليس لها محلٌ من الإعراب، وقوله« تطهرهم» خبر لفظا ومعنى، فلم تعطف على الأولى لاختلافهما في النّسبة الكلامية لفظا ومعنى.وكذلك قولُه :« صلِّ؛ وقولُه :« إن صلاتك» على ما لا يخفى

وأنت كما ترى تعليل قريبٌ لا تجدُ حاجةً في إدراكه، يهشّ له اللغوي ،والنحويّ ، ولكنّ ثَمّ وجها آخرَ هو أليق بالعقلِ البلاغيّ . هذا الوجه أن بينهما استئناف بياني. قوله " خذ من اموالِهم صدقةً" يستثير في النفسِ تساؤلا ، يأتي قوله« تطهرهم وتزكيهم بها، جوابا، فيكونُ الفصل للاستئناف البياني.

وكذلك قوله« صل عليهم" يستثير تساؤلا في النفس، يُجيبُ عنه قوله" إنّ صَلاتَك سكنٌ لهم" فيكون الفصل للاستئناف"

والآيةُ فيها نظرٌ فسيحٌ يُحتاجُ معه إلى تبصُّر وتدبّرٍ وهذا مِن حقّ نفسك عليْك أن تطعمَها بعضَ ما فيها مِن معاني الهدَى لعلّها تستَحيل أمّارةً لك بالحُسنَى.

وتبصّر توجيه الأمرِ لسيّدنا رسولِ الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وَصَحبِهِ ، وسَلّم – في قوله«خذ» وما فيه من إبانةأنّه - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وَصَحبِهِ ، وسَلّم – محمولٌ على ذلك، فما بعثه الله تعالى جابيًا ، بل هومأمورٌ بذلك، وما في هذا من تطييب للنفس من أنّها إذ تخرج الصدقةَ إنما تخرجها لله تعالى ، وما فِي قولِه « مِن أموالِهم» وقوله « صدقةً» وتقديم «من أموالهم» على« صدقةً» وظاهر النّظم : خذْ صدقة من أموالِهم،وهلْ تكونُ «من» تبعيضيّة أم بيانيّة.

ثم انظر فِي «تطهرهم» ، لِمن تكونُ التاء أهي تاء خطاب تعودُ إلى المأمور في«خذ» وكيف يكون التّطهير منه - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وَصَحبِهِ ، وسَلّم أمْ أنّ "التاء" تاء تأنيث ترجع إلى "الصّدقة" أي الصدقة تطهرهم،وما في هذا من التجوز في الإسنادوما في هذا من معانٍ لطيفة طريفة.

وما المراد بالصدقة أهِي الفريضة أمْ الزّكاة، وما الّذي تستطعمهم من الإعراب بالصدقة إن قلنا إنّها الفريضة، وكان يمكنُ أن يعربَ عنها بالزّكاة، كما في «وأتوا الزكاة»

وتبصر الفرق في نظم إذ ما قرئ تطهرهم " بضم "الراء" وقرئ بتسكينها، أيختلف النّظم،ويختلف المعنى؟

وكذلك القولُ في«تزكيهم» كيف تكونُ التَّزكيةُ أهي من الصدقة أم من رسول الله ـ صلَّى اللهُ عَليْهِ وَعلَى آلِه وَصَحبِهِ ، وسلَّم ـ وما علاقة تزكيهم بتطهرهم" أليست التزكيةُ تطهير؟ ولِمَ أخَّر الجار والمجرور ،وكان يمكن في غير القرآن أن يقال : تطهربهم بها وتزكيهم.؟ وما وجه تعدية الفعل«صلِّ» بـ"على" أهو من قبيل "التَّضمين"وما الذي يحمله هذا «التَّضمين» مِن المعاني في هذا ،وما المقتضي التوكيد في«إنّ صلاتك سكنٌ لهم»

اسئلة تَوافد على فؤادك ،وأنت تتلوا هذه الآيات، فهل لك أن تَعتكف في محرابها، مستبصرًا متدبرًا. اسْتَعنْ بالله تعالى ولا تعجزْ.

الوجه الآخر للصُّورة الأولَى منْ "كمال الانقطاع بلا إيهام."

هذا الوجه يكون الاختلاف في النسبةِ الكلامية في المعنى وحده في أحدَى الجملتَيْن أو فيهمامعنًى. المهم أنهما لايتفقان في النسبة الكلامية من حيثُ المعنى. وإن اتفقتا من حيثُ اللفظ .

يقول السّعد:

«أوْمعنًى» أي لاختلافهما خبرا وانشاء (معنى) بأن تكونَ إحداهما خبرًا معنًى والأُخرَى إنشاءً معنى وإن كانتا خبريّتيْن أوْ إنشاءيّتيْن لفظًا (نحو :«مات فلان رحمَه الله)أيْ لِيَرحمْه الله، فهو إنشاءٌمعنًى فلا يصِحُّ عطفُه على :"مات فلانٌ"

(التَّنْــوير)

الاعتدادَ الرَّئيس هنا إنَّما هُو إلى شأنِ المَعنى، لا إلى صورتَيْهما. فقد يُوتَى بصورةِ المَعنى علَى غيْرِ ما علَيْه المَعنَى مِن النِّسبةِ الكلاميَّة خبرًا وإنشاءً لمقتضٍ وغرضٍ بلاغيّ من وراء تلك المخالفة بيْن المعنى وصورتِه في كلِّ جملةٍ مِن حيْثُ الخبريّة لفظًا ومعنى. فإتيانُ الإنشائيَّة معنًى فِي صورةِ خبريّةٍ، إشارةٌ إلى أنّ المتكلّمَ يومِئُ إلى أنّ المَعنى مِن شأنِه أن يكونَ متحققًا يُخبَر عَنه ، لا أن يُطلَبَ وقوعه ، فلذلِك مسلكٌ مِن مسالك توكيد المعانِي .

و هذا تجدُه في سِياقات الدّعاء والتّرحم. يوحى إليْك المتكلّم بشديدِ رغبتِه فِي أن يكونَ ما يُطلب، وألَّا يكوْن ثَمَّ فاصلٌ بيْن طَلبِه،وتحقُّقِه ، فيخبرُ عنه.

مَن قال "مات فلان رحمه الله تعالى " دونَ قوله: "مات فلانٌ .ليَرحمه الله تعالى" فإنّه يومئ إلى عظيمِ رغبته في أن يكون قد تحققت له رحمةُ ربّه مع موته مباشرة، فكما أنّ موته محقّق أخبر به، فرحمةُ الله تعالى يتطلّع أن تكون قرين امساك روحه، فكأنّه قد فُعل به أمران متلازمان، لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر، ولا يتقدمُه قيد أنملة: موته ورحمةُ الله تعالى ، فالذي انتزعَ روحه عن جسده، جعل له الرحمةَ. أخذ منه روحه، وأعطاه رَوْحَه وريحانه ورحمتَه.

وفي هذا من تصوير ما بيْن المتوفى ،والمخبر بموتِه من عظيم التآخي .

****

ومما جعله السكاكي من الفصل لاختلاف الجملتين في النسبة الكلامية في المَعنى قول الشّاعر اليزيدي:

ملَكتُه حبلي ، ولكنَّه * ألقاهُ مِن زهدٍ علَى غاربِي

وقالَ إنّي فِي الهَوى كاذبٌ * انتقمَ اللهُ مِن الكاذبِ

ذهب إلى أنَّ قوله " انتقم الله من الكاذب" دعاء ، فهو إنشاء طلبيّ ،وقوله :" إني في الهوى كذاب" خبرٌ، ففصل بينهما. هذا فيه نظرٌ من وجوه

الأوّل : أنَّ الدُّعاءَ هنا ليْس على بابِه، بل أريد بِه نفي الدعوَى بطريق بالغ الوكادة.فهو انشاء أريد به الخبر.

والثّاني : أن " إنّي في الهوى كاذب" في محل نصب مقولُ القولِ، ولا يعطف عليه ما بعده لئلّا يستوهم أنّه من مقولِ الحبيب.فهو كمثل ما سبق في" الله يسْتهزئُ بهم"

والثالث : أن قوله : انتقم الله من الكاذب " جواب سؤال متولد من " قال إني في الهوى كاذب " فهو استئناف بياني .

يقول عبد القاهر:« استأنفَ قولَه: "انتقمَ اللهُ من الكاذبِ"، لأنه جعلَ نفسَه كأنه يجيبُ سائلاً قالَ له: "فما تقولُ فيما اتُّهمكَ به مِن أنَّكَ كاذبٌ؟ " فقال أقولُ: "انتقمَ اللهُ منَ الكاذبِ".(دلائل: ٢٣٨ فقرة:٢٦٩) وهذا الأخير هو الأعلى والأولَى.

قوله :" ملكته حبلي" استعارة تمثيلية يراد بها الدّلالة على عظيم الاستسلام له، والانصياع لمراداته ، وأنّه لم يبق له من أمره ما يمكنه أن يتصرَّف فيه، ولم يبق له إرادة تحمله إلى أن يكون له رأيٌ وموقف في أمرٍ من الأمور ، وفي هذا عظيم تصوير لما هو آخذ بقلبه من محبته والانبهار له والإخبات والتخشع .. وكل هذا ليبني عليه عظيم المفارقة بين حاله معه ، وحال محبوبه معه ، فعدلُ القضاء أنّ من كان حاله هذا مع محبه ، حقّ على المحبوب أن يستمسك به ، ويستعلي ، ولكنّ الشاعرَ يصوّرُ لنا ما كان من محبوبِه بقوله : ولكنَّهُ ألْقاهُ من زُهْدٍ على غاربي " فهذا يصوّر لك عظيمِ ما هو آخذٌ بهذا المحبوب من استغناء وتزهّد فيما يتزهّد فيه ، فمن للمرء بمحبٌ مثل هذا الذي يملّك محبوبه حبلَه وقيادَه وخطامَه وعِنانه ؟ أيّ محبوبٍ هذا الذي يرغب عن مثل ذلك؟ ما الذي يبتغيه غير ذلك ؟ وهل من وراء ذلك في شأن الحب ما يبتغى؟

أنّها الحيرة التي تجعل المرْء لايعرف كيف المخرج إلى سبيل الرضا.

أرأيت كيف يصور لك الشاعر حاله ، وما هو مقيم فيه من مقيم مقعد ؟ هل لك أن ترشده إن كان هنالك ما يُرشدُ إليه في مثل هذا؟

وقوله : (ألقاه من زهد على غاربي) استعارة تمثيلية تعادل الاستعارة التمثيلية في (ملكته حبلي) لك أو عليك أن تستحضر المشهد، عليك ألا تكتفي بلذة الإستماع، لم تحر بصرك من الرؤية؟ هلا أحلت المسموع مشهودًا إنّها اللذة المحمودة . لذة التحويل . لك أن تجرب ،ولن تستغن أبدا . ومن ذاق عرف . وهذا شأن العقل البلاغيّ .

لك أو عليك وأنت تشهد أن تتخيل صورة الشاعر المحبُ وهو يُلقي بحبلِه في يد محبوبه ، لك أو عليك أن تُبصر ملامح الشّعور الفيّاض في صدره ، وهو يقدم نفسه قربانا ، ولك أو عليك أيضًا أن تشهد ملامح الشُعور النفسيّ الآخذ بقلب المحبوب، وهو يلقى زهدًا هذا القربان . أيُ منظرٍ هذا؟

ولايكتفي المحبوب بأن يلقى القربان تزهدًا بل يسقط على المحب اتهامًا هو القتلُ بعينه : يتهمه بكذب الحبّ. كيف يكون الصدق في الحبّ إذن ؟!!!

وهنا يعطف الشّاعر قوله: (قال إنّي في الهوى كاذب) على قوله (ألقاه من زهد على غاربي) ليرسم لك تصاعد الموقف ، ليتَ المحبوب اكتفى بإلقاء الحبل على غارب المحبّ تَزهُدًا لكان في الطوق احتمالا ما ، أمّا الافتراء عليه ، والادعاء بما لايمكن أن يكون منه ، فتلك هي الحالقة القارعة .
وهنا يتأزّم الموقف ، ويتأجج صدر السامع ، ويتعاطف مع المحبّ ، فيتنفض إزاء هذا الادعاء والافتراء " فما تقولُ فيما اتُّهمكَ به مِن أنّك كاذبٌ؟ "
لم يجعل الموقف الأوّل : إلقاء الحبل على الغارب تزهدًا هو المفجر في السامع تساؤلا، بل جعل هذا القول هو المفجر فيه ذلك السؤال العارم ؛ لأنّ هذا الادّعاء هو الأنكى والأدهى ، فيأتي الجواب ، وقد بلغ الأمر مبلغه ، ممّا جعل المحب يدعو بهذا الدعاء الرّهيب : انتقم الله من الكاذب.
جعل أمر إلى الله تعالى ، وفي هذا عظيم دلالة على صدق حبه ، وعظيم افتراء المحبوب عليه بجريرة كذب الحبّ.
فلا يقول ذلك الدّعاء من يحتمل أدنى احتمال أن يكون في حبّه أدنى شائبة كذب . إنّ هذا الدعاء لهو الدّليل الباهر القاهر على عظيم صدق محبته ، وعلى أنّ محبوبه لم يستطع أن يستشعرَ قلبُه حرارةَ أوار صدق ذلك الحبّ.
ومما هو جديرٌ بأن تكونَ منه على ذكر أن تتأكد من أنّ الإسلوب الإنشائيّ أريد به الطلب، فإن أريد بهِ غيره كأن أريد به الخبر فالاعتداد بمعناه، لا بلفظه،
وعلى هذا يتبين لك أن الوجه الآخر الذي أشار إليه عبد القاهر في الدلائل ،وهو يُبين عن وجه الفصل في قول الله تعالى:« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (البقرة:١٣)
قال :" عطف: {إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ} على ما قَبْلَه، لكان يَكونُ قد أُدْخِلَ في الحكايةِ، ولصار حديثاً مِنهم عن أنفسهم بأنهم هُمُ السفهاءُ، من بَعْدِ أن زَعموا أنهم إنّما تُركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء.
على أن في هذا أمر آخر، وهو أن قوله: {أَنُؤْمِنُ} استفهام، لا يُعْطَفُ الخبرُ على الاستفهام."(دلائل: ٢٣٣)
الوجه الآخر الذي ذكره عبد القاهر هنا فيه نظر. ذلك أنّ الاستفهام الذي في« أنؤمن» أريد به النفي، فهو خبرٌ في المعنى، فاستقام له الوجه الآخر ،بينا الوجه الآخر لم يستقم، على أنّي أرَى أنّ الأعلى أنّ الفصل في الآية للاستئناف البياني. وما ذكره عبد القاهر دون القولِ بالاستئنافِ البيانيّ .
ويبقى القول في ما إذا كانت إحدى الجملتين إنشاء طلبيًا لفظًا ومعنى،وكانت الثّانية إنشاء غير طلبي. أيكون بيْنهما كمال انقطاع.
الإنشاء الطلبيّ عند الجمهور خمسةٌ : استفهامٌ وأمرٌ ونهيٌ ونداء وتمني، ومن أهل العلم من يضيفُ الرجاء،ومنهم من يذهبُ إلى أنّ الإنشاء الطلبي لفظا ومعنًى ثلاثة أساليب: الاستفهام والأمر،والنهي، أما النّداء والتمني والرجاء، فلا طلب فيها،وهذا ما أتخذه مذهبًا.
النداء لا طلب فيه، فالأصل في النّداء في الأساليب التي يعنى به النظر البلاغيّ لا يكون لطلبِ الإقبال الحسيّ الّذي هو انتقال المنادى من مكان إلى مكان المنادي، بل يكون النّداء للإقبال القلبي ،فهو إلى التنبيه فمثله كمثل"ألا " التي تكونُ في أول الكلام.

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (البقرة:١٢)
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:٢١٤)

فالتنبيه والتحذير ونحو ذلك معانٍ إفصَاحية وليست طلبية.

والتمني أيضًا لاطلب فيه، بل هوإفصاح عما يعتلج في النفس، كيف يطلب المرء ما هو مساحيل أو عصيّ اي طلبٍ في السيدى مريم - رَضِيَ اللهُ عَنْها فيما حكاه القرآن « فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»(مريم:٢٣)

أو في قول الظالم يوم القيامة:« يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) (الفرقان)

وفي قول الأخوص: أَمْسَى شَبَابُكَ عَنَّا الغَضَّ قَدْ حَسَرَا * ليتَ الشَّبابَ جديدٌ كالَّذي عبرا

إنَّ الشَّبابَ وَأَيَّاماً لَهُ سَلَفَتْ * وَلَّى ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ لَذَّاتِهِ وَطَرَا

أَوْدَى الشَّبابُ ، وَأَمْسَتْ عَنْكَ نَازِحَةً * جُمْلٌ ، وَبُتَّ جَدِيدَ الحَبْلِ فَ نْبَتَرا

وفي قول الشاعر: **ليت الشباب يعود يومًا، فأخبره بما فعل المشيب**

الإنشاء غير الطلبي هو من قبيل الإفصاح كالتحسر والتعظيم والتحقير ونحو ذلك هو من قبيل الإفصاح عن معانٍ تعتلج في النفسِ ، لا يراد بها الطلب ،وأهل العلم يقررون أن الإنشاء غير الطلبي«الإفصاحي » أصله خبرٌ .

وعلى هذا فالأسلوب إما خبر ، أو طلب أو إفصاح،وهو ما يسمى بالإنشاء الطلبي، فإذا كان معنى الجملة إفصاحيّ ، فهو إلى الخبر أقربُ باعتبارِ اصله،وليس من الطلب في شيْءٍ ، ذلك ما أتخذه مذهبًا،ولك أن تجري على أيِّ شريطة أن تكون على بصيرة بما أنت عليْه، لئلا تكونَ إمعةً تقفو ما ليس لك به علم ، فتتردي في معصية الله تعالى.

بقيت مسألة وجوب الفصل بين الجملتين المختلفتين في النسبة الكلامية لفظا ومعنى أو معنى فقط.

القولُ بهذا لا أذهبُ إليْه، فالبيان البليغ قائمٌ فيه عطف أحدهما على الآخر بالواو ،والذين يوجبون عدم العطف بالواو سلكوا مسالك في تاويله،وقد نشرت في طلاب العلم بحثا عنوانه مسلك العطف بيْن الإنشاء والخبر، وناقشت في أدلة القائلين بالمنع،وبوجوب الفصل،وبينت مذهب القائلين بالعطف بالواو، فراجعه إن أحببت. المذهبُ الذي اتخذه أنَّ اختلاف النِّسبة الكلاميّة بين الجملتين في المعنى فقط أو فيه وفي اللفظ لا آخذ به ، فإن كان هنالك فصلٌ ، فليس لاختلاف النسبة الكلامِيَّة، بل لأمر آخر،ويغلبُ أن يَكون للاستئناف البياني. ولك أن تأخذ بما تراه بصيرًا هو الأعلى.

الصُّورة الثانية

لكمال الانقطاع بلا إيهام:

جمهور البلاغيين على أنّ العطف بـ«الواو» يوجبُ أن يكون هنالك جامع خاصٌ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليْه.
فإن لم يكن فلا يستقيم العطفُبـ« الواو» خاصّة، ويستقيمُ عندهم العطف بغيرِ «الواو» لإن لم يكنْ جَامعٌ خاصٌ.
يقول السعد:

« (أوْ لأنّه) عطف على «لاختلافهما» والضمير للشان (لا جامع بينهما كما سيأتي). بيان الجامع ، فلا يصحُّ «زيد طويلٌ وعمرٌو نائمٌ» ولا « العلمُ حسنٌ ،ووجهُ زيدٍ قبيحٌ».

(التّنــوير)

هذه الصورة الثانية لكمال الانقطاع بين الجملتين بسبب انتفاء جامع خاص بينهما مما لاتجد له واقعًا في البيان البليغ سواء كان بيان وحي أو بيان إباعِ بشري، وما استشهدوا به في هذا سواء في أسفارِ البلاغيين والنقاد أو أسفار المفسرين وشراح الحديث لا يثبت القول بانتفاء الجامع بيْن الجملتيْن التي لم تعطع الثانيةَ على الأولى بالواو خاصة، فما استشهوا به للفصل وجه آخر غر كمال الانقطاع مع الإيهام ، وأكثره وجه الفصل الاستئناف البيانيّ أو ثم جامع ولكنه لطيفٌ

لا يكون البتة في الكلام العالي فقدُ الجامع الخاصّ بين المَعاني إذا ما اتسعت دائرة الجامعِ الخاص ليدخل فيه الغرض المرحليّ ، والغرض المحوريّ "المقصود الأعظم"

عليك الأ تتسارع إلى القول بأن الفصل لانتفاء الجامع بيْن الجملتيْن. ليس ثم جملتان في بيان بليغ لا جامع بيْنها،وما جاء، فهوأبعد عن أن يكون بليغًا.

الجامعُ الدقيق اللطيفُ الذي يحملُ السّامعَ إلى بذلِ مزيدٍ من التفرس إنما هو قائمٌ حاضرٌ في كل بيانٍ بليغ.

ولكنّ الّذي فيه نظرٌ عندي هُو أن عدمِ الاعتداد بالجامعِ حين يدقُّ ويلطفُ، فلا يبصرُه إلاّ ذو فراسةٍ بيانية نافذةٍ سَابغةٍ ، فيجعلُ طرفيه من كمال الانقطاع إن قيل به ، فذلك غير قويم .ذلك أنّ العلاقاتِ بيْن المعاني كلّما دقّت ولطفت جعلت الكلامَ أبعدَ في منازل البلاغة، وكان حرًى بهم أن يُعاملوا الجامعَ بين المعاني في باب "الفصلِ والوصلِ" معاملتَه في بابِ "التشبيه" ، أليس الجمعُ بيْن المتباعداتِ والمتنافراتِ حين يدقُّ الجامع ويلطفُ يجعلُ "التّشبيه" أسمَى مقامًا، وأكرم عطاء؟[1] فلم لا يَكُونُ كذلك حين يكون في بابِ "الفصلِ والوصلِ" ، مع أنّهم قالوا في منزلة المعرفة بباب "الفصل والوصل" ما لم يقُولوه في منزلة المعرفة بباب "التشبيهِ" ، وهما معًا من قبيل علاقاتِ المعاني وأنسابِها؟

ممّا قال فيه بعضُ أهل العلم إنّ ترك العطف فيه لانتفاء الجامع الخاصّ قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(البقرة: ٦ـ ٧)

([1]) ينظر :أسرار البلاغة لعبد القاهر: ص 157 فقرة 133؛ ص 165فقرة 136:

ذهب جمعٌ مِن أهل العلم إلى أنّه لم يعطف قوله ﷻ : ﴿ إنّ الذين كفروا ... ﴾ لانتفاء الجامع الخاصّ ، فهو استئناف غير بيانيّ أي استأنف الكلام في قضيةٍ أخرى وموضوعٍ غيرِ الذي كان الكلامُ فيه.وقد صرّح بهذا الزّمخشري: قائلاً :

« فإن قلت : لم قطعتْ قصّةُ الكفار عن قصّةِ المؤمنين ولم تعطف ، كنحو قوله : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وغيره من الآي الكثيرة ؟

قلت : ليس وِزانِ هاتين القِصّتَين وِزان ما ذكرتَ :لأنَّ الأولَى فيما نحنُ فيه مسوقةٌ لِذكرِ الكِتابِ وأنّه هدى للمتقين ، وسيقتَ الثّانيةِ لأنَّ الكفار من صفتهم كيتَ وكيتَ، فبين الجملتين تباينٌ في الغرض والأسلوب ، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف.

فإن قلت هذا إذا زعمت أن (الذين يؤمنون...) جار على المتقين ، فأمّا إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم، كان مثلَ تلك الآي المتلوّة.

قلت: قد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف ، وأنه مبنيّ على تقدير سؤال ، فذلك إدراج له في حكم المتقين ، وتابع له في المعنى وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه. » ([1])

كلام الزّمخشريّ هذا قام من حوله حركة ناقدة نقدًا تفسيريًا ونقدًا تقويميًا .

ومن أهل العلمِ من لم يجر على مَهيع الزّمخشريّ . ورأى في ما بيْن قوله ﷻ :﴿ إنّ الذين كفَرُوا سواءٌ عليهم.... ﴾ علاقة وطيدة اقتضت الاستغناء عن الرّبط اللفظي لما بيْنه وبيْن سِباقِه من ارتباطٍ داخليٍّ أقوى من أن يفتقر إلى ربط خارجي. ([2])

الذي هو الأعلى عندي أنَّ ذهابَ الزّمخشريّ إلى أنَّ الآيات الأولى من السورة(١-٤) مسوقةٌ لِذكرِ الكِتابِ وأنّه هدى للمتقين، وأن لحاقها مسوقٌ لبيانِ أنَّ من صفتهم كيتَ وكيتَ، يُفهم منه أن ذكر الذين يؤمنون بالغيبِ، جاءَ على سبيلِ التبيين لنعتِ المتقين. وهذا فيه نظرٌ عندي:

مِن أوّلِ السُّورةِ إلى خِتامِ الآيةِ العشرينِ هُو مُقدّمة السُّورة ، وهو مسوقٌ لغرضٍ واحدٍ هو بيان أمر هذا الكتاب. فهو ﷻ كما استفتحَ سورة "أم الكتاب" بثلاث آياتٍ أبانت عن صفته ﷻ ، جاءت الآيات الأربع في أول سور التفصيل : سنامِ القُرآن ، سُورة (البقَرة) مُبينة عن صفة الكتابِ الذي أنزله على خاتم رسله عَلَيْه الصّلاةُ والسّلام فالآيات: (٥-٢٠) من أول قوله ﷻ : ﴿ إن الذين كفروا سواءٌ... ﴾هي من بيان هذا الكتابِ . فبيانُ الكتاب جاء من ثلاثةِ نسقت نسقًا محكمًا ، لا سبيلَ إلى تقديمِ ما أخر، أو تأخير ما قدم:

جاء مِن بيان كمالِه وعلُو منزلتِه . فهذا ناظر إلى كمال استجماعه المناقب جميعها .

وجاء مِن بيانِ علوه عن محلّ أن يكون فيه ما يُمكن أن يكون سببًا موضوعيا للرّيب. وهذا ناظر إلى كمال استجماعه العصمة من أيّ مثلبةٍ .

([1]) الكشاف 46/1

([2]) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: حاشية شرف الدين الطيبيّ على الكشاف. تحقيق عمر حسن القيام. إشراف محمد سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم بدبيّ. الطبعةُ الأولى عام1434 هـ ، 120/2 ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 91/1

وَجاء مِنْ بيان أثرِه وفائدتِه. وشرائطُ الانتفاعِ بِه. وموانعِ الانتفاعِ. وهذا ناظر إلى كمال استجماعه النفع لكلّ من كانَ أهلا لأن ينتفعَ بِه .

فجعل النَّاس ثلاثة فِي هذا الباب:

طائفة الذين يؤمنون بالغيب...

وفرقة المختوم على قلوبهم.

وفرقة المنافقين.

هذا هو الذي يقتضيه نسق البيان.

وقول الزمخشريّ إنّ قوله تعالى:﴿إنَّ الذين كفروا سواء... ﴾ مُباينٌ لما قبله في الغرض ،غير مسلَّم له ، بل هو جارٍ في الغرضِ نفسِه. والفصلُ إنما هو للاستئنافِ البياني ، وليس لكمال الانقطاع للخلو من الجامعِ الخاصّ.

وقوله تعالى :(هدًى للمتقين...﴾ إن قلنا إنّه مسوقٌ لمدح الكتابِ ففي بيانِ من لا ينتفعُ به لأمرٍ قائمٍ فِي نفسِه يحاجزه عن أن ينتفع بِه عظيم مدحٍ ، لا يخفَى ؛ لأنّه لو كان الانتفاعُ بِه يستوي فيه من كان مليئًا لعوامل الانتفاع ، وطهورًا من موانعها وعوائقها ، ومن كان حريصًا على تكاثر عوائقِ عدم الانتفاع وغيبة عوامل الانتفاع لكانَ نقصانًا فيه.

والبيان القرآني مَلآنٌ بالآيات المقررة أنّ الله تعالى لا يهدي من أقام في نفسِه العوائق :﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨) ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤) ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:١٠٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣)﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر:٢٨) (١)

تلك عوائق الانتفاع أقامها أولئك في نفوسهم وتعاهدوها ، فكان من عظيم الثَّناء على الله سُبحَانه وتَعالَى أنّه لا يهديهم إلى الانتفاع بكتابِه ، وإلى ما فيه خيرهم. فمن عظيم الثناء على الكتاب أنّه ليس هدًى لأولئك. وفي هذا إغراء لكل عاقلٍ أن يتطهَّر من العوائق والصَّوارف التي تحاجزه عن الخير، ورأس الخيرِ الانتفاع بهدي القرآن.

ما سِيقَت له مقدمة سورةِ البقرة هو بيانُ شأن هذا الكتابِ وصفِته مناظرًا لما استفتحت بِه سُورةُ "أم الكتاب" ببيان شأنِ الله تعالى وصفتِه.

ذكر في شأن الله تعالى في أوَلِ الفاتحةِ أربعةَ نعوت :

= ذكرَ أنّه مُستحقٌّ للحمد لذاتِه .

= وذكر أنّه ربّ العالمين .

= وذكر أنّه الرّحمن الرَّحيم .

= وذكر أنّه مالك يوم الدّين .

---

(١) في هذه الآيات هداية إلى ما يحجز عن الانتفاع بالقرآن متمثلاً في أمور منها: الظلم، والكفر، والفسق، والكذب، والإسراف على النفس بالمعاصي، فيها من جليل وكريم بيان الله [لنا، كيما نعرف مواقع أقدامنا ونعلم علم يقين أنحس من يجنبهم الله [على أن ينتفعوا بالقرآن وأن لهم من الله [هداية بيانة وإعانة وتسديد وتثبيت، أو أن الأمر على غير ذلك.

والعبد الناصح نفسه إذا ما سمع الله [يقول: "والله لا يحب ..." "والله لا يهدي" استجمع كل مدركاته الحسية والمعنوية، وأيقظ فؤاده فاستجمع بيان الله [عما لا يحب، وعمن لا يهدي، ومكث معتكفاً يتبصر ويتدبر ويقايس حاله يفتش فيه أفيه شيء مما لا يحب الله [أفيه شيء من مثالب من لا يهديه □ تلك فريضة على كل ناصح نفسه. .

وكلّ واحدة من هذه تقتضي مدحه عليها ، فهو الذي يستحقُّ الحمدَ لذاتِه ولهذه ، وهي رأس ما يحمد عليه سُبحَانه وتَعالَى ، وهذا يلحظ ما في سورة الإخلاص : عرَّفنا بذاته ، ونعوتِه ، فذكر أربعًا :

= ذَكَرَ أنّه أحدٌ

= وذَكَرَ أنّه صمدٌ

= وذَكَرَ أنّه لم يلد ولم يولد

= وذَكَرَ أنّه ليس له كفوًا أحد"

فكان مفتتح البيان القُرآنيّ تعريفًا بِه سُبحَانه وتَعَالَى وكذلك مختتمه . فسبحانه وتعالى جدّه ما أرحمه وأرأفه إذ تولّى عنا ما لا يمكننا أن نعرفَه بأنفسنا ، فكان هذا آية من آيات أنّه ربّ العالمين وأنّه الرَّحمنُ الرّحيم.

كذلك تتلاحظ المعاني وتتداعَى وتتنادى. وهو ضربٌ ممّا يُسميه البلاغيون بردّ الأعجازِ على الصدور. وهو بابٌ وسيع في بيان الوحي يرجع إلى القضية الرئيسة: علاقاتُ المعاني وأنسابِها.

الموضع الثّاني

من مواضِع الفصلِ

كمـال الاتصال : الاتصَالُ إلى غايةٍ

فرغتُ مِن النَّظَر فِي ما جاء به السّعد ومَن قبلَه ومَنْ بعدَه من القول في الحالةالأولَى: « كمال الانقطاع بلا إيهام» وانتهى بنا القولُ إلى أنّ هذه الحالة الأولى إنّما هي مقحمةٌ في هذا الباب ، بل مقحمة فيما هو مشعلة العقل البلاغي، فما جاءوا به من أمثلة لا يثبت القولُ في أيّ القولُ بـ«كمال الانقطاع» فصورته الأولى : "القطع لاختلاف النّسبة الكلاميّة" الأعلى الذّهابُ بالفصل إلى وجه آخر ، فعُظم ما في هذه الصورة ينتمِي إلى «كمال الاتصال» أو «شبهه». فلا حاجة إلى القول فيه بالفصل لكمال الانقطاع .

والصّورة الأخرى الّتي جعل الفصل فيها لانتفاء الجامع الخاصّ بيْن الجملتين إنّما هو قولٌ لا يكونُ في كلام بليغ.

لا تجد في الكلامِ البليغ جملتين لا نسب بينهما وثيق، وإن كان لطيفًا. وكلّما كان الجامع الخاصّ لطيفًا ومطابقًا لمقتضَى الحال كان ذلك أعلى وأنجعَ.

••••••

(توطئة)

جرَى البلاغيون على تَبيين هذا المُصطلح بأنّه ما كانت الجملة التّالية (اّللاحقة) نازلة من سابقتها الّتي لامحل لها من الإعراب أو ليس لها قيد معنويّ منزِلةَ التّابع في المفردات من متبوعه. والتوابع عند النحاة خمسة :

نعتٌ وَعطف بَيَان وتوكيد وَبدل وَعطف نسق (١)

وهم يجعلون هُنا التّبعيّة الّتي تنزّل التّالية من الأولى منزلتها في ثلاث تبعيّة توكيد، وتَبعية بدل، وتبعية تبيين :" عطف بيان"

وهذا الإنزالُ إنّما هو خضوعٌ لاقتضاءِ الأولى ذلك التّنزِيلَ. فالثّانية تنزّل مِن الأولَى، لأمرٍ فِي الأولَي يقتضِي الإتيان بجملةٍ تنزل منها منزلة التّابع لها ، فالمرجعُ إلى حالِ الجُملةِ الأولى فِي هذا التّنزِيل، فهي الّتي تنادي على التّالية، وتعين لها ما تكون عَلَيْهِ تبعيتها لها، فالجملة الثانية آتية بناءً على استدعاءِ حالِ الأولى لها ، فهي تحقق للأولى طَلِبَتها. وهذا مِن تنادِي المعاني ومتجاوبها.

وفِي هذا التّنزِيلِ دلالةٌ على أنّ علاقةَ الجملِ في بناءِ صورةِ المعنى استحالتْ كعلاقةِ الكلمةِ بأختِها في بناءِ صُورة معنَى الجملةِ ممّا يهديك إلى أنّ انبساطَ صورِ المعاني وامتدادها مِن معنى الجملة إلى ما فوقه... لا يكونُ سببًا في تفكّكِ البيان ؛ لأنّ علاقاتِ مكوناتِ البِناءِ لا تتأثر بأحجام المكونات. وإنما تتأثر بأنواع علاقاتها وإحكامها .

---

(١) يجمل بك طالب علم أن تفيء إلى كتاب «همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي في باب التوابع ج3ص141عبد الحميد هنداوي الناشر: المكتبة التوفيقية القاهرة ففيه ما يغنيك إن شاء الله تعالى أو أي كتاب نحو فيه قول في «التوابع»

وهذا مهمّ جدًا في فقه علاقاتِ المعاني ، مقدار المعنى وصورته ليس له أثر في مستوى العلاقة بين المعاني ونوعها العلاقة بين معاقد الكلام (النصّ) كمثل العلاقة بيْن الكلم في بناء الجملة. ومن حَسِب غيرَ ذلك، فقد أتى الأمر من غير الجهة التي هي أولى بأن يأتيه منها.

وهذا يستوجب أن نتلبّث مليًا عند الجملةِ الأولى ، نتفرّسُ حالَها في سياقِها وما هي مكلفة بتحقيقِهِ في هذا السّياقِ ، ومَدَى قدرتِها على أن تقومَ بذلك كلّه بنفسِها ، أو مدَى عوزِها إلى أن يكونَ ما يُعينُها على تحقيقِ ذلك، فتستدعِي تابعًا يُعينُها عليْه. وهذا ما قد يغفُلُ عنه بعض النّاشئة في طلبِ هذا العِلمِ.

تبينُ لك أنّ هذا التّنزيلَ على ثلاثةِ أنواع :

- تنزيل المؤكّد من المؤكّد
- وتنزيلُ المُبين من المُبَيَّن
- وتنزيل البدلِ مِن المُبدَلِ منه

قلتُ إنّ الذّهابَ إلى تنزيلِ الجملةِ التاليةِ منزلةَ التّابع من الأولى إنّما هو محكومٌ باقتضاءِ الجملةِ الأولى، فإن اقتضتْ الأولى تقريرَ معناها في قلبِ السامع وتوطينه نزلت تاليتها منزلة التوكيد، وإن اقتضت مزيدَ تبيين معناها في قلبِ السّمع وبسطه وإفعام القلبِ به ليُهيمنَ عَلَيْهِ نزلت التالية منزلةَ عطفِ البيان وإن اقتضت الأُولى مزيد توفية بحقّ المعنى من الاعتناءِ نزلت الثانية منزلةَ البدل .

وهذا كلّه ذوعلاقة وثْقَى بما جعله عبد القاهر مقوماتِ رئيسة لبلاغة البيان.(دلائل الإعجاز. ص: ٤٣) .

الجملةُ إن افتقرت إلى حُسن الدّلالة أو نقص شيْءٌ منه فيها ، فإنّها تفتقرُ إلى جملةٍ تتلوها تحملُ معناها وتُكمِل ما نقصَ فيها مِن حُسن الدّلالة ، فتنزّل الثّانية من الأُولى منزلة البيان من متبوعه في المفردات ، فيكون بينهما كمال اتصال للبيان

وإن افتقرَت إلى تَمامِ الدّلالةِ أو نقص شيْءٌ منهُ فيها ، فإنّها تفتقرُ إلى جملةٍ أُخرَى تتلُوها تحملُ شيئًا مِن مَعناها وتُكمِل ما نقصَ فيها من تَمامِ الدّلالة، فتنزّل الثّانيةِ مِن الأُولى منزلةَ البدلِ مِن متبوعِه فِي المفرداتِ، فيكون بينهما كمالُ اتصال للبدلِ .

وإن افتقرت إلى تبرّج الدّلالةِ وقوتِها وإحكامِها وتقريرِها في نفسِ السّامع أو نقص ذلك فيها ، فإنّها تفتقرُ إلى جملةٍ أخرى تتلُوها تحملُ معناها وتُكمِل ما نقصَ فِيها من تبرّج الدّلالة وقوتها ، فتنزّل الثّانيةِ مِن الأولى منزلة التّوكيدِ من متبوعِه في المفردات، فيكونُ بينهما كمال اتصال للتّوكيد.

هذا إنْ شئت أن ترجع بكمال الاتصال إلى مقالةِ عبدِ القاهر(دلائل الإعجاز. ص: ٤٣) في بيان مقومات بلاغة البيان. التي بها يتحقّق له إيصالُ المعنى إلى قلبِ السّامعِ فِي أحسنِ صُورةٍ من اللّفظِ ، كما يقولُ أبو الحسن الرّمّانيّ فِي" النكت"

****

من بعد ما فرغ السعد من ذلك بدأ في القول في الحالة الثانية التي يجب فيها «الفصل» وهوكمال الاتصال، وهو ما يسميه عبد القاهر« الاتصال إلى غاية» فقال:

(وأمّا كمالُ الاتصالِ، فلكونِ الثّانيةِ مؤكّدةً للأولَى) أوْ بدلًا عنه، أوْ بيانًا له
وأمّا "النّعتُ" فلمّا لَمْ يتميّز عَنْ "عطفِ البيانِ" إلّا بأنّه يدلُّ على بعضِ أحوالِ المتبوعِ ، لا عليْه و"البيان" بالعكسِ ، وهذا المعنَى ممّا لا تحقّق لَه في الجملِ لَم تنزّلِ الثّانيةُ من الأولى منْزِلةَ النّعتِ من المنعوتِ .

في اصطفاء مصطلح" كمال الاتصال" براعة استهلالٍ" ففيه إنباء بأن العلاقةَ بين معنى الجملتَين علاقةٌ بالغة الاتصال ممّا يجعل هذه العلاقة ليْست بحاجةٍ إلى ما ينبئُ عنها أو يُبْرِزُها من عوامل العطف ، فكمال العلاقةَ جعل الملتَين في غناء عن عاملٍ لفظ يبرز ما بيْنهما.
والاتصال هنا لا يراد به التّطابقُ لفظًا ومعنى ، وإلّا كان تكرارًا.
والسّعد يُبينُ عن أنَّ «كمال الاتصال» بيْن الجُملتَين في باب "الفصلِ والوصل" منحصرٌ في ثلاثة أبوابٍ من التّوابع:
في التوكيد، والبدل، والبيان "
أمّا "النّعت" فهو "والبيان" أخوان ،ولا فرق بينما إلّا فرقًا يتحقّقُ في المفردات لا في الجملِ ، والجمل هِي محلّ النّظر فِي باب« الفصل والوصلِ» لا "ال مفردات" .
هذا الفرقُ يتمثّل فِي أنّ "النّعت"يدلّ على بعضِ أحوالِ المنعوتِ ، إذا قلت : "لقيتُ أخاك الطويل" فقولك "الطّويل" لم يدل إلّا حالٍ واحدٍ من أحوال أخيه، وهو الطّول، أمّا بقية أحوالِه، فما دلّ عليْها، بيْنا "عطف البيان" إنّما يدل على المتبوعِ كلّه ، لا على حالٍ من أحوالِه ، فإذا قلت: آمنت بخاتم الرّسل محمدً صلى الله عليْه وسلم. فقولك "محمّد" عطف بيانٍ دلّ على المتبوعِ كلّه، لا على حالٍ من أحولِه. وهذا المعنى الفارق بين " النّعت" و" عطف البيان" لا يتحقّ في الجمل ، وإنّما يتحقق في المفردات، وكلامُنا في" الجمل" لذا لم يذكر مِن التّوابع النّعتَ"

الصورةُ الأولَى مِن صور "كمال الاتصال":
أن تنزّل الثّانية من الأولى منزلة المؤكّد (بالكسر) من المؤكّد(بالفتح) في المفردات، وهذا إنّما يكون لمقتضٍ اقتضى هذا التّنزيل.
يقولُ السعد:

ثمّ جعلُ الثّانيةِ مؤكّدةً للأولَى يكونُ (لدفعِ توهّم تجوّزٍ أوْ غلطٍ.

وهو قسمان: لأنَّه إمّا أنْ تنزّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ التّأكيدِ المعنويّ من متبوعِه في إفادةِ التّقريرِ مع الاختلافِ في المعنى أو منزلةَ التأكيد اللفظيّ في اتّحادِ المعنَى. ([1])

يهديك السّعدُ إلى تنزيلِ الجملةِ الثّانيةِ مِن الأولَى منزلةَ المُؤكِّد (بالكسر) مِن المؤكَّد إنّما يقتضِيه واحدٌ مِن أمرين:

الأمرُ الأوّل: دفعُ توهّمٍ مِن المخاطبِ أنّ المتكلّم إنّما هُو متجوّزٌ في بيانِه.

والأمرُ الآخرُ: دفع توهّمٍ من المُخاطبِ أن المتكلّم إنّما غلط، أرادَ شيئًا، فسبقَ لسانُه بشيْءٍ. فإذا ما جاء التّوكيد بالجملةِ الثّانيةِ لَم يكُنْ سبيلٌ إلَى أن يتوهَّمَ المُخاطبُ أنّ ثمّ تجوزًا، أوْ غلطًا، فليس مِن شأنِ المتجوِّزِ أوِالغالِطِ أنْ يؤكِّد. فالتّأكيدُ أمارةُ الحقيقةِ أوْ أمارةُ الصّواب.

غير خفيّ على مثلك أنهم ينظرون في هذا إلى مراعاةِ المتكلمِ حال السامع، فإن توقع المتكلم أنّ السامع يستوهم أنّ المتكلم متجوز، أو أنه يتوهم أن المتكلم غلط، فيسعَى المتكلم بالجملةِ الثانية إلى دفع توهم السامع أن المتكلم متجوز، فيجعلها متفقة مع الأولى في "الغرض منها" فتنزّل منها منزلةَ التّوكيد المعنويّ منها في المفردات.

ويسعَى المتكلّم بالجملةِ الثّانيةَ إلى دفعِ توهم السّامعِ أن المتكلّمَ "غلط" أراد شيئًا، فنطق بغيرِه، فيأتِي بالجملة الثّانية متفقة مع الأولى في "لازم معنى المنطوق" فتنزّل الثانيةُ من الأولى "منزلة التوكيد اللفظي".

ومن البيّن أن المقتضي الأول «دفع توهم السامع أن المتكلم إنما هو مجوزٌ في كلامه» يمكن أن يكون في البيان البليغ. وقد يكون ذلك على سبيل التنزيل أيْ تنزيل غير المتوهم تجوزًا منزلة المتوهم تجوزًا، لأمرٍ راجعٍ إلى البيان.

وأمّا المقتضي الآخر، «دفع توهم الغلط» فذلك لا يتصور أنّ في بيان الوحي، لا يتصوّر بتّةً أن هنالك عاقلٌ يمكن أن يتصور أن المتكلم ببيان الوحي يمكن أن يكون كلامُه غلطًا، حتى يُجرى المتكلم ببيانِ الوحي كلامَه على ما توهّم ذلك الغفولُ، فإنْ كان هناك مَن يتوهم أنَّ المتكلّمَ ببيان الوحي قُرآنًا وسُنَّةً يغلطُ فيه، فمثله جديرٌ بأن يُطْرَحَ، وأن ينبذ، فما كلّ أحدٍ بأهلٍ لأن يُراعَى في البيان مقتضَى حالِه.

وبذلك تدركُ أنّ المقتضِى المتعلّقَ بالفصل للتّوكيد هو دفع توهّم التجوز فالأعلى أن نجرى الأمر على أنّ تنزيل الثّانيةِ مِن الأولى منزلةَ التوكيد صورة واحدة سواء كان مناط الالتقاء هو "المعانِي الثّوانِي"،الّتي هي مناط عناية البلاغيّ أوْ لازمها أو الغرض منها.

والقولُ بأنَّ المقتضِي الفصل توكيدًا هو دفعُ توهّمِ التّجوز أو الغلط هوما عليْهِ جمهورُ بلاغيي المفتاح.

والّذِي هو أولى بالتّنبيه أنّ الفصل توكيدًا بين الجُمل التي لا محل لها من الأعراب،وليس لها قيدٌ معنويّ يكون تقريرًا للمعنى في فؤاد السّامع اعتناءً بشأن المَعنى، فالتّوكيد فصلًا ناظرٌ إلى شأن المَعنى، والحاجة إلى تقريرِه في نفس المُتلقي، لا أنّ المتلقي يتوهَّم شيئًا، فحصرُهُ فِي مراعاةِ حالِ المخاطبِ غيرُ قويمٍ، فالتّأكيد قد يكونُ ناظرًا إلى حالِ المتكلّم، أو حالِ المخاطبِ أوْ حالِ المَعنَى ...

([1]) ليس القصد بالمعنى هنا معنى المنطوق، بل هو لازم المعنى "أي إما أن يتفقا في لازم المعنى وإما أن يختلفا فيه ويتفقا في "الغرض"

ويُبيّن السّعدُ بعد ذلك أنَّ هذا التّوكيدَ بالجملةِ الثّانيةِ دفعًا لِتوَهّم تجوزٍ أو غلطٍ إنّما هُو قسمان بحسبِ نوع ما يُؤكّد(بالفتح) مِن الجملة الأُولَى أيْ بحسبِ مناطِ التّوكيدِ مِن الجُملةِ الأُولى.

وممّا يجبُ عليْك استِحضارُهُ أنّ الجملةَ في سياقها لها ثلاثة أبعاد:

١) المنطوق ومعناه الّذي هو أصل المعنى : طَلبةِ النحويّ وبغيته،وذلِكَ لا يلتفتُ إليه البلاغي، ففي قولك :صَلّى محمّدٌ الفجر جماعة . أصل المعنى : إسناد فعل صلاة الفجر لمحمدٍ على حال الاجتماع مع الآخرين،
هذا البعد اهتمام البلاغي به كمثل اهتمامه بأصواتِ الحيوان .

٢) المعنى البيانيّ الذي هو مستولد من النظم في سياقِه، ولوازمه .

٣) الغرض .

البعد الأوّل يجعل الثّانية كالتكرار للأولى ، فلا يكون من باب"الفصل والوصلِ" عندهم

والبعد الثاني: المعاني الثواني ولوازمها) تكونُ الثّانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد اللفظي (لقيت شيخنا شيخنا في المسْجد الحرام)

والبعد الثالث :(الغرض) تكونُ الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد اللفظي (لقيت شيخنا نفسه في المسْجد الحرام)

ثم يعرضُ السعدُ للقسمين في فاتحة سورة" البقرة" :« ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» (البقرة:٢)

هذه ثلاثُ جمل: « ذَلِكَ الْكِتَابُ»،و« لَا رَيْبَ فِيهِ »و«هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» على وجه من وجوه الإعراب يجعلها جملا ثلاثًا متتابعة ، وما عطفت أيٌّ منها على الأخرى،وكلُّها جاءت نبأ عن الذكر الحكيم.

فالجملة الثانية: « لَا رَيْبَ فِيهِ » فصلت عن الأولى: « ذَلِكَ الْكِتَابُ»، لأنها نزلت منزلة نفسه من قولك لقيتُ الأمير نفسه.

لأنَّ مناط التّلاقي بيْنهما إنّما هو الغرض من الجملةِ الأُولى، فهو محل التّأكيد .

والجُملة الثالثة :«هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» فصلتْ عن الأولى« ذَلِكَ الْكِتَابُ»لأنها نزلتْ من منها نزلة الأمير الثّانية في قولك: لقيتُ الأمير الأمير. لأنَّ مناط التّلاقي بيْنهما إنّما هو لازم المعنى من الجملةِ الأُولى، فهو محل التّأكيد وهو في كليْهما كالمُتحد .

يقُول السعد:

> فالأوّل نحو (لَا رَيْبَ فيه) بالنسبة إلى (ذَلِكَ الكِتابُ) وهذا على تقديرِ انْ يكون«آلم» جملة مسْتقلّة أوْ طائفة من حُروف الْمعجمْ مسْتقلة و« ذَلِكَ الكِتابُ» جملةٌ ثانيةٌ و«لَا رَيْبَ فِيهِ» ثالثةٌ، على ما هُوَ الْوجهُ الصّحيحُ الْمختارُ وههُنا وجوهٌ أُخر خارجة عن المقصُود. (١)

---

(١) راجع في هذا تفسير الكشاف،والتحرير والتنوير وكتب إعراب القرآن

(فإنه لمّا بولِغَ فِي وصفِهِ) أيّ وصف الكتابِ ،والباء في قولِهِ(ببلوغه) متعلق بـ(وصفه)أيّ أن وُصِفَ بأنّه بلَغَ (الدَّرجةَ القُصْوَى فِي الكمال) وبقوله "بولغ" تتعلق "الباء" في قوله (بجعل المبتدأ «ذلك» وتعريف الخبر باللّام) ،وذلك لِما مرَّ من أنّ تَعريفَ المسند إلَيْهِ بالإشارةِ يدلّ على كمالِ العنايةِ بتمييزه ،وأنّه ربّما جعلَ ذريعةً إلى تعظيمِه ،وبعدِ درجتِهِ [1]

وأن تعريفَ"المسند" باللام يزيد الانحصار حقيقةً نحو" اللهُ الْواجب الوجود " أوْ مبالغة ، نحو"حاتمٌ الجواد" ، فمعنى «ذَلِكَ الْكتاب» أنه الكتابُ الكاملُ كأنّ ما عداهُ من الكتبِ في مقابلتِه ناقصة ،وأنّه الّي يستأهلُ أن يُسمّى كتابًا كما تقولُ :"هو الرجلُ" أيّ الكاملُ في الرجوليّةِ كأنّ من سواهُ بالنسبةِ إليْهِ ليْسَ برجلٍ. (جاز) جوابُ "لمّا" أيْ يجوز بسببِ هذِهِ المبالغةِ المذكورةِ (أن يتوهّم السّامعُ قبْلَ التّأملِ أنّه) أيْ قولَه «ذَلِكَ الكِتَابُ» (مِمّا يُرمَى به جُزافًا) مِن غيْرِ أن يكونَ صادرًا عَن رَوِيّةٍ وَبصيرةٍ (فأتْبعَه) على لفظِ المبنِي للمفعولِ والمرفوعُ المستتِرُ عائدٌ إلَى قَولِهِ «لَا رَيْبَ فِيهِ» والمنصوبُ البارزُ إلَى قَوْلِهِ :«ذَلِكَ الكِتَابُ» أيْ جازَ أن يُتوهّم أنّ قولَه:« ذَلِكَ الْكتَابُ» جزافٌ [2] جُعلَ قوله:« لَا رَيْبَ فِيهِ» تابعا لقولِه:«ذَلِكَ الكِتَابُ» (نَفْيًا لِذَلِك التّوهم) (فوزانُه) أيْ وِزانُ «لَا رَيْبَ فيه» (وِزان نفسه) فِي جاءني زيدٌ نفسُه).

يهدِي السعدُ إلى أنّ قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ» ينزِل من«ذلك الكتاب»منزلة التوكيد المعنوي، ووجه ذلك أنّ مناطَ التَّلاقِي ليس فِي المعنى(أي المعاني النظمي ،ولازمه) بل فِي (الغرضِ) المنصوبِ له البيان. الجملتان التقيتا في "الغرض" الذي هو" تقريرُ كمالِ ذلك الكتاب " ولكلٍّ معنًى نظميّ يختلفِ عن الآخر.

أمّا قوله «ذلك الكتاب» فقد دلّ نظمُه على أنّه موصوفٌ بالبلوغ درجة الكمالِ ، فتعريفُه باسم الإشارةِ هادٍ إلى كمالِ العنايةِ تَمييزِه بالإشارة إليْه، والإشارةُ لا يَبقَى معَه غموضٌ، وهذا التَّمييز يُفيد كمالَ العنايةِ بِه ، وكمال العنايةِ يفضِي إلى تعظِيمِه وبُعد درجتِه ، ولمّا جاء المُسند معرفًا باللّام أفاد ذلك انحصارَه المشار إليه في ما أخبر به عنه ، فكأنّه قيل ليس كتابٌ سواه، فكلُّما عداه مِن دونِه كمَا تقول في صاحبك :" ذلك الرّجل" أيْ هُو الكاملُ فِي الرّجولة، وليس كاملًا فيها سواه، كذلِك الغرضُ هنا تقريرُ كمالِ ذلك الكتاب وهو المستحقّ أن يُسمَّى كتابًا . ذلِك هُو الغرضُ المَرمِيّ بالنَّظمِ إليه .

وهذا قد يَحمِلُ العَجِلَ المُتسرّعُ من يقول :عن صاحبه " ذلِك الرجل لاشك في ذلك" إلَى أن يَتوهّم أن هذا القولَ مَرْمِيٌّ بِه علَى سبيلِ التّجوّزِ أوِ التّساهلِ أيْ أنّه قِيلَ علَى سبيلِ المُبالغة لا علَى سبيلِ الحقيقةِ ، فكانَ المقامُ مقتضيًا أن يدفع ذلك التّوهمَ ، فيأتِي قولُه «لا ريب فيه» مؤكدًا ذلك الغرض الذي يظن أنّه كان على سبيل المجازفة والمبالغة، ففي قوله تعالى:« لا ريب فيه» تصريحٌ بانتفاء الرّيب فيه، أي ليس فيه ما يمكن أن يحمل أحدًا إلى أن يرتاب فيه،

---

[1] قال في مبحث "تعريف المسند إليه بالإشارة" مبيناً عن أغراض ذلك "أو تعظيمه بالبعد نحو (الم ذلك الكتاب) [البقرة 1-2] تنزيلاً لبعد درجته ورفعة محله منزلة بعد المسافة. اهـ

[2] الجزاف بكسر الجيم وضمها فارسي معرب أي ما كان مجهول القدر وزناً وكيلاً يقول: بعتك هذا جزافاً أي بغير تقدير وزن أو كيل.

فهو خلاء من كلّ ما يُمكن لعاقلٍ أن يرتابَ فيه، وذلك لكمالِه، فدلالة« لا ريبَ فيه» أصرح وأوضح من دلالة «ذلك الكتاب» ذلك أن دلالة« ذلك الكتاب» على الغرض دلالةٌ نظميّة، بيْنَا دلالة «لا ريبَ فيه » دلالةٌ مباشرة، فكانتْ أقوَى وأصرح فهي مؤكدةٌ بدلالتها المباشرة ما دلّ عليه قوله « ذلك الكتب» بنظمه، فكان موقع «لا ريب فيه » من «ذلك الكتاب» موقع "نفسه" في قولك لقيتُ الأميرَ نفسه. ولذا فصل«لاريبَ فيه»من« ذلك الكِتابُ».

وممّا يجبُ أن تكونَ منْه على ذُكرٍ أنَّ قوله «ذلك الكتاب» وقوله «لا ريب فِيه» وإن اختلفا في المعنى النظميّ البيانيّ ، إلا أنهما متفقان في الغرضِ منه الذي هو تقرير كمال الكتاب .

***

...تنزيل الثانية من الأولى منزلة التوكيد اللفظي من المتبوع .

يقُول السّعدُ :

(الثّاني نحو (هدًى) أيْ هو هدًى (للمتقين) فإنّ معناه أنّه) أيْ الكتاب (في الهداية بالغ درجة لا يدركُ كُنهَها) لِما في تنكير "هدًى" مِن الابهام والتعظيم ،وكنه الشّيْءِ نهايتُه (حتّى كأنّه هدايةٌ مَحضةٌ) حيث جعلَ الخبر مصدرًا ، لا اسْمَ فاعلٍ ،ولَم يقلْ :هادٍ للمتقين (وهذا معنى "ذلك الكتاب" لان معناه ـ كما مرّ ـ الكتابُ الكاملُ. والمرادُ بكمالِه كمالُه فِي الهدايةِ ؛لأنّ الكتبَ السّماويّة بحسبِها) أيْ بحسبِ الهداية ، يُقالُ: لِيكنْ عمَلُك بِحسَبِ ذلِكَ" ايْ على قدرهِ وعَددِه ،وتقديمُ "الجارّ والمجرور" للحصرِ أيْ بحسَبِ (تتفاوتُ في درجاتِ الكمال) لا بحسب غيرها .

فإنْ قلتَ: قدْ تتفاوتُ الكتبُ بِحسَبِ جزالةِ النّظمِ وبَلاغتِهِ ، كالقرآن ، فإنّه فاقَ سائرَ الكتُب بأعجازِ نظمِهِ.

قلْت: هذا داخلٌ في الهدايةِ ، لأنّه إرشادٌ إلى التّصديقِ ، ودليلٌ عليْهِ .

(فوزانُه) أيْ وزان (هدى للمتقين) (وزان «زيدٌ» الثّاني في «جاءني زيدٌ زيدٌ» لكونِه مقرّرًا لقوله (ذلِكَ الكِتابُ) مع اتّفاقِهما في المعنى بِخلافِ (لاريْبَ فيه) فإنّه يخالِفُه معنًى ، فلذا جعِلَ بمنزلةِ التّأكيد المعنويّ .

(التّنوير)

يُبِين السّعدُ أنّ تنزيلَ الجُملةِ الثّانيَة مِن الأوْلى منزلةَ التّوكيدِ اللّفظي في المفرداتِ تراه فِي تنزيلِ قولِ الله تعالى (هُدًى للمتّقِين) من(ذلك الكتابُ) منزلة «زيدٌ» الثّانية مِن «زيدٍ» الأولَى في قولِك :" جاءَني زيدٌ زيدٌ" ووجهُ ذلك أنّ الجملتَيْنِ تلاقيان فِي المَعنَى البيانيِّ النَّظميّ ، وفِي الغرضِ أيضًا :

الأوّلُ تلاقيَتا فِي الغَرضِ الّذِي هو تقريرُ كمالِ الكِتاب، وهنا تلاقيَتا في المعنَى البيانِيّ المُستمدّ مِن النَّظمِ ، وفِي الغرضِ ، ذلك أنّ نظمَ قولِه (هُدًى لِلمتَّقِين) يُفادُ منه هو البليغ درجة لا تُدركُ نهايتُها فِي الهدايةِ، وذلك أنّه أخبرَ عنْه بالمصدرِ ، فقوله (هُدًى) خبرٌ عَن مبتدأ مَطويّ تقديرُه "هُو" أيْ هُو هدًى للمتّقِين، والإخبارُ بالمصدر دون اسْم الفَاعلِ هادٍ إلى أنّه هُو مصدرُ الهدايةِ ، فلَن تَجدَ هدايةً حقّةً إلّا وهِي صادرةٌ عنه ، فهُو مصدرُها، فإذا ما كان هو مصدرَها، فهذا يعنِي أنّه الكاملُ فيها كمالًا لا سبيلَ إلى إدراك كنهه ونهايتِه. وهذا هُو المَعنى البيانيّ المُستمدُّ مِن قوله (ذلِك الكتابُ) فقولُه(هدًى للمتّقين) تصريفٌ بيانيٌّ لمعنَى(ذلك الكتاب) :اتفقت الجملتانِ في المعنَى البيانيّ ،وتنوعتا فِي النّظمِ الدّالِ عليْه في ذلِك :

في (ذلِكَ الكِتَابُ) استمدّت إفادة الكمالِ وبلوغه الغايةَ من الإعرابِ باسمِ الإشارةِ للبعيد «ذلك» ثُمّ الإخبارِ عنه بمُسندٍ مُعرَّفٍ بـ(ألْ) الدّالة على" الكمالِ" بيّنا في قوله:(هُدًى لِلمتَّقِين) كان الدّالّ على الكَمال مستمدًا مِن الإخبارِ بالمصدرِ ، وإذا ما كانتِ الجملتان ، متّفقتان فِي المعنَى البَيانيّ ، فإنّهما -أيْضًا- يكونان متفقتَيْن فِي"الغَرضِ" المَسوقِ له الكلامُ سَوقًا أصليًّا ، فمناطُ الاتفاقِ المعنى والغرض معًا.

(تنبيه)

إذا ما كان السكاكيّ وشيعته قد جعلوا تنزيل الثانية من الأولى منزلةَ المؤكّد مِن المؤكَّد(بالفتح) شطريْن:

ما كان بمنزلة التوكيد اللفظي

وما كان بمنزلة التوكيد المعنوي، وهم في ذلك راغبون في تحرير مناط التلاقي ، وذلك في نفسِه نظرٌ حسنٌ لأن تحرير مناطَ التلاقي بين الجملتين تحريرٌ لقوة التلاقي ،وتبيين لأنسابِ المعاني، إلّا أن هذا لا يطرد لهم ، وتراهم لا يلتفتون إليه في كثيرٍ مما قالوا فيه بتنزيل الثانية منزلة المؤكِّد للأولى.

والأقرب ترك ذلك التقسيم، والاكتفاء بأن بين الجملتين كمال اتصالٍ توكيدًا.

وممّا يلتفتُ إليْه أن من أهلِ العلم يرى أن قوله(لا ريب فيه) خبرٌ لفظًا، نهيٌ في المعنى، اي لا ترتابوا فيه، وهذا التأويل،وعن صح غقتلصا، فهو تأويل دون القولب أنه خير لفظًا ومعنلى. فليس أهلاً لأن يلتفت إلى أن (لا ريب فيه) خبرٌ لفظًا إنشاءٌ معنًى.

*****

وإذا ما كان وجهُ فصلِ كلٍّ من المؤكّدين: (الجملة الثانية والجُملة الثّالثة) عن الجملةِ الأولَى (ذلِك الكتاب) قد استبان، فإنّ عدمَ عطف الثالثةِ (هُدًى لِلْمُتّقِينَ) على الثانية (لاريبَ فِيه) مرجعُه إلى أنّه لا يُعطفُ أحدُ المؤكّدين على الآخر في المفردات، كما في قولِه تعالى:﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر:٣٠) لم يَعطفْ قولَه(أجمعون) على قوله (كلّهم) (١)

وفوق هذا المؤكّدُ الثّاني كأنّه المؤكّدُ الأوّلُ، لأنّهما تواردَا على شيْءٍ واحدٍ لغرضٍ واحدٍ، فاتّحادُهما فيما وردا عليه ، واتحادُهما أيضًا في الغرضِ الّذي وردا عليْهِ من أجلِه جعلهما كالشّيْءِ الواحدِ. (٢)

***

. من هذا أيضًا قول الله ﷻ: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة:٣٠ – ٣١)

---

(١) من أهل العلم من أجاز عطف المؤكِّد الثاني على المؤكِّد الأول ، ومن أولئك "ابن برهان" و"الزمخشري" ولم يلتفت البلاغيون لعطف المؤكِّد على المؤكَّد، وفوق هذا يذهبون إلى أن عطف التوكيد الثاني على الأول يوهم عطفه على المؤكَّد بالفتح [فترك دفعًا للإيهام] ينظر الأصول للعصام ج2ص. 18]

(٢) مما يحسن الالتفات إليه ترتيب هذه الجمل ، فالأولى (ذلك الكتاب) قائمة بتحقيق الإعراب عن كمال مناقبه في نفسه ، والثانية) لا ريب فيه) قائمة بالإعراب عن كمال تنزهه عن النقص ، والثالثة) هدى للمتقين) قائمة بالإعراب عن إكماله من هو أهل لذلك من العباد ، وهذا ما يقضي به منطق العقل الفطري . فحركة المعنى في الآية بجملها الثلاث كما ترى حركة متصاعدة وهذا مما يعنى العقل البلاغي العربي برصده .

جاء قوله ﷻ :(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهم...) مقررًا مضمون قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...) فمضمونُ الأولى بيانٌ لشناعةِ ما كان فيه اليهودُ والنَّصارَى من جعلِهم لله تعالى ولدًا، وعبر عن ذلك بقوله(قَالَتِ الْيَهُودُ..) .

في الإعلانِ بالقولِ جراةٌ لا تكونُ إلا إذا تمكّن الأمرُ من النّفس، واعتقدَ صاحبُه أنّه جديرٌ بأن يذاعَ في النّاسِ، وأن يُملأَ به آذانُ العبادِ .

وهذا أمرٌ فوقَ الاعتقاد ، فقد يعتقدُ المرءُ شيئًا خبيثًا ، ويخشى الجهرَ به، أمّا أن يعتقدَ ويجهرَ به في الناس ، فذلك هو الفجورُ. والمجاهرةُ في صغائرِ الذنوبِ حجازٌ عن العفوِ عنها ، فكيف بكبائرِها ؟ فكيف بالشّرك ؟ ؟ !!!

روى البخاري في كتاب (الأدب) ومسلم في (الزّهد) من صحيحيهما بسندهما عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

« كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ ، فَيَقُولَ يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ » (النصّ للبخاريّ).

وجاء قول الله ﷻ ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ لفت إلى شناعة ذلك ،وأنّه أمرٌ ليْس له أصلٌ ، وإنما هو افتراءٌ أقدموا عليْه ،وأنّهم لذلك يُضاهؤون قول الّذين كفرُوا من قبلُ.

ولذا عقبه بقوله﴿ قاتلهم الله﴾ تَعجيبًا من حالهم. واصطفاء صيغة (فاعل) للمبالغة أي قتلهم الله تعالى قتلاً شنيعًا ،وقوله ﴿ أنّي يُؤفكُون﴾ استفهامٌ مفيدٌ للتعجيبِ من حالهم .وفي البيان بقوله ﴿اتخذوا﴾ إعلامٌ بعظيمِ عنايتِهم بذلك الفعلِ ، فإنّ الأخذَ لا يكونُ إلاّ مِن عنايةٍ واهتمامٍ وإصرارٍ.

ولمّا كان هذا أمرًا جدَّ خطيرٍ عُني القرآن الكريم بتقريره، فصرّف القولَ فيه في هاتين الآيتين. فالآيةُ الثّانية تقريرٌ لمضمونِ الأولى، ولذا فصل بينهما.

وفي قوله ﷻ :﴿ وَما أمرُوا...﴾ أي فعلوا ذلك والحال أن الكتبَ والرُّسل إنّما جاءتهم بالأمرِ بعبادةِ اللهِ ﷻ فما تركهم الله تعالى بغير هداية إبانة ، فلا عذر لهم فيما ذهبوا إليه، وإنّما فعلوا ذلك عن عنادٍ وإصرارٍ وتحدّ

و(اللام) التي في (ليعبدوا) ليست لام تعليل ، فيكون المأمور به محذوفا بل هذه (اللام) تأتي بعد فعل الأمر، والإرادة تقول أردت لكذا أي أردت كذا. ويُسمّيها بعضُ النحاة "لام أن" أي بمعنى أن: وما أمُروا إلا أن يعبدوا....

يقول الطاهر: "اللامُ هُنَا لِتَوْكِيدِ مَعْنَى الْفِعْلِ الَّذِي قَبْلَهَا ، وَقَدْ شَاعَتْ زِيَادَةُ هَذِهِ اللَّامِ بَعْدَ مَادَّةِ الْإِرَادَةِ وَبَعْدَ مَادَّةِ الأمر معاقبة لأَنِ الْمَصْدَرِيَّةِ. تَقُولُ، أُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ، وَأُرِيدُ لِتَفْعَلَ،وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾ (التَّوْبَة: ٣٢) وَقَالَ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾ [الصَّفّ: ٨] وَقَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [غَافِر: ٦٦] وَقَالَ: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (الشورى: ١٥) فَإِذَا جاؤوا بِـ(اللَّامِ) أَشْبَهَتْ لَامَ التَّعْلِيلِ فَقَدَّرُوا (أَنْ) بَعْدَ اللامِ المؤكّدة كَمَا قد روها بَعْدَ لَامِ كَيْ لِأَنَّهَا أَشْبَهَتْهَا فِي الصُّورَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْفَرَّاءُ : اللَّامُ نَائِبَةٌ عَنْ أَنْ الْمَصْدَرِيَّةِ. وَإِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» "[1]

***

ومن هذا البابِ أيضًا قول الله تعالى :

---

[1] التحرير والتنوير 19/ 5 .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس : ١-٤)

استفتح السورة بالبيان بالإنذار والتبشير (أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) جعل الإنذار للنَّاس، والتَّبشير للذين آمنوا إشارةً إلى أنَّ الإيمانَ يخرجُ صاحبَه من زُمرة ما لا يسترضَى من أخلاقِ النَّاسِ الَّذين شأنُهم النَّوسُ والاضطراب والسَّعي على غيرِ هدًى ، الإيمانُ يقيمُ صاحبَه على الجادَّة ، يبصرُ طريقَه وموقعَ أقدامِه عليه ، يعرف مبدأ أمره ومنتهاه وحالَه في مجراه إلى مُبتغاه ، ومن ثَمَّ استحقَّ البُشرَى .

والبيانُ بقوله ﴿ربهم﴾ ثريُّ الفوائد جمُّ المحاسن ، وزادهم بيان عرفانٍ بربهم فقال (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ...)

وكرَّر ﴿ذلكم الله ربكم ﴾ ورتب على ذلك وفرع الأمر بعبادته ، هكذا تتناسلُ المعاني وتتواصلُ ،لأنَّ من فعلَ كلَّ ذلك جديرٌ بأن يُعبدَ وحدَه .

وإذا كان هُو الَّذي خلق وكان منه المبدأُ، فلن يكونَ المرجعُ إلا إليه ، ولذا جاء قوله ﷻ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فقوله هذا تصريحٌ بما فُهم تلويحًا من قوله تعالى (إن ربكم الله الذي خلق...﴾ فمَن كان منه المبتدأ كان إليه المرجعُ ، لا محالةَ ، ولذا فصل قوله ﴿ إليه مرجعكم جميعًا ﴾ لما بينه وبين قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ منْ كمال الاتِّصالِ توكيدًا.

وفي تقديم المسند(إليه) لفتٌ إلى أنَّ ذلك خاصٌ به، وأنَّه لا مرجعَ إليه ممَّا يقرِّرُ وحدانيته ﷻ ، وفي قوله (جميعًا) أعرابٌ عن عظيمِ قدرتِه المُتضمِّن إحاطةَ علمه، فهم في مَرجعهم جميعٌ، لا يتأخَّر أحدٌ عن أحدٍ، يرجعون إليه دفعةً واحدةً كما هو مدلول كلمةِ(جميع) ولا يكونُ هذا إلا لِمن كان علي كلِّ شيْءٍ قديرٌ، وبكل شيْءٍ عليمٌ ومحيطٌ.

***

ومن هذا قولُ الله ﷻ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس ٤١)

جاء البيان بـ(إن) مع أن تكذيبَه أمرٌ مقطوعٌ بوقوعِه، لأنَّه ما من نبيٍّ إلا كُذِّب ، وكان مكذبوه أكثرَ من مصدِّقِيه ، وذلك حتَّى لا يدخلَ اليأسُ في قلبه ﷺ ، فأفاد بـ(إن) البُشرى بأن التكذيبَ له ليس هو الغالبُ على قومه، ولذا تجدُ الذين اتبعوه من قومِه العربِ أكثرَ من الذين كذبوه في آخر حياتِه، وفي زماننا هذا . فغيرُ المسلمين من العرب قليلٌ في المُسلمين، بل قلما تجد عربيَّ النسبِ غيرَ مسلم .

وجعلَ جوابَ الشَّرط المفاصلةَ:﴿ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ففي هذه المفاصلةِ عظيمُ التَّهديدِ لهم ، وهو عليهم أنكى من المقاتلة . لأنَّ مفاصلةَ أهلِ الخيرِ والصِّدقِ غيرَهم آيةٌ بيِّنةٌ على أنَّ غيرَهم ليسوا بأهلٍ للمقاربة.

وهذا إعلان بَالغ بهجوهم وتسفيههم. فمن ذا الذي يُقدم على من فاصله أهلُ الحقّ والصّدق والخبير، وهم الذين لا يفاصلون إلا من بلغ من السوء مبلغا.
ولذا كان مِن أشدِّ أنواعِ العُقوبة القطيعةُ والمهاجرةُ ألا ترَى كيف فعلَ بالذين تخلَّفوا عَن الغزوِ ، فكان تركُهم وعزلُهم ومقاطعتُهم مِن أنكى أنواع العقاب؟

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ {التوبة:١١٨}

ولوأنَّا سلكنا هذا المنهجَ منهجَ المتاركةِ للفاسدين ولمن مردُوا على العصيانِ لله ربِّ العالمين لكان هذا أنجع ، وأسرع أثرًا ولا سيّما مع الأبناءِ والتلاميذ.

(فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)(النّساء:١٤٠)

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:٦٨)

جاء قوله:﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ دالاً على تخصيص عملٍ كلٍّ به أيْ ما عملي إلا لي، وما عملكم إلا لكم، فلا يصيبكم مِن الحُسنى على عملي شيْءٌ،ولا يُصيبني من السّوءَى على عملكم شيءٌ، فأنتم المتكفلون بوبيل عقابِه.
فهومن قصر الموصوف على الصفة قصرًا إضافيًا للإفراد.

وفصل قوله ﷺ :﴿ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عمّا قبله ؛لأنه توكيدٌ وبيانٌ لقوله ﷺ :﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ ، قولُه: ﴿لي عملي﴾ يفيد اختصاصُ عمله به لا يشاركونه فيه، وهذا ما صرّح به قوله تعالى:﴿أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ وقوله: ﴿ولَكمْ عملكمْ﴾ يفيد بالتقديم اختصاص عملهم به ، وهذا ما صرح به قوله بعد ﴿وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾
والبراءة في الموضعين مختلفة:
هو بريءٌ ممّا اقترفوا من سَوْءَى ،وهم بريؤون ممّا اصطنع من الحُسنى ، فالبراءة هنا تعني عدمَ المُشاركةَ في المثوبة أو العقوبةِ. ومآل المعنى المتاركة،والمنابزة .
وفي الإعراب ببراءتهم من صَنيعه أعرابٌ عمّا بلغُوا فيه من الحُمق والسّفاهة الّتي جعلتْ الأخذ بالحقّ عندهم معرَّةً يتطهّرون منها . ولا يَبلغُ هذا إلا إذا كان البالغ عريقًا في الضّلالة والحُمقِ والسَّفاهة ممّا تتغير في عقله حقائقُ الأشياء .
ترك العطف كما ترى لكمال الاتصال توكيدًا، وهو يحمل مع التوكيد بيانًا فالمقامُ يقتضي الأمرين معاً يقتضى كمالَ تأكيدٍ وتوثيقِ المتاركةِ والمفاصلة، وهذة المتاركةَ تقتضِي التوضيح والتجلية حتى لا يبقى فِي النَّفسِ احتمالُ شيْءٍ ما .

وفي هذا تعليمٌ لنا أن نكونَ حازمين ناصحين في أمر العقيدة ، فلا يكونُ كلامنا فيها ممَّا يمكنُ أنْ يفهمَ على أدنى وجهٍ ممَّا لا يراد ، وهنا تجدُ اجتماعَ حُسن الدَّلالة وتمامها وقوتها وإحكامها وتبرُّجها على نحو جد قويٍّ وجليّ .إن علينا ان نجهر في كل حال صادقين بقول الله ﷻ :

(مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران :٨٥)

***

ومن هذا قَول الله ﷻ :

﴿وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء : ٣٤- ٣٥)

قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ مؤكدٌ مضمون قوله تعالى ﴿وَما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ ومن ثمّ فصل عنه لكمال الاتصال.

وقوله (وَما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) تحملُ حقيقة وحدانية الله ﷻ ،وأنّ البشرَ وهو منْ صفوة الخلقِ إلى فناءٍ، وكذلك كلّ ما سُخر لهم إلى فناء.

(اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢- ١٣)

وجاء قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ليقرِّر حقيقةً أعمّ من حقيقة فَناءِ البشرِ: يُقرِّر اختلافَ أحوال العالمين في إحساسِهم بالموتِ ، فكلٌ على قدر حاله من القربِ والبعدِ من الله ﷻ .

وفي اصطفاء كلمة" ذائقة" معنًى ينبئُ عن علاقة شعور العبد بأثر الموت مرتبطًا بعمله ،وشعوره بصنيعه في عبادة ربه ﷻ ، فأنت الذي بعملك تستوجبُ طعم الموت الذي أنت ذائقه لا محالة ، فاختر لنفسك: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (يونس :٤٤) (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (المدثر:٣٨) والذَّوق هنا على الحقيقة المطلقة ، فلا تذهب إلى تأويله هو أو الموت بالمجاز، فالأمر فوق الذي يحيط به عقل بشرٍ أيًا كان علمه وفقهه .

ولمّا كانت حقيقة الفناءِ ذاتَ أهميّة بالغة كان المقامُ مقتضيًا تأكيدها، وتأكيدها ليس من أنّ ثمَّ من يُنكر أنه سيموت ، فذلك لا يكاد يختلفُ عليه أحدٌ.هي ليست محلاً للإنكار، فتأكيدها ليس من هذا القَبيلِ، بل من قبيلِ بيان أهمية استحضارها والتّحصّن من الغفلَةِ عنها، وأهمية العمل بمقتضَى اليقين بها، والاستعداد لما بعده.﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٥- ١٦)

جعل عدمَ العناية بما يقتضيه اليقين بالموت بمثابة عظيم انكاره، فشدّد توكيده بإن واللام واسميّة الجملة صدرًا وعجزًا،بينما في البعثِ اكتفى بالتوكيد بـ(إن) واسمية الجملة صدرًا لا عجزًا.على أنّ في سباق هذه الآية من الأدلّة على إعادة الخلقِ ما يعضّد هذا التوكيد في هذه الجملة،وفي هذا إشارة إلى أنّ استحضارَ حقيقة الموتِ في حركة حياةِ الإنسان يجعله مستحضرًا حال البعثِ فيعملُ على وفق ما يحبُ أن يكون عليْهِ حال بعثِه.

***

ومن هذا الباب قول الله تعالى :

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) (الصافات: ١٤٩- ١٥٧)

لما كان المشركون لا يكفون عن تسويغ ما هم فيه من أضاليل ، كان القرآنُ لهم بالمرصاد ينقضُ افتراءاتهم. وكان لسورة" الصافات" نصيبٌ وافرٌ من نقض افتراءاتهم، توكيدًا لحقيقة وحدانية الله تعالى والتي جعلها جواب القسم في فاتحة السورة: (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ) (الصافات:٤) .وخاطب رسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم تسليمًا كثيرًا قائلاً (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ) (الصافات:١١)

وأبان عن حالهم في الأمم السابقة،وأنّهم على دربٍ سواءٍ من الشّرك والدّعاء الكاذب والافتراء المقيت، ثُمّ قال سُبحانَه وتَعالَى جدُّهُ :

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) (الصافات: ١٤٩- ١٥٧)

فهذا ناظر إلى ما في الآية الحادية عشرة، وكأنّه فرع آخر مقابلٌ للفرع الذي بدأ في الآية الحادية عشر ، حيثُ كان الاستفتاء عمن هو أشد خلقًا ، حتى يفتروا أنّهم لا يبعثون. وكأنّ في هذا بيان أنّ في إنكارهم البعث اتهامٌ لله تعالى بالعجز عنه ، وفي هذا من الكفران ما لاسبيل لأحد أن يسوغه ولو بأعتى بالأكاذيب والأضاليل. فهم إذا ما سوغوا لأنفسهم اتخاذ آلهةٍ من دون الله تعالى تقربهم إلى الله زلفى كما يزعمون :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر:٣) فأنّى لهم أن يسوغوا افتراءهم أنّهم لا يبعثون .

فطلب من رسوله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم أن يخبروه أهمْ أشدّ خلقًا أم من خلق الله تعالى من آيات الكون الأعظم والأشدّ، وهم الذين خلقوا من طين لازب

فالآيةُ حمالةٌ على الإقرارِ بأنّ خلقهم أهون من خلقِ غيرهم من آياتِ الله تعالى في الكون وهو نظير قوله تعالى :(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ) (النازعات: ٢٧) وفي هذا من تعليم المسلمين منهاج محاجة أهلِ الافتراء ونقضِ أكاذيبهم ، وقما أهونها في وجه الحقّ.

ثم عاد البيان القرآني إلى الاستفتاء لنقض دعوى أخرى من فنون الشرك بأدعاء ان لله تعالى ولدًا، وكانوا في هذا أشدّ حمقًا حيثُ جعلوا لله تعالى أخسّ الولدين عندهم : البنات.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ)(النحل:٥٨)

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) (الزخرف: ١٥-١٩)

ففضلوا أنفسَهم على الله تعالى ، وهذا ترقٍ في بيان ضلالهم ، فهم أنكروا البعث ،وأشركوا، وهنا تجاوزوا مرحلة الإشراك إلى مرحلة تفضيل أنفسِهم عليه سُبحانَه وتَعالَى جدُّهُ ، فجعلوا الملائكة بنات الله تعالى ، فأمر رسوله أن يستفتيهم:(أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

جاء قوله تعالى:(اصطفَى البناتِ على البنين) توكيدًا لقوله (أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) وفي تقديم الجار والمجرور(لربك) ما يفيد التخصيص، وهذا أوغل في الإنكارِ والتسفيه.

ومن ثَم جاء بعده (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فنزل منه منزلة التَّوكيدِ من متبوعِه، ذلك أنَّ أنكار اصطفاء الله تعالى البنات له يلزمه أنَّهم ذهبوا إلى هذا الحكم من عند أنفسِهم ولا دليل لهم عليْه من وحيٍ أو منطقِ عقلٍ ، فأكده بقوله ما لكم كيف تحكمون.

وفي صياغة هذا من التسفيه لهم تحقير عقولهم ما فيه، فهو يقول لهم أي شيءٍ قد حل بعقولكم ، فحكمت بهذا ، وهذا فيه من التشنيع عليهم ما لا يطيقه من به ذرة من عقل أوحياء.

وإن شئت ان تجعل قوله تعالى:(مالكم كيف تحكمون) بدلا من (اصطفَى البناتِ على البنين لم يكن ما يدافعك عنه.

إلا أنّه لما كان أهل العلم بالعربيةعلى أن الشَّأن في البدل أنّ القصد إلى البدل لا إلى المبدل منه ، وأن المبدل منه في غير بيان الوحي صالح للطرح ، ويبقى المراد قائمًا ، رغبت عن القولِ بِه هنا ، إلاَّ إن قيل إنّ هذا خاصٌ بما ليس من كلامِ الوحي فالأمرُ حينئذٍ قريبٌ.

والذي أنا جِدُّ حريصٍ على أن يقُوم في صدرك أن البيان القرآنيَّ هنا يُصوِّر لنا حقيقة كلّ مشركٍ وأنّه مأفونٌ في عقلِه ، وأنّه خلاء من البصيرةِ ، وأنّه أسرعُ إلى فساد حالِه ، فكيف بحالِ غيره ومن كان كذلك حاله ، كما بيّنه البيانُ القُرآني ، فحريٌ بكلّ من آمن أنَّ هذا كلامُ الله تعالى أن يتخذ مجانبتهم في جميع أمرِهم عبادةً يتزلّفُ بها إلى ربّه جَلَّ جلالُه.

فإن قام في قلبك هذا الذي أرجو أن يقُوم وأن لا يغيب ، كنتَ أنتَ من أشد النَّاس نفورًا منهم وممّن يشايعهم ويدعو لهم ويجملهم فِي أعين الدّهماء.

ولو أنّك لم تخرج ممّا قرأتَ في هذا الكتاب إلاّ بهذه ، فقد فزتَ أنت وفُزتُ بك والحمدُ لله ربّ العالمين.

***

إنّ للكفر أثرًا بالغ في إقامة الأخذين به على سَنن سواء في معاندةِ الحق ، وكأنّهم اتخذوا هذا العناد رسالة حياة توارثوا المنهجَ والأدوات والمقولاتِ أيضًا، تسمع مقالةَ أحدهم قد نعِق بها من قرونٍ ، فتجدها في لسان أحدهم في زمانك ينعب بها هي هي ، ممّا يهدي أصحابَ الحق وأنصاره والدعاة إليْه أن أهل الباطل تناصروا، وتعاونوا واتحدوا، فهل لأهل الحقّ أن يكون أعلى مقامًا في المناصرة لحقّهم والدَّعوةِ إليه ؟

والبيانُ القرآنيّ قد صور موقف الكافرين في اتحادهم وعنادهم وتوارثهم هذا العناد في صور عديدة متنوعة أنست كلّ صورةٍ بسياقها الذي أقيمت فيه،

ومن

هذا قولُ الله سُبحانَه وتَعالَى :

(قالوا سواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ * إِنْ هَذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ((الشعراء: ١٣٦ -١٤٠)

في هذه الآية يبين الله تعالى ما عليه أولئك الكافرين مِنَ الْعنت إزاء رسولِهم ، وكيف أنَّهم يجتهدون في بثّ آفة اليأسِ من اتّباعِهم له ، فيقَررون له أنَّ وعظَه وعدمه سواءٌ عليهم، فاجتهادك في وعظِهم عقيمٌ ، لن يجدِي شيئاً ،فحرَى بك أن ترفعَ عن نفسك مؤنةَ الوعظ ، وكانوا مبالغين في العبارة عن عدمِ الوعظ لأنّه هو طَلِبتهم ، فقالوا (أو لَمْ تَكُنْ مِنَ الواعظين(أي لم تكن بالكليّة ، وفي أصلِ جبلتك من جملة الواعظين أو ممن يتأتّى لهم القيام بذلك ، وكان يمكنهم أنْ يقُولوا سواءٌ علَيْنا أوعظتَ أوْ لَمْ تعظ ، ولكنَّهم انحرفوا إلى هذه الصياغةِ الْمُنْبئةِ عن استشرافهم لعدم وعظِهم ، وكفِّ الرُّسلِ عن ذلك.

وجاء قولُهُ تعالَى(إِنْ هَذا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ (غير معطوفٍ على ما قبلَهُ ، وهو في وجه من وجوه التأويل من جملة قولهم ، وهو الأرجحُ لعطف (وَما نحنُ بمعذبين(ليبرزوا له علَّة ما ذهبوا إليْه من استواء الأمرين فيهم ، وكأنّهم يقولون له أيملكك أن تبدّل جبلّة الأولين فينا ؟ إنك لن تستطيع، فاصرفْ جهدك فيما تستطيعُ .

وهذا فيه بيانٌ لمزيد رغبة منهم فِي تيئيسه من اتباعِهمْ دعوتَهُ . فالفصل هنا لكمال الاتصال ، فهو واقعٌ ممَّا قبلَه موقعَ العلةِ مَنَ المعلُول ، وهما لا يفتقران إلى رابطٍ خارجيٍّ لاستغنائهما بالرَّابط الدَّاخليّ المتمثّل في رابِطِ التلازم.

وجاء قولهم (وَما نحنُ بمعذبين(مؤكدًا مع تقديم المسند إليهِ (نحن) على خبره المشتق (معذبين) وهو مفيدٌ لتوكيد نسبةِ انتفاء وقوعِ العذاب عليهم على زعمهم ،ممّا يجعلهم في زعمهم أحقاء بألا يلتفتوا إلى وعظه ..

ولا يصلح أن يقال إن التقديم هنا مفيدٌ للقصر كما يحتمله قوله تعالى :(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ({البقرة:١٦٧}

وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ({المائدة:٣٧}

التّقديم هنا يحتملُ إفادةَ التّخصيص ، وتقرير أن ○ هنالك من هو خارج من النارِ غيرهم . أمّا (وما نحنُ بمعذبين (ونحو (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({الأنعام:٢٩}

(إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({المؤمنون:٣٧}

(إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ({الدّخان:٣٥} فإنه لا يستقيمُ القول فيهبإفادة التّقديم التّخصيص الحصريّ ، لأنّه إن قيل بذلك كان هذا مفيدًا اعترافهم بالبعث ،وهو مناقضٌ ما همْ عليه ، فما هم عليه من اعتقاد قرينة ما نعةٌ من القولِ بإفادةِ التّقديم هنا الحصر. وهذا يجعلك عظيم الافتقار إلى ملاحظة السياق والقرائن المقالية والحاليةِ ليتحقق لك حسنُ الفهم عن الله تعالى، فإن الأمر لجدُّ مهم مثلما هو جدّ كريم العطاء وفير النوال. وغُنمك على قدر غُرمك من وقتك وجهدك واعتنائك.

ويبقى النظر في وجه الوصل في قوله (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({الأنعام:٢٩}

(إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({المؤمنون:٣٧}

(إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ({الدّخان:٣٥}

وظاهر أن (مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({الأنعام:٢٩}
(مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ({الدُخان:٣٥} إنما هو توكيدٌ لما قبله المفيد قصر حياتهم على الحياة الدنيا ،وقصر موتتهم على الموتة الأولى على زعمهم .

كان مقتضى الظاهرِ أنْ لا يعطف بالواو لما بيْن الجملتين من توكيد ، ولكنّ البيان هنا لفتنا بالعطف بـ(الواو) إلى مابين الجملتين من مغايرة هي محل الاعتناء ، ففي الجملة الثانية(مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({الأنعام:٢٩}
(مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ({المؤمنون:٣٧}
(مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ({الدُخان:٣٥}
معنى زائد هو إفادة أنهم يقصدون إلى تقرير هذا الذي يؤكده لهم الرسول، فعمدوا إلى إبراز ردّه وتأكيد هذا الرّد .
وهذا إنما يكون بأن تجعل الجملة الحاملة معنى هو محل القصد في صورة مستقلة لتفرد بالعناية والقصد كيما لا تكون في العناية بها تابعةً للعناية بما قبلها. هو ما يحققه العطف بـ(الواو) وأنتَ تلحظ هذا في جملة الحال حين تكون مقرونة بالواو كما في قولك"جاء محمدٌ وهو يضحك"، فهذا يلفتك إلى أن محل العناية الرّئيس ليس الإخبار بالمجيئ بل الإخبار بالضحك لحظة المجيءِ ، أما قولك:"جاء محمد يضحك" فالعناية بالإخبار بالضحك تابع للعناية بالإخبار بالمجيئ .
وفقه هذا يعينك على أن تعرف مقدار العناية بكلّ معنى ،أن نعرفَ أيَّ معنى هو الرّئيس العمدة في الإفهام من المتكلم والفهم من السّامع، وأيّها تابع وأيها خادم ، ومهيئٌ لغيره، فمعرفة الأقدار الوظيفية للمعاني هو من حسن الوفاء بحق البيان على سامعِه، فإنّه لمن القِرى الذي يُقريكه المتكلم ، فالسامعُ ضيف المتكلم ، ومن أدبِ الضيفِ أن يحسنَ التلقي لما يقرى به ويكرم ، كذلك شأن الرجال ، فكن رجلا، في زمان كثر ذكرانه وندر رجالُه.

***

وممّا كان الفصل فيه تقريرًا للمعنى وتوطينًا له في القلوب قول الله (:
(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)(الأعراف:١١)
قوله(لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) توكيد لمعنى الاستثناء في قوله ((إلا إبليس) ولو أنّه لم يأت بقوله : (لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) لفُهم أنّه لم يسجد ، فجاء قوله تعالى: (لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) مؤكدًا مقررًا لِما لاستحضار هذا المعنى في الوعي الآدميّ في علاقته بالشّيطان من عظيم الأهميّة ، وفي قوله: (لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) معنًى زائد ، فلو أنّه قال: (لم يسْجد) لكان مطابقًا لمفهوم (إلا إبليس) ولمّا قال (لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) كان في هذا معنًى زائدٌ على ما في قوله تعالى(إلا إبليس) وعلى ما في قولنا :(لم يسْجد) ويتجلى لك هذا المعنى الزائد في الإتيان بالفعل (يكن) و (من) هنالك فرق بيْن قولك : "محمد لم يحضر"، و"محمدٌ لم يكن من الحاضرين" الأول "محمد لم يحضر"ليس إلا إخبار بعدم وقوع الحضور من محمّد، وفي الثاني " لم يكن من الحاضرين" إخبار بأن ذلك جبلة فيه، وأنه ليس مهيئًا لأن يشارك في ذلك ، فتسليط النفي على فعل الكَون، إعرابٌ عن أنّ انتفاء الخبر عنه ليس أمرًا عارضًا بل هو متجذّر فيه، هو مجبُول على ذلك، فلا يكن منك طمعٌ في أن يكون منه ذلك يومًا.

وفوق هذا فيه إعرابٌ عن أنّ الّذي لم يكن منه قد كان من غيره، وكان بملكه أن يشاركهم ، ولكنه اختار المفاصلة، من قوة ما هو آخذٌ به ، فحمله ذلك على هذه المفاصلة . وفي هذا تصويرٌ للعالم النفسيّ له وما يموجُ فيه ، فقوله (لم يكم من) مرآةً تعكسُ لك ما يعتلج في فطرته وسجيته ، وهذا من لطيف الدّلالة ، وطريف الإفادة. من استحضر لك علم علم يقين أن إبليس لن يكون منه البة ما فيه لك نفع أو توقيرٌ ، فكل أمره معك قائمٌ على المعاداة، والفجور في العدوان عليك في جميع ما ينفعك من أمرك ، فمن حسب أنه لن يكون له مترصدًا بالعدواة في طريقه إلى الخير ، فقد ضل، ذلك أنه مقسم على ذلك:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: ١٦،١٧)

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (ص:٨٢ ، ٨٣).

وبملكك أن تستجمعَ ما جاء في القرآن من إدخال النفي على فعل الكينونة ، سواء في باب الفضائل أو غيره مع ملاحظة أنّه في بعض السّياقات يحذف "النون" من فعل الكينونة المجزوم :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(الأنفال:٥٣)

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(النحل: ١٢٠)

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)(مريم:)

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)(مريم: ٦٦،٦٧)

في حذف (النون) من فعل الكون المجزوم معنى ليس في ذكره : في الحذف إعراب عن عظيم المبالغة في تحقيق نفي الكون ، فقولك: " لم أكن لأظلمك" أبلغ منه قولُك:"لم أك لأظلمك" ، أي أكثر مبالغة في نفي أن يكون منك ذلك ، في " لم أك لأظلمك" تأبيد للنفي واستمرارية تحققه.

وبهذا يتجلي لك كيف أنّ تركَ الذّكر قد يكون أبلغ (اكثر مبالغة) من الذّكر، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق. فالحذف سبيلٌ فتي غنيّ من سبل الإادة، قد يعجز عن القاء بعطائه الذكر. فكما أنّه ليس كلّ مذكور بمشكور، ليس كل محذوف بمدحور فليس المهم أن تكون حاضرًا الأهم أن تكون فاعلاً. ذلك أمرٌ أصيل في حركتك في هذه الحياة،وعلاقتك بالأخرين.

***

ومن هذا البابِ ما جاء في تقرير وحدانية الله تعالى

من قول الله تعالى(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:٨٨)

رأسُ الأمر في الإسلام إنّما هو الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالَى ، فمن آمن بكلّ ما أمر الله تعالى في كتابِه وفي سنةِ رسُولِه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم الإيمان به إلا وحدانيته سبحانه وتعالَى فإن إيمانه هذا مردودٌ عليْه،وجميع أمره وما صنعت يداه من منافع للناسِ إنّما هو مردودٌ عليْه: فمن أخلص الإيمان بوحدانية الله تعالى فقد بني أمره على أساسٍ متين وثيق عميق راسخ .

ومِن ثَمّ لم يكن لمعنى كُلّيّ مِن مَعاني الهُدى حضورٌ تصريحا أوتلويحًا في البيانِ القُرآني كمثْل ما كانَ لمعنى توحيد الله سبحانه وتعالَى .

ولو أنك قلت ما من آيةٍ من آياتِ القرآنِ الكريمِ إلا وفيها دلالةٌ تصريحيّةٌ أوتلويحيّةٌ ، قريبةٌ أوبعيدةٌ على وحدانية الله تعالى لكنت قائمًا في كبدِ الحقّ وعينِه ، وما ذلك إلا لعظيمِ أهمية تقريرِ هذا المعنى في قلوبِ العابد، ولما للشرك أيًا كانت درجتُه أو صُورته من عظيم الخطر على أمر المرءِ ظاهره وباطنِه، عاجلِه وآجلِه، في مسيرِهِ في الدنيا ومصيره فِي الآخرةِ. ومن ثم حذر الوحي قُرآنًا وسنةً من أدنى الشرك.

روى البخاري في كتابه(الأدب المفرد) باب فضل الدعاء بسندِه عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ يَقُولُ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

« يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟»

قَالَ: « قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ » ( )

ومثْل هذا من النبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم يجعلُ كلّ عاقلٍ في وجلٍ بالغ في جميع أمره قولاً أو فِعلاً أو حالاً من أن يتسرّبَ إليْه جد يسيرٍ من الشّرك ،فيردُّ عليْه صنيعُه ،وقد بذل فيه جُهدَه وعُمْرَه ، وهذا أيضًا يجعل كلّ عاقلٍ على عظيمِ التحرّز من أن يرى نفسَه فيما يصنعُ، فتوسوسُ إليْه نفسُه :إنك قد فعلْت صالحًا ،وإنك وثيق الخطا في الطريق إلى ربّك فيأتيه حتفه من قِبلِ ذلك، وهو في غمرةِ حضور النفسِ غارق، ، وما أعظمُه من خطر: خطر حضور النفسِ في العمل نعوذ باللهِ تعالى منه إنّه نِعم المُستعاذُ به.

وقد قرّر الحقّ سبحانه وتعالَى أنّ كلّ أمرٍ أشرك فيه المرءُ غير الله تعالى فيه ردّه الله تعالى إلى من أشرك فيه,لايقبله .

روى مسلم في كتاب(الزهدِ الرّقائق) بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم :

« قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ».

وكل هذا يقيمنا مقامَ الإبلاغ في التحذير من الشّركِ، والإبلاغِ في إخلاصِ التّوحيد، فذلك إن خلُص أمرُه ، فالمنجَى المنْجى .

في خاتمة سورة (القصص) جاء تقريرُ البيان القرآنيّ عقيدة توحيد الله سُبحانَه وتعالَى في جمل متتابعة تتابعًا هاديًا إلى عظيم تآخيها يقُول الله تعالى

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:٨٨)
وخَتم السُّورة بهذا يجعله رأس المعنى القرآنيّ في السّورة، ذلك أنّ خاتمة السورة هي جماع المعنى فيها ، وذروته ، فالمعنى القرآني في كلّ سورة يبدأ مجموعًا جمعًا كليًا منبئًا عمًا هو سيأتي مفصلا من بعد ، ممًا يجعل أولها استهلالاً منبئًا على سبيل الإجمال والإحكام ، والتلويح بما هومبثوثٌ في السّورة، وتأتي الخاتمة لتصوغ خلاصة المعنى وزبدته ، فما بين الفاتحة والتخاتمة لكلّ سورة من التلاحظ الوظيفي والتناسب الدّلالي ما يجعلك في دَهشٍ ممًا يتوالى عليك إن كنت رغبيًا في لطائف معاني الهدى وطرائفها ، وفي فنون الدّلالة عليها
هذه خمس جمل كلُّ جملة تحملُ تقرير وحدانية الله سُبحَانَه وتَعَالَى وجلاله وسُلطانه المطلق.
استفتحت الأيَة بهذا النّهي : (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) وهو موجة في ظاهر البيان إلى رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ كما جاء في التي قبلها (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الآية: ٨٧) وهو الذي لم يدعُ قط قبل البعثة إلهاً غير الله تعالى ، فكيف يفعلها من بعدِ البعثة ، ولكن البيان جاء على النّحو الموجه النّهي إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ ولم يقل: (وَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) موجهًا النّهي إلى أمّة الدّعوة كلّها، وذلك لفتًا إلى علوّ شأن هذا النهي ، وأنه جديرٌ بأن يوجه إلى كلّ مخلوقٍ وإن لم يتوقع وقوعه منه إشارةُ إلى خطره ، وأنّه ممًا يُخشى أن يقارف المرء شيئًا منه على غفلةٍ عارضة ، فإن الشّرك أخفى من دبيب النّمل.
وما كان كذلك كان كل مخلوقٍ جديرًا بأن يذكر بالانتباه عضنْ أيّ : دقيقة من دقائقهِ ، وبأنْ يذكر بأخذ حذره البالغ من أي خفية من خفاياه.
وفي توجيه النهي إلى رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ توكيد توجيهه إلى كلّ من دونه من الأمة، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ أفضلُ وأتقى وأخشى النّاس، وهذا مسلك من مسالك البيان في تقريرِ المعنى: أن توجه النهي إلى من ليس بمتلبس بما يُنهي عنه ، لا يتوقع أن يكون منه .
وفي توجيه هذا النّهي إلى رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ تقريرٌ لوحدانية الله سُبحَانَه وتَعَالَى ، لأنه إذا ما كان رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ بمحل أن يُنهَى فهو ليس بمحلّ إلا أن يكون لله تعالى عبدًا، فالمأمور والمنهي لا يكون إلهَ البتة. فدلّ قوله تعالى: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) على وحدانية الله سُبحَانَه وتَعَالَى بمنطوقه وبلازمه .
وفي توجيه النّهي إلى رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ قطع لطمع المشركين في أن يكون من رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ ما تنشرح له صدورُهم في هذا الباب .
وفيه أيضًا بيانُ أنّه لأن تكون شعيرةٌ من شعائر الإسلام القوليّة والعملية الظّاهرة والباطنة ، الفردية والجماعية فيها أيُ شائبة من الشّرك ، فكلّ ما جاء به الوحي قرآنًا وسنة هو الصّفاء من الشرك، وكلُّ ما خالف شيئًا ممًا جاء به الوحيُ قرآنًا وسنة فيه شيْءٌ من الشرك، ومن هنا هو ردٌّ على صَاحبِه.
روى الشيخان: البُخاريّ في كتاب (الصلح) ومسلم في كتاب (الأقضية) من صحيحيهما بسنديهم عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » . (النص للبخاري)

وإذا ما كان قوله تعالى(وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ) قد سُبق بقوله تعالى: (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(القصص: ٨٧) فظاهرُ الأمر ألا يأتي معطوفًا بالواو ، لتنزيله منه منزلةَ المؤكِّد (بالكسر) من المؤكَّد(بالفتح) إلا أن البيان جاء بـ(الواو:ولا تدع) لفتًا إلى أن الأولَى نهت عن أن يكون واحدًا من المشركين ، وكأنّ فيه حملا على متاركتهم وهجرهم ، ومخالفتهم في كلّ أمرٍ من أمورهم لا يقُوم على توحيدِ الله سُبحَانَه وتَعَالَى ، فهو دعوةٌ إلى المفاصلة، وترك اتخاذ أحدٍ منهم نصيرًا أو وليًا من دون الموحدين الله تعالى . فهو يلفت إلى قوله تعالى:

(لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) (آل عمران:٢٨)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً)(النساء:١٤٤)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ* إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ{٢}(الممتحنة: ١-٢) ( )

وقوله تعالى (وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) يحملُ معنًى زائدًا على سابقه. فيه نهيٌ عن أن يكون في دعوته أيّ شائبة من شوائب الشرك حتّى وإن تحققت مفاصلته المشركين ولم يكن منهم في شيءٍ. وهذا ما جعل محمول هذه الجملة فيه ما يجعله غير محمول التي قبلها، مما يجعله جديرًا بأن يلتفت إليه على أنّه ليس تابعًا لما قبلٍ وإن كان من جنسِهِ.

وجاء التصريح بوحدانية سُبحَانَه وتَعَالَى في قوله تعالى :(لا إِلَهَ إِلا هُوَ) فهو صريح في هذا، وفيه معنى التعليل للنهي ، فهذه الجملة تحملُ توكيدًا وتقريرًا لما دل عليه منطوقِ سابقتها ولازمها.

وتأتي الثالثة:(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)

وهي ذات وجهين من التأويل :

الأول: أن يكون المعنى " إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) (الرَّحْمَنِ: ٢٦- ٢٧] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَاهُنَا: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلا وَجْهَهُ أَيْ إِلا إِيَّاهُ. "( )

وهذا الوجه من التأويل هو الأظهر والأقربُ وفيه تقرير جلاله سُبحَانَه وتَعَالَى وسلطانه وقهره ، وتقرير ضعفِ كلِّ ما عداه ممَّا يلزمه أنه سُبحَانَه وتَعَالَى وحده هو الإله الحقُّ . فالعالمون أجمعون إلى هلاكٍ محقق ،والله سُبحَانَه وتَعَالَى هو وحده المهلِك والذي لا يعتريه شيءٌ ۞ يعتري العالمين. وفي هذا من إفعام قلبِ السامعِ من الرّهبِ ومن الحملَ على الانصراف عن دعوة غيره سُبحَانَه وتَعَالَى ، فالذي لا يملك أن يدفع عن نفسِه الهلاك كيف يتأتى له أن يصرفه عن غيره فمآل المعنى فيها هو ما صرح به قوله تَعالى: (لا إِلَهَ إِلا هُوَ) ( )

والوجه الآخر: أن يكون المعنى كلُّ شيءٍ من الأعمال والأحوال هالك لا ينفع صاحبه إلا ما كان قد أريد به وجهه سُبحَانَه وتَعَالَى .

صرف البيان إلى تقرير وجوب الإخلاصِ له في الأمرِ كلّه. ومآل هذا أيضًا توحيده - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، لأنه إذا كان ما أريد به غيره هالك، فهذا الذي أريد له لا يصلح أن يكون إلها ، وإلا لما هلك ما أريد له ( )

وبناء على هذا الوجه الثاني تكونُ الجملة الأولى (وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) مسوقة بالقصد الرئيس إلى النّهي عن اتخاذ شريك. وتكون الجملة الثانية (لا إله إلاّ هو) مسوقة بالقصد الأولِ والرئيس إلى إثبات وحدانيته سُبحَانَه وتَعَالَى .

وتكون الجملة الثالثة: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ) مسوقه بالقصد الرئيس إلى تقرير وجوب الإخلاصِ له في الأمرِ كلّه ، فكلُّ عمل لا يراد به وجهه غير نافع.

وبهذا تتنوع المقاصد الرئيسة المسوقة إليها كل جملة مع اتحاد في مآل المعنى والمأمّ الأعظم، ممّا يحقق التنوع في وحدةٍ ويحقق تصريف البيان عن المقصد الرئيس ليتقرر في النفسِ فضب تقرر لعظيم أهميته فهو ما بنيت عليه السورة، وهو معناها المحكم.فكانت هذه الآية بمثابة التذييل والفاصلة الكلية لآيات السورة جميعها،

وأكد ذلك بقوله تعالى :(لَهُ الْحُكْمُ) أي هو مختصٌ بفصل القضاء وإنفاذ القدرة في الدنيا والآخرة ، وكل ما ظاهره حكم لغيره هو مما يرِدُه رادٌ فوقه إلا حكمه سُبحَانَه وتَعَالَى ، فلا رادَّ له.

وهذا قد جاء نظيره في سورة "الرعد": (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(الرّعد:٤١)

وفي سورة "الكهف" (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً }الكهف٢٦

وفي تقديم الجار والمجرُورِ دلالةعلى الاختصاص، فكأنه قيل : ما الحكم إلا له، و(ال) فيه استغراقية تحيط بكل صنوف الحكم . فاجتمع سبيلان للاختصاص:التقديم ،والتعريف بـ(ال) الاستغراقية ، الأول كان التخصيص فيه اصطلاحيًا عند البلاغيين والآخر كان التخصيص معنويًا.

ويأتي قوله تعالى: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ليقرر أن مآل كل شيءٍ إليْه ، فلا يكونُ ثَمّ ما يخرجُ عن سلطانِه ، وفي تقديم الجار والمجرور على عامله ما يفهم التخصيص ، فكأنه قيل: ما ترجعون إلاَّ إليْه .وهو من قصر الموصوف على الالصفةَ : ما مرجعكم إلا إليه.

ويفهم من اختصاص الرُّجوع إليه أنّه هو وحده الذي يحكم في العالمين يوم الدين، وأن كل ما عداه سُبحَانَه وتَعَالَى خاضعٌ له وهذا يلتفتُ إلى قوله تعالى(مالك يوم الدين) في سُورةِ الفاتحة.

وقوله تعالى: (له الحكم وإليه تُرجعون) قد سبق حضوره في السّورة نفسِها:(وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(القصص:٧٠)
وتكاد الآيتان تتآخيان في تقريرِ وحدانية الله سُبحَانَه وتَعَالَى إلا أنّ آيةَ الخِتام قد أبرزت معنى القهر في قوله (كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه) وأبرزَت السّابقتها معنى التّفضل بالعطاءِ الذي لا ينقطع فقال تعالى :(له الحمدُ في الأولى والآخرة) .
وفي جَعل ما يقرّر قهرَه وسلطانَه في آية الخِتام لفتٌ إلى ما جاء في فاتحةِ السُّورة:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ* وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص: ٣-٦}
تبصر العلاقة بين قوله (كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه) وقوله (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) تدرك معالم قهره سُبحَانَه وتَعَالَى لم كان يقُول لقومِه: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي، ويقول بهم : (أنا ربُكم الأعلى) و(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ) (الزخرف: ٥١-٥٢)
فكان اختصاص ختام السّورة بقوله جَلّ جلالُهُ :(كلّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه) ملتفتًا إلى ذلك ،وإلى ما جاء فيها من قولِه تعالى :
(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) (الآيات: ٣٩- ٤٢)
وقوله تعالى:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) (الآية: ٥٨)
فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)(الآية: ٨١)
كذلك تتبين لك علاقات معاني الهدى في آي الهدى في ختام سُورةِ القصصِ من جهةٍ، زعلاقتها بمعاني الهدَى في مفتتحها مما يهديك إلَى وجهٍ مِنْ مِنهاجِ حركةِ المَعنَى في بناء السُّورةِ القُرآنيَة.
*****
ومِمّا تظاهر فيه الاتصال تقريرًا وتوكيدًا آية الكرسيّ .
يقُولُ الله (:

(اللهُ لا إله إلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة:٢٥٥)

آيةُ الكرسيّ إذا نظرت فيها ألفيتها عشرَ جمل نحويّة أو أحدى عشرة جملةٍ إذا ما قلنا إنّ اسم الجلالة جملة حذف أحد ركنيها ودلَّ عليه السّؤال المقدر: لمن المَلك اليوم؟. فيكون نسقها على النّحو التّالي: (اللهُ) ، (لا إله إلاّ هُوَ)(الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) ، (لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ) (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ) ، (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) ، (وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما) ، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

جاءت ثلاث جملِ معطوفة بـ"الواو" : (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ) ، (وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما) ، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

وجاء سائرُ الجُملِ غيرَ معطوفة وهذه التي لمْ تُعطف كانت مقررة ومبينة لما قبلها، وكانت الأولى والثانية المعطوفة متمّمة لما قبلها، فكأنّها منها ، وكان في العطف لفتٌ إلى ما في المعطوفِ من إضافةٍ إلى المعطوفِ إليه ، يحسن الاعتناء بهذه العطية الزيادة ، ولولا هذا لصحَّ عربية أن لا تعطف ، فيؤتى بها على نسق أترابها التي لم تعطف,وكانت الثالثة تذييلا للآية جمعاء

هذا إجمالٌ لشأنِ الجُملِ في آيةِ الكُرسيّ عطفًا بالواو وفصلاً.

هذه الآيةُ ذاتُ رحم وثيقٍ بقوله ((الذين يؤمنون بالغيب) في صدر السّورة، ورأسُ هذا الغيب وشرفُه ما نبأت به هذه الآية ، التي هي أعظمُ آية في كتاب الله (. هي آيةٌ خالصة لتقريرِ وحدانية الله (، جميعُ جملها إنّما هي مسوقةٌ لتقريرِ هذه الحقيقةِ الغيبيّة في قلوبِ العبادِ ، وهي ضريع سورة "الإخلاص" فكلّ جملة فيها لتقريرِ هذه الحقيقةِ في القلوبِ. وقضية توحيد الله (هي القضية الكبرى في القرآنِ، وكلّ القضايا الأخر مترتبة عليها ولذا كثر التّصريح بوحدانية الله (في القرآن، وعُظم آياته دالة تلويحًا على هذه الحقيقةِ.

إذا ما أحسنت البصرَ في آياتِ سورة الفاتحة (أمّ القرآن) ألفيت توحيدَ الله (مقررًا في كلّ آيةٍ من آياتها تصريحًا أو تلويحًا، ولذا كان المعنى الأم للقرآن كلّه هو قول الله ((إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نستَعين) توحيدُ الله تعالى فيها جدّ ظاهرٍ لمنْ كان له قلبٌ معافَى. بل إنك لتبصر مآل المعنى في قولِه (: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) إنما هو (لا إله إلا الله) إلا أنّ قوله تعالى : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) دل على التوحيد تلويحًا ،وقوله (لا إله إلا الله) دل عليه تلويحًا، فكلُّ منْ قال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) فقد هتف ضمنا بقوله (لا إله إلا الله) وهذا لا يغيمُ فقهه على القلبِ السليم، فضلاً عَن أنْ يغيبَ .

وصَفاءُ توحيدِ الله (هو أهمُّ ما يجبُ أن يقوم عليه تعليمًا ورعاية وحمايةً كلّ من كانت له ولاية على غيره من ولدٍ أو زوجٍ أو تلميذٍ وما فوقَ ذلك . أدنى عبثٍ بصفاء التوحيد هوالخطرُ الماحق يمحقُ كلَّ عملٍ مهْما كان نفعه للنّاس، ولذا كثُرَ في البيان القُرآنيّ قوله ((وهُو مؤمن) وأسُ الإيمانِ إنّما هُو الإيمانُ بوحدانية الله (، وأنّه ليس كمثلِه شيءٌ ، وأنّه لم يكنْ له كفوًا أحدٌ.

المعنى النَّحويّ في كلّ جملةٍ من جملِ آيةِ الكرسيّ لا يفتقر إلى السّابق عليه عند النحاة وإن تناسل منه . هذه الجملُ النَّحوية الإحدى عشرة أو العشرة إنما هي جميعها مكونٌ لجملة قرآنية (بيانيّة) واحدة. لا سبيلَ لك إلى أنْ تقفَ على المعنى القرآنيّ الكريم من هذه الآيةِ العُظمَى من جملة نحويّة واحدة منها بل لابدّ أن ينتهي به التّدبّرُ إلى آخر حرفٍ منها ليَجمعَ قلبُك المعنى القرآني لهذه الآية، وإنْ كان مبدأ المعنى قوله (أَللهُ) على تقديرِ أنّه خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ أي (هُو اللهُ) أو كان مبدأ المعنى قوله تعالى :(اللهُ لاإلهَ إلاّ هو) على التّقديرِ الآخر، فإنَّ رأسَ المعنى وشرفه وذروته قولُه ((هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

الجملةُ النَّحوية الأولى هنا (الله) على أنه خبر لمبتدإٍ مطوي تقديره "هو الله" أو" اللهُ لاإلهَ إلاّ هو" هي الجملة المفتاح وهي الجملة الأساسُ الذي بُنِيتْ عليها بقيّة الجمل في بناء وتشكيل المعنى القرآني لهذه الجملة القرآنية.

على القول بأن اسم الجلالةِ (الله) خبرٌعن مبتدأ محذوف(هوالله) تكون الجملة استئنافًا بيانيًا جوابًا عن سؤال مقدرٍ اقتضاه ما قبله من البيان ، على ما عليه بعضُ أهلِ العلمِ .( )

بيانُه أنّه من بعد أن قرّرت الآيةُ السّابقة عليها شأن يوم القيامةِ الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، وهو قولٌ ينظر إلى قوله تعالى في (أم القرآن) : (مَالِكِ يومِ الدِّين) فكأنه قيل، من مالك ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة، ولا شفاعة ، فجاء قولُه (الله) أي مالكه هو الله تعالى. وهذا دالٌّ على وحدانيته سبحانه لتعريف طرفي الجملة، كما هو قائمٌ في علم بيانِ العربيةِ.

وإذا كانت الجملةُ الأولى قوله (اللهُ لا إله إلاّ هو) فدلالته على الوحدنية جدّ ظاهرةٍ وفي الإخبارِ عن اسم الجلالة بكلمة التوحيد (مفتاح الجنة) هو إخبار بأعظم خبرٍ. وأهمّه للعباد علمًا واعتقادًا وسلوكًا. ، وفي الإعراب باسم الجلالة (الله) تربيةٌ للمهابة، وإفعامٌ للقلبِ بجلاله، واستجماعٌ لكلّ صفات كمال الجلال وكمال الجمال ،والتنزّه عن كلّ نقصٍ والتّحلّي بكلّ كمال، وقلبٌ أفعم بذلك هو القلبُ المقيم في فسطاطِ العبودية والعبادية لله (وتلك رسالة الإنسان، والغاية العظمى من إيجاده (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:٥٦)

ويذهب الطّاهر إلى أن الآيةَ استئناف ابتدائي : " لَمَّا ذَكَرَ هَوْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَذَكَرَ حَالَ الْكَافِرِينَ اسْتَأْنَفَ بِذِكْرِ تمجيد الله تعلى وَذِكْرِ صِفَاتِهِ إِبْطَالًا لِكُفْرِ الْكَافِرِينَ وَقَطْعًا لِرَجَائِهِمْ، لِأَنَّ فِيهَا مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَجُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ابْتِدَاءً لِآيَاتِ تَقْرِيرِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْبَعْثِ، وَأُودِعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ هُنَا لِأَنَّهَا كَالْبَرْزَخِ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ."( )

والقول بالاستئاف الابتدائي يكون ترك العطف فيه على منهاج "التّفريع" وهو الّذي يجعل ما استئناف به فرعًا منبثقًا من أصل الساق، وجذر ساق المعنى في سُورة "البقرة" قوله (: (الذين يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ) وعلاقة "آية الكرسيّ" بهذا الجذر جدّ قوية وظاهرة.

وجاء مِن بعد هذه الجملة المفتاح قوله(الحيّ القيّوم) وهو خبر لمبتدإٍ محذوف أي هو الحيّ ،و"القيوم" خبر ثانٍ جاء على سبيل التّعديد. وتوالي صفات الله (في البيان القرآني هو المعهود في السّنة البيانيّة للقرآن، إلا إذا كان بيْن الصّفتين تقابل كما في قوله (: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الحديد:٣) : عطف اسمَه (الآخِر) على اسمه (الأوّل)، وعطف اسمه (الباطن) على اسمه (الظّاهر) ثم عطف مجموع اسمه

(الظاهر والباطن) على مجموع اسمه (الأوّلُ والاخر) وما يفهم من التّوالي من غير عطف بيْن صِفاتِ المخلوقين ، كما في قولك:"خالدٌ كريمٌ شجاعٌ" من عدم كمالِ كلّ صِفة في الموصوف أو عدم كمالِ الموصوفِ في كلّ صِفةٍ ، بخلاف عطفهما كما في "خالدٌ كريمٌ وشجاعٌ" من إفادة الكمال في الصّفة أو الاتصاف ، هُو غيرُ جارٍ هنا ، مِن أن الموصوفُ (لا يكونُ أيّ شأن من شأنِه إلاّ كاملا، ولا يكونُ هُو (إلاّ كاملاً في جلالِه وجمالِه ، فشأن المَوصُوف جلّ جلالُهُ حجازٌ منيعٌ عَن فهم ما يفهم من مِثْل هذا النّظم في حال الخلق، فكلُّ صِفةٍ مِن صفاتِه (هي كاملةٌ في ذاتِها ، وكاملُ اتّصاف الله تعالى بها. وما إيرادُها بغير عطفٍ إلاّ على نهج التّعديد الّذي يفهم أنّ ما السّياق لِعدّه متوافرٌ متكاثرٌ، وأنّ المذكور منه له أصلٌ منْبثقٌ منه يجمعه. وكلُّ صفاتِ اللهِ (يجمعُها اسمه الأعظم (الله) فهو الجامعُ لكلّ صِفاتِ كمالِ جلالِه ولِكلّ صِفاتِ كَمالِ جمالِه (، ولِذا كانَ نعتُ اسمه (الله) بأنّه الاسم الأعظم .

ومِن شأنِ كل صِفةٍ من صِفاتِ الله (أنّها تدلُّ على معنى مَنطوقِها بالمطابقةِ ، وعلى الموصوف بها (تضمّنًا ،وعلى الصّفات الأخر لزومًا، فكلّ صِفةٍ مِن صِفاتِه الحسنة (تتحقّق فيها أنواعُ الدّلالة الثّلاثة. وهذا ما لا يكادُ يخفِى على طالبِ علمٍ.

وجملة (الحيّ القيوم) دالةٌ على وحدانيةِ الله (على معنى ما الحيُ القيومُ إلا هو سُبْحانَه وَتَعَالَى ، ، فكلّ حياةٍ أوقوامة لغَيره إنّما هي فِي جنبِ صِفته بالحيّ القيوم كأنّها لا وجود لها ، بلْ هي على الحقيقةِ لا وجودَ لها بذاتها، فليست لغيره (حياةُ وقوامة بذاتها، أو بذاتِه ، بل له بما كان من الله (تفضّلا بها على مَن وُصف بها مِن خلقِه.فكأنّه قِيل: لا حيَ ولا قيّوم على الحقيقةَ إلاّ هو (، هذا على الحقيقةَ الصّرفة ، لا على أيّ من الإبلاغِ والادّعاء تعالى الله (عَن ذلك علوًا كبيرًا. فالجمغ بين اسمه (الحيّ) واسمه(القيّوم) هوجمع ببين مادلّ كمال صفاتِه وكمالِ أفعالِه (: كمال الأوصاف في اسمه (الحيّ) ؛ وكمال الأفعال في اسْمِهِ(القيّوم) ؛ فـ(الحيّ) ذو الحياة الكاملة ؛ التي لايعتريها أي شائبة نقصٍ لا في ديمويتها ، ولا في ما يتعلق بها ويلزمها

و(القيّوم) هو الذي لا يحتاجُ إلى أحد من العالمين، وهو القائمُ على غيره فكل العالمين في عظيم الاحتياج والعوزِ ( )

ولمّا كان قوله (: (الحيّ القيّوم) دالأ على وحدانيته كانت هذه الجملةُ مقرّرَةً لمعنى (هو الله) ولمعنى (لا إله إلا هو) فكان مقتَضَى هذا أن تأتِيَ غيرمعطوفة كَمَا عَلَيْهِ النّظم .

وفي تخصيصه (بصفة (الحيّ) نفي لألوهية الأصنام التي كان المشركون يتخذونها آلهة من دون الله تعالى فهي ليس لها من صفة الْحياة أدنى نصيب، وكذلك كل ما عبد من دون الله (مما ليس فيه حياة كالكواكب ...

وفي اختصاصه (بصفة (القيّوم) نفي إلهية أي من العالمين لأنّه ليس لأحد من العالمين اختصاصٌ بهذا الصفة، وما قد يُرى من قوامة بعض العالمين على بعض إنما هو أمرٌ نسبي حقيقته النقص والعجز، وليس أهلاً لأن يوصَفَ صاحبه بأنه قيوم، لأنّها قوامة غير موسّسة على كمال العلم بالظّاهر والباطن، والماضي والحاضر والقادم من أحوال من يقوم عليه ، وغير مؤسسة على كمال القدرة عليه ولا على ديموميتها، فمن ذا الذي له كمال العلم بحال ما يقوم به وكمال القدرة عليه،واطرادِ ذلك وديْموميّه؟

فهو يقرِّرُ باختصاصه (بالحي والقيوم أنّه لا يكونَ غيره إلهاً من دونه أو معه ، ويلزم من قوله (القيوم) أنّه كامل العلم وكامل القدرة، وكامل العزة ، والقهر ...

وقدّم قوله (الحي) على (القيّوم) لما يقتضيه التّرقّي الذي يحمل توكيد الأعلى لما قبلَه، فهو بقوله (الحي) نفى إلهية من ليست له حياةٌ البتة، من كانت حياتُه ناقصة، لها أوّل ، وآخر، وتعتريها التغيرات، فمقتضى الكمال في هذه الصفة، كما يدل عليه الإعرب بقوله (الحي) يدخل في نفي الإلهية كل من كانتْ حياته ناقصة من وجهٍ ما، ومن باب أولى من لم تكنْ له حياة، وجاء قوله(القيوم) فأضاف إلى ذلك جديدًا، وهو نفي الإلهية عن مَن ليس له قوامةٌ على شيْءٍ أو له قوامة ناقصة، وإن كانتْ له حياةٌ ما، فدخل في (القيوم) انتفاء الإلهيّة عن الملائكة والأنبياءِ والأولياءِ وسائر العالمين، وهذا ذو نسبي عريقٍ بقوله تعالى (رب العالمين) في (أم الكتاب) لأنّه من كان مربوبًا لا يصلحُ أن يكون ربًّا، والعالمون كلّ ما عدا الله (، فكلّ ما عداه ليس قيومًا ، بل عليه تقوم قيومية الله (التي اختصّ بها تعالى .

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (الرعد:٣٣ ، ٣٤)

ويأتي قوله تعالى: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) ليُقرِّرَ ويُبيّن أيضًا مضمونَ قوله تعالى (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ذلك أنّ من كان حيًا قيومًا على كلّ شيْءٍ يلزمه ألا يأخذه شيْءٌ من سنةٍ أونومٍ، لأنه لو أخذه قليل جدًا من ذلك ، لكان العالمون بغير قيوم حينئذٍ فيفنى العالم ، وعدم فنائه آية قاطعة على أنه لا تأخذه سِنة ولا نوم ، فهذه الجملة مؤكدة لسياقها، ومن ثمّ فصلت عنها، لكمال اتصالهما. وفهي جامعة توكيد تبيين سِياقها.

في قوله (لا تأخذه) وجوه من النظر: إن فسر نا (تأخذه) بمعنى تقهره وتستولي عليه كما يفسر به فعل الأخذ حينا:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) (الأنعام:٤٦)

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (هود:٥٦)

(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)(القمر:٤٢)

كان تقديم (السِّنَة)على (النَّوم) على ظاهره، لأنّه بدأ بالأضعفِ وانتهى بالأقوى.وإن فسرناه بـ(يعتريه) كان هذا على أحد وجهين:

== الأول ملاحظة ترتيبهما في الوجود، فقدّم ما يوجدُ أوّلا (السّنة) ثمّ ما يترتب عليه (النّوم) كما ذهب إليه بعضُ أهلِ العلمِ.

== والآخر أنّه منْ قبيلِ (التّميم) الذي يفيد توكيد ما ابتدئ به،وتقريرِهِ؛ لأنّه لما قال:"سِنة" كانَ نفيُ ما فوقَها أولى، فجاء قوله(ولانوم) مؤكدًا ما فهم ضمنًا من قولِه (سِنة) فاجتمع له بذلك "التّتميم"توكيد المعنى وتقريره.

يقول الطيبيّ " وهو من باب فحوى الخطاب والتتميم، وذلك أن قوله تعالى: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) يفيد انتفاء السنة، واندرج تحته انتفاء النوم بالطريق الأولى على باب قوله: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) (الإسراء: ٢٣) ثم جيء

بقوله: (وَلا نَوْمٌ) تأكيداً للنوم المنفي ضمناً، ولو عكس لكان من باب الترقي على معنى: لا تأخذه سنة فكيف بالنوم؟ كما قال المصنف في قوله تعالى: (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) (النساء: ١٧٢)، كأنّه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية، فكيف بالمسيح. وقد نبهت في "الرحمن الرحيم" على أن التتميم أبلغ من الترقي، فأحسن تدبره فإنه لطيف جداً، ومنه قوله (: (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا) (الكهف: ٤٩)

قال صاحب "المثل السائر": إن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة، وعلى القياس: ينبغي أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة؛ لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأولى أن لا يغادر كبيرة، وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة؛ لأنه إذا لم يعف عن الصغيرة اقتضى القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة، وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة، وكذلك ورد قوله تعالى: (فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا) (الإسراء: ٢٣) ( )

وَيأتي قوله (:(لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) فكان تقريره الوحدانية جدُّ ظاهر، لأن من اختص بملك ما في السّموات وما في الأرض، لم يكن هنالك أله دونه أو معه، ، وإلاَّ لنازعه في اختصاصه بملكية ما في السمواتِ وما في الأرضِ، فهذا التقديمُ أفادَ الاختصاص ، بل إنَّ بيان الجملة ليفيد التخصيص بغير تقديم، فاجتمع لهذه الجملة التخصيص بطريقِ التقديم ، والتخصيص بخصوص مادة القول، فلو قيل في غير القرآن ما في السمواتِ وَما فِي الأرضِ له ، لفهم أيضًا التّخصيص ، لما في (اللام) من قوله(له) من معنى التخصيص . فقولك: (الكتاب لمحمد) يفهم منه معنى التخصيصِ لا محالة. ومن نازع في ذلك فقد كابر.

وفي هذا ○تقْرِيرٌ لِانْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ على ما قررته الجمل السابقة، وَلِذَلِكَ استغنت بما فيها من عوامل الاتصال الذاتي عن أي عاملٍ خارجي..

وَقوله تعالى:(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) يُقرّر ما قررته الجمل السابقة أيضًا، فهو (لما أفاد بقولِه: (لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) أن كل العالمين ملكه، وليس لغيرِه شيءٌ من ذلك ، فكان لازم ذلك أن العالمين أجمعين يذلون له ويَخضعون ، وأنّه ليس لأحد البتة منهم أن يشفعَ لأحدٍ إلاَّ إذا أذن المالك (.

وفي هذا نقضٌ صريح لما ذهب إليه بعض المشركين من أنّهم لايعبدون الأصنام إلا ليقربُوهم إلى الله زلفى، زعمًا منهم أنه بالغون في تقديس الله تعالى، وإجلالهم، وأنّهم يرون في أنفسهم أنّهم لما يقترفونه من الآثام أقلّ شأنًا من أن يدخلوا على ربهم بأنفسهم، فيتخذون لذلك شفعاء بيْن يديهم:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (يونس: ١٧-١٨)

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر:٣)

فقوله ((مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) استفهام دالّ على النفي، فهو في معنى لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، وهذا يؤكد وحدانيته وقيوميته ، وَلِذَلِكَ لم تكن هذه الْجُمْلَةُ بحاجةٍ إلى أن تعطف على قَبْلَهَا لما فيها من وافر عوامل الاتصال الذاتيّ المكين.

يقول الزّمخشري:" بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله (: (لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ) (النبأ: ٣٨). (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ): ما كان قبلهم وما يكون بعدهم"( )

وذهابُ الزّمخشريّ إلى القول بالتّبيين مخرجُه أنّ في كلّ تبيين تقريرًا، وليس في كلّ تقريرٍ تبيينٌ ، فعمد إلى ماجمع بينهما، وأثره أيضًا إشارة إلى أنّ ممّا هو داخلٌ في ملكه (ما يكونُ مِن تصرفاتِ المملوك، فهو جلّ جلالُهُ يملِكُ ما في السموات وما في الأرضِ ،وما يكونُ منه ، فلا سبيلَ لأيّ أن يشفعَ لأيّ إلاّ بإذنِه، وهذا يقطعُ من قلبِ كلّ مَن أحسن التلقي لهذا المعنى أن تتعلق نفسُه بالطمَع في نفع أحدٍ إلا بإذن الله تعالى، وحينئذٍ يتحقق لعبوديته وعبادته الصفاء والنقاء، وهذا أكملُ ما يكونُ من العبدِ، وما أذل أحدًا من العبادِ كمثل الطّمع في ما في أيدي العبادِ . لو أنّك خلّيت للنّاسِ دنياهم، وما نازعتهم فيها، ولا طمعت في شيْءٍ منها، لخلوا لك دينك ومانازعوك في شيْءٍ منه البتّةَ ، فيسلَم لك دينُك ، فتسلم دنياك وأخراك.

وسلك البيانُ في تقريرِ نفي أن يشفعَ أحدٌ إلاّ بإذنه سبيل الاستفهام الإنكاريّ، لأنّه أقوي في تقريرِ هذا المعنى، كما هو جليّ لايخفى على الناشئة في طلب علم البلاغة العربيّ .( )

ويأتي قوله ((يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) مقررًا ما سبق من قوله(الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) من كمال علمه وقيومته ، فمن يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي ما في السموات وما في الأرضِ فهو المحيط بهم علمًا وقيّوميّةً ، وهذا يؤكد اختصاصه بالإلهيّة المؤسّس بقوله أوّلا(الله) أو (الله لا إله إلا هُو) على التّوجيهينْ .

ويذهب بعضُ أهل العلم إلى تأويل قوله تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) على أنه استئناف بياني، أجاب عن تساؤل يتولد في القلب من نفي أن يشفع أحدٌ لأحدٍ إلاّ بأذنه (تقديره: لم لا يصلُح أحدٌ أن يشفعَ لأحدٍ إلاّ بأذنه تعالى ؟ ، فتكون علّةُ عدم صَلاحهم لذلك نقصانَ علمهم ، فلا يُحسنون العلم بمن يستحقّ الشّفاعةَ، ومَن لا يستحق، فلا يتحقق العدل في ذلك .

وجاء قولُه تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) مكملاً لقوله (يعلم ما بين أيديهم، وما خلفهم) فحقّ له أن يُعطفَ عَلَيْه ؛لأنّه مِن تمامِهِ نافيًا عنهم ما أثبته لنفسِه (، وكان البيانُ بنفي الإحاطةِ بشيْءٍ من علمه هاديًا إلى أنّهم قد يعلمون بتعليمه لهم شيئاً من علمِهِ. فهو القيّوم الذي لا يقتدرُ أحدٌ على شيْءٍ إلا بتقديرِ الله (له.

وكان قوله تعالى: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) وقوله: (لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) في معنى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة:٢١٦،٢٣٢)(آل عمران: ٦٦) (النّور: ١٩) جامعًا بين الإثبات في جملة، والنفي في أخرى، ولم يسلك سبيل القصرِ،لأنّ سبيلَ القصرِ يجعلُ النّفي هو مناطَ القصدِ الرئيسِ، وهنا القصدُ إلى أن يكونَ الإثباتُ والنّفي معًا في مقامٍ سواءٍ من القصد الرّئيس. لا يجعل أحدهما مدلولا عليه تصريحًا والأخر تلويحًا، وفي هذا هدايةٌ للمتلقي أن يتخذ من الصّبر على حسن التلقي والفهم لكلّ ما للأخرى.

وهذا يبيّن لكَ أنَّ الإطنابَ هنا بالتصريح بما فهم تلويحًا هو الذي اقتضاه المقام والقصدُ. فكان الإطناب في هذا السياقِ أبلغَ من الإتيان بأسلوب القصر الذي حليته الرئيسة "الإيجاز"

وهذا يهديكَ إلى أنَّ العلم ببلاغة البيان عامة،وبلاغة بيانِ الوَحْي خاصَّة عِلْمٌ سياقيّ ،وليس علمًا معياريًا السلطان فيه للقاعدة. وكلّ عِلمٍ سياقيّ يتنافي معه أن يكون علمًا تجزيئيًا يعتمد القراءة التجزئيّة (القراءة العضين) التي تفصل البيان عن سياقِه.

ويأتي قوله تعالى :(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) مقررًا ما قرره قوله (:(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) كمال جلاله ألوهيته وعظمته وأحاطة علمه وقدرته واتساع ملكه .

وقوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) أكثر مبالغة على كمالِ علمه وقدرته اللذين هما من لوازم وحدانيته ، وهذا ما حمل "البقاعيّ" على أن يذهب إلى أن مقصُود هذه الآية "التفرّد بالملك المقتضي لتمامِ العلمِ وشمولِ القدرةِ اللازم منه التفرد بالإلهية، فهي آية العلمِ والملك..."( )

وإذا ما كان كرسيه قد وسع السمواتِ والأرضِ فليس لأحد سواه شيءٌ فيهما،وهذا ما قررخ منطوق قوله(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

وكان من تمام معنى قوله (وسع كرسيّه السمواتِ والأرض) المستلزم ملكه لهما ،قوله تعالى(لَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا) فجاءت معطوفة عليها لأنّها من تمامها عُطِفَتْ عَلَى جُمْلَةِ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ لِأَنَّهَا مِنْ تمامها ومن البيّن أنّ أعظم ملوك الأرض قوة ونفوذا إذا ما تسعت مملكه، لم يتحقق له كمال حفظه لها، ولم يتحقق منه حفظه لكمالها، فبقيت ثغرات يؤتى منها، أمّا الحقّ (فعلى عظيم ملكه واتساعه فإنه لا يؤده حفظه ، ورعايته وحمايته وبسط قهره عليه، وهذا من كمال قيوميته المستلزمة لكمال العلم والقدرة. فعلاقة قوله تعالى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) باسمه(القيوم) جد ظاهرة.

وجاءت فاصلة الآية أعم من كل ما سبق ومؤكدة كلّ ما سبق كما هوالشأن في الجملة التذييلية فقال (: (وهو العليّ العظيم) . قوله: (العلي) ظاهر في معنى القيومية، وهوأعمّ منها، وقوله: (العظيم) دالّ على أنّه الجامع لكلّ عوامل القيوميةِ ولكلّ صفاتِ الكمالِ في ذاته (الحيّ) وفي أفعاله (القيوم) فشأنُ عظيمِ القوم أن يكون جامعًا خصالَ الكمالِ الّتي في قومه فمَا مِن حِليةٍ إلاّ له منها نصيبٌ وفيرٌ ، وهُو الجامعُهم على كلمته السّواء فـ(الواو) في قوله (وهو العليّ العظيم) "واو" تذييلٍ فيها معنى العطف دالة على أنّ هذه الجملة وإنْ كانت تحملِ توكيدًا لكلّ ما سبق فإنّها تفيدُ جديدًا يجعلها جديرة بأن لا تعدّ تابعةً تبعيّةً صِرفة، لا تختصّ بمزيد فضلٍ ، يتبين لك من هذا ما يؤخذ من الإعراب باسمه (العليّ) و(العظيم) فهما اسمان مُعربان عن كمال العزّة (العلي) والإحاطة (العظيم) فقوله (العليّ) دالٌّ على الموصوفِ به (بالتَّضمّن، وعلى مدْلُول منطوقه بالمطابقة، وعلى صِفات الكمال والتنزّه عَن النقصِ باللزوم .هو دالٌّ على أنّه الحيُّ ،و أنّه القيومِ ، بل دلالته عليهما جدُّ ظاهرةٍ، فلا يكونُ عليًا إلا مَن كان هو الحيُّ وهو القيُّوم.

وعلو الله (علوّ مكانةٍ ومكان (الجهة) ولا يلزم من القول بالجهة القول التّحيز ، فالله (في السّماء مستوٍ على عرشِه ، وعرشُه في السّماء واستواؤه بكيفيّةٍ لا يُطيقُ العقلُ تصوّرها ، فهي ممّا استأثرَ الله (بعلمِه. ومن قال بأنّ العلوَّ ليس علوّ جهةٍ لأن الجهةَ تستلزمُ التّحيزَ لم يُفرّق بيْن شأن الله (المحيط بكلّ شيءٍ ، وحالِ العباد ، فالمفاصلة بين شأنِه سُبْحانَه وَتَعَالَى وحال العالمين أمرٌ فطري من غفل عنه فقد أخطأ .

وقوله(العظيم) الجامع لكل صفاتِ الكمال والتنزه عن النقصِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعاله، فكان رأس المعنى وشرفه في هذه الآية من جنس مفتتحها.

وكان عصب المعنى تقرير كمال علمه وقدرته بماتضمنه تقرير إحاطة ملكه العالمين.

والزّمخشريّ يخلص لنا علاقاتِ معاني الجمل في هذا الآية بأنّه " ما مِنها جملة إلا وهي واردةٌ على سبيلِ البيان لما ترتّبت عليه ، والبيان متحدٌ بالمبين ، فلو توسّط بيْنهما عاطف لكان كما تقول العرب : بيْن العصا ولحائها، فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمنًا عليه غير ساهٍ عنه. والثّانية : لكونه مالكاً لما يدبره. والثّالثة : لكبرياء شأنه. والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره. "( )

****

ومن هذا البابِ ما رواه مسلم في(الزّهد والرّقائق) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (: « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ».

قوله جلّ جلاله: « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ». توكيد لقوله تعالى « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ». ذلك أنّه يلزم من غناه (عن الشّركاء أنّ من أشرك ردّ عليْه عمله ، فكان قوله تعالى « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » مؤكدًا بمنطوقِه لازم منطوق « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ».

وفي هذا من تقرير وجوب صَفاء توحيده ذاتًا وصفةً وفعلاً . وأن يكونَ العبد أحرصَ ما يكون على صفاء إيمانِه وتوحيدِه الله تعالى ، فذلك الّذي لا يكفّ الشّيطان وأعوانه من الإنسِ عن التّطوافِ حولَه يفتنون النّاسَ فيه ، وما زلقتَ أقدام كمثل ما زلِقتْ في هذا الباب ، فكلّ ما يقترفُه العبدُ إن صفا توحيده أهلٌ لأن يغفر بتوبةٍ أوْ بغيرها تفضلاً منه جلّ وعلا،، أمّا الشّرك فإنّ الله (قضى بأنّه لايغفره :(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)(النساء:٤٨)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)(النساء:١١٦)

وهو (قضى أنّه يقبلُ توبةَ من تاب من الشّرك قبل احتضاره :

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (النساء: ١٧ -١٨)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة:١٠٤)

(بسم الله الرحمن الرحيم حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (غافر: ١-٣) (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (الشورى:٢٥)

ألا تَرَى أنّ عُظْمَ أصحابِ سيّدنا رسول الله (كانوا قبل الإسلام في الشرك ، فتابوا منه فقبِلَ الله تعالى توبتهم منه ، ورفع ذكرهم، واصطفاهم لِصُحبة سيدِ خلقِهِ (

هذا الحديث القدسي من أكثرِ الأحاديث رهبًا للعبادِ، ذلك أنّ الشّرك رياءً يسرب إلى القلوب سربًا أخفى من دبيب النّمل. وأكثر أدواء العلماء والدعاة وأعتاها وأنكاها: الرّياء والعجب والحقد والله تعالى هو المُستعاذ به من كل ما لا يرضيه.

***

يقُول قَالَ عنترة:

وعَلِمتُ أن منِيَتي إنْ تَأْتِني * لا يُنْجِني منْهَا الفِرارُ الأسْرَعُ

فصَبَرْتُ عارِفةً لِذَلِكَ حُرَّةً * تَرْسُو إذَا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ ( )

قوله:" تَرْسُو إذَا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ" موكدٌ قوله :" صَبَرْتُ عارِفةً لِذَلِكَ حُرَّةً" ذلك أنّ مَنْ صبرَ عارفًا أنّ منيّته إن جاءَت فلا مَنجاة منها هُو حتمًا ثابتٌ فِي اللّقيا ولا يَفرُّ حين يفرُّ الآخرون.

ومن ثَمّ فصل قوله :" تَرْسُو إذَا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ " عن قوله: صَبَرْتُ عارِفةً لِذَلِكَ حُرَّةً " ومقامُ الفخرِ مقتضٍ إبرازَ الخصالِ الّتي يتسمُ بها المُفتخرُ والّتي يفوقُ بها مَن عداه، وهذا ما جعلَه يسلّطُ الضوءَ على هذا المعنى : اليقين ورباطة الجأشِ . فكان له ذلك في الاتصال توكيدًا .

وهذا اليقينُ القائمُ في نفسِ عنترة مَع ما له مِن مَهارةٍ في القتال والمُنازلة هو الذي جعل منه عنترة الّذي ينهزِمُ خصمُه أمامَه بما يقُومُ في قلبه من الرّهبِ منه، فقد اجتمَعَ لِعنترة الأمران: هذا اليقين وكمال الاستعداد والعدّة، وبغيرِهما لن يكون عِزّ ونصرٌ. ومَن مَلك كلّ عدة، وفاقَ مهارة ودُربة ثمّ خلا قلبُه من اليقين بأنّ منيّته إن جاءتْ فلا مَنجاة ، فإنّه لَنْ ينتفع باستعدادِه ومهارتِه وعدّتِه ، لأنّ نفسه ستهزمُ من قبل أن يُقدم على المنازلة. فأوّل ما يَهزِمُ المقاتلَ خورُه وخواءُ نفسه مِن اليقين أنّ لمنيته موعدًا زمانًا ومكانًا وكيفيةً ، وأنّه لا سَبيلَ إلى تغيير ◦ ذلك أو الفرارِ منْه .

وقد حرَصَ القرآن على أن يَغرسَ هذا اليقينَ في قلوبِ المسلمين حتّى لا تكونَ حركتُهم في هذه الحياةِ يتغوّلها الرّهبُ مِن العُقبَى، والحُسبان بأنّ في المُبالغة في الحذرِ منجاة. ومَن امتلأ قلبُه بهذا اليقينِ وضَعفتْ عدّته واستعدادُه ومهارتُه ، فإنّهُ الخلاءُ من فضيلةِ الأقدامِ ومثوبتِهِ معًا، وذلك ما لا يليقُ بعاقلٍ . فوجب الجمعُ بيْن الأمرين معًا.

***

ومن هذا الباب ما تغنّي به سيّدنا حسّان بن ثابتِ الخزرجيّ رضيَ اللهُ عنْه :

أصُون عِرضِي بِمَالي. لا أدنّسُه لا بَارَكَ اللهُ بعدَ الْعِرضِ فِي الْمَالِ

أحتَالُ لِلْمَالِ إنْ أوذي فأكسبُه وَلستُ للعرضِ إن أوذي بِمحتَالِ

قوله :(لا أدنّسه) توكيد لقوله : (أصُون عرضِي بمالِي) وجعلَ الشاعرِ صيانة المال واتقاء بذله في المكرماتِ ممّا يخدشِ العرضَ وحسنَ الذّكر ، وعبر عن هذا بالتدنيس،وهي كلمةٌ جدّ بالغة في التّنفير لما فيها من دَلالة على أنّ هذه المَعرّة لا تكادُ تُنسَى، ولا تكادُ يُتطهّرُ منها، فتبقَى سُبّةَ الدّهر يتوارثها خلفٌ عَن سَلفٍ.

وقوله (لا بارك الله...إلخ) يحملُ توكيدًا لما قبله وهو أسلوبُ دعاء يفيضُ بتصوير عظيم نفورِه ممّا يُمكن أن يخدشَ عرضَه، فهذا الدّعاء يجعل المال الذي لا يصُون العرضَ في صُورة العدو الجدير بالتصدي له. وذلك من نصِيح العقلِ،وكريمِ الخلق.

وقوله(أحتَال للمال) يحملُ تأنيسًا لمن يخشَى إنفاق مالِه صِيانةً لعرضِه، يريه أن المالَ ممّا يستحصل من بعدِ فقد، والعرض لا سبيل إلى استحصَاله إن خدشَ فكيفَ إن فقد، ولذا لم يعطف قوله (احتال...) عمّا قبله، ففيه بيان لبعضِ العلة التي تحمل على وقاية العرضِ بالمالِ.

وهذان البيتَان، وإن وهنت شاعريتهما فقد استحكمت الحكمةُ فيهما. ممّا يجعل لهما نصيبًا من أن يقومَا مقام الصَّانعِ لشَخصيةِ المسلم ، فاستحقًّا أن يكونا حاضرين في الوعي ، جاريين على الألسنةِ. فعلِيّ الحكمة فيهما جبرَ ما وهنَ من شاعرِيّتهما.

***

ومن هذا قول بشار بن برد:

ما منْ جميلةِ معشَرٍ إلا لَها * أختٌ تُعدُّ ، وما لَها أخَواتُ

لا الشمسُ تقشِرها، ولا قمرُ الدّجا * وهما اللذان لهما المثلاتُ( )

وقوله: (لا الشمس تقشِرها...) توكيد لقوله: وما لها أخوات ،أيْ وليس لها في الحسن مثيل ،وجاء بالمؤكّد تقريرًا لأن انفرادها بالحسن ليس أمرًا قائمًا في عالم النساء فحسبُ بل هو في الخلائق ، ولا سيّما ما جعل مضرب مثلٍ فِي وضاءتِه وحسنه: الشّمس والقمر ، وهذا من بشار إبلاغٌ في تقرير معناه وحِياطتِه من أن يحومَ حوله ما يُمكن أن يخدشَه ولو على سبيل التّوهّم ، وهذا وإن كان فيه من قِرَى السّامع ما فيه ، فهوأيضًا من توفيه المعنى حقه من الرّعايةِ والحياطةِ ، فهو وليد عقلِه ونفسِه.

ومن هذا قول الشّاعر:

إذا أريتَ الناسَ أنك نعجةٌ * أكلتك في هذِي الحياةِ ذئابُها

كنْ راسِخًا فِي الحقّ ، لا تك لَيّنًا * مهما عَدتْ يَومًا عَلَيْكَ كلابُها

البيتُ الثّاني كما لا يخفَى يقرّر معنَى الأوّلِ. فهو نازلٌ منْه منزلة المؤكّد لمضمونِه، وهذا من عناية الشّاعر بتوطينه في النّفوس لما له من عظيم الأثر الحميد في منْ قبِلَه واقبل عليْه ، فاتخذه منهاج حياةٍ ، فليس في الحياة مذلّة إلا آتية مِن قبل الاستنعاج، فإن رضِيَ أحدٌ أن يستنعج ، فلن يلقَى في حياته إلا ذلاً وهونًا ، وهذا ما أنت

تراه في قومك :استعجوا ، فقطعت رقابٌ كان يظن انها ستكون في القوم عليه، وخرصت ألسنة طالما صدعتنا بما تتصايح به من التمسك بالحرية، والعزة والكرامة، والعدالة الاجتماعية، وهم اليوم أذل من الوتد .

وقوله(لا تكلَيْنَا) توكيد لقوله) كنْ راسِخًا فِي الحقِّ ، وهكذا تتوافد عوامل توطيد المعنى،وتوطينه في النفوس لا يفعمها، ويملك عليها أقطارها، فيكون مليكها، فلا يقودها إلا إلى ما فيه عزّها.

ونحن احوج ما نكون إلى أنْ يكونَ هذان البيتان حاضرين في أسماعنا وأفئدتها، مهمينًا أثرهما على سلوكنا.

***

وممّا يحسُن الالتفات إليه أنَّ غيرَ قليلٍ ممّا يُسمّيه البلاغيّون التّشبيه الضّمني هُو مِن قبيلِ الاتصال للتّوكيد.كما تراه في قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نَشْرَ فَضِيلةٍ * طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشتِعَالُ النَّارِ فيما جاورَتْ ما كان يُعرَف طِيبُ عَرْفِ العُودِ

لَوْلاَ التَّخَوُّفُ لِلْعَواقِبِ لم تَزَلْ * لِلحاسِدِ النُّعْمَى عَلَى المَحْسُودِ

فالبيت الثّاني (لَوْلاَ اشتِعَالُ النَّارِ...) إنّما هُومؤكدُ مضمون البيْتِ الأوّل، ومبيّن له في الوقتِ نفسِه ولذا نزّل منه منزلة المشبَّه به من المشبَّه، وعدّه البلاغيون من التّشبيل التمثيليّ.

وأبو تمّام يذهبُ بك إلى أن تنظرَ إلى حاسِدك على أنه نعمةٌ من الله سُبْحانَه وَتَعَالَى أنعم بها عليْك ، فهو ما حسدك إلاّ لأنّ الله تعالى أنعم عليك بما لمْ يُنعِمْ عليْهِ . فانظر إليْه على أنّه ذكرك فضل الله تعالى عليك ، وذكرك بواجب شكره تعالى ، وهو بحسَده لن يزيلَ النّعمةَ عنك إن أنْت حصّنتها بما جعله الله تعالى حصنًا لها منْ جليلِ شكرِه عليها شكرًا عمليًا باستِعمالها في ما خلقَتْ له ، واليَقين بأنّها مِن فضلِ الله تعالى عليْك، بلاحولٍ لك ولا قوة ، فلستَ بالمكتسِبها بعلمِك وعملك،

والعربُ من شأنها أن تدعو بأن يبقَى المرء محسُودًا، لأنّه لا يكون محسُودًا إلا إذا كان ذا نعمة قلّما تكونُ عند كثيرٍ.

يقولُ مقروم بن مسعود الضّبي في ختَام داليّه المفضلية:

هذا ثَنَائي بما أُولَيْتَ من حسن *لا زلتَ عَوْضَ قريرِ العَيْنِ مَحْسُودا

وأبو تمام يُريدُك أن لا تقفَ من حاسِدِك موقفَ الخَصِيم، فتشغل نفسَك به، فيشغلك عن اكتساب الفضائل والمحامد، فيكون قد نجحَ في بعضِ ما يريد. اتّخذه أداةَ دِعايةٍ لك جنّدت نفسِها لصالحك، بغير أجرٍ، وهذا ما يمكن للعبدِ أن يحوزَه بما يقومُ في قلبه من الإيمان الحق الصّريح ، فإنّ هذا الإيمانِ يجعلُ حياة صَاحبه كلّها خيرًا كماهدتَ السنة النبوية إن أصابته سرّاء شكَر فكان خيرًا ،وإنْ أصابتْه ضراءُ صَبَرَ فكان خيْرًا له، وبذلك يستحيل العبد المؤمن صانعَ خيرٍ ومجتني خيرٍوناشره في العالمين ،وتلك ثقافة إن علّمت نفسَك والناسَ ،ودربتهم عليها - ولاسيّما طلاب العلم فهم أحق بذلك - كانت أوطانُهم أوطانَ عزّةٍ ومنعةٍ وخيرٍ عميمٍ مُقيم .

ومثله قول ابي العلاء المعريّ:

وإنْ كُنْتَ تبْغِي العَيْشَ ، فابغِ توسّطًا فعِندَ التناهي يقصرُ المتطاولُ

تَوقَى البدورُ النَّقصَ وهي أهلةٌ   ويدركها النَّقصان وهي كوامل.

البيتُ الثَّاني يحمل توكيدًا للمعنى القائم في قوله (فعِندَ التناهِي يقصُرُ المتطاولُ) ولولاه لصحَّ أن تَجعلَ البيتَ الثَّاني استئنافًا بيانا عمَّا تضمنه الشطر الأوَّلُ مِن تساؤل، لما تضمنه الشَّطر الثاني من البيتِ الأول قام ببيان ذلك، ولذا صدَّره بـ(الفاء) ولولاها لكان الشَّطرُ الثَّاني مفصولا للاستئناف البياني.

وهذا الذي جاء به أبو العلاء إنما هو حميدٌ في مَتاع الدّنيا أمَّا ما كان من شأنِ العلمِ والأعمالِ الصَّالحاتِ ومكارمِ الأخلاقِ، فالأمر على غيره، وهو إذ يُهدي إليك ذلك إنَّما يريدُ أن يجعلَ ما فُطرَت عليه إنسَانًا مِن حُبِّ ان تكون الأعلَى منصرفًا إلى ما هو قابل إلى زيادة لا تتناهَى، حتى لا تخشَى النَّقصَ كلما علوت وتقدمت. لا إلى ما إذا بلغت شرفها نكست ونقصت. فتعقبَ الحسرةُ ما كنت فيه من نشوة الازدياد وسَكرتِه ، كما هو حال الحياة الدّنيا على ما صرَّفَ البيانُ القرآنيُّ حالَها في صورٍ عدَّة وسياقاتٍ متنوّعةٍ تبصرةً وذِكْرى لأولي الألباب.

ومن رأفت الله تعالَى بعباده، أن جعل بلغوهم الذرى في مَتاع الدّنيا مظنَّةَ التَّخوفِ من النقص، بينما جعل التقدم في سَبيلِ الخيرِ باعثًا على اليقين بأنَّه ما يزال مِن أمامِه مراحلَ ومنازل لا تتناهَى، فيستصغرَ ما قطع في جنب ما يستقبِل، فيبقَى عزمُه فتيًا، وتشوفه متكاثرًا.

ومن هذا قول ابي تمام في ابني عبد الله بن طاهر :

نجمان شاء الله ألاّ يطلعا * إلاّ ارتداد الطَّرفُ حتَّى يأفلا

إنَّ الفجيعة بالرّياض نواضرا * لأجلّ منها بالرّياض ذوابِلا

لهفي على تلك المخايل فيهما *. لو أمهلت حتَّى تكونَ شمائلا

لو يُنْسأن لكان هذا غاربا * للمكرمات وكان هذا كاهلا

إنَّ الهلالَ إذا رأيتَ نموَّه *. أيقنْت أن سيكونَ بدرًا كامِلا

قوله: (إنَّ الهلالَ...البيت) إنَّما هو تصوير لمعنى ما قبله:(لهفي ... كاهلا) وهوتصويرٌ يحملُ توكيدًا وتبيينًا له، ومن ثَمَّ كان أجدرَ بأن يُفصَلَ عنْه كما فعل.وأبو تمامِ استهل شجوه استهلالا يملأ النفسَ رضا بقضاء الله سُبْحانَه وَتعالَى ، فقوله(شاء الله ألاّ يطلعا إلاّ ارتداد الطّرفُ حتَّى يأفلا) وجعله هذا خبرًا عمَّا صورهما به(نجمان) ممَّا يبلغ به منزلاً من الثناء على والديهما، أولا وعليهما آخرًا،وفي هذا أيضًا تصويرٌ لمدى الفجيعة الَّتي تلحقُ النَّاسَ طرًا بفقدهما، فليس أبواهما المفجوعيْن وحدهما ، بل النَّاس جميعًا ، فإنَّهما لو بقيا لكانا للنَّاس كما كانَ أبوهما. ولكنَّها مشيئة الله تعالَى، وفي الرّضا بمشيئةَ عوضٌ أي عوضِ.

وانظر كيف أنّ أبا تمام في هذا السياق نظرإلى الهلال من جهة نموّه واكتماله، ولم ينظر إلى البدر عند تمامه، فتلك الجهةَ التي نظر منها هي الأليق بالمقام. فأتى المعنى مِن الجهةِ التي هِيَ أحق بأن يؤتى منها.

***

مجمل الأمرِ أنّ ترك العطف بيْن المعنيين لكمال اتصالها توكيدأ له باعثان:

الأوّل راجعٌ إلى حالِ المتكلم ومعناه .

والآخر راجعٌ إلى حال السَّامع كما يظنّه المتكلمُ ، فيبني كلامَه مراعاةً لحالِه هذا الذي قدره .
أمّا الباعثُ الأوّل ، فيتمثّل في رغبةِ المتكلم في تقرير معناه في القلبِ وتوطينِه لعظيم أهميتِه ، لما سيبنى عليه.
وأما الباعثُ الأخر ، فيتمثل في تقدير أن السامع يحسبُ أن المتكلم متجوزٌ فيبيانه لما اشتمل عليه مما هو غيرُ معهودٍ في مثلِه من تمامِ الدلالة وتبرجها وعلو صُورتها وتألقها، أو غالطٌ فيه، فيأتي التوكيد رفعًا لهذا الذي يُحسبُ أنه ناشبٌ بالسّامع. ( )
***
بقي أمرٌ مهمٌ في هذه الصورة: الاتصال توكيدًا. ممّا يحسنُ إدراجه في هذا الجُملة الاعتراضيّة والتّذييليّة، ذلك أنّ كُلاًّ مِن هاتين الجُملتين الوظيفةُ الرّئيسة لكلّ إنّما هي التّوكيدُ ،فإذا كانت كلّ مجرّدة من(الواو) فالفصلُ لكمالِ الاتّصال توكيدًا.
والجملةُ الاعتراضيّةَ عند البلاغيين أوسعُ منها عند النحاةِ: النحاةَ على أنّها إنّما تكون بيْن متصلين معنًى ولفظًا كالذي يقع بيْن ركني الجملة ونحو ذلك ممّا كان الاتصال متحققًا لفظًا ومعنى، والبلاغيون على أن الاعتداد عندهم بما كان متصلا في المعنى أوالغرضِ يعرف الخطيب القزويني "الاعتراض" بـ"أنْ يُؤتَى فِى أثناءِ كلامٍ أو بيْن كلاميْن متّصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام"( )
ويفسر السعد التفتازاني الاتصال بين الكلامين أن يكون أحدهما توكيدًا للأخر أوبيانًا له أو بدلاً، وهذا من السعد تضييق ، ولذا ذهب آخرون إلى أنّ الاتصال بهذا المعنى ليس بشرطٍ فكان الاعتراض عندهم أن يؤتى في اثناء الكلام أو في آخرهِ أو بين كلاميْن متّصلين أو غير متّصلين بجملةٍ أو أكثر لا محلّ لها من الاعراب لنكتة ..." ( )
ويعلق السّبكي على كلام الخطيب : بقوله:" كون الواقع بين الكلاميْن المُتّصلين معنى لا لفظا جملة اعتراضية هو اصطلاحُ أهلِ المعانى، لنظرهم إلى المعنى. أمّا النّحاةُ فلا يُسمونها اعتراضيّةً، حتّى يكون ما قبلها وما بعدها، بينهما اتصالٌ لفظى. والزّمخشرىّ يكثُرُ منه ذكرُ الاعتراضِ فى شيٍ بيْن كلامين، بيْنهما اتصالٌ معنوى، فيعترضُ عليه النّحاةُ، بأنّه ليس ذلك باعتراضٍ. ولا اعتراضَ عليه، لأنّه يمشِى على اصطلاحِ أهلِ هذا العلمِ ما أمكنَه"( )
والّذي عليه أهل المعاني هوالذي أجري عليْه، وأهل العلمِ من يجعل الاعتراض للتوكيد ، ومنهم من يجعله له ، ولغيره، وهم الأكثرون ، فالزمخشري يرى أن الجملة الاعتراضية لا بدّ لها من اتصالٍ بما وقعتْ معترضةً فيه، ويرَى أنّها لا تساقُ إلا للتوكيد( )
والطيبيُ في"التبيان"على أنّ مرجع الاعتراض إلى التوكيد( )
المهمُ أنَّ المعترض به لا يخلُو من التوكيد، وإن جُمِعَ إليْه فائدةٌ أخر.
والبصرُ بمناطِ التلاقي بين معنى المعترضِ به ومعنًى ما اعترض به فيه أو غرضهما في لطفٌ قد يكون أكثر ممّا كانت الجملة فيه مؤكدة بغيرِ اعتراضٍ. .
ولوْ أنَّ البلاغيين أدخلوا القولَ في أسلُوب الاعتراض بغير (الواو) في مبحث "كمال الاتصال تَوكيدا وفي مبحث التوسط بيْن الكمالين حين يكون بـ(الواو) لكان الأحسنَ.

والتذييلُ شبيه بالاعتراض حين يكون للتوكيد، وهو بعض فوائده . فالبلاغيون على أنّ " التذييلَ" تعقيبُ الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتأكيد"( )
فكلُّ اعتراضٍ أو تذييل بغير عطف بـ(الواو) له محلّ رحيبٌ في مبحث كمال الاتصال توكيدًا،وهو بهما أنيس.

*****

وممّا هو جليّ لا يخفى قول الله تعالى:
 فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) (البقرة)
قوله سبحانه وتعالى :(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا) إنما هو توكيد لقوله قبلُ:(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) ففصلت عنها لكمال الاتصال توكيدًا.
إذا ما كان هذا حظ القاعدة البلاغيّة في الفصل توكيدًا، فمثلُك لا يستغني بذلك .
من وراء ذلك معانٍ إيمانيةٌ تربويّةٌ إصلاحيةٍ من أجلها نتدارسُ "علم البلاغةِ العربيّ "إن فقهتها، تبيَّنتْ لك العلاقةُ بيْنَك وبيْن إبليس وجندِه مِن الإنس والجنّ ، فلا تحسبنّ أن جُند إبليس مِن ولدِه فحسبُ، بل إنَّ جنده من البشرِ إن لم يكونوا أكثر مِن ولده، فإنّهم عليك مؤمنا أنكى وأشدّ من ولد إبليس من صلبه. فاتخذ لنفسِك حذرها وحفاظَها، واستحضر دائمًا ما بين أبيك وإبليس ، فهل لك أن تأخذ ثأر أبيك آدمَ عليْه السّلام من إبليس.
النبلاء البررة لا يتقاعصون عن الأخذ بثأر أبيهم، فهل لي ولك أن نسعَى إلى أن نكون منهم فنأخذ بثأر أبينا وأمنا من عدوهما :"إبليس" ؟
اعكتف في محراب هذه الآيات،وما شابهها في الذّكر الحكيم، وتبصّر واعتبر واتخذ موقفًا.
ما أنزل اللهُ تعالَى في كتابه الحكيم القصصَ للتسلية، النبلاء لا يتسلون عن همومه، كلّا إنهم يوجهونها بالحكمة والعلم النصيح، ومن قبلُ بالإيمان الصريح، التسلية عن الهموم هروبًا إنما هو شأن الدهماء،ولست منهم. أنت طلب علم ، كلا أنت طالب وراثة النبي - صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - دعوة بالحق إلى الحق وإخراجًا للناسِ من الظلام إلى النور، القصص تُنزَلَ في الذكر الحكيم للاعتبار والتّثبيت والإرفاد بمعاني الهدَى الإحسانية التي هي طُعمةُ فؤادك.
هل لك أن تفعل، تركت لك أن تستطعم من عملك، فهو أشهى ، وإنْ كان أقلّ مقدارًا. فما أطعمَ طالبُ علم فؤاده خيرًا له من تبصره،وتدبيره في بيان الوحي قُرآنا وسنّةً .

***

ومن هذه الصورة قول الله تعالى :
(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة :٢٨٥)

ثلةً تقف عند آخر قوله تعالى(وَالْمُؤْمِنُونَ) وثلةً تقف عند آخر قوله تعالى:(مِنْ رَبِّهِ) على القراءة الثانية تكون جملةَ(الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)
وعلى الوقف على آخر (وَالْمُؤْمِنُونَ) يكون قوله تعالى(كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)
توكيد جملةَ: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ) وهذا ينبئ عن عظيم إيمان" المؤمنون" إذ أشركهم في إيمانِ الرسول (، فإيمانه صلَّى الله عليْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحبه بما أنزل إليْه من ربّه إنما هو إيمانٌ كميلٌ عن علمٍ وثيقٍ ، فكذلك إيمانُ المؤمنين، ليس إيمانًا تقليديًا ، وهذا من أعظم ما يسر به العبدُ ومن أجل ما يُمدح بِه، فليس كمثلِه فعلٌ.
أما الوقف على آخر قولِه(مِن رَبّه) فقد يُفهم منه أن إيمان (المؤمنون) وإن كان من إيمانِه (إلا أنّه من دونه . إيمانه - صَلَّى اللهُ عليْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ – عن عيان،وإيمانهم عن برهان. فمن عطف "المؤمنون" على "الرسول" ينبئُ أن إيمانهم،وإن يكن عن برهان، فهو وثيقٌ كأنه كإيمنه (عيانًا.
وقرأ ابن مسعود:" وآمن المؤمنون" وكأنّها قراءة تفسيرية، تفهم مذهب ابن مسعود

***

ومن هذا قول الله تعالى:

 وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) (البقرة)

قولُه تعالى :(فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)هما جملتان(أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) و(هُم فيها خالدون)
وكذلك قولُه تعالى :(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) جملتان:(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) و(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
ولَو لَم يأتِ بقولِه في كلّ بقولِه تعالى : (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لصح عربية الوقف على آخر ما قبلها ، ولكنَّ البيانَ جاء بالجملةِ الثّانِيَةِ فِي كُلِّ (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) توكيدًا لمعنى الَّتي قبلَها، توكيدًا لمعنى المُصاحبة ، وأنَّها صُحبة بدأتْ مِن أوّلِ لحظةٍ من لحظات التّكليف . فالصُّحبة هنا منْ معانِيها الاستحقاقُ ، ومِن معانيها الملازمةُ ، أيْ ملازمة ما يفضِي إليها ، ويوجبها.
أريتَ عاقلًا يُصاحبُ النار تلتهمُ كل جليل جميل فيه كل القيم الأدميّة الحُسْنى ، ويُصرّ على أن يبقَى فيها خالدًا ؟!!!
أرأيْت إلى كَم بَلَغَ تبلُّد حسّ العصاة والكفرة ؟
يحترقون بنار المعصية،ولا يشعرون.
إذا ما تحرّك قلبُك إلى صناعة طَاعة ربّك سبْحانه وبحمدِه، فاشكره جلّ جلاله على ذلك، وتوسّل بهذا الشّكر النَّصوح إلى أن يقيمك عزَّ وعَلا ،ولا يخرجك من الجنة، لِيسّر لك استكمال الصُّحبة إلى أن تلقَى سيّدنا رسولَ الله - صَلَّى اللهُ عليْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ - في الفردوس الأعلى، أولا تحب ذلك؟ أو لا تشْتاق إليها ؟

ظنّي الوثيق فيك أنك الرّغوب في ذلك ، فأنت طالب علمٍ،وفي فسطاطِ الخير في" الأزهر الشريفِ " أوَ تفهم ؟ فاستعن باللهِ تعالَى،ولا تعجز.

جاء قوله (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) في الآيتين مفصولا عما قبْله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) و (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) مِن أنّ كلّا توكيدٌ لما قبله، فكلٌّ صاحبُ ما هو داخلٌ فيه، وكلٌّ خالدٌ فيه . فقوله تعالَى :(أصحاب) هادٍ إلى أن كلّا قد صحب ما كان جزاؤه ما ذكر لكلٍّ ، فهذه الصحبة ملازمة، أولئك لازموا السيئات، وهي إن فقهت " نارٌ" تأكلُ المعاني الإيمانية، وتلتهم الفطرة التي فطرهم الله عليها، فأفسدوها بالسيئات

وهؤلاء لازموا الأعمال الصّالحات، وهي جنةٌ ، من لم يستشعر، وهو يمارس صناعة الأعمال الصّالحات أنه في جنّة القُربِ الأقدس، فما هو بصانع أعمالٍ صالحاتٍ

من كسَب سيئة ،ولم يشعُر أنّه في عذاب وطرد من رحمة الله تعالى، فإنما هو متبلد الحِسّ، جلفٌ ، فاقد معاني الآدمية، وكفى بذلك عذاب.

إنّ الله تعالى سَريع الحساب، يُحاسب عبده بمجرد اقترافه الحسنة أو السّيّئة، كلٌّ بحسبِه، فإيّاك أنْ تحسِب أنك من يصنع السّيّئة أنه ليس في النّار التي تلتهم كلّ جليلٍ وجميلٍ فيه. تبلُّد حِسّه ، هو الذي جعله لا يشعرُ بالعذاب (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)(المطففين)

وإيّاك أن تحسِب أنك وأنت تصطنع الحسناتِ مُحتسبًا مُتقنا أنك لستَ فِي جنّة ربك عزّ وجلّ ، وأنْت تجتهدُ لِتتعلّم مَا يُعينُك علَى ان تحسِن الفهمَ عن ربّج جلّ وعزّ وعن سيّدنا رَسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عليْهِ وعَلى آلِه وَصَحْبِهِ - إنما أنت في جنةٍ ، فاحمدِ الله تعالى علة ذلك ، أيّاك أنْ تغفُل عَن ذلك

أو رأيتَ مَن كان في جنّة يسأم من التنعم فيها ،ويرغب في الخروج منها ، سأمه ،وهو يتلقّى العلمَ ورغبتَه في الانتهاء إنّما هو آيةٌ على أنّهُ لا يَشعرُ بأنه فِي الجنة، تبلّد حسه، فعليْهِ أنْ يُعالجه بالذّكر، وببر والديْه،والإحسان إلى جيرانه، والعفو عن خصومه، وبالاستغراق في الصّلاة على سيدنا رسول اللهِ صلّى الله عَليْهِ وعلى آله وَصَحبِه وسلّم.

بقيتْ إشارة عَجْلَى إلى أنّ مِن السّنة البَيانية أنّ القرآنَ يَطوِي الموصوف ويصرّح بالصّفة في قولِه" يعملون الصّالحات" ومقتضى الظّاهر أن يُقال : يعملونَ الأعمال الصّالحات . فيطويّ الموصوفَ إيماءً إلى أنّ الاعتداد بصلاح الأعمال - لا بالأعمال نفسِها ،وإن كثرتْ بلْ تكاثراتْ .

عبّر بالصّفة عَن الموصوف، لأنّها هِي مناطُ الاعتداد.

ليس الأهمُّ أن تفعل ، الأهمّ أن يكونَ عملُك صَالحًا مصلِحا ، وتبصر اصطفاء قولِه (يعملون) لا يفعلون : العملُ لا يكونُ إلّا عَن قصدٍ ، وعن تيقظٍ وعَن علمٍ صحيحٍ صريحٍ نصيح، أمّا الفعلُ ، فقد يكونُ عَن غير قصدٍ، أوعلمٍ ، فكلُّ ما يكونُ هُو فعلٌ ، فإنْ كان عَن علمٍ وقصد وتقظ ، فهو عمل، وإنْ كان عَن مهارةٍ ودُربةٍ وعظيم إتقانٍ ، فهو صنعة.

ثمّ فروقٌ بيْن الكلمات الثلاث : فعل، عمل، صنع. وعليْك إحسانًا لنفسِك أن تتبّع ذلِك فِي البيان القرآنيّ.

مقال عبد القاهر في كمال الاتصال توكيدًا :

يقول الإمــام :

« - ومثالُ ما هو من الجمل كذلك قولُه تعالى: {آلم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: ١، ٢] قوله: "لا ريب فيه"، بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ} ، وزيادةُ تثبيتٍ له، وبمنزلة أنْ تقولَ: "هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتابُ"، فتعيدُه مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبرِ غيرَ الخبرِ، ولا شيءَ يتميزُ به عنه فيحتاجُ إلى ضامٍّ يَضمُّه إليه، وعاطفٍ يعطفه عليه.. ( )

ومثلُ ذلك قولُه تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٦، ٧] قولُه تعالى: {لا يُؤْمِنُونَ} ، تأكيدٌ لقوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} ، وقولُه: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} ، تأكيدٌ ثانٍ أبلغُ من الأول، لأنَّ مَن كان حالُه إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كانَ في غايةِ الجَهْل، وكان مطبوعاً على قَلْبِه لا محالةَ. ( )

وكذلك قولُهُ عزَّ وجلّ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ} [البقرة: ٨، ٩] إنما قال "يخادعون" ولم يقل: "ويخادعون" لأنه هذه المخادعةَ ليست شيئاً غيرَ قولِهم: "آمنا"، من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذن كلامٌ أُكّدَ به كلامٌ آخرُ هو في معناه، وليس شيئاً سواه. ( )

وهكذا قولُه عزَّ وجلّ: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤] ، وذلك لن معنى قولهم: "إنّا معكُم": أنا لم نؤمنْ بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم نترك اليهوديةَ. وقولهم: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} خبرٌ بهذا المعنى بعينه، لأنَّه لا فَرْقَ بين أن يقولوا: "إن لم نَقُل ما قُلْناه من أنَّا آمنا إلا استهزاء"، وبين أن يقولوا: "إن لم نَخْرُجْ من دينكم وإنَّا معكم"، بل هما في حُكْم الشيءِ الواحد، فصار كأنهم قالوا: "إن معكم لم نفارقكم" فكما لا يكون "إنا لم نفارقْكم" شيئاً غيرَ {إِنَّا مَعَكُمْ} ، كذلك لا يكون {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} غيرَه، فاعرفْه. ( )

ومن الواضحِ البَيّنِ في هذا المعنى قولُه تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} [لقمان: ٧] ، لم يأتِ معطوفًا.

نحو: {كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} لأنَّ المقصودَ من التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقْرٌ، هُوَ بعينه المقصودُ من التشبيه بمن في أذنيه وقر، وهو بعينه المقصودُ مِنَ التشبيه بِمَنْ لم يسمع، إلاَّ أنَّ الثاني أبلغُ وآكَدُ في الذي أُريدَ.

وذلك أنَّ المعنى في التشبيهين جميعاً أنْ يَنْفِيَ أن يكونَ لتلاوةِ ما تُلِيَ عليه من الآياتِ فائدةٌ معه، ويكونَ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يجعلَ حالَه إذا تُلِيتْ عليه كحالِه إذا لم تُتْلَ. ولا شبهةَ في أن التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقرٌ ابلغُ وآكَدُ في جعلِه كذلكَ، مِنْ حيثُ كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ وإن اراد ذلكَ، أبعدَ مِنْ أنْ يكونَ لتلاوةِ ما يُتْلَى عليه فائدةٌ، مِنَ الذي يصحُّ منه السَّمْعُ إلا أنه لا يسمعُ، إما اتفاقاً وإما قصداً إلى أنْ لا يسمعَ. فاعرفْه وأحسِنْ تدبُّره. ( )

ومنَ اللطيفِ في ذلك قولُه تعالى: {مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٢١] ، وذلك أن قوله: {مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} ، مشابِكٌ لقولِه: {مَا هَٰذَا بَشَرًا} ومُداخِلٌ في ضِمْنه من ثلاثة أوجهٍ[١]: وجهان هو فيهما شبيهٌ بالتأكيدِ، ووجهٌ هو فيه شبيهٌ بالصفةِ.

فأحدُ وجهَيْ كونِه شبيهاً بالتأكيدِ، هو أنه إذا كان مَلَكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان، إثباتُ كونِهِ ملكاً تحقيقاً لا محالَةَ، وتأكيداً لنفي أنْ يكونَ بشراً. ( )

والوجهُ الثاني أن الجاريَ في العرفِ والعادةِ أنه إذا قيل: ما هذا بشراً وما هذا بآدميٌ" والحال حالُ تعظيمٍ وتعجُّبٍ مما يُشاهَدُ في الإنسانِ مِنْ حُسْنِ خَلْقٍ أو خُلُقٍ أن يكونَ الغرضُ والمرادُ من الكلام أن يقال إنه ملك،(ص/٢٢٩)وأنه يُكْنَى به عن ذلك، حتى إنَّه يكون مفهومَ اللفظ ، وإذا كان مفهوماً مِنَ اللفظ قَبْلَ أن يُذْكَر ، كان ذكرهُ إذا ذُكِرَ تأكيداً لا محالَة( )

لأنَّ حَدَّ "التأكيدِ" أنْ تحقِّقَ باللفظِ مَعْنًى قَد فُهِمَ مِن لَفْظٍ آخرَ قَدْ سَبَقَ منكَ.

أفلا تَرى: أنَه إنَّما كان "كلُّهم" في قولِكَ: "جاءني القوم كلُّهم" تأكيداً من حَيْثُ كانَ الذي فُهِمَ منه، وَهُوَ الشُّمولُ، قد فُهِم بديئاً من ظاهِرِ لفظِ "القومِ"، ولو أنَّه لم يكن فُهِم الشمولُ من لفظِ "القوم"، ولا كانَ هو مِنْ موجبه، لم يكن "كلٌّ" تأكيداً، ولكانَ المشمول مُستفاداً من "كلّ" ابتداء. ( )

****

وأما الوجه الثالثُ الذي هو فيه شبيهٌ بالصِّفَةِ، فهو أنه إذا نُفِيَ أن يكونَ بَشراً، فقد أثبتٌ له جنسَ سواه، إذْ مِنَ المُحالِ أن يخرُجَ من جنسِ البشرِ، ثم لا يدخُلُ في جنسٍ آخرَ. وإذا كانَ الأمْرُ كذلكَ، كان إثباتُه "مَلَكاً" تبييناً وتعييناً لذلك الجنسِ الذي أريدَ إدخالُه فيه، وإغناء عن أن تحتاجَ إلى أن تَسألَ فتقولَ: "فإنْ لم يكنْ بشراً، فما هُوَ؟ وما جنسُه؟ " كما أنك إذا قلتَ: "مررتُ بزيدٍ الظريفِ" كان "الظريفُ" تبييناً وتعييناً للذي اردتَ مِنْ بينَ مَنْ له هذا الاسمُ، وكنتَ قد أغنيتَ المخاطَبَ عَن الحاجةِ إلى أن يقولَ: "أيَّ الزيدينِ أردتَ؟ ".( )

الإثبات والتأكيد بإن وإلا:

ومما جاءَ فيه الإثباتُ "بإنْ وإلا" على هذا الحد قوله عز وجل: {مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: ٦٩] ( )

وقولُه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤] ( )

أفلا ترى أنَ الإثباتَ في الآيتين جميعاً تأكيدٌ وتثبيتٌ لنَفي ما نُفِيَ؟ فإثباتُ ما عُلِّمَه النبي صلى الله عليه وسلم إليه ذِكراً وقرآناً، تأكيدٌ وتثبيتٌ لنَفي أن يكونَ قد عُلِّم الشعرَ وكذلك إثباتُ ما يتلوهُ عليهم وحياً مِنَ الله تعالى١، تأكيدٌ وتقريرٌ لنفي أن يكون نُطِقَ به عَنْ هوى».(دلائل الإعجاز تعليق شاكر: ص: ٢٢٧-٢٣١فقرة :٢٥٦-٢٦٢)

..

..ما نزلت فيه الثانية منزلة البدل من الأولى :

الصورة الثانية

من كمال الاتصال ما نزلت فيه الثَّانية منزلة البدل مِن الأولى:

يقُولُ السَّعد:

« أوْ (بدلًا منها)عطف ءعلى قوله«مؤكدةً للأولى» أي القسم الثاني من "كمال الاتصال" أن تكون الجملة الثَّانيةُ بدلًا من الأُولَى(لأنَّها) أيْ الأُولى (غير وافية بتَمامِ المُرادِ أو كغير الوافية) بخلاف الثانيةِ ، لا تشبه غير الوافيةِ فإنَّها وافية ، لا تُشبه غير الوافية (والمقامُ يقتضِي اعتناءً بشأنه) أيْ شأن المراد؛ لأنَّ الغرضَ من الإبدالِ أن يكون الكلام وافيًا بتَمامِ المراد،وهذا إنَّما يكونُ فِيما يُعتنى بشَأنِهِ (لنكتةٍ ،ككونِه) أيْ تلك النكتةُ أيْ كون المراد (مطلوبا في نفسِه أو فظيعا أو عجيبا أو لطيفا)

فتنزَّلُ الثانية من الاولى منزلة بدل البعض أو الاشتمال من متبوعه فلا تعطف عليْها ؛لِمت بيْن البدلِ والْمبدَلِ منْهُ من كمال الاتصال .

(التَّنوير)

لتكن على ذكرٍ مقيمٍ أن قول البلاغيين هنا أن الثانية بدلٌ من الولى يهدِي السعدُ إلى أن المقتضِي الإتيان بالجملة بدلاً من الأولى أنَّ الأولى لا تكونُ وافية بالمرادِ الإنباءَ به، وإيصاله إلى قلبِ السَّامِع، فهي، وإن تحقَّق فيها حسنُ الدَّلالة، فإنَّ تمامَ الدَّلالة لا يتحقَّق فيها، وعبد القاهر قد هدى في أول "دلائل الإعجاز" إلى أنَّ الكلامَ البليغَ هُو ما تحقَّق فِي دلالتِه على معناه ثلاثُ صِفاتٍأن تكون دلالته حسَنَةً ، وأن تكون تامَّة، وأن تكون متبرجة"أيْ محكمة متقررة"(دلائل الإعجاز . ص:٤٣ فقرة ٣٥) فإذا لم تكن الجملة الأُولى تامَّةَ الدلالة على المراد وافيةً بِه ، وكان المَقام مقتضِيًا مزيد اعتناءِ بشأن المراد ، فإنَّ المُقام يقتضِي الإتيان بجملة ثانيةٍ تكونُ بدلًا من الأُولى سواء كانتْ "بدل بعضٍ" كما في قولنا في المفردات" قرأت الكتاب مقدمته " أو "بدل ◌ اشتمالٍ" كما ففي قولنا في المفردات:" أعجبني الكتاب أسلوبه"

والَّذِي يقتضِي الاعتناء بشأنِ المَعنى أمرٌ راجعٌ إلى ذلك المعنى ، كأن يكون ذلك المعنَى مطلوبًا لذاته لأهميَّته عند المتكلِّم أو المخاطب ، أوْ يكون ذلك المعنى فظيعًا أو عجيبًا أو لطيفًا ، ونَحو ذلِك .

هذه الأحوالُ الَّتي يكونُ عليْها المعنى توجبُ الاعتناء بِه. والاعتناء به يوجب أن تكون الجملةُ الدَّالةُ عليْه قادرةً على الوفاء بالمراد، فإذا عجزتْ الجملة الأولى عن الوفاءِ بحق هذا المعنى المطلوب لذاته أو المعنى الفطيف أو

العجيب أو اللطيف، فواجبُ بلاغة أن يُؤتى بجملةٍ تاليةٍ تكونُ وافية بالمُراد، فتنزّلُ من الأولى منزلة البدل مِن متبوعه، فحينئذٍ تفصل عنها، لما بين البدل والمبدل منه في المفرداتِ من كمال الاتّصال،وكذلك ما ينزل منزلتها من الجمل.

****

ولا تحسين البليغُ يأتي بالأولى غيرَ وافيةَ عن المراد لعجزه عن الإتيان بها وافية، كلاَّ . هو يقصدِ إلى ذلك ليخرجَ بيانه عن مرادِه في صُورتين :

=== الصُورة الأولى لا تكون وافية الإبانة عن كلّ مراده ، ممّا يجعلُ السّامع متشوفًا إلى ما يحقّق له تمامَ الإبانة عن المرادِ ، فتأتي الصّورةُ الثّانية لتحقّق له ما تشوّفَ إليّه، ومثلُ هذا يجعلُ ولوجَ المعنى المُراد إلى قلب السّامع في صورتيْن ممّا يُحقق له كمال التمكّنِ فيه.

فالعدولُ عن البيانِ بما هو وافٍ بالمرادِ من أوّلِ الأمرِ إلى أسلوبِ البدلِ فيه ضربٌ من التّشويقِ وضربٌ من البعثِ إلى التطلعِ إلى ما يوفّي المراد ، ولَو أنّه جاءَ مِن أوّلِ الأمرِ وافيًا بالمُرادِ ربّما لا يتحققُ تشوفٌ مِن السّامع لما يُوفّي المُراد ، فيخسَرَ المعنى ما يمكّنُه ويقرّرُه ، وهو مفتقرٌ إلى ذلك.

وعلى هذا ، فالبلاغيون في تنزيلِهم الجملة الثّانية منزلةَ البدل من الأولى ، لا يقولون إنّها بدلٌ منها ، كما في المفردات، وأن المبدَل منه على نيّة الطّرح، وأنَّ طرحه وذكره سواءٌ فِي تصويرِ المعنى، بلْ هُم على أنّ المنزل منزلَة الشّيْءِ لا يخذُ كل احكامه ، بل يَأخذُ ما نزلت من أجله منزلةَ البدل ، وهو مستوَى العلاقةِ بيْن المعنيين، وأنّ المبدل منه في منزلة ما لا يكونُ وافيًا بما يُراد إيلاغُه والإبانةُ عنه والبلاغةُ تقضِي أن يكونَ البيانُ تامَ الدّلالة على المراد .

وعلى هذا يتبيّن لك أنّ حالَ الجملة الأولى هو الّذي يُعيّن لك ما تنزّلُ الثانية منزلته.

****

وجهُ عدم عَـدّ "بـدل الكُلّ" مِن هذه الصُّورة :

ولمْ يُعتبر "بدلُ الكلّ" ؛لأنّه لا يتميزَ عن التّأكيدِ إلّا بأنّ لفظه غير لفظِ متبوعِهِ، وأنّه المقصُود بالنّسبة دونه، بخلافِ التأكيدِ ، وهذا المعنى ممّا لا تحقّقَ لَهُ في الْجمَلِ ، لاسِيّما الّتي لا محلّ لَها مِن الإعراب.

يهدِي السّعد إلى أنّ تنزيل الثّانية منزلة البدل مقصورٌ على ضربيْن من ضروب البدل الثّلاثة : مقصورٌ على بدل البعض، وبدل الاشتمال، أمّا بدل الكُلّ " البدل المطابق" فلا تنزّلُ الثّانيةُ منزلته ، ووجه ذلك أنّ "بدلَ الكُلّ" شبيه بالتأكيد، إلّا أنَّ بيْنهما فرقًا لا أثرَ له في هذا الباب، يتمثل ذلك الفرقُ في أمرين:

الأوّلُ : أنّ لفظ بدل الكل" المطابق" لفظه غير لفظ متبوع، فهما مختلفان لفظًا متفقان معنًى .

والآخر : أن بدلَ الكُلّ هو المقصُود لذاته ، وليس متبوعه.

والتّأكيد يتفقان المؤكّد والمؤكد لفظًا ، ويكون المتبوع هو مناط القصد الرئيس. وهذا المعنى خاصّ بالمفردات، وكلامنا في الجمل التي لامحلّ لها من الإعراب.

*****

صُورٌ

ممّا نزلتْ فيه الثّانيةُ من الأُولى منزلة البدلِ في المفردات

فالأوّل:وهو أنْ تنزّلَ الثّانيةُ منزلةَ بدل البعض ، (نحو: (أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)(الشعراء) فإنّ المرادَ التّنبيهُ علَى نعمِ الله تعالى)

والمقامُ يقتضِي اعتناءً بشأنِه ؛ لكونِه مطلوبًا فِي نفسِه، أوْ ذريعةً إلى غيره.

(والثّاني) أعني قولَه (أمدّكم بأنعامٍ...) إلى آخره (أوْفي بتأديته) أيْ تأديةِ المرادِ (لِدلالته) أيْ لدلالة الثّاني (عليها) أيْ علَى نِعمِ اللهِ تعالَى (بالتّفصيل مِنْ غيرِ إحالةٍ علَى علمِ المخاطبين المُعاندين ،فوزانُه وزانُ "وجهه" في "أعْجبنِي زيدٌ وجهُه" لِدخولِ الثّاني فِي الأوّل) لأنّ (ما تعلمون) يشتمل الأنعام والبنين والجنّاتِ وغيرها.

(التّنوير)

نُزِّل قوله (أمَدّكُم بأنعامٍ وبَنِين...) من قولِه (أمَدّكمْ بِمَا تعْلَمون) منزلةَ بدل البعضِ من متبوعِه ، فهو بمثابة قرات الكتاب مقدمته.

والمقتضي لهذا البدل أنّ قوله (أَمَدَّكُمْ بما تَعْلَمُونَ) فيها إجمال لا يفِي بما يقضيه المقام من تمام الامتنان، ففي قوله: (ما تعلمُون) إجمالٌ قدْ يصاحبه غفلة عن لطائف وطرائف هي من عظيم ما امتن الله تعالى بِه. فالمراد هنا التنبيه على عظيم نعم الله تعالى ومننه عليهم ، وقوله: (أمدّكم بأنعام...) هو الأوفى بالدّلالة على ذلك ؛ لأنها دلّتْ عليه بالتّعيين والتّفصيل بينما الأُولى دلّت عليه بالإحالة إلى علم المخاطب : (بما تعلمون)

وفي إعادة الفعل (أمدّكم) مزيدُ تأكيدٍ وتقرير لهذا الفعل في السّمع والقلب ، ففي إعادته على الأسماعِ والأذهانِ ما يصرفُ القلوبَ إلى تبصر مضمونه (الإمداد) وهو مضمونٌ يهدِي إلى عظيم حاجتهم إليْه ، فهُو بمثابة الغيثِ لهم ، ولوْلا هذا الإمدادُ لَما استقامَت لهم الحياةُ.

وللعصام الاسفرِيائنيّ (ت:٩٤٣هـ) مراجعةٌ جديرةٌ بالنظر: يقول:

"وللآيةِ احتمالٌ آخر في غايةِ الدّقةِ والحسنِ : وهو أنّ (ما) في قوله (ما تعلمون) مصدريّة أي أمدكم بعلمكم وتمييزكم من بيْن الحيواناتِ الشّهويةِ بأنّكمْ من ذوِي العلمِ، أمدكم بأنعام.... الآية

نبّهَ على الإمداد في العالمِ الرّوحانيّ(بماتعلمون)
وعلى الإمدادِ في العالمِ الجسمانيّ (بأنعام وبنين وجنات وعيون).
ولمّا كانَ بيْنَ الإمدادينِ من التّباينِ والتفاوتِ فصَلَ الجملتين تنزيلاً للتباينِ منزلةِ عدمِ التناسبِ .
ولَو جعل (ما) موصُولة ، فالأشبهُ أنّهُ مِن ذِكرِ الخاصّ بَعدَ العامّ ، لصرفِهِ فِي نظرِ المخاطَبينَ المعاندينَ لكمالِ شغفهمْ بها. والشّايعُ فِيهِ عطفُ الخاصّ على العامّ ، ولمّا أعادَ العامل استغنى به عن العاطفِ" ( )
ذلك وجهٌ لطيفٌ التفت إليه" العصامُ" وفيه لفتٌ إلى مقامِ الإمدادَيْن ،وانّ كلًّا لايُغني عن الآخر، وإن كان الإمدادُ الأوّلُ (العلم والتميز) هو الفاعل في استثمارِ الإمدادِ الثّاني ، فجعلَ كلّ إمدادٍ نعمةٌ مستقلّ إذْ لفتَ غليْها بترك عطفِ الثّانية على ألولى كيما يكونَ لأ÷ا :/ألأ ءظّها من العنايةبتلقّيها فقهًا وفهمًا ،ولو عطفتْ لكانَت تابعةٌ للأولى في الاعتناءِ بِها
وفي إعادة قولهِ(أمدكم) إيماء إلى ما بيْنَ الإمدتدين من تفاضلٍ في ذاتِهما ،وفي شكرهما بحسْن اسْتثمارهما.

****

ومِمّا لا يحسن الانشغالُ عن حسْنِ فقهه ما في عطفِ قوله تعالى (واتَّقوا الّذي أمدّكم) بعد قوله:(اتّقوا الله) وكان مُقتضى الظّاهر أن يقول (اتَّقوا الّذي أمدّكم) بغير عطفٍ لما بيْنهما من "كمال الاتصال" ، فالّذي أمدّكم بما تعلمون هو الله سُبْحانَه وتَعَالَى وذلك لما جاء من الفصل بينهما بقوله: (أطيعون) فهذا الفصل حسّن إعادة الفعل (اتّقوا) وعطفه .
ولما في قوله : (اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعلَمُونَ) مِن إضافة ، تجعلُها كأنّها غيرُها من جهة، ويكون من حقّها أن تمنح حقّها فِي العنايةِ بِالتّلَقِّي كالّذِي مُنحتْ للجملة قبلها، فالمعنَى حِين يُورَد فِي صُورة التّابع قد تجعلُ العنايةُ به تابعةً للعناية بمتبوعه ، فلما جاءت "الواو"، كان إعرابًا عن أن الآتي جملةٌ جديدةٌ ، فيحسن الوقوف عند آخر قوله" أطيعون" فيوفي حقه من التّدبر، ثم يستأنف عناية جديدة بطاقة جديدة، وكأنّها جملة جديدة غير تابعة لسابقتِها. وفي هذا من التّمكين للمعنى في القلبِ ما فيه.
وقضية تمكين المعاني قد يحسِبُ عجلٌ أنها أمرٌ ليس هو الوظيفة الرّئيسة لبلاغة البيان.
إنّ بلاغة أيّ بيان تقدّر قِيمتها بمقدارِ ما تحقّقه مِن تمكين المعنى في النّفسِ تمكينًا يجعلُ المعنى قادرًا على أن يفعلَ في القلبِ، وأن يفعلَ به ، وهو إذ يتخذ البيان عوامل تحسين في صورة المعنى إنّما غايته الرئيسة أن يفتحَ بهذه العوامل أبوابَ القلوب لِتلجُ المعاني فيها ولوج الآنس المأنوس به ، وهذا إذا تحقق تحققت القيمةُ العليا لبلاغة أيِّ بيان، وهي إحداثُ تغيير في القلبِ المستقبِلِ هذا البيان البليغ، وهو الذي تخضع جميع الجوارح لما هو قائمٌ فيه ، فإذا حَسُن حسُنَتْ ...
وكذلك تكرير قوله: (اتقوا) في (اتَّقُوا الّذِي أمدكم..) وكان يُمكن في غير القرآن أن يقال فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِأنعامٍ وبنين..ولكن البيان القرآنيّ عدل عن ذلك، فأعرب بتكرير الأمر(اتقوا) تقريرًا له في النّفسِ ولفتًا إلى عظيم الرّغبة في إيقاع ما أمرَ به.

***

منْ هذا قولُه تعالى:(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ((العلق:١-٥)

جاء مُستهلُّ الوحي إلى سيِّدنا رسُول الله (بهذا الأمر الجليل الذي أدهشَه:(اقرأ) فطن رسُول الله (أنّ الذي يأمره بهذا لا يعلمُ أنّه لا يقرأ ، فقال له ليعلمه أنّه لا يعصيه فيما يأمُره به، وإنّما شأنُه أنّه لا يعرفُ القراءة، فهو أمره بما لا يسْتطيع فجاء ردّه (على أمره(اقرا) على نحوٍ مبين عن الحقيقةِ:(ما أنا بقارئ) أي ليس من شأني أن أقرأ .

فهذه الصورة النَّظمية لما ردّ به (على الملك بالّذي يراد به أن غيرَه يقرأ، ليس غيره في هذا السياقِ محل حضورٍ ليلتفت إلى الحكم عليه، بل هي صورة نظمية تؤكد للسّامع أنّ هذا لا يكون منه لأنّه لا يملك تلك المهارة . فما كان من الوحي إلاّ أن كرَّر الأمر عليه ، وكأنّه يريدُ أن يعلمَه أن القراءة الّتي يريدُها منه، ليست بالتي هي عند غيره من بعض قومه والتي هو غير مالك شيئا منها . إنّها قراءةٌ أخرى :هي له وليست لاحد من قومه وهو صلّى اللهُ وسلّم عَليْهِ وعلى آلِه وصَحبِه قدْ مارَس شيئًا منها في هذا الغارِ : قراءةَ الكون على نهجٍ آخرَ غيرِ الّذي كان يمارسه قبلُ في هذا الغار (وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى)(الضُّحَى)

ومن ثم قال له (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) لَم يقلْ له اقرا اسم ربك، بل باسم ربك، فجعل (اسم ربّه) هو المقروء به،

تعلاما له بأنّ قراءته ليْستْ بما بِه يقرأ الآخرون: ما يتلقونه من معلّميهم. هم لا يسقرأون باسم ربهم وخالقهم ، وأنت يامحمّد تقرأ باسم ربك الذي خلق ، وإن لم تكنْ قد جلسْتَ إلى مُعلّمٍ، فذكر لهمن فعلِ اللهِ تعالى وقدرتِه ما هو أعظمُ من أن يحعله يقرأ ◌ فقال له (الذي خلق)

الاستهلال بشهذا فيه من تقريرِ الثقة و الطمأنينة بالله - سُبْحانَهُ وَتَعالَى – مما يجعله صلّى اللهُ وسلّم عَليْهِ وعلى آلِه وصَحبِه يقدم على ثِقةٍ أنّه المحقق ما يريد أو يراد منه

وحين يكونُ المرءُ على مثلِ ذلِك يكونُ إقدامه فتيًا مكينًا وعزمه لا يلينُ ،ولا يفتُرُ ،ولا يعرفُاليأسُ◌ طريقًاإليه،وهذا ما يَحتاجُه كلُّ قائدٍ ورائدٍ .

جاء قوله (الذي خلق) ليلفته إلى أنّ أوّل ما يستحق القراءة هو خلق الله تعالى الكون والإنسان، فقال: (الذي خلق) وأطلق الفعل(خلق) لفتًا إلى انّ كل ما عداه من خلقِه، فكلّ ما عداه لا يصلُح أن يكون له شريكًا، جمع له بين أمرين" (ربّك) و(خلق) فكان في هذا من التذكير بمنة الله تعالى ،وتفضله، وكأنَّ في هذا وعدًا بامتداد هذه المنة، فمن كان الخالقَ والربَّ فشأنُهُ ألا يهملَ ما خلق وربّى ، بل يتعاهدُه بما يحقق الغايةَ التي خلقه لها.

ثم جاء قوله تعالى: (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(وأريد بالإنسان هنا ذرية أبينا آدم وأمنا حواء عليْهما الصّلاةُ والسلامُ مفصولاً عن سابقه (صِلةِ الموصول) على أنّه بدلٌ بعضٍ من كلّ ، فقوله (الذي خلق) طوي ذكرمعمولِه دلالةً على العموم أي خلق كلّ شيءٍ، ثم أبدلَ من هذا العام بعضَه (خلق الإنسان) من أنّ الإنسان هو أكرم ما خلق الله تعالى ، فقد خلق سُبْحانَه وَتَعالَى أبانا آدم - علَيْهِ السّلام - بيده وأسجد له الملائكة وعلمه الأسماء كلها، وأدخله

الجنة، وقضى بخسران عدوّه الشيطان. والإنسانُ هو الذي أنزل الله سُبحانه وتَعَالَى له كتبه ، وبعثَ إليْه رُسلَه، فكان محل العنَاية الرّبانية ، فكان جديرًا بأن تنزلَ جملة البيان عن خلقه منزلة بدل البعضِ من الكلّ.
وفي اصطفاء الإنباء بخلق الإنسان من علق في أوّل ما نزلَ من القرآن لفتٌ إلى ما في خلقه من كمال صِفةِ العلم والقدرة ، والعزة ... وسائر صِفات الكمالِ الألهي.
***

الصورة الثانية
من البدل: تنزيل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال

يقول السعد
(والثاني) وهو أن تنزّل الثّانيةُ منزل "بدل الاشتمال" (نحو:
أقولُ لَه : ارْحل . لا تُقيمنَّ عندنا * وإلَّا ، فكُن فِي السِّرِّ والجَهرِ مُسلِما
أيْ إن لَم ترحلْ، فكنْ على ما يكونُ عليْهِ المسْلمُ من استواء الحالين في السرّ والجهرِ
(فإنّ المرادَ به) أي بقوله :"ارحل" (كمال إظهار الكراهة لاقامتِه) أيْ إقامةِ المُخاطب
(وقولُه :"لا تُقيمَنّ عندنا" أوْفَى بتأديته) أيْ تأديةِ المرادِ(لدلالته عليْهِ) أيْ لدلالة "لا تقيمن" على المرادِ، وهو كمالُ إظهار الكراهةِ (بالمطابقةِ مع التأكيد) الحاصل من "النّون"
فإن قلتَ : قوله " قوله لاتقيمنّ عندنا" إنّما يدلُّ بالمطابقةِ على طلبِ الكفِّ عن الإقامةِ ؛لأنّه موضُوعٌ للنهيِ ،وأمّاإظهار الكراهةِ المنهيّ، فمنْ لوازمه ومقتضياتِه ، فدلالتُه عليْهِ تكونُ بالالتزامِ دون المطابقةِ .
قلتُ: نعم، ولكنْ صَارَ قولنا :"لا تُقِمْ عندي" بحسبِ العرفِ حقيقةً فِي إظهارِ كراهتِهِ إقامته وحضُوره حتّى إنّه كثيرًا ما يُقال: "لا تُقِمْ عندِي " ولا يرادُ بِه كفّه عن الإقامةَ ،بلْ مجرّد إظهار كراهة حضوره ،التأكيد بـ" النونِ" دلّ على كمالِ إظهار الكراهةِ لأقامتِه بالمطابقةِ. ( )
وقريبٌ من هذا ما يُقالُ : إنّه لو لَمْ يردِ بالمطابقة دلالة اللفظِ علَى تمامِ ما وُضِعَ له بلْ دلالته على ما يُفهمُ منْهُ قصدًا صريحًا ،وبخلافِ " أرحلْ " فإنّ دَلالتُه علَى إظهارِ الكراهةِ لإقامتهِ ليْست بالمُطابقةِ مع أنّه ليس فيه شَيْءٌ من التأكيدِ ، بلْ إنّما يدلُّ علَى ذلك بالالتزامِ ، بقرينةِ قولِه:" وإلّا فكنْ فِي السّرّ والجهر مسْلمًا" فإنّه يدلّ علَى أنّ المرادَ مْن أمره بالرّحلةِ إظهار كراهةِ إقامتِه بسَببِ مخالفةِ سِرّه علنَهُ .
وزعم صَاحبُ المفتاحِ أنّ دلالة"ارحلْ" علَى هذا المراد بالتّضمّن ،فكأنّه أراد بالتّضمن معناه اللغويّ ؛لأنّ "ارحلْ" معناه الصريحُ طلبُ الرّحلةِ ، وقدْ قَصد في ضِمن ذلِك نهيه عغن الإقامَة إظهارًا لكراهتها ،وظاهر أنّ كمالَ الكراهةِ لأقامتهِ ليس جزءًا من مفهوم" ارحل" حتّى تكونَ دَلالتُه غليْهِ بالتضمن .

ويُمكنُ أن يُقال : إنّه مبنيَ على أنّ الأمرَ بالشّيءِ يتضمّنُ النّهيَ عَنْ ضِدّهِ ، فقولُهُ :"ارحل" يدلُّ بالتّضمّن على مفهوم" لا تُقِمْ عندنا" و هو إظهارُ كراهةِ إقامتِهِ بسببِ العرفِ ، كمامرّ،وفيه تعسّفٌ.
(ووزانُه) أيْ وزان "لا تُقيمنَّ عندنا" (وزان "حسنها" في "أعجبني الدّارُ حسنُها" ؛ لأنّ عدم الاقامةِ مغايرٌ للارتحالِ) فلا يكونُ " لا تقيمنّ" تأكيدا لقرولشه:" ارحلْ" أوْ بدلَ كلٍّ (وغير داخلٍ فيه) أيْ عدمُ اقامةٍ غيرُ داخلٍ فِي مفهومِ الارتحالِ ، فلا يكونُ "بدل بعض" (مَع ما بيْنهما من الملابسةِ) والملازمةِ فيكون "بدلَ اشتمالٍ".
والكلامُ في أنّ الجملةَ الأولَى أعني "ارحل" منصوبةُ المحلّ كفعول" أقول" كما مرّ في" ارسوا نُزاولها "
وقولُه فِي كلا المثالَين أعني الآيةَ والبيْتَ أنّ الصاني أوْفى بتأديةِ المرادِ يدلّ على أنّ الجملة الأولى فيهما وافية بتمامِ المرادِ لكنها كغيرش الوافيةِ .
أمّا في الآيةِ ، فلما فِيها من"الإجمال"
وأمّا في البيتِ ، فلِما فِي دَلالتِها علَى تمامِ المراد من القصُورِ.(أهـ)
(التنْوير)
هذا بيتٌ لقيطٌ لا يعرفُ أبوه ،ولا يعرفُ له قرين ،وهُو عندي خلاءٌ من الشّعر ، إنْ هو إلاّ حكمةٌ منظومة. قوله (لا تقيمنّ عندنا) أدلُّ على كمال الرّغبة عن بقائِه فيهم من قولِه: (ارْحل) ذلك أنّ قوله: "ارحل" مدلولُ منطوقِه طلبُ الرّحيل ، وهذا لا يُفهمُ منه وحدَه أنّ الشاعرَ غيرُ راغبٍ في بقاءِ المخاطَب ، فقد يُطلب الرّحيل ممن لا يبغضُ بقاؤه،
ولمّا كان القصدُ إلى الإنباءِ بكراهةِ مقامِ المخاطبِ وهو على ذلك الحالِ اقتضى أن يُؤتَى بما يكونُ صريحًا في الدّلالة على هذا القصدِ ، فجاء قوله" لا تقيمنّ عندنا" ذلك أنّ هذا النّهيَ أدلُّ على كمالِ إظهارِ الكراهةِ بالمُطابقةِ .
ثُم إنّ الطلبَ بأسلوبِ النّهي أقوى دلالةً على المراد من الطّلب بأسلوبِ الأمر. وكذلك كان في :لا تقيمنّ" توكيدٌ بالنُّون
ومِن ثَمّ كان قوله :"لا تقيمنّ عندنا" بدلاً من قوله " ارحَلْ" وهو محلّ العنايةِ والقصدِ. ففصل قولُه :" لا تقيمنّ عندنا" عن قوله :"ارْحَلْ" كما يُفصلُ بَدلُ الاشتمالِ عَن المُبدلِ منه ، لأنّ طلب الرّحيلِ قد يكون لغيرِ هذا، بيْنما الشّاعر يريدُ إنباءَ المخاطب أنّ بقاءَه على هذا الحالِ الذي هو عليْه غيرُ مرغوبٍ فيه، فكما أنّه لا يليقُ أن يكونَ لا يليقُ أيضًا أن يسكت عليْه وأن يُستحيَى من طلب تغييرِه أو انتفائه.
وقد جرى العرفُ أنّه إذا قيل : لا تقيمنّ، لا يكونُ القصدُ مجرّد الكفّ عن ذلك الفعل، بل القصدُ إلى تصويرِ مقدارِ ما امتلأ به الصّدر من كراهة تلك الإقامة على هذا الحال، وأنّها أمرٌ لا طاقة للمتكلّم على الصّبْرِ عليْهِ ، فليس بُدّ مِن أن يُظهرَ تلك الكراهة، وذلك الضّيقَ المُفعِم نفسَه.
وكلُّ ذلك لا يقتدرُ الأمر في "ارحَلْ" على أن يوفّيه حقه، فهو لا يتمتّع بخصيصة "تمام الدّلالة" الّتي اشترطها عبدُ القاهرِ لبلاغةِ الخطابِ ، ومِن ثَمّ كان قوله :" لا تقيمنّ عِندنا " أتمّ دلالةً على المرادِ، فكان محلّ العنايةِ والقصدِ. هو ليس بدلَ بعضٍ لأنّه ليس جزءًا منه ، وليس توكيدًا له لأنّ عدمَ الإقامةِ ليس هُو الارتحالُ ، ومن ثمّ لم يُعدّ قولُه: (لا تقيمن عندنا) توكيدًا لقوله (ارحل) ولا بدَلَ بعضٍ منه.

والّذي هو محلُّ العناية عندي في إيراد هذا البيتَ اللَّقيط من بعد الذي حمل بعدُه الإسلوبيَ إنَّما هو الالتفاتُ إلى ما يحملُه من أدبِ الضّيف ، وهو من الآدابِ الّتي نحنُ بحاجةٍ شديدةٍ إلى أن نُعنَى بتثقيفِ أنفسِنا ومَن نرعاهم به، فنحنُ نعيشُ في زمانِ العدوان على مكارمِ الأخلاق ، والتنفير منها، بدعوَى الحُرية الشّخصية ،وهي حرية لا يمنحُها الطّغات لمُستتعَجِيهم إلاّ في بابِ مكارمِ الأخلاقِ وبابِ العلاقةِ بالله تعالى ورسُوله (أمّا في مجالِ الحقوق السّياسية، والعدالة الاجتماعيةِ والاقتصادية... فأمرُ على غير ذلك :

من أدبِ الضّيافةِ أنْ يلتزم الضيفُ فلا يدسّ أنفه في أمرِ المُضيّفِ إلا إذا رغبَ إليه المُضيّفُ أن يشارك فيما يعرضُ بيْنَ يديه.

ومن أدبِ الضّيفِ ألا يبعثَ عينه ويغرسَها في ما لا يليقُ أن يلقي بصره إليه ، فالشأنُ في بصرِ الضّيفِ أن يكونَ خاشِعًا لا يطوّفُ في المكانِ الذي فيه. وأن لا يجلسَ في محلٍّ من المجلسِ يستكره المُضيفُ أن يجلسَ فيه لما قد يترتّب عليْه من كشف ما لا يُحبُّ كشفه ، ولذا كان من الأدب أن ينتظرَ الضّيفُ حتّى يُشار له إلى المكان الّذي يَجلسِ فيه، وأن لا يَجلسَ في مكان يُمكنُ أن يُقام منه إذا ما أقبل من هو أفضلُ منه .

ومن أدبِ الضّيفِ ألا يحملَ ما يجري بيْن يديه أو على مَسمعٍ منه عند المضيفِ إلى خارج نفسِه، بل إن رغب فيما هو أمجدُ نفاده عن أن يبقَى في سمعه وقلبِه، فإذا ما خرج الضّيفُ من مجلسِ المضيف خرج من ذاكرتِه كلُّ ما جرى في ذلك المجلس (فإنّ المجالس بأماناتها) ولا يبقَى في ذاكرته إلا ما هُو من الذِّكرِ الحسن، يحملُه ويذيعه في النّاس .

فقول الشاعر: "وإلا فكُنْ فِي السِّر والجهرِ مُسلِما " كلمةٌ عليّةُ النّفع. ولها عرضت لهذا البيت، لا لما فيه من فصل فحسبُ ، فغيره الأجود بهذا يُغني عنه . تبصَّر تقديمَه السِّرَّ على الجهرِ، وتعبيره بقوله(مُسلما) أي مسالمًا أو إن شئتَ يكون المعنى مسلمًا يسلم النّاسُ من لسانِه ويديه. وهو لن يكونَ مُسلمًا إذا ما بقي في ذاكرته شيْءٌ ممّا يُكره من شأنِ المُضيّفِ. ولذا كان مِن مَرغوبِ المُضيّف عند رحيل الضّيفِ بعد إكرامه أن يعفو الضّيفُ عن تقصيره في إكرامِه على الوجه الذي يليقُ به ، وفي هذا إشعارٌ للضّيفِ بأنّه مهما بُولغ في إكرامِه، فقدرُه أعلَى لا يطاقُ الوفاءُ بِه، فيرغبُ المُضيّفُ في عفوه ، وهذا أيضًا مِن قِرى الضّيفِ وجائزتِه. فشأنُ الضّيافةِ أن يُشعِرَ المُضيّفُ ضيْفه أنه عليُّ القدرِ ، وأنّه هو المتفضل عليْه بأن اختاره لِيكونَ في ضِيافتِه ، وأنّه هو الّذي بدأ بالإكرامِ إذ يمّم بيتَه لِيَنزلَ فيه ضيفًا. ولو لا حُسنُ ظَنّ الضّيفِ بالمُضيّفِ ما اختارَه مِن بيْن كثيرٍ غيره كان يُمكنُه أن ينزلَ عندهم ضيفًا. وفي هذا الاصطفاء من الإكرامِ ما فِيه.

***

وممّا هو من قبيلِ الفصلِ لكمالِ الاتصال بدل اشتمالٍ قولُ الله (: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ((الرعد:١-٢)

قولُه تعالى(يُفَصِّلُ الآياتِ(ممّا اشتمل عليْه تدبيرُ الأمر ، ذلك أنّ تدبيرَ الأمرَ يشملُ ما يُحيطُ به علمُنا، فكلّ ما هو في العالمين هُو من تدبيرِ الأمرِ . ومن ثمّ فصلَ عَنْ قولِه تعالى: (يُدبِّرُ الأمرَ(قولِه تعالى (يفصلُ الأياتِ(لما بيْنهما من كمالِ الاتصال ، كمثلِ الّذي بيْن البدلِ والمُبدلِ منه في المفرداتِ . وقولِه تعالى (يُدبِّرُ الأمرَ(يحتملُ أن يكونَ خبرًا عن اسم الجلالة (الله) إذًا لم يكن اسمُ الموصول وصلتُه (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ(هو الخبرَ فإنْ كان نعتًا كان قوله تعالى (يُدبِّرُ الأمرَ(مستأنفًا.

والذي يسانِدُ القولَ بأنّ قوله تعالى:(الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ(خبرٌ عن اسم الجلالة هو عطف قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ (عليْه واصطفاء قوله تعالى(يُفَصِّلُ الآياتِ(من بيْن ما يشملُه تدبيرُ الأمرِ لمناسبة الآية الأولى :(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (ومن العطاءات التّربوية التّثقيفية لقوله تعالى :(يُدبِّرُ الأمرَ) أن يُقيم العبد في مَقامِ اليقينِ بأنّه ما مِن أمرٍ من أمورِ العالمين أجمعين في السّمواتِ والأرضين إلا وهو المديرُ من اللهِ تعالى وحده ، وليس لأحدٍ أيًّا كان قدره شيءٌ ما منْه ، ألا تسْمعه (يخاطِب سيّد خلقِه وأكرمهم عليْه : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)(آل عمران :١٢٨)وفي هذا اليقينِ من الصّحة النّفسيّة، والطمأنينة ما فيه ، ففي هذا ما يجعلُ العبدَ موقنًا بأنّه ليس بالمكلف بتدبر أمرِه، وإنّ الذي عليه إسلامُ قلبِه لربِه (، وأن يفرغَ لطاعته لِيفْرغَ له الله جلّ جلاله عليه وفيه عطاءاتِه التي لا تخطر على قلبه فضلا عن أن تكونَ مرغوبه ، ولو أنّ ملكًا قال لواحد من رعيتِه : " أمرك إلي فلا تُشغلنّ به ، واشتغل بقربك مني " أتراه يقوم في نفسِه قطّ أثارةٌ منْ شك أن مرادات نفسِه قائمة بيْن يدِه ، منبسطة تحت قدميه لما وعده مليكه ؟!!! أليس الله تعالى مالك الملك القائل (يُدبِّرُ الأمرَ) كل الأمر أولى بذلك؟!!!

***

ومن هذا البابِ قولُ اللهِ (: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ((البقرة:١٦٥)

قوله تعالى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ(فصل عن قوله : (يتخذ من دون الله أندادًا(لأنّه بدلُ اشتمالٍ منه ذلك أنّ من اتخذ شيئًا من دون غيره ، فهذا لا محالة مشتملٌ على محبتِه ما اتّخذ ، وإلا ما اختاره واصطفاه. وفي هذا تصويرٌ لما بلغ من حُمقِ أولئك المُتحدَّث عنهم ، لأنّ الاختيارَ لا يكون إلاّ عن مَعرفة بحالِ مَن اصطفى وحالِ مَن ترك ، وعنْ وقوفٍ على أمرِه وعاقبةِ اختيارِه أو تركِه ، فمَن سَلك ذلك ، وأدّاه نظرُه إلى أن أعرضَ عن الله تعالى وأقبل على غيرِه ، فلا ريبَ في أنّه قد بلغ مِن الجهالة والضّلالةِ والحُمق والسّفاهة مبلغًا تعجزُ الأنعامُ عَن أن تبلغَه.

فإن كان اختيارُه وتركُه لا عَن مراجعةٍ ومناقدةٍ ومفاتشة لحال ما يأخذ وحال ما يتركُ ، فهذا أيضًا قد بلغ من التّغفّل والجهالةِ والحُمقِ ما بلغ ، ولا سيّما حين يكون الأخذُ والتّرك في أمرٍ من الأمور الّتي يترتّبُ عليْها كثيرٌ من حركته في مسيرِه في هذه الحياةِ الدنيا ، ويترتبُ عليْها كلّ أمر مصيره في أخراه.

هكذا يصوّر لنا القرآنُ حال أولئك الّذين اتخذوا من دون الله تعالى أندادًا، وفي هذا التّصوير من معاني الهدَى ما يُحاجزنا عن مصاحبةِ من كان كذلك ومخادنته ، فكيف بعاقل أن يختارَ من عجزَ عن أن يُحسن لنفسه الاختيار ، فاتخذ لنفسِه أندادًا من دون الله (.

هذا إذا ما قام في قلبِ العبدِ لم يكن ولاؤه قطّ لمنْ اتّخذ غيرَ الله تعالى وليًا ونصيرًا ونصيحًا وأسوةً ، فينعتق من ربقةِ الانبهارِ بما عليه أولئك من متاعِ الحياةِ الدّنيا، ولعلم أنّ خالقهم الّذي اتخذوا من دونه أولياءَ لمّا اتخذوا الأسباب التي خلقها إلى الأشياء لم يخذلهم ،ولم يظلمهم شيئًا ، فبسطَ الدّنيا تحت أقدامهم بمقدار اجتهادِهم في اتخاذ الأسبابِ إلى مرادات نفوسِهم ، فكيف إذا ما اتّخذَ الأسبابَ إلى الأشياءِ مَن اتخذ الله (وليًا وهو القائل (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الجاثية: ١٢-١٣) ؟

***

ومما هو من قبيل بدل الاشتمال ما في قوله (:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ((المائدة:١٥-١٦)

جاء قوله تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ(بدل اشتمال من قوله تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا...(ذلك أن قوله (قد جاءكم نورٌ... (أوفى ببيان أن ما جاءهم ليس رسولا كمثل الرسل هو " نورٌ" ، وهي كلمةٌ تبين عن أنّ كلّ أمره (كشف للحقائق ، وإخراج من الظلمة، وإقامة في النور فلا يبقى لمن تبعه ما يُعيقه عن أن يبصر الأشياء على حقيقتها، فلا يبتلى بشبهة ، أو بمسه تضليل أهل الضلالة والإضلال وما كان معه من كتاب ليس كمثل كتاب من قبله بل هو كتاب مبين ، فقوله (مبين) فيه لفت إلى أن حليته الرئيسة هو الإبانة عن كل ما يعتري حياتهم من أمور لها علاقة بمصيرهم في الآخرة، أما ما تعلق بحياتهم الذي لا علاقة لها بحالهم في الآخرة من زراعة وصناعة ونحو ذلك فأمره إلى خبراتهم وعاداتهم ومعارفهم وعلومهم. « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » وفي نعت الكتاب بأنّه (مبين) تآخٍ وظيفي مع الإعراب عن سيدنا رسول الله (بأنّه)نُور)

يقول الطاهر ابن عاشور:" وَجُمْلَةُ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا بَدَلَ اشْتِمالٍ، لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ اشْتَمَلَ عَلَى مَجِيءِ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ، فَوِزَانُهَا وِزَانُ (عِلْمُهُ) مِنْ قَوْلِهِمْ : نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ، وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنْهَا، وَأُعِيدَ حَرْفُ (قَدْ) الدَّاخِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُبْدَلِ مِنْهَا زِيَادَةً فِي تَحْقِيقِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ الْبَدَلِ، لِأَنَّ تَعَلُّقَ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ بِالْمُبْدَلِ مِنْهُ أَضْعَفُ مِنْ تَعَلُّقِ الْبَدَلِ الْمُطَابِقِ. وَضَمِيرُ بِهِ رَاجِعٌ إِلَى الرَّسُولِ أَوْ إِلَى الْكِتَابِ الْمُبِينِ." ( )

وفي النداء عليهم بـ(يأهل الكتاب(تذكير لهم بما يجب أن يكونوا عليهم في تلقي ما سيأتيهم من نبأ، فإن في الكتاب الذي هم أهله ، أيْ أهلية إنزلهم لهم، ما يؤكد ما يأتيهم الخبر عنه، وكأنّه يقول لهم أنتم أوّل من لا يفتقر إلى أن ينبأ بخبر هذا الرّسول النّور (، وهذا الكتاب المبين، أنتم الأحق والأجدر بأن تكونوا أوّل ممّن يدعو إليه ، وأن تعلموا غيركم شأنه الحقّ ، ولكنكم فارقتم ذلك ، فكُنتم أنتم المفتقرين إلى أن ينادَى عليكم لتستيقظوا من غفلتكم التي أحاطت بكم فجعلتكم عُميًا عن الحقيقة، وفي هذا من التعريض بهم، والتأنيب والتسفيه بحالهم.

وفيه أيضًا إعلامٌ لنا أنَّ أولئك ليسوا أهلا لأن يُحمل عنهم ما يحملُه العقلاءُ عن بعضِهم في شأنٍ مِن شؤونِ الحياةِ ولا سيَّما ما يتعلَّق بالآخرةِ ، فإنّ منهم مَن هو العَميُّ ، ومنهم من هو الكافرُ لها المُضلّ الآخرين عن إبصارها بصدهم عن سبيل الله كثيرًا

***

ومن هذا قول الله (: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ((العنكبوت:١٢)

فصل قوله تعالى(إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(عن قوله تعالى(مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ(لأنها بدلُ اشتمالٍ مِن جُمْلَةِ (وَما هُمْ بحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِن شَيْءٍ(؛ لأنَّ جُمْلَةَ المبدلِ منه تَضمَّنَتْ خلوها "عَنْ مُطَابَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ فِي شَيْءٍ وَذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَنَّ مَضْمُونَهَا كَذِبٌ صَرِيحٌ، فَكَانَ مَضْمُونُ جُمْلَةِ (إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مَضْمُونُ جُمْلَةِ (وَما هُمْ بِحامِلِينَ (وَلَيْسَ مَضْمُونُ الثَّانِيَةِ عَيْنَ مَضْمُونِ الْأُولَى بَلِ الثَّانِيَةُ أَوْفَى بِالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كَذِبَهُمْ مُحَقَّقٌ وَأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُمْ فِي خَبَرِهِمْ هَذَا وَفِي غَيْرِهِ " ( )

وجاء قوله تعالى :(مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ(بالغَ التَّوكيدِ بما دلَّ عليه لإيلاء أداة النفي(ما) ضمير(هم) مقدمًا على الاسم المشتقّ (حاملين) والإتيان بـ(الباء) وبـ(من) (من شَيْءٍ) وتنكير (شَيْءٍ) في سياقِ النَّفي كلُّ ذلك لتقريرِ هذه الحقيقةِ في القلوبِ من أنّ هذا الافتراءَ سيتوارثه الطّغاة في كلّ عصرٍ ومصرٍ من هنا جاء بيان الله تعالى دامغًا هذا الافتراء وهذا الإضلال وهذا الكذب في نظمٍ بالغ التوكيد لتتوطن هذه الحقيقة ، وليتذكرها كلُّ تابعٍ ، فإذا نعق كبيره في أذنه: (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ(ملأ قلبه وسمعه بقول الله (:(وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(وجاء قوله تعالى:(إنهم لكاذبون(حاملاً ما يؤكد هذه الحقيقة ، فعبرَ بـ(إنَّ) و(اللام) واسمية الجملة ممَّا يقيمُ في قلبك أنّ كلَّ منْ زعمَ أنَّه يحملُ عنك أو معك أو يدع عنك عُقبَة ما تكتسب من الآثامِ إنّما هو المغرقُ في الكذبِ ، وأنَّ الكذب باتَ سجية خُلط بلحمه ودمِه، ومن كان كذلك أفمن العقل أن تكون لك به إلمامة ؟

***

ومن هذا قول الله (: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ((الفتح:١١)

فصل قوله تعالى: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ (لوقوعه بدل اشتمالٍ من قوله تعالى:(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ(وفي هذا البدل تصريح بما هو عليه باطنهم ، وأنّ ما تشقشق به ألسنتهم من اعتذار وطلب استغفار لما كانَ منهم من تخلّفٍ عن الجهاد إنّما هو مخالفٌ لواقعهم ولما في قلوبهم، فما هم الشاغلتهم أموالهم وأهليهم بل هم المتعمدون تخلّفًا ولو لم تكن لهم أموال وأهلون ، وما هم بالصادقين في طلبِ الاستغفار، وهذا يصوّر عظيم ما هو ساكن فيهم من النّفاقِ ،وما همْ متّسمون به من الجبن الّذي لايليق بأخلاقِ الرجال، فالنفاق مناقضٌ لمنطقِ العقلِ، والكذب مناطق للرجولة، فجردهم من الأمرين معًا. وهذا شأن أحفادهم في كل عصرٍ وَمصرٍ. وكان تذييل الآية

حاملاً فيضًا من التهديد تخلع له القلوب (بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (فهذا إنباء بما سيترتبُ على كمال علمه وخبرته بما يعملون ، فلن يدع كبيرةً ولا صغيرة ممَّا عملوا إلا وكان لهم عليها من الجزاءِ ما يستحقون، والقرآنُ كثيرًا من يُعبر عن الجزاء على الأعمال بأنّ الله (بكلّ أعمالهم عليم ، وهذا ضربٌ من البيان الكِنائي البالغ في تقريرَ المعنى في النفوسِ . فقمِنٌ أن يتلبَّثَ العبدُ عند هذه الفاصلةِ، وأن يستحضرَ جلالَ كمالِ علمِه وقدرتِه وعدلِه، وأن يتبصَّر علاقة الصِّفة المذكورة: " عليم – خبير- بصير" بما ورَد في الآية التي جاءت هذه الفاصلة تذييلاً لها. ففي هذا مِن العطاء ما لا يليقُ بعبدٍ أن يرغب عنه أو يشغلَ عن اكتسابه.

***

ممَّا فصل لوقوعه موقع البدل قوله (:

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (الحج:٥٨- ٥٩)

فصل قوله :(لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ(فلم يعطفه على قولِه (ليرزُقنهم رزقًا حسنًا(لأنه بمنزلة بدل الاشتمالِ منه، ألا ترى أنّ أول منازلِ الرّزق حسنُ المنزلِ الذي يحلّ فيه، فأوّل ما يلقى المُكرّم المُبجّل من آيات إكرامه الاحتفاء بمنزله وبمدخله، فقوله ليدخلنّه... من قوله (ليرزقنهم..(وغير خفيّ عنك أنّ قوله (:(ليرزنقنهم...(خبرٌ عن اسم الموصول (الذين هاجروا(وانظر هذا التناسق بين الفعل والجزاء (هاجروا...((لندخلنهم... (فشأنُ المهاجر أن يخرج من وطنه غير راغبٍ في الهجرة عنه إلا أنّه حمل عليه حملاً ، فكان من حسنِ رزقه أن يُدخل مدخلاً يرضاه.

وأمرٌ مهمّ جدًا يحسنُ الالتفات إليه أن قول الله تعالى (ليدخلنهم...(عقب قوله (ليرزقنهم...(فيه تأديبٌ لنا أن نحتفي بمدخلِ ضيفانِنا ومن نرغبُ في إكرامِهم، ومن صور الإدخال المسترضَى حسنُ استقبال الضَّيف خارج المنزل بحيثُ يشعرُ بالاحتفاءِ به من قبل أن يطأ المنزل ، وهذا فيه من تأليف النفس المُنْبِت إشاعةَ التّحابُبِ، وهذا الخلقُ إذا ما شاع لم يكن للشّيطان أثرٌ فيما بين النّاس. وهو الخلقُ نضبَ معينُه في عصرنا ومصرنا، فلا تكاد تجد أثارة منه إلا عند ثلّة من السّابقين بالخيراتِ. وجاء قوله(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(بين المبدل منه ، والمبدل على سبيل التذييل الاعتراضي ، وهو يحمل معنى التّوكيد والتّقرير، وجاءت هذه الجملة لتقرّرَ هذا المعنى في النّفس ،فإذا ما سمع المرءُ قوله تعالى: (ليرزقنّهم.. (ثم سمع بعدها (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (بهذه الصّياغة الدّالّة على عظيمِ اختصاصِه (بهذه الصّفة الجليلة تبين له عظيمِ ما ينال أولئك من كريمِ الرّزق فيتطلعُ إلى أن يكونَ له من ذلك نصيبٌ.

والواو التي في (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (هي "واو" التّذييل أو الاعتراض ، وفيها معنى العطف أيضًا ولكنّه لا يراد به إلى الإشراك في الحكم ، وإن إريد به الإشراك في الإخبار، ولم يخلُ من (الواو) ليلفتنا إلى ما في هذا الجملة من معنى زائد على ما سبقها ، ولذا عدَل إلى البيان باسم الظاهر: "اسم الجلالة" كما هو شأن الجملة التّذييليّة الاعتراضيّة أن تحملَ معالمَ الاستقلال النّظميّ لتصلح أن يتمثّلَ بها . ففي هذه الجملةِ مِن العُموم ما يدفعُ في النّفس مزيدًا من الرّجاءِ في رزقِه، فيدفعُه ذلك إلى السّعي إلى الفعلِ القائم في صدر الآية : (الذين

هاجروا...(وهذا يبيّنُ لك أنّ النّظر فيما بيْن جملتين أولهما لها محلّ من الأعرابِ ليس خلوًا من لطيف المزايا المعنويّة والإيمانيّة .

****

وَمِنْ هذا الباب قولُ الحماسِيّ :وداك بن سلم المازني:

روید بني شَیبَان بعض وعیدكم   تلاقوا غَدا خیلي على سفوان
تلاقوا جیادا لَا تحید عَن الوغى   إِذا مَا غَدَتْ فِي المأزق المتداني
عَلَيْهَا الكماة الغر من آل مَازِن   لُيُوث طعان عِنْد كل طعان
تلاقوهم فتعرفوا كَيفَ صبرهم   على مَا جنت فِيهم يَد الْحدثَان
مقاديم وصالون فِي الروع خطوهم   بِكُل رَقِيق الشفرتين يمَان
إِذا استنجدوا لم يسْأَلُوا من دعاهم   لأية حَرْب أم بِأَيّ مَكَان( )

لمَّا أراد بنو شيبان أن يحاجزوا عَن مَاء لَهُم يُدعَى" سفوان" وَادعى بنو شيبان أن الماء لَهم ،فتوعدهم الشّاعر بهذه الأبياتِ التي تفيض تهديدًا بما لهم من عليّ المقام والمنزل في العزةِ والمنعةِ والزود عن الحياض.

قوله(تلاقوا غَدا خیلي على سفوان) جواب اسم الأمر في(رويد) وجاء قوله(بعضَ وعيدكم) يفيض تهكمًا. ما كان لبَني شيبان أن يتوعّدوهم . كان يكفِي الشّاعرَ أن يقول: (تلاقوا جیادا لا تحید عَن الوغى) لكنه قاله(تلاقوا غدا خيلي) فقوله (خيلي) بإضافتها إليه يُمكن أن يفهم منه أنّها خيل ليس لها إلا أن تصطبغ قوائمها بدماء أعداءها، ولكنّ الشّاعر أبى إلاّ أن يُترعَ قلوب بني شيبان، فجاء من بعدُ بأبياتٍ تفيضِ بتصوير ما لخيلهم من مآثر ليس لغيرها. فقال : (تلاقوا جیادا لا تحید عَن الوغى...) إلخ فكان بدلاً من قوله : (تلاقوا غدا خيلي على سفوان) فاقتضى هذا أن تفصل عمّا قبلها لكمال الاتصال.

وهذا الذي تغنّي به الشّاعر هو الذي يجبُ أنْ يكونَ حِلية كلّ عربيّ ، بل حلية كلّ مسلمٍ ،فإن الزَّودَ عن الحِياضِ بغيره الحياةَ هي المعرّة الّتي لا تطهّر . فكيف بأولئك الّذين يؤسّسون شعوبهم على أن تفرّ من الزّودِ عن الحياض حفاظًا على البنيةِ التّحتية والفوقية، والبيْنيةِ... واستبدال المعاهدات المستذلّة والتّطبيع النفسيّ به . إنّها روح العبيدِ.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (عَنِ النَّبِىِّ (قَالَ :« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِىَ رَضِىَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِى الْحِرَاسَةِ كَانَ فِى الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِى السَّاقَةِ كَانَ فِى السَّاقَةِ ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ » . (صَحيح البخاري: الجهاد)

الصورة الثّالثة من الفصل لكمال الاتصال

تنزيل التالية من سابقتها منزلة عطف البيان.

يقول السعد"

(أَوْ بَيانًا لها) عطفٌ على مؤكدة أيْ القسم الثَّالثُ من كمالِ الاتصالِ أن تكونَ الجملةُ الثَّانية بيانًا للأولى ، فتنزلُ منها منزلةَ عطف البيانِ من متبوعِه في إفادة الإيضاح ، فلا تعطفُ عليها (لخفائها) أيْ المقتضِي لتبيين الجملة الأولى بالثانية خفاء الأولى ، مع اقتضاء المقامِ إزالتَهُ نحو (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) (طه:١٢٠) فإنَّ وزانَه) أيْ وزان قَولِه (قَالَ يَا آدَمُ) (وزانَ "عمر" في قوله:(أقسَمَ باللهِ أبُو حفص عُمَرُ) حَيثُ جعل(قَالَ يَا آدَمُ) بيانًا وتَوْضِيحًا لِقولِه (وَسْوسَ إِلَيْهِ الشَّيطَانُ) كما جعلَ "عُمر"بيانًا وتَوضِيحًا لـ" أبي حفصٍ".

(التَّنوير)

ممّا تلحظه أنهم سموا هذا النمط من التركيب عطف بيانٍ،ولا ترى ثَم عطفًا، فلم سمّي عطفًا ،وما علاقتُه بمصطلح" عطف النسق"

يقُول السيوطيّ في " الهمع":"قَالَ أَبُو حَيَّان وَسمي بِهِ لِأَنَّهُ تكْرَار الأول لزِيَادَة بَيَان فكأنك رَددته على نَفسه بِخِلَاف النَّعْت والتَأْكِيد وَالْبدل وَقيل لِأَن أَصله الْعَطف فَأصل جَاءَ أَخُوك زيد وَهُوَ زيد حذف الْحَرْف وَالضَّمِير وأقيم زيد مقَامه وَلذَلِك لَا يكون فِي غير الْأَسْمَاء الظَّاهِرَة ذكره صَاحب الْبَسِيط والكوفيون يسمونه التَّرْجَمَة"٠ (همع الهوامع. تح: عبد الحميد هنداوي ،الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر ج : ٣ص ١٥٩)

عطف البيان يجمع بين وظيفتي " النعتِ والتوكيد" ففيه توكيد لمتبوعه،وفي تبيين له كالنعتِ .

مضى القول بأن عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" قَضى بأن تكون "دَلالةُ" القولُ البليغ متسمةً دَلالتُه على معناه بثلاث:" حسن الدلالة، وتمامها ،وتبرجها : إحكامها" وهو يرتبها ترتيبًا تصاعديًا . فالحُسن جذر الأمر ، وهوما كانَ القولُ فيه خلاءً من " التَّعقيد المعنويّ" والتعقيد المعنويُ ليس هو الغموض ، فالشأنُ في القول البليغ أنَّ معناه درجاتٌ ، أوّلها ما يُسمى بـ" أصل المعنى" وهو طلبة النحويّ وهذا لا يشغلُ به العقل البلاغي إلا لتحقيق قدر انتسابِ المعاني السياقية بِه، ، وهذا لا بُدّ أن يكون بالغَ الوضُوح، بحيثُ يقعُ في القلبِ مع وقوعِ "اللفظ" الصُورة" في السّمع .

يقول الجاحظ(٢٥٥هـ) :" وقال بعضهم- وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه-: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك." (البيان والتبيين. تح: هارون. نشر الخانجي.ط(٥) عام ١٤٠٥هـ ج:١ص١١٥)

ويقُول عبد القاهر:

" إذا كان النظْمُ سَوِيّاً، والتأليفُ مستقيماً، كانَ وُصولَ المعنى إلى قلبِك، تِلْوَ وصولِ اللفظِ إلى سَمْعك. وإذا كان على خلافِ ما ينبغي، وصَلَ اللفظُ إلى السمعِ، وبقِيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه، وإذا أفرطَ الأمرُ في ذلكَ صار إلى التعقيدِ الذي قالوا: "إنه يَسْتَهلكُ المعنى". (دلائل الإعجاز.ص: ٢٧١)

ومن رحم "أصلِ المعنى" في "القولِ البليغ" معانٍ سياقيّة مستمدّةَ من" النّظم" في سياقِها، وهذه المعاني السياقيّة ليستْ كثيرةً ، بل هي متكاثرة، كلّما منحتَها من سديد النّظر ،وفتيّه منحتك ما لَم يكنْ لك منها قبلُ ، وهِي على تكاثُرِها، لا تتعاند بتّةً مع أصل المعنى، فإذا رأيت تعانده معه، فعلمنّ علم يقين أن هذاالمعنى السياقيّ المتعاند مع "اصل المعنى" إنما هو من قبيل التقويل ، لا " التأويل " أو بعبارة أخرى هو من قبيل" الإسقاط" لا من قبيل" الاستنباط" فانبذْه بعيدًا .

هذه المعاني السِّياقيّة المتكاثرة النسبية بأصل المعنى لها نصيبٌ من الغموض ، وهي حصانٌ من " السّفور" وقد تتصاعد في غموضِها إلى ألّا يطيق لمحَها إلّا صفوة النّبلاء فهمًا : أولو الفراسة البيانية. وهو ما اسميه في مراتب التلقي " مرتبة الفهم" الّتي تسبقها مرتبة " الفقه " التي تسبقها مرتبة" التعقل".فالتلقي ثلاث مراتب كلية متصاعدة"هيب على الترتيب التصاعدي" العقْل، ثُمّ الفقه" ثم" الفهم"

قلت إنّ المعانِي السّياقية النّسبية بأصل المعنى المتكاثرة للقولِ البليغ متفاوتة في درجات العموض ، وهي جميعًا مندرجة في" حسن الدلالة"

وتأتي السمة الثانية : "تمام الدلالة" وهو أن تكون دلالة "القولِ" البليغ على معانيه السياقية النّسبية المتكاثرة، تامةً ، فهي دَلالةٌ متحققٌ فيها أمرانِ كُلّيّانِ : "الصّدقُ" و"الأمانةُ" .

و"تمام الدّلالة" هذا وجه من وجوه إعجاز بيان الوحي : قُرآنا وسنةً.

أنت لا تجدُ في غيرِ بيانِ الْوحي بيانًا متسمًا بتمام الدلالة على مراد المُبين أيْ مُتَّسِمًا بالصّدقِ وبالأمانة، فلا يبقى من المعنى القصود من المبين إلاّ وفي صورة " القول البليغ" ما يدلّ عَليه إن تصريحًا ،وإنْ تلويحًا.

كل بيان بليغ غير بيان الوحي له قدرٌ ما مِن عجزٍ عَن تحقيق "تمام دلالته"على المُراد .

يَبقَى في المبين معانٍ هو عاجزٌ عن أن يُبين عنها ، وقد عهد عنالإمام الشّافعيّ (ت: ٢٠٤هـ) وهو من هو في البيان أنه كان يقول عن بعضِ ما يقُوم في فؤاده: يتبينُه قلبِي، ولا يُطيقُه لسانِي"( ) فالمعنى المقصُود في بيان البشرِ أكبرُ وأوسعُ مِمّا تدلّ عَليْهِ صورةُ البيان ، فالمعنى المدلول دون المعنى المقصُود، ليأتي المعنى المفهوم من دونِ المعنى المدلول. فأوسع معاني الصورة هو المعنى المقصُود، وأقلها وأضيقَها المعنى المفهوم .

وتأتي السّمةُ الثّالثةُ:" تبرج الدّلالة" أيْ إحكامها.(في بروج مشيدة) وإحكامها يعنى عصمتَها من التأويلِ المرجوح ،أو بعبارة أخرَى : "التّأويل المجروح"

و" التّأويل" ثلاث مراتب : محكم، فراجحٌ، فمرجوح.

أمّا المجروح، أوالمطروح فما هو من التّأويل بلْ مِن" التّقْويل"

تأسيسًا على ذلك، إذا كانت الجملةُ الأولى في دلالتها على المعنى غموضٌ (لا تعقيد معنوي) أيًا كان رافدُه ما ، والمقامُ يقتضِي مَزِيدًا مِن التّبيين، فإنّ الثّانية تأتي لِتزيلَ هذا الغُموضِ غير المرغوبِ فيه ، وهو ما يسمّى بـ"عطفِ البيان"

ولا يرادُ بالعطفِ هنا ما كان بأداة ، بل يرادُ إتيانُه تاليًا لما اتفق مع سِباقِه في المعنى ، إلّا أنّه أوضح، فالمرادُ بالعطفِ هما الإتيان تاليًا .

من هنا يتبيّن لك أنّ عطف البيان بيْن الجمل يحقق للقولِ البليغ :"حسن دلالته" ويتبيّن لك أنّ " البدل" بيْن الجُمل يُحقّق للقولِ البليغ "تمام دلالته" ويتبيّن لك أنّ " التوكيد" بيْن الجملِ يُحقّقُ للقولِ البليغ " تبرج دلالته" : إحكامها.

لوْ أنّا ربطْنا ترتيبَ صورِ " كمال الاتصال" بترتيبِ سماتِ دلالةِ "القول البليغ" : "الحسن، والتَّمام، والتّبرج" وهو ترتيب محكم مرتّب الثّاني على الأوّل ، الثّالث على الثّاني والأول ـ لو أنّا رتّبنا صور "كمال الاتصال" على ذلك ، فكان ترتيب صور "كمال الاتصال" على النّحو التّالي: عطف البيان ، فالبدلُ، فالتّوكيد ، لكان أمجدَ وأحمد. والأمر قريبٌ من قريبٍ .

****

وهذه الصُّورة المنزل فيها الجملة الثّانيةَ منزلة عطفِ البيانِ من متبوعِه القصدُ فيها إلى انتشارِ مضمونها وانبساطِه بحيثُ يملأُ النّفسَ ، فتتضلعُ منه، وإلى جلائِه بحيثُ يكونُ اطلاعُ القلبِ على تفاصيلِهِ اطلاعًا تامًا، لا يبقَى شيْءٌ مِنه إلاّ وهُو مشهودٌ للقلبِ، وهو يتأتى من إيراده في صُورتين: صُورةٌ مجملةٌ تحقق للسمع القدرة على الإحاطة به والاستيلاء عليْه وأسره في قلبِه، فلا يغيبُ عنه ولا يغيمُ.

والصّورة الأخرى صُورةٌ مفصلّةٌ يملأُ شعاعُها أنحاءَ القلبِ ، ويتداحُ فيه، فيبصرُ القلبُ دقائقَه ولطائفَه، فيجتمعُ لمَعنى الجملةِ الأُولى أمران :

(أ) أحدُهما مقصُودٌ إليْه قصدًا رئيسًا

(ب) والآخرُ مقصُودٌ إليْه قصدًا تبعيًا.

الأوّلُ المقصُود إليْه هنا قصدًا رئيسًا هو تبيّن معنى الجملةِ الأُولَى وجلاؤه وانتشارُه وامتلاء القلبِ بِه. وهذا يحقّقه مجيْءُ الجملةِ المبيّنَة للجملة الأولى.

والآخرُ المقصُودُ إليه قصدًا تبعيًا هُو تقريرُ معنَى الجُملةِ الأُولَى ، والإحاطة به والاستيلاء عليْه .

وهنا يتبيّنُ لنا أنّ في كلّ تبيينٍ تقريرًا ، وليس بلازمٍ أن يكونَ في كلّ تقريرٍ تبيينٌ ، فقد يأتِي التّقريرُ والتّأكيدُ والتّأطيد بما لا يتحقّقُ معه التّبيينُ والتّفصيلُ .

****

مما تلاقَي جمهرةَ البلاغيين على أن الفصل لكمال الاتصَال تبيينا قول الله - سُبْحانَهُ وَتعالَى –

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) (طه:١٢٠))

يقُول السعد:" " فإنَّ وِزانَه) أيْ وِزان قوله (قَالَ يَا آدَمُ) (وِزانَ "عمر" في قوله:(أقسَمَ باللهِ أبُو حَفصٍ عُمَرُ) حَيثُ جعلَ(قَالَ يَا آدَمُ) بيانًا وتَوْضِيحًا لِقولِهِ (وَسْوسَ إليْهِ الشّيطانُ) كما جعلَ "عُمر"بيانًا وتَوضِيحًا لـ" أبي حفص". "

بيّنٌ أنّ قولَه تَعالَى" فَوَسْوسَ إليْهِ الشيطان" وإن كان الإعرابُ عن الفعل بقوله" وسوس" وإسْناده إلى" الشيطان" مما يفهم أنّ هذا الإعرابُ يحمل إفادة أنّ الذي كان من الشيطانإنما هو أمرٌ بالغُ النكارة، فالوسوسة إنما تكونُ في غالبالأمر فيما يحملُ مكرًا بمن يوسّوسُ به إليْه أو بغيرِه،ولما كان فاعلُ الوسوسة هو الشيطان كان في اسمه ما يهذي إلى طبيعة الفعل.

قوله" وسوس" ليس الغموض ،والحاجةُ إلى تبيين في معنى الفعل، كلّا، وإنما في ما كنت به المسوسة،أي مضمون ما وسوس به، فجاء قوله تعالى: قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) مبينا عما وسوس بِه، فوق الفصل بينهما لكمال التّصالها، فالجملة الثانية كاشفةٌ عن غموضٍ في مضمونِ الفعل، لا في معنى الفعل. وة لاتبرح مكانك في القراءة حتى تتلبث مليًا في مقالة الشيطانِ التي وسوس بها إلى أبينا آدم، - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ – ونحن ذريتَه لنا نصيب موفورٌ من مثل تلك الوسوسة، فإن أحسنا فقه مقالتِه لأبينا نكون مأهلين إلى أن نحسن فقه ما يوسوس إلينا به صَباحَ مسَاء .

أرأيت إلى الترفق الذي سلكه الشيطان في قوله لم يطلب منه بأسلوبٍ مباشر، أقامه في نزاعٍ نفسيَ بين الإجابة،والامتناعِ ، وكانت عبّارته بقوله" شجرة الخلد وملك لا يبلى" عبارة باعثةٌ على أن يستجيب لأغرائه،" الخلد"»الملك» كلمتان فاعلتان فيالنفس البشرية، كل يكره الموت،ويحب الخلود،وإن فقد كل قدراتِه ، وكلّ يحب أن يكون مليكًا لما يحتاجُ غليْه وما لا يحتاجُ إليْه، المهم أن يكون مليكا. كلمتان تفعلان فينا فعلًا فتيًّا يعسر على النفسِ البشريّةأن تقاومه،

كان الشيطان عليمًا بحال عدوه، فاستغل نقاط الضعف، فهل ولك ان نحرصَ على أن نتعلم حال عدونا كما نعلم حال أنفسنا،ونستثمر علمنا هذا بما يكون لنا فيه مرضاة ربّنا - سُبْحَانَهُ وبِحمْدِه ۏ- عنّا؟ هلْ لَنا؟

•••••••

اعتراض ودفعه:

يقول السعد: ولا يجوزُ أنْ يُقال : إنّه من باب عطف البيان للفعلِ ؛لأنا إذا قطعنا النّظرَ عن الفاعلِ- اعني الشيطان – لَم يكنْ" قال" بيانًا وتوضِيحًا لِـ" وسْوَس"، فليتأمّل.

مضمون الاعتراض:

يحاجزنا السعد عن أن يقوم فينا توهم أنَ عطف البيان من قبيل تبيين معنى كلمةٍ (وسوس) بكلمة(قال) ، فلا تكون الآيةَ على هذا الزعم من الباب : عطف البيان بيْن الجمل.

ووجه ذلك أنَّ مفهوم" الوسوسة" ليس بحاجةٍ إلى تبيين حتى يبيّن بـ" قال" ، بلْ الذي هو بحاجةٍ إلى تبيين إنما هو مضمون الوسوسة، ومن ثم كان المبيَّن(بالفتح) جملة، وكان المبيّن(بالكسر) جملة، فكان الآية من الباب.

هذا الذي ترى إنما هو مناقشة في المثال أهو من الباب أم لا، فبين انّ تحرير مناط الغموضِ والتبيين بقضي بأنه من الباب،و هذا يعلمناان نكون على بصيرة بما يمثل به بيانا للقاعدة، فلعله يشتبه عليْك ما ليس منه. وهذا نظرٌمنهجيٌ دقيقٌ .

اقتضاء المقـــــام حضور" الواو" بيْن جملتين الثانية مبيّنة الأولى:

الذي مضَى كان جاريا على الغالبِ من الفصل بينِ ما كانت الثانية من الجملتَيْن مبينة الأولى منهما، ولما كان البليان البليغ إنماهو طوعُ مقتضى الحال ، وكان من الحال ما يقضي العدول عما هو الغالب ، جان من البيان ما كانت "الواو" جاضِرةً بيْن جملتَيْن الثانية مُبينَةً عن الأولى، وهذا ما لفت غليْه السعد قائلًا:

وقد تعطفُ الجملةُ الّتي تصلحُ بيانًا للأولى عليْها، تنبيهًا على استقلالها ،ومغايرتها للأولى ، كقولِه(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ)(البقرة:٤٩) وفي سورة "إبراهيم"(وَ يُذَبِّحُونَ) بـ" الواو"، فحيثُ طرح"الواو" جعله بيانًا لــ(يَسُومُونَكُمْ) ،وتفسيرًا لـ" العذاب"،وحيثُ أثبتها جعل" التذبيح"؛لأنّه أوفَى على جنسِ العذابِ ،وزاد عليْها زيادةً ظاهرةً ،كأنّه جنسٌ آخر .

يلفتنا السعد إلى أن ما يسمى بمشتبه النظمِ " التصريف البياني" للمعنى قد يقع في هذه الصورة من صُور كمال الاتصال ، فتأتي" الواو" بين جملتيْن الثّانية مبينة عن الأولى. وأن ذلك لا بد ان يكون نازلًا على مقتضى الحال. يستشهد على هذا بقول الله تعالى :

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)(البقرة:٤٩)

وبقول الله تعالى :(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)(إبراهيم:٦)

لم يزد السعد على الإشارة الى أنّ طرح الواو يفاد منه أنه "يذبحون" بيانٌ لـ" يسومونكم" أيأن المقام مقام تبيين لنوع الإسامةِ ،وأنها تذبيح الأبناء واستحياء النساءِ .

وأن الإتيان بـ" الواو" كما في آية سورة" غبراهيم" القصد إلى بيان أن التذبيح زائد على التعذيب الذي في الإسامة، ،وهذه الزيادة دلت على درجةٍ من المغايرة، بين التذبيح،والإسامة، والمغايرة تقتضي الإتيان بـ" الواو" وهذا الذي قاله السعد إنما هو "نصّ كلام الزمخشري في تاويل آية سورة"إبراهيم" يقُول الزمخشري في الكشاف:"

فإن قلت: في سورة البقرة (يُذَبِّحُونَ)، وفي الأعراف: (يُقَتِّلُونَ) وهاهنا (وَيُذَبِّحُونَ) مع الواو ، فما الفرق؟

قلت: الفرق أنّ التذبيح حيثُ طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أو في على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر."

هذا الذي ذكره الزمخشريُّ وحمله عنه السعد هوفي نفسه حسنٌ ، لكن يبقَى عليه تساؤلٌ : لم كان المقام في سورة "إبراهيم" مقتضيا الدلالة على زيادة التذبيح على الإسامة دون آية سورة "البقرة" ؟

وهل يصح بلاغة إقامة آية سورة " إبراهيم" مقام آية سورة" البقرة" وإقامة آية سورة" البقرة" مقام سورة " إبراهيم" ؟

هذا تساؤلٌ لم يلتفتْ غلى بيانه الزمحشريّ أو السّعد، برغم أن سابقًا الزمخشري" الخطيب الإسكافي" وسابقًا على السعد كالفخر الرازي التفتا إلى ذلك في تفسيره آية سورة "البقرة"

يقُول الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) في "درة التنزيل"

" إذا جعل (يذبحون) بدلا من قوله: (يسومونكم سوء العذاب) لم يحتج إلى الواو، وإذا جعل قوله: (يسومونكم سوء العذاب) عبارة عن ضروب من المكروه هي غير ذبح الأبناء لم يكن الثاني إلا بالواو، وفي الموضعين يحتمل الوجهان إلا أن الفائدة التي تجوز أن تكون خصصت لها الآية في سورة إبراهيم بالعطف بالواو، هي أنها وقعت هنا في خبر قد ضمن خبرا متعلقا به، لأنه قال قبله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) (إبراهيم: ٥) ثم قال (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم..) فضمن إخباره عن إرساله موسى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - بآياته إخباره عنه بتنبيه قومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها، فكان قوله :(يذبحون) في هذه السورة في قصة مضمنة قصة تتعلق بها، هي قوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا..) .

والقصة المعطوفة على مثلها يقوى معنى العطف فيها فيختار فيما كان يجوز في العطف على سبيل الإيثار، لا على سبيل الجواز، وليس كذلك موقع (يذبحون) في الآية التي في سورة البقرة، **<u>لأنه تعالى أخبر عن نفسه بإنجازه بني إسرائيل، وهناك أخبر عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه كذا، بعد أن أخبر عنه أنه أرسله إليهم بآياته</u>**. فافترق الموضعان من هذه الجهة.)(درة التنزيل وغرة التأويل.ص: ٢٣٠)

ويقول الرازيّ (٦٠٦هـ) :

" الْبَحْثُ الثَّانِي: ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ يُذَبِّحُونَ بِلَا وَاوٍ وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ ذَكَرَهُ مَعَ الْوَاوِ، وَالْوَجْهُ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ قَوْلَهُ: يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ مُفَسَّرًا بِقَوْلِهِ: يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى الْوَاوِ، وَأَمَّا إِذَا جَعَلَ قَوْلَهُ: يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ مُفَسَّرًا بِسَائِرِ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ سِوَى الذَّبْحِ وَجَعَلَ الذَّبْحُ شَيْئًا آخَرَ سِوَى سُوءِ الْعَذَابِ، احْتِيجَ فِيهِ إِلَى الْوَاوِ، وَفِي الْمَوْضِعَيْنِ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ، إِلَّا أَنَّ الْفَائِدَةَ الَّتِي يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَقْصُودَةَ مِنْ ذِكْرِ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ قَبْلَ تِلْكَ الْآيَةِ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ [إِبْرَاهِيمَ: ٥] وَالتَّذْكِيرُ بِأَيَّامِ اللَّهِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَعْدِيدِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ نَوْعًا مِنَ الْعَذَابِ، وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ نَوْعًا آخَرَ لِيَكُونَ التَّخَلُّصُ مِنْهُمَا نَوْعَيْنِ مِنَ النِّعْمَةِ. فَلِهَذَا وَجَبَ ذِكْرُ الْعَطْفِ هُنَاكَ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَمْ يَرِدِ الْأَمْرُ إِلَّا بِتَذْكِيرِ جِنْسِ النِّعْمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ [الْبَقَرَةِ: ٤٠، ٤٧، ١٢٢] فَسَوَاءٌ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ هُوَ الذَّبْحَ أَوْ غَيْرَهُ كَانَ تَذْكِيرُ جِنْسِ النِّعْمَةِ حَاصِلًا فَظَهَرَ الْفَرْقُ."

(مفاتيح الغيب.ج: ٥٠٦/٣)

وفي مقالة الرجلين زيادة على ما قال الآخر، فلا يغني احهما عن الآخر.

بقي أمرٌ مهمّ جدًا الالتفاتَ إليْه واستحضاره. يتمثّل ذلك في أنّ" الواو" حين تقع بين جملتيْن بيْنهما كمال اتصال، فهذه " الواو" لم تأتِ لتدل على إشراك التالية سباقها، فهي وإن كانت موضوعةً للدلالة على مطلق الجمع بيْن سباقِها ولحاقِها، إلا انّ هذا يلزمه أن ما وقتً بينهما بيْنهما شيءلّ ما من المغايرة، والدلالة على هذا دلالة لزوية،وليس دلالة وضعية.

هي موضوعة لمطلق الجمع ،ويلزم من هذا ان يفاد "المغايرة" بين ما تدل على اجتماعهما في شيءٍ.فالدلالةاه علىٰ" المغايرة" دلالة التزامية.

وهي حين تكونُ حاضرة بيْن جملتيْن بيْنهما "كمال اتصال" فلا تكونُ آتية للدلالة على اجتماعهما،واتصالهما إلى غايةٍ، فذلك متحقق بدونها، وما المجيئ بها كما فيآية سورة" إبراهيم" إلا للدلالة على المغايرة، وحينئذٍ هي الأولى بأن تسمّىٰ" واو المغايرة" أي الدالة على المغايرة. وليست واو وصلٍ .

□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□

تكميل في تأويل آيتي "البقرة" و" إبراهيم"

قوله تعالى:(يَسُومونكم سُوء العذاب) هو حالٌ من"آلِ فرعون" في محلّ نصب. وقوله: (سوء العذاب) من إضافةِ العذاب إلى صفِته ، والأصل يسومونكم العذابَ السيئ ، وفي هذا النسق من الإضافة إشارةٍ إلى تمكن الصفة في الموصوف وشدة اختصاصه به ، وأنه ليس منه شيءٌ إلا وهو سيّئٌ ، فكلّ عذابهم لهم سيِّئٌ ولو قيل العذاب السّيئُ لفهم أنّ هنالك عذابًا غير سيِّئ.

والعذابُ السّيئ هو الّذي لا ينتهي أثرُه وألمُه وضُره بانتهائه ، فهوعذابٌ إذا فرغ المعذِّبِ(بالكسر) منه فإنّه يبقى، لا يزول أثرُه وضرُه. وليس كلّ عذابٍ كذلك ، فمن العذابِ ما ينتهي بالانتهاءِ أو قريبًا من الانتهاءِ منه أمّا ما يبقى أثرُه وألمُه وضرُه بعده لا ينقطع ، فهذا هُو العذاب السّيّئ ـ ومن هذا ما يصنع الطغاة أحفاد فرعون .

وهذا يصوّرٌ لنا عظيمَ بغْي "آل فرعون" على "بني إسرائيل" وأنّهم كانوا قد بالغوا في فجورهم وبغيهم . ومثل هذا ليس من شيم الرّجال مع الأعداء، فكيف مع المستضعفين ؟.

ولعلّه لمّا كان هذا في خلق "آل فرعون" وبطانتهم وظهيره السياسيّ من القبط تمكّن فرعون من قومِه، فاستخفهم ، وتمكّن أن يقول لهم : أنا ربكم الأعلى ، وما علمت لكم من إلهٍ غيري، ومثل هذا لا يسكتُ عند سماعِه إلا ذليلٌ أو معتوه لا يفقه ما يسمع . ولذا وصف القرآن حالهم بقوله تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) (الزخرف:٥٤)

لمّا أعربَ عمّا كان من آل فرعون لبني إسرائيل بقوله (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) وكان هذا من قبيل الإجمال وكان بحاجة إلى تبيينٍ وتفصيلٍ جاء ما بعدَه في سورة (البقرة) وسورة(الأعراف) بغير (واو) بيانًا لقوله (يسومونكم سوء العذاب) فلفتنا تركُ العطف إلى وظيفة قولِه تعالى : (يذبحون ... يقتلون...) : لفتنا إلى أنّه جاء تبيينًا لبعضِ ما سبقَه.

وفي هذا تعظيمٌ لشأنِ المِنّة الّتي يمتنّ الله (بها على بني أسرائيل. أوردها أولاً على سبيلِ الإجمال ثمّ فصّلها ، فزادها هذا تفخيمًا في النّفوسِ ممّا يجعلُها جديرةً بالتّذكر والشّكران.

ومن البيّن أنّ ما كان مِن آل فرعونَ مِن السّوم لبني إسرائيل أكثر من ذبح الأبناءِ واستحياءِ النّساءِ ، إلا أنّ هذين هما الأعظم إيلامًا ، والأبقى أثرًا. فكانا جديرين بالاختيار.

وكان حريًا ببني إسرائيل في زمن سيدنا محمد (أن يتذكروا الفرقَ بيْن صنيع فرعون وآلِه بهم ، وصنيع رسُول الله (بهم ، ليعلموا أنّه (رحمةٌ للعالمين ، فحَقُّ الإيمانُ به وموازرته، ولكنّهم قومٌ لا يعقلون (إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (الفرقان:٤٤)

الخطابُ في آية سورة" البقرة"وسورة" الأعراف" من الله (وليس من نبيهم سيّدنا موسى (.والسياقُ للامتنان وهو ما يتجوابُ معه التّفخيم الذي يتتجّه بناءُ الأسلوب على الإجمال والتفصيل. لذا كان تَركُ العطف آنس بالسّياق والقصد في سورة (البقَرَة) وَسُورَة (الأعرافِ)

وجاء البيانُ في سورة"إبراهيم"بـ(الواو) (ويذبحون) من أنّ سياقَ القول دعوة سيّدنا موسى علَى نَبيّنا وعليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ عليْه وعلى نبينا الصّلاةُ والسلامُ إلى أن يذكرهم بأيامِ اللهِ تعالى ، والتّذكير يتجاوبُ معه تعديدُ النّعم ، فالمقام مقام تذكير بنعم الله تعالى ، وليس مقام امتنانٍ بها ، وإن كان التذكير غايته الامتنان غالبًا . فإنّ التّذكير يكون أيضًا للتأنيبِ وبيانِ ضَلالِ الحال، ولما كان السياقُ في سُورةِ (إبراهيم) للتذكير(وذكّرهم بأيام الله) وكان المنتجُ للتذكير هو تعديدُ النّعم،وكانت(الواو) دالة على مغايرة ما بعدها لما قبلها، وكان هذا الأليقَ بالتّعديد المتجاوبِ مع التّذكيرِ، كان الأليق بالسّياق هو الأتيان بـ(الواو) :(ويذبحون)

صورٌ محللة كم كمال الاتصال تبيينًا

من كمال الاتصال تبيينا للبيان قول الله ﷻ :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * **أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ** تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف: ٣٠ ، ٣١)

جاء قوله تَعالَى جَدُّهُ (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ...) بيانًا وتفصيلاً لما في قوله لقوله(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) من الإجمال.

فلو أن البيان القرآنيّ لم يأتِ إلاّ بقوله (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) لكان لأولي الألباب أن يُعملوا قلوبهم في تفصيل ما في هذا الأجر المتشوف لقيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وجاء البيان القرآن بهذا التبيين والتفصيل ليقيم في سمعك شيئًا من هذا الذي يُمكن أن يتلقاك يوم القيامة إن كنت من الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ، ويكون بملكك أن تُحيل مسموع أذنِك مشهودَ عينك ، بما لك من مهارة التخيُّل التي تجمع ما تسمع رأي عين كما كان شأن كثيرٍ من الصّحابة ﷺ حين كان سيّدنا رسول الله ﷺ ينبّؤهم بأمرالْجنةِ والنار ، فيجتمع لك بهذه المهارة في عاجل البشري عطاء سمعك ، وعطاء أذنك، وكمْ هو جدّ نفيع أن تَعيش في هذا الاستحضار لجَنَّاتُ عَدْنٍ التي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وما يكون لك فيها من الحلية مِنْ أَسَاوِرَ

مِنْ ذَهَبٍ وما يكون لك من ثِيَاب خُضْر مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، ولك أن تتخيل بقلبك النافذ البصرة ،وأنت المُتَّكِئ فِي هَذه الجنات عَلَى الْأَرَائِكِ ،وممَا يُعينك على إطلاق تخيلك المستحضر هذا المسوع من أفق الغيب مشهودًا قوله الله تَعَالَى جَدُّهُ (نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) إذا استحضر قلبك أن القائل ذلك هو الله ﷻ لم يبق شيءٌ من الجلالِ والجمالِ من المثوبةَ إلاّ وهو قائم في قلبك مشهودًا، وحينئذٍ تنتقل من حال القبول حين تسمع مراد الله تَعَالَى الشرعي أمرًا ونهيًا إلى طور الإقبال عليه إقبال محبة وتشوفٍ وتشرف، فتجدك انشط ماتكون وأنت تفر إلى ربك ممأمن مكبل به من عوائق الطين.

وفرقٌ بيْن بيْن أن تَقْبَل (ترضى) ، وأن تُقبِلَ (تأمّ وتقدم) ، كثيرٌ أولئك الذين يقبلون مراد الله الشرعي أمرٌ ونهيًا : افعلْ ولا تفعل ،ولا يردونَه وجدّ نزير أولئك الذين يُقبلون عليْه ويسارعون إلى الدخول في شرفِ (سمعنا وأطعنا)

وإذا ما كان قد تشوّف قلبك إلى أن يقومَ في ما جاء من قوله تعالَى:

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

فإن فريضة عَليه أن يتبصّر حلية مَن تكون هذي مثوبته، أن يتبصّر ليفهم ، فيلزم .يقول الله ﷻ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

جاء البيان هنا عن شأن أدنى السائرين في طريق العبودية والعبادية : السائرين في الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ علَيْهم بالعلم الصحيح ،العمل النصيح الموافق لذلك العلم .

قال : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ولم يقل إن "المؤمنين" أو"إن الذين اتقوا...." ذكر أدنى الدّرجات المعربِ عنها باسم الموصول (الَّذِينَ) وصلته (آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ومن البيّن أنّ اسمَ الموصول معرفة بغيره : معرفةٌ بصلته، صلته هي التي تكسبُه التعريف، والإعرابُ باسم الموصول فيه أنّ هذه الصلة هوأقوى وأجلّ ما يكون صالحًا للتعريف بالمتحدثِ عنه. فكأنّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ هوأجلُّ صفاتهم وأفعالهم وأحوالهم .

وفي جعل صِلة الموصولِ جملة فعلية (آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إيذانٌ بأنّ أولئك لمّا يزلْ إيمانهم وعملهم الصّالح في طور الفعلية القابل للزيادة والنقصان بل للمحو، ومن ثَمّ هم في أول مدرجة الارتقاء في معارج الزلفَى إلى الله ﷻ ، ومن فوق ذلك درجات : منْ فوق ذلك درجة "المؤمنين " ومن فوقها درجة " الذين اتقوا" ومن فوقها درجة" المتقين، ومن فوقها درجة" الذين أحسنوا" ومن فوقها درجة "المحسنين" وهذه ذروة الدرجات وشرفها (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)(الأعراف :٥٦) (١)

---

(١) هل لك إلى أن تلبث مليًا عند اصطفاء تذكير النعت(قريب) والمنعوت مؤنث مجازي وكان يمكن عربية أن يقال(قريبة) وهل لك أن تلبث مليًا عند رسم التاء في(رحمة) تاء مبسوطة(رحمت)، وعلاقة ذلك بإضافتها إلى اسم الجلالةوما هو الغالب في ذلك في الرسم القرآني، وعلاقة ذلك بالإعراب عنهم بـ" المحسنين" كل ذلك يحمل إليك شيئًا من لطائف الإشارات قد تكون مفتقرًا إليه.

في الإعراب عن أصحاب هذا الجزاء باسم الموصول وصلته إيذان بأن هذا جزاء أدنى أهلِ الزلفى ، فكيف بمن فوقهم؟

الأهم أنه ﷺ جعل حليتهم عمودها أمران: الإيمان والعمل الصالح.

<u>والأمر الأول</u> : الإيمان . لم يقلْ الإيمان بماذا ، قال : (آمنوا) إعرابًا عن أنّه لا يكون الإيمانُ إيمانًا صَحيحًا إلاَّ إذا كان إيمانًا بما أمر الله ﷻ الإيمان به ، وبيَّنه في كتابه وسنة رسُولِه ﷺ .

وهذا يستوجبُ أن يكون القائم لهذا الإيمان عالمًا بما أمر الله تَعالَى جَدُّهُ الإيمانَ به، وهذا لا يكون إلا من خلال التبصر في بيان الوحي في رعاية أهل العلم بهذا البيان وإرشادهم وتبيينهم كيما لا يُدخل في ما يجب الإيمان به ماليس فيه، وحتى لا يُنحّي عَنه ما هو منْه ، فالأمر جِدّ ؛ لأنّه هو أساس كلّ ما يأتي المرْءُ ويدعُ في هذه الحياة.

مَن آمن ولم يكن عليمًا بما يجب الإيمانُ به وما لا يجوزُ الإيمان به، ولم يكن عليمًا بكيفية الإيمان، وبشروط صِحته وشرُوط حسنه وبنواقضِه فإيمانُه في مهبّ ألأعاصير الهوج . لا يثبت أمام أيّ شبهة أوشهوةٍ ، وما أكثر هذه الشّبهاتِ والشّهواتِ وأفْحلها وأعتاها ،وأركسها في زماننا هذا .

فالعلم بالإيمان وشؤونه جمْعاء هو الفريضة الّتي لا يُسْترضَى فيها بالتقليد(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)(الإسراء:٣٦)

التقليد الأكمه في باب الإيمان يودي بصاحبه إلى ما لايُسْتَرْضى.

<u>والأمر الآخر</u>: العمل الصالح، وإذا ما كان الإيمان يقُوم من ثلاثة:

(أ) اعتقاد صحيح صريح نصيح بالجنان

(ب) وقول فصيح جهير باللسان

(ت) وعمل نجيح بالأركان

وكان يمكن أن يقال : إن الذين آمنوا ، ولا يذكر قوله :(عملوا الصّالحات) لدخول العمل الصالح في (الإيمانِ) فإنّ السنة البيانية للقرآن أن يقرن بينهما عطفًا بـ"الواو"، وهو ما يسميه أهل العلم بعطف الخاصِ على العام أو الجزء على الكلّ أو الفرع على الأصل إعرابًا عن عظيم أهميةِ هذا المعطوف، ولِمَا في المعطوف (عملوا الصالحات) من تضمنه للإيمان ، فهو لن يكون صالحًا إلا بركنيين: صفاء القصد(صحة النية) واتباع الشرع. وهذان من عصب "الإيمان"([1]) واعجب لفرع يتضمن الأصل ،وأصل يختضن الفرع . فهل لنا أن نتأدّب بهذا في علاقاتنا الاجتماعية علاقة الفرع بالأصل : الولد بوالديه، والتلميذ بشيخه، والمرؤوسِ برئيسه... هل لنا ؟!!!

---

[1] ومن اتباع الشرع إتقان العمل ، فهذا الإتقان إذا لم يتحقق كان اتباع ما شرع الله ﷻ في كتابه وسنة رسُوله ﷺ خداجًا. روى الطبراني في المعجم الأوسط، من حديث عائشة وفي الأكبر من حديث سيرين رضي الله عنها أخت مارية القبطية رضي الله عنها ،والبيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُحبُّ إذا عمل أحدُكُمْ عملًا أنْ يُتْقِنَهُ» وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير(رقم: ١٨٨١) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة(رقم: ١١١٣)

وهذا قاله صلى في سياق اصلاح القبر وتسوية التراب عليه وهو عمل لا يترتب على ترك إتقانه كبير ضرر عاجل أو آجل فيه كما قال ﷺ " إنَّ هذا ليس بشيء، ولكنّه يطيبُ بنفسِ الحيّ " (مسند أحمد)

ومن السّنّة البيانة للقرآن أنه لا يقول (آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات) بل بطوي الموصوف(الأعمال) إعرابًا عن أنّها لا تتسحق أنْ يعرب عنها بأنها أعمالٌ إلا إذا كانت صالحة، فعمودُ الإمر صلاحها، فلا قيمة للعمل إلا إذا كان صَالحًا، فلستَ المثاب على عملك بمقدار ما أنت منفق فيه وقتًا ومالا، وجهدًا، بل بمقدار صلاحه الذي عماده صفاء القصد واتبع الشّرع الذي منه إتقان العمل، ففي طيّ الموصوف إعلاءُ شأن الصفة، و تحقير لما لم يكن كاملا في هذه الصّفة.

ومن السّنّة البيانية للقرآن في هذا أنه يقول (عملوا) ولم يقل (فعلوا) او صنعوا) فهذه (فعل – عمل - صنع) يحسب الهجل أنها سواء، حقًا هي من أسرة دَلالية واحدة ولكنها ليست بالمترادفة – ليس في البيان العلّيّ المعجز قرآنًا وسنة تَرادف - فهنالك فرقٌ بيْنٌ فتيٌّ بيْن (فعل) و(عمل) و(صنع) أدناها (فعل) وأعلاها (صنع) وبالثلاثة جاء البيان القرآني في مواضع عدّة:

"الفعلُ" يعرب عنْ كلّ ما يصدر منك سواء كان مصنوعصا بقلبك أولسانك أو سائر جوارحك وسواء أكان معنويًا أوحسيًا ، فهوأعمّ الثّلاثة، فكل عمل فعلٌ و كل صُنع فعلٌ.

"العمل" لا يكون إلا فعلاً مؤسّسًا على علم محقق وقصدٍ واعتناءٍ .

والعلاقة اللفظية بين(العَمل) و(العلم) بيّنةٌ .وهي معربةٌ عن علاقة جوهرية في طبيعة الحدث (العمل) وهذا من بدائع العربية، وربما لا تجد مثله في غيرها من ألسنة الخلق.

و"الصنع" لايكون إلا إذا كان صَاحبه ماهرًا فيه، أي هو عملٌ وليد مهارة، تتجعل ما كان عملاً يُتعمّل فيه ويتأنق ويتريث كأنّه فطريّ يجري منك كما يجري الهواء في صدرك . فالصّنعة مهارةٌ وإتقانٌ وتفنّنٌ .فليس كلُّ فعلٍ صنع،وليس كلّ عملِ صُنع.

فالقرآن قال : (عمِلوا الصالحات) اعتدادًا بوجوب العلم بما يكون ، وبالقصد إليه وبإتقانه .

ولو قال (صنعوا الصالحات) لكان فيه من التّشديد ما فيه

ولو قال (فعلوا الصالحات) لاستهتر النّاس وأوغلوا في عدم الإتقان والعرفان بما يصدر عنهم . فكان من فيضِ الرّحمة أنْ جاء البيان بقوله (عملوا الصّالحات) أرأيت إلى كمال دقة البيان القرآنيّ. أو مثل هذا البيان يتقحم حماه النابتة الذين لا يستطيع لسان أحدهم أن ينطق بكلمةٍ فصَيحة نطقًا صَحيحًا، أو مثل هذا البيان يقول الأغرار إنهم في تفسيرِه وتأويله رجالٌ كما كان الشافعي وطبقته راجل.

وليس بالعجيب فإنّا لفي زمان سادتُه أشباه رجالٍ ، فكيف بمن دونهم .

وممّا يحسن أن نتلبث عنده أن الله ﷻ لم يقل في الخبر عن (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) لهم أجر عظيم ، أو إنا لن نضيع أجرهم مثلا، ولكنه قال (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) جاء به جملة بُنيت على هذا النسق

ومن أكثر الأعمال التي لا يحقق لها أصحابها الإتقان فيها طلب العلم وتعلمه وتعليمه ، فأكثر المشتغلين بذلك هم إلى الاكتفاء بحمل حصيد السابقين أرغب منهم إلى صناعة وثيق العلم ونصيحه وصَحيحه . ولعل علم البلاغة العربي من العلوم التي يتعبّد كثير من طلابه بتجترار مقولات الآباء، والرهب من أن يبتصروا ما في مقولاتهم مما يحتاج إلى تقويم أو تسديد أو إكمال أو توليد أو استثمار.

الكريم عطاؤه والوفير نواله. فهذا النّسق من البناء المؤسس على التوكيد بـ(إن) والبيان بضمير العظمة(نا) ونفي الفعل(نضيع) نفيًا ممتدًا سابغًا كما يُفهِم الامتدادُ الصوتيّ في أداة النفي(لا) وفي تسميه العطاء المتفضل به(أجرًا) وكأنّ الله ﷻ يستعملنا لأمرٍ يعود إليْه ، وكما هو معهود النّاس في تسميتهم ما يُعطى العامل على عمله أجرًا، نحن حين نؤمن ونعمل الصالحات لا نؤدّي لله تَعالَى عملا هو في حاجَة إليْه (بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (سورة الصمد:١-٤)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات: ٥٦ -٥٨)

في تَسمية ما يَجود به ﷻ علينا تفضلا لأحساننا إلى أنفسنا بالإيمان والعمل الصالح أجرًا لفت إلى أنّه لما أحسنا إلى أنفسنا أحسن هو ﷻ إلينا ، مكافأة لنا على أنا لم نُسِئْ إليها بالكفران والعصيان فإنها المخلوقة لله تَعالَى جَدُّهُ وَهي امانة في أيدينا .

أرأيتَ مَن يوجب على نفسه تفضّلا أن يحسن إليْك إن أنتَ أحسنت إلى نفسِك . ؟

أي محبة هذه التي يغدقها علينا ربنا عزّ وعلا؟ ولِمَ لا، ألم يكن أول ماعرفنا بنفسِه في مفتتح سورة أم الكتاب أن قال ﷻ :(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)(أم الكتاب:١-٤)

من ذا الذي يُصْغِي إلى هذا المفتتح بقلب مفتّحة أبوابه للتلقي ، ولا يستشعر عظيم تحبّب الله ﷻ لعباده ليقبلوا عليْه إقبال محبة وقنوت.

وتبصّر كيف أنّه عدل عن الإعراب عن الذين آمنوا بالضمير كما هو معهود البيان في العربية ، لم يقل (إنا لانضيع أجرهم) بل قال(من أحسن عملا) فجعل هذه الجملة (إنَّا لا نُضِيعُ أجر من أحسَن عمَلا) جارية مجرى المثل، لمّا جعلها مستغنية عن أن ترتبط باسم (إن) برابطٍ لفظيّ ، منحها استقلالاً

وأكاد أستشعر في هذا الاستقلال إعرابًا عَنْ أنّ من أحسن عملا لن يضيع الله تَعالَى أجرَه دون أن يكون له ارتباط بأحد من الخلق .

نسبك وحزبك وجماعتك وعشيرتك وناديك (وثُلّتك/ شلّتك) وقومك لا دخل لهم في استقلالك بأن تحوز هذا الأجر العظيم .

الذي له أثر فيه وهو أن تكون ممن أحسن عملا ، فانظر أين أنت.؟

***

وممّا جاء التبيين للمضمون مراعاة لحال منْ سيق البيان لتربيتهم سوقًا أصليا لما هم من شأنهم ان يكون منهم ما يكون النبأ به قول الله ﷻ في شأن أصحاب الجنة : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)(القلم:٣٠-٣٢)

قوله تعالى (قَالُوا يا ويْلنا....) تفسيرٌ لقوله (يتلاوَمُون) فهو مجمل في مضمونه لا يدرى حقيقة ما تلاموا به إلا حدسًا، ولو أنَّ القرآن اكتفى بقوله (يتلاومون) ولم يأتِ بقولِه (قَالُوا يَاوَيْلَنا...) لكان هذا صالحًا لفئةٍ من السَّامعين ، ولكنَّه لمَّا كان البيانُ مسوقًا سوقًا أصْليًا لتربيةِ من يكون من شأنِه أنْ يكونَ منه مَا كان مِن أصحابِ الجنَّةِ ، وأولئك لِصلادةِ قلوبهم لا يفقهون البيانَ المُجملَ فقلوبُهم تعجزُ عنْ أن تلجَ هذا البيانَ المُجملَ ،وأنْ تتداحَ فيه، فتبصرُ مكنونَه فكانوا بحاجةٍ إلى من ينثرُ لهم هذا المكنونَ، جاء البيانُ مراعيًا حالهم ، جاءَ من بعد الإجمالِ ببيانِهِ لعلَّهم يتأدَّبون، فلا يعمدُون إلى حرمانِ ذِي حاجةٍ ما كانوا قادرين على العَطاءِ.

لذا جاءَ الإجمالُ ، فأقامَهم مقامًا يكشفُ لهم منزلَهم في العجزِ عَن الاستغناءِ عَن التَّفسيرِ والتَّبيين ، ويكشفُ لهم أنَّهم لم يُهملوا، بل قضيَت حوائجُهم، فهل لهُمْ أن يتأدَّبوا بهذا ، فلا يمنعُوا ذا حاجةٍ عمَّا احتاج إليه، وهم عليه قادرون، كما أنَّهم لم يُحرموا من التبيين حين كانوا في عوزٍ إليْهِ ؟

المقام أيضًا مقتضٍ فيضًا من الإيضاحِ ليكون من هذا الإيضاحِ ما يملأ كل قلبٍ معافًى بفداحة هذا العَملِ الَّذي أقدم عليْه أصحابُ الجنة ، وهذا المعنى إذا استحضرَه العبدُ عند حلول نعمةٍ من نعمِ الله تعالى عليه يبادرُ إلى شكر الله تعالى عليها بلسان حاله . يُبادرُ إلى أن يكونَ لإخوانه من هذه النعمة نصيبٌ، فالله تعالى ما اختصَّه بها ليكنزَ ها ويجعلها في نفسِه وولده فحسبُ ، إنَّما هي له ولإخوانِه إلاَّ أنّه ﷻ ابتلاه بذلك (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) ، ما جعل الله ﷻ إنزالها إليه هو أنْ يحوزَ ها ، ويحرمَ الآخرين منها ، بل ليكونَ له شرفُ المناولة والبذلِ ممَّا تفضَّل الله تعالى به عليه ، فإنما أنا موكل في ما يدي من نعم الله ﷻ عنه أطعم منها ،واطعم عباده، وإن كان لي فضل الابتداء أي أن أطعم أولاً كفايتي ثم أُطعم الآخرين كفايتهم ، ذلك ما يُحول الصديقون تسنم مدارج الطاعة ليرتقوا إليْه ، فمنهم من حازَ شرف والمحاولةِ نولم يصل ،ومنهم من حازَ شرف السعي والوصول معًا. لو أنَّ كلَّ ذي نعمةٍ أدرك أنّه ما جعله الله ﷻ ذا نعمة إلا لتكون يده العليا لعلم عظيم فضل الله عليه وعظيم ابتلاء الله عضز له، فما عليْهالاان يقوم بشكر مَن فضله ﷻ ، وشكر ذلك بأن يحقق علو يده فيها، يجعلها اليد التي لا تمتدّ إلا لله وحده ، وتمتّد بنعمة الله تعالى إلى الآخرين، فإن لم يفعل لم يكن له إلا ما كان لأصحاب الجنة.

وهنا يحسن أن نتلبث يسيرًا عند ورود هذه القصة عقبَ ما استفتحت به السُّورةُ من قصة المفتونين بالرِّسالة وما كان من تكذيبهم ، وكفرانهم بهذه النِّعمَة. (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ...) في صدرة السّورةَ حديثٌ عن أصحاب جنة الدعوة الإسلامية . خصّص الله ﷻ العربَ عامة ، وأهلَ مكة خاصَّة بهذه النعمة الأجلّ ، فلم يكونوا الشّاكرين لها . كفروا بها ، فكان بلاؤهم كمثلِ بلاء أصحاب الجنّة بالجنة .

وهي أيضًا تلتفتُ إلى ما في آخر سورة "الملك": (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) (الملك" ٢٩- ٣٠)

وفوقَ هذا لمّا ذكر في فاتحتها عقبى من اغترّ بالمال والأولاد واعتزّ بهما قرن إليه حالَ أصحاب الجنة، واغترارهم بما معهم ، فكانت عقبى كلٍّ سواء.

وهنا يحسن أن تستحضر سني يوسف التي دعا عليهم بها سيّدنا رسول الله ﷺ وما كان من القحط الذي أحاط بأصحاب الجنة.

***

ومن هذا قول الله ﷻ : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ** بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء: ٩٥-٩٦)

في هذه الآية يكشفُ الله ﷻ عن قيمة عليا هي قيمة العدلِ الّتي هي والرحمة القيمة العليا في الإسلام، وهما : العدل والرّحمة في الوقتِ نفسِه عمودُ المعنى القرآني في سُورة" النّساء"التي جاءت هذه الآية في سياقِها.

سورة النّساء جاءت لبيان منهج بناءِ الأسرةِ المُسلمةِ ، والمُجتمعِ المسلمِ على العدلِ والرّحمة، ولذا اختصت ببيان أحكام الميراث،على نحو جدّ صريح ومحكم ومحيط و"الميراثُ"هو الّذي شاع فيه الظّلم والقسوة في المجتمع الإنسانيّ قديمًا وحديثًا. ولذا كان سياقُ القول في هذه السّورة سياق تقريرِ العدل والرّحمة ، وتقوية أواصر الرّحم بين العباد ، ومن عجب أنّها تعادل في ترتيبها سورة (المسد) فهي الرّابعة في مفتتح القرآن، وسورة (المسد) الرّابعة في مختتمه فبيْنهما تقابلٌ بالغ، وسورة (المسد) تصوّر لنا أسوءَ نموذجٍ في قطع الرّحم، فليس أحدٌ كمثل أبي لهب في قطعِ رحمه وأيِّ رَحِمٍ ؟!!! إنّها رحم رسول الله ﷺ ، ولذا كان جزاؤه (التبّ : القطع)

يستهل الله ﷻ البيان بهذا الحكم (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) مضمنا مقتضياتِ هذا الحكم، أعرب عن الطرفين بما يوجبُ لكلّ ما حكم له به.(الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) (وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

في الإعرابِ عن الفريق الأول بأنهم القاعدون ، لفت إلى تركهم المحاولة، وأنهم لم يكونوا من عجز، ولذا قال (غيرِ أولى الضرر) فأخرج من قعد لعذر ،كما يقضي به منطقُ العدل. وليس أبعد عن الفضل ممن يقعد عن قدرةٍ

ويأتي قوله (فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً) بيانًا لقوله(لا يستوي...) ولذا فصل عنه ،والتفضيل هنا بدرجةٍ واحدةٍ

يقول أبو جعفر الطبري:" يعني بقوله جل ثناؤه : " فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة"، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، على القاعدين من أولي الضرر، درجة واحدة ، يعني : فضيلة واحدة ،وذلك بفضل جهاده بنفسه، فأمّا فيما سِوَى ذلك، فهما مستويان..."

وبرغم تفضيله المجاهدين إلاّ أنّه لم يحرمِ القاعدين لعذر، ولذا قال(وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).

وعطف عليه قوله (فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فجعله من قبيل تبيين عدم التساوي، وهذا التفضيل الثاني بين المجاهدين والقاعدين من غير عذر. ففي هذه الآيات ما يحفزُ على أن يسلك المسلم سبيل الجهاد في سبيل الله تعالى بنفسه أو ماله أو لسانه، فلا يدعُ ضربًا من هذه الثلاثة إلا وله منه نصيب إلا ما عجز عنه.

* * *

ومما كانت الثانية مُبيّنة مضمونَ الأولى والمقام يقتضي مزيدًا من البيان كيما يُقيم النّفس مقامًا تقطعُ فيه الأعذار، وتتضح السُبُل لما في الأمرِ المُعرب عنه من عظيم الخطر قولُ الله ﷻ: (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) (الأعراف:٨٠-٨٢)

قوله ﷻ : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) بيانٌ لمضمون قوله تعالى (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) وكان يُمكن في غيرِ القرآن أن يقال: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ، ولكنَّ البيانَ القرآنيّ استفتح بجملة تحملُ تهويلاً لما كان منهم في أسلوبِ استفهامٍ إنكاريٍّ توبيخيٍّ تسفيهيّ، يصوّرُ لنا عظيمَ ما سقطوا فيه من الضّلالةِ والسَّفاهةِ. فقال : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) وفي الإعراب عنها بـ(الفاحشة) ما يصور لك عظيمِ خطرها، وأنّها ممّا تنفرُ الفطرة منها نفرة بالغة، فلو ترك النفس على فطرها، وإن لم يأتِ نبأ من الله تعالى عن تجريمها لما كانت بالتي تقدم على هذا. آية ذلك أنّك لا تجد في الأنعام ونحوها من يقترف تلك الفاحشة، ولو كان الإقدام إليها بدافعِ غرزي لسدّ حاجةٍ جسديّة لكانتْ الأنعام ونحوها أفعل لها، ولكنّها لم تفعل ، فدلّ على أنّها خلاف الفطرة الإنسانيّة والغريزة الحيوانية، فمنْ يأتِها فقد تجاوزَ الفطرة الإنسانية، والغريزةَ الحيوانية، كذلك يفهمنا الإعراب عنها بـ(الفاحشة)

وكان في قوله ﷻ : (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) ما يصوّرُ لنا أنّهم لم يكن لهم سلف في هذا ، فمن أين أقدموا عليها، وليس في الفطرة أو الغريزة ما يحملُ عليها، فهُم أئمة لكلّ مَن تردّي في تلك الفاحشةِ، فعليهم وزرُ مَن اقترفها إلى يومِ القيامةِ، وهذا يجعلُ التّطلّع إلى العرفانِ بهذه الفاحشة جدّ عظيم فيأتي قوله ﷻ : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) تبيينًا وتفصيلا لهذه الفاحشة المبيرة. وتصوّر في الوقت نفسه فسادَ طبعِهم ، فقد تركوا الحلالَ الطّيبَ الأطهرَ الأمتعَ الذي يتلاءم مع الفطرة السّويةِ ، وأعرضُوا عنه إلى ما تنفرُ منه كلُّ نفسٍ سويّة ، وهذا الّذي اقترفوه لا يقعُ مِن الأنعامِ والبهائمِ ، ولذا قرّر أنّه ما سبقهم بها مِن أحدٍ مِن العالمين بهذا القطعِ وبهذا العمومِ المُطلقِ ، فهذا مِن العام الذي لا يلحقه التّخصيصُ.

وقوله : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ) أيفهم أنّهم لا يقترفون هذه الفاحشة مع نسائهم بل يتجاوزون هذا وهو منكرٌ في شأنهم مع النساء فكيْف به مع الرّجال؟!!!

وفي الإعراب عن المفعول به بـ(الرجال) من تصوير عظيم قبح ما اقترفوا، فكلمة (الرِّجال) توحي بأنهم قد بلغوا مبلغًا مِن العمرِ ممَّا يجعل النفرة عنهم أشدّ، ولو قيل (من الغلمان) لقيل- لمن أراد أن يجادل بالباطل إن المُرد أقرب إلى النساء، فسد البيان عليهم كل طريق، وفي سورة الشعراء:(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) (١٦٥-١٦٦) فكان البيان بـ(الذكران) أشمل من الإعراب بـ(الرِّجال)

وفي الإعراب بكلمة (الرِّجال) تعريضٌ بالغ بالمفعول به، إنّ منطق الرّجولة واستحقاقاتها تأبى عليهم كلَّ الإباء أن يقيموا أنفسَهم مقامَ النِّساء ، وكلُّ هذا يدلُّ على أنّهم فاعلين ومفعولاً بهم غيرُ صالحين للحياةِ وللبقاء ، فليس من سبيلٍ إلا إلى فنائهم ،وإبادتهم.

وقد كان من عقاب الله سُبْحانَه وَتَعَالَى لهم أن قلب عليهم الأرض فأهلكهم (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) (الحجر:٧٣-٧٧) (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) (النجم: ٥٣-٥٤) والإعراب بقوله (المؤتفكة) إبانة عن أن جزاءهم من جنس عملهم ، كان عملهم قلبًا للفطرة وانتكاسة لها، فقلبت بهم الأرضُ . ولذا كان من أهل العلم من يرى أن من يقترف هذه الفاحشة جزاؤه أن يعاقب بمثل ما عوقب أولئك.

****

ومن هذا الذي اقتضى كمال الاتصال تبيئنًا بين المعاني ترك العطف بـ"الواو" ما في قول الله ﷻ :(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } (النّحل :٣٨)

من المدهش أنهم يقسموا بالله على اتهامهم له بالجور . إن عدم البعث والحساب والفصل بين الخلائق ،ومجازاة كلّ على ما عمل إنما هو الجور كله، كيف يترك المحسن لا يُثاب على إحسانه،وقد يكون في الدنيا مقترًا عليه من متاعها ،وكيف يترك الظالم دون أن ينال على ظلمه عقابا، وبيْن أعيننا كثيرٌ من الظلمة ماتوا وهم في رغد من الحياة الدنيا أكان ظلمهم هذا مما يرضاه الله تَعَالَى جَدُّهُ، فلا يبعثهم ليقابهم عليه.

إنه الحمق ،وإنه الفجور في الادعاء: يقسمون بالله على جوره . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .

جاءت جملة: (لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) مفصولة عَن جُملة (أقسموا...) لأنَّها بِمنزلةِ عَطْفِ بَيَانٍ لها.

وفي هذا مزيدُ بيان لافترائهم على الله ﷻ واعتمادِهم على عقُولهم الضّالة ومعارفهم الخداج في القطع بما هُو غيبٌ أقيمت شواهدُ تحققّه في آياتِ الكونِ ، وفي منطقِ العقل الفطريّ ، ولكنّهم لم يعتدّوا بذلك ، واعتدّوا بما تعارفُوا عليه وما ورثُوه من أضاليل آبائهم الأقربين ، وكان أولَى بهم أن يأخذوا بعلم أبيهم إبراهيم عليْهِ السلام

إنْ كانوا صادِقِين في زَعمهم أنّهم على آثار آبائهم. (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزُّخرف:٢٣)

وأولَى الآباءِ بالاقتداءِ والاهتداء أبوهم ابراهيم عليْه الصلاةُ والسّلامُ .ولو أنّهم كانوا أسمعَ لمنطقِ العقلِ الفطريّ ونَظَروا فيما هم فيه قائمون لوجدوا أنّ غيرَ قليلٍ مِن العبادِ عاشُوا تحتَ وطأةِ الظُّلمِ الماحق، وماتوا ، وما انتصفوا من ظالميهم، ،وأنَّ كثيرًا من العُتاة والبغاة ماتوا ، ولم يُنتصفُ منهم، أمثل هذا لا يهدِي إلى أنّ الإنصافَ لا بدَّ أن يتحقق، وأن الّذي خلق المظلومَ والظّالمَ سينتصِفُ وسيُقِيم العدلَ بيْنهما. وإلاّ كان سُبحانه وتَعالَى ظالمًا ، وهُم الذين أقامُوا فيما بيْنهم ما سُمي بـ"حلف الفضول" الذي ينتصفون فيه لكلّ مظلوم، أيجعلون أنفسَهم أكثرَ عدلاً مِن خالقهم؟!!!!

قد تجاوزوا بهذا مستوى الإشراك إلى مستَوى تفضِيل أنفسِهم على خالقهمْ سُبحانه وتَعالَى ، وتِلكَ هي المَعرّةُ المَقِيتةُ.

***

ومن هذا الباب قولُ الله تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ } (النّحل : ٦٦)

جاءت هذه الآيةُ في سورةٍ معقودة لتَقرير وحدانية الله سُبْحانَه وبَحمْدِه وتقرير كمال علمه وقدرته، ببسط بيان آياتِه الكونية، فكان في الامتنان بذكرِها وفي التّذكير بها سبيلٌ إلى الاستدلالِ على ما كانت له السّورةُ جمعاء.

المقامُ مقامُ امتنانٍ بجليلِ النّعم للحملِ إلى سلوكِ طريقِ الهدَى، وكان قوله تعالى: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً) يحمل امتناناً بالغًا هدى إليْه نظم الجملة القرآنية على ما لا يَخفى عليْك من العدول عن الأصل:" إنّ عبرةً في الإنعام لكم" وكان هذا الامتنان مجملاً يقتضِي المقام وتحقيقُ القصد منه أن تُبين كيفيةِ هذه العبرة ، فيأتي قوله تَعالَى: { نُّسْقِيكُم... } بيانًا لقوله تَعالَى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } وفي نظم (نسقيكم) من الامتنان ما يحمل إلى مزيدٍ من التدبرِ المفضِي إلى فيضٍ من اليقين لعظيم المنة، فإسناد الفعل إلى نون العظمة عَلى قراءةٍ [1] هادٍ إلى أنَّ التجلِّي كان تجليًا عظيمًا ،ولم يقل : تشربون مما في بطونه ..

والإعراب بـ"عبرة" هادٍ إلى أنّ من أنعم عليْه بها ، فتبصَّرها، ولم يَشغل الاستمتاعُ بها عَن المنعم بها وما له من حق على من المنعَم عليه كانت له هذه النعمة عبرة معبرًا إلى ما هو أجلّ وأكرم .

ولمَّا كانتْ هذه العبرة كالملازمة لهم، كان حريًّا بهم أن يتفكّروا في أمرِها ، ويستفهِمُوا عَن تحوّل مطعومِ الأنعامِ إلَى مطعومِهم، مَع ما بيْنهما فِي المبدإِ والمآلِ مِن فرق وسيعٍ ، ولذا أبرزَ العبرةَ بقوله:(مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ فاستخراجُ هذا الشرابَ الخالص السّائغ من بيْن الفرث والدمَ أمرٌ لا قِبل لأحدٍ مِن الخلق بصنعِه. فلا بدّ أن يكون فاعله هو الإله الأحد .

---

[1] ينظر:المبسوط في القراءات العشر،لأبي بكر النيسابوري: أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوري(ت: ٣٨١هـ)تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق، عام: ١٩٨١ م. ص: ٢٢٥

لمّا كانت سورةُ النّحل هي سورةُ الاستدلال بالنّعم على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته جاء التفصيل بقوله تعالى:(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ) بيْنا سورةُ المؤمنون قد جاء الأمر على نسق آخر يقول الله تعالى: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (المؤمنون:٢١) لم يستفصِل العبرة في هذا، فسورةُ المؤمنون وإن أقيمت لتقريرِ أمر الوحدانيّة في قلوب النّاس لم يكن ذلك عن طريق الاستدلال بالآلاء والنّعم كما في سورة (النّحل) بل بسبل أُخر منها هذا الامتنان ، فهو فيها ليس السبيل الرئيس كما في سُورة" النحل"

***

ومن هذا الباب قول الله تعالى : (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ) (المؤمنون:٣٦)

لما كان : (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا) متضمنًا إجمالاً لما كان من استهزائهم ، والمقام يقتضِي تفصيل ذلك لتبيين ما هم عليْه من السُوء ، ولما عليْه الدّعوة من القوة ممّا دفعهم إلى المجاهرة بالإساءةِ كان قوله تعالى : (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) بيانًا لقوله ﷺ : (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا) ومن ثم فصلت عنها.فهو من قبيل بيان ما وقع به الاستهزاء وكيفيته .

وفي جعل استهزائهم به وقت رؤيته إبلاغٌ في إيذائه ، فهم يكافحونه بهذا الاستهزاءِ ، وهو دالٌ على عظيمِ تمكّن الكفران في قلوبهم ، وتمكّن حنقهم عليْه ، وعلى سعيهم البالغ إلى شيْءٍ مِن تفريج ما يعتملُ فِي صُدورهم من هذا الحنَق، فشأنٌ من أخذَ الغيظُ والحنقُ بخناقِه مِن أحدٍ أن يجتهدَ في مكافحته بالإساءةِ إليْه.

الاستهزاء هو سلاحُ الضعفاء المقهورون، للنيل ممن عجزوا عن مقاومته ،فلم يجدوا إلا سبيل الاستهزاء واللمز، ومن كان له قدم في مقام الرُّجولة يفرمن هذا السبيل.

كلُّ منْ استهزأ بغيره أو استكبرَ عليْه إنّما هو يستشعرُ في قرارةِ نفسه أن هذا الآخر الذي يهزأ به ويتكبرُ عليْهِ أعلى وأفضل، فهو يحاولُ أن ينالَ منه باستهزائه ، واسْتكباره عليْه مخافة أنْ يظهرَ عليْه ، فهُو يعلنُ من غير أن يشعرَ عن عجزِه عن أن يقاومه بفضيلة تساميه، فلا يجد سبيلا إلا سبيل الاستهزاء والاستكبار، وفي هذا من فضحه نفسَه ما لو أدرك لا سارع إلى أن يطرح هذا الاستهزاء والاستكبارِ الفَضِيحةِ :

وفي هذا تصويرٌ لما هم عليْه من الخور أمام قوته، وتصويرٌ لِما يعتلجُ في صُدورهم ، وأنّهم لم يقفوا عند حدّ الإعراضِ عما جاءهم بِه من الهدَى، بل بالغُوا في إيذائه، ومكافحتِه بالسّوء. وهذا لا يكونُ إلا من شعورهم الدفين بقوة دعوته ، وفتوة عزيمته في التبليغ

وفي هذا من الهدَى للدُّعاة إلى الله سُبْحانه وَتَعالَى ما فيه:

فيه أنّه إذا ما اشتدّتْ عليْهم هجمة أحفادِ أبي لهبِ ، فهذا آيةٌ على أنَّ منهجَهم في الدَّعوةَ آخذٌ بخناقِهم ، وأنَّهم يجاهدون في التّنفيسِ عمّا يموجُ في صدورهم مِن الحنقِ والغيظِ والشّعور بالتّهاوي أمامَ طرقاتِ الحق على رأس باطلِهم. فلا يكن هذا معيقًا للدّاعية بل الأولى والأعلى أن يكونَ ذلك التهجّم حافزًا على المَصابرة والمثابرة .

وهذا ما يجبُ أن يَتَّقِفَ به أهلُ الحقّ نُفوسَهم، كيما لا يُعيقَ استهزاءُ أهلِ الباطل بِهم حركتَهم إلى غايتِهم النّبيلةِ الماجدةِ : إخراجِ النّاسِ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ. وفي رأسِ المَعنى القرآنيّ في سُورة الاصطفاءِ (آل عمران) يقولُ الله ﷻ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:٢٠٠)

***

ومن كمال الاتصال بين المعاني لتبيين بعضشها بعضًا قول الله ﷻ : (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ).(غافر : ٤١ -٤٣)

هذه الآيات من حديث مُؤمن آل فرعون (وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه...)(غافر: ٢٨) وفي المناداة عليه بهذه الصّفة { من آل فرعون } دلالةٌ على أنّه لم يكن من بني إسرائيل ، بل من القبط ، وهذا يؤكّد أنَّ مِن القبطِ مَن آمن بموسى عليْهِ السّلامُ ، وعلى رأسهم أمراة فرعون .

وهذا يهدي إلى أنَّ العصبيةَ القبليّةَ والوطنيّةَ والقوميَةَ في وجه الحقِّ مِن أنكدِ ما يكون ، إنَّ الحقَّ أحقُّ أن يُتّبعَ من أيٍّ كان وإن لم يكن من قومك ووطنك.

وفي قولِه (من آل فرعون) - أيضًا - دعوة إلى كلّ عاقلٍ ألا يكون أمّعة ، وألا يخشى في الله تعالى لومَة لائم ، وأن يجهر بالحقِّ أيًّا كانتْ العقبى وإن الالتزام الوطنيّ أَوْ القوميّ أو القبليّ أو الحزبيّ... في وجه الحقّ لا يُقدم عليْه عَاقلٌ ، لأنَّ الحقَّ فوقَ الوطَنِ والقوم والحزبِ والجماعةِ والائتلافاتِ السياسية وغيرها ممّا تموجُ به البلاد ، وتغرق في مسْتنقعِه العبادُ .

وفي تأخيرِ قولِه ﷻ : { يكتُمُ إيمانَه } عن قوله { مِن آلِ فِرعَون } لأنَّ المعنى على بيان قومه، وأنّه مِن آلِ فرعون لا من بني إسرائيل، وليس المعنى على أنّه يكتُم إيمانَه من آل فرعون وحدَهم ، فهو يكتمُه من كلّ من حولِه.

وقوله تعالى: { يا قوم ما لي أدعوكم... } معطوف على قوله : { ياقوم اتبعوني} فكأنّه قيل وقال الّذي آمن يا قوم مالي أدعوكم ... } وذلك كلّه معطوفٌ على { أتقتلون رجلاً... } (ي:٢٨)

قوله : { أدعوكم إلى النّجاة} بينه قولُه: { أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ } وقوله: { تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } بيّنه قوله: { تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ }

تأمل الاعراب بقوله{إلى النجاةِ} وتبيينه بقوله { إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ } جعل النجاة كل النجاة ان تكون إلى العزيز الغفار، وقد اصطفي اسمين من أسماء الله تعالى (العزيز) دالّ على جلال الإلهية، و(الغفار) دالاً على جمال الرّبوبية، وفي الإعراب باسم الله (العزيز) لفت إلى أنّ من كان إليه كان له من العزة التي لا تغالب. {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً } (النّساء:١٣٩) {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يونس:٦٥) { من كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ... } (فاطر:١٠) {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (المنافقون:٨)

وهذا البيان لو أستحضره كلُّ مسلمٍ لما طلبَ العزة من غيرِ الله سُبْحانَه وبحمدِه ، ولما كنا بحاجةٍ البتَّةَ إلى استجداء أحدٍ في مَشرقٍ أو مَغربٍ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يفقهون.

تأمّل تبيينَه دعوتَهم وتفصيله القول فيها ، فأقامَه على أمرين: الكفر بالله تعالى ، وإشراك غيره معه ، وكنّى عن غير الله ﷻ بقوله : {مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} وهذا يعني أنَّ المرءَ لا يُقدِمُ على أمرٍ لاعِلمَ له بِهِ، فليكنْ جميعُ أمرِك إقبالا وإدبارًا مؤسسًا على عِلمٍ ويقين. واحذرْ أن تكون إمّعة . إن أحسن الناسُ أحسنْتَ بغير علم ، وإن أساءوا أسأت بغير علم، فيكون المقلدُ أشبهَ بالأنعام تجري حيثُ يَجري قائدها. فحينًا تقادُ إلى المرعى فتسلك ، وحينًا تقادُ إلى المجزرِ فتقدم أيضًا.

وهذا التبيينُ يحملُ فيه تقريرًا للمعنَى المُبيَّن، فيزدادُ تمكنًا في القلبِ، ورسُوخًا فيتأتّى له أن ينداح فيه ، وأنْ يملأه ، فيفعل فيه ، وأن يبعثَه إلى إبصارِ الحق والإيمانِ به ونصرتِه. فليس مهمًا فحسْب أن تعرفَ الحَقَ ، ولا أن تؤمنَ بِهِ أيْضا ، بل لا بدَّ أن تَجمع إلى المعرفة به والإيمانَ به نصرتَه.

***

وممّا اجتمع فيه كمال الاتصال بين المعاني توكيدًا وتبيينًا قول الله ﷻ : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السّجدة:١٨-٢٠)

يَنْزِل قولُه:« لَا يَسْتَوُونَ» منزلة المؤكِّد لِما قبلَهُ ، ففصل عنه لكمال الاتّصال بينهما ، ونزل قوله «أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...» منزلة المبيِّن لما قبله ، فاجتمع الضَّربان : الاتصال توكيدًا وتبيينًا.

الطَّاهرُ ابن عاشور يذهبُ إلى أنَّ قوله تعالى : «لا يستوون» عطفُ بيان لما في معنى همزة الاستفهام يقُول:" جُمْلَةُ «لَا يَسْتَوُونَ» عَطْفُ بَيَانٍ لِلْمَقْصُودِ مِنَ الِاسْتِفْهَامِ:(أهـ) "

الذَّهابُ إلى القول بعطفِ البيانِ حين يكونُ ما قبله ممَّا يُفتقرُ إلى تَبْيينه ، والمَعنى في همزةِ الاستفهام فِي هذا السِّياقِ مَعَ دَلالة «مَنْ كانَ مُؤمِنًا» و «مَنْ كانَ فاسقًا» تكادُ تنطقُ بالمَعنَى فِي سَمْعِ كلِّ من يعرفُ العربيةَ وقلبِه. فجلالُ المَعنى وعظيمُ أهميتِه المَرْءُ أحوجُ إلى تقريرِه في قلبِه مِنْه إلَى تبيينِه.

والأمرُ قريبٌ من قريبٍ، ففي كلّ عطفِ بيانٍ توكيدٌ لمَا بيّنه، ذلك أنّ التبيين هو كالإعادة لما بين على وجه الإيضاحِ والتجلية ، فكأنّه كررّ مرتين في السّمعِ والقلبِ، إلاّ أنّ عطف البيان يكونُ فِيه التّبْيينَ هو المسوقُ إليْه البيانُ قصدًا، فالفرقُ بيْن قوله هنا بعطفِ البيانِ والقولِ بأنّه توكيدٌ هُو فرْقٌ في الإعرابِ عمّا هُو القصدُ الرّئيسُ إليه ، أهو تقريرُ المعنى في القلبِ أم تبيينه ، وكذلك الإعرابُ عَمّا المعنى هو الأحوجُ إليْه : أيحتاجُ المعنى إلى توطينِه أولاً ، وحاجتُه إلى مزيدِ الإيضاحِ تالٍ لذلك أم حاجة المعنى إلى تَبْيينه وإيضاحِه هو المقدّمُ .

فنحن إزاء أمرين : حاجةِ المتكلّم ، وحاجةِ المعنى ، ثم تأتي من بعدُ حاجة السّامع. وكلُّ مُبين بحاجةٍ إلى الوَفاءِ بحقّ ثلاثة : مقصدُه من الإبانةِ ، وحاجةُ المعنى، وحاجة السّامع. هذه الثلاثة إذا ما كان المتكلم فريضة عليْه الوفاءُ بحقّها، فإنّ المُتلقّي فريضة عليْه أن يتبصّر مقدار تحقيقِ المُتكلّم لِما كُلّف بِه ، ومنهاجُه في تحقيقِ ذلك ، وأدواتِه الّتي حقّق بها ذلك.

وهذا أمرٌ عند أهلِ العلم ممّا لا يرغبُ عنه وليس مهمًا فحسبُ أن تعرفَ معنى الكلام ، بل مُهمّ معه أن تعرفَ مستوى قصدِ المُتكلّم إلى هذا المعنى أهو قصد رئيس أم تابعٌ متولّدٌ منه ، وأنْ تعرفَ ما الّذي إليه المَعنى والسّامعُ أحوجُ ، فمثلُ هذه من أصولِ منهجِ التّلقّي والإعراب عن ثمارِ هذا التّلقي ، وهذا مهمّ أن يَعتني به أهلُ العلمِ وطلبته .

في سياقِ سورة "الم تَنْزِيل السّجدة" جاءتْ هذهِ الآياتُ فاصلةً بين نقيضين مسيرًا ومصِيرًا، وسورةُ "السّجدة" سورةٌ عقدت لتقرير كمال الكتاب في تقريرِ الحق والخير، تقريرًا يحمل أولي الألباب إلى كمال الخضوع له سُبْحانَه وَتَعَالَى ،المتمثّل في السّجودِ له ، ولذا استهلّت السّورة بتقرير كمال القرآن في ذلك (بسم الله الرحمن الرحيم . الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن ربّك) (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

في هذا السّياق جاءت هذه الآية تعلن المفاصلةَ التّامة بين فريقين: مَسيرًا ومَصيرًا (من كان مؤمنًا) و(مَنْ كانَ فاسِقًا) استهلّ ﷺ بيانَه بالهمزة الحاملة فيضًا من الإنكار : إنكار تحقق ما دخلت عليه : استواء من كان مؤمنا ومن كان فاسِقا ، وفي الإعراب عن الأوّلِ بقوله: «مؤمِنًا» وعن الآخر «فاسِقًا» هادٍ إلى ما تضمنته "الهمزة" فهذان وصفان لا يستويان ، أفيستوي من حلّ فيه الإيمانُ وتوطنه وهداه إلى رضوان ربه ﷻ ومن حلّ فيه الفِسق وتمكن منه فزخّه في قفاه إلى غضبِ الله ﷻ ؟ : الإيمانُ دخولٌ في فُسطاطِ الحق والخير(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن ربّك) وثبات فيه وقرار، والفسق خروج من هذا الفسطاطِ خروجًا لا عدوة إليْه فيه البتة، كمثل ما تفسق التمرة عن قشرتها، وجنين الطير عن البيْضة... ومن ثم يفهم من قوله:« فاسِقًا» أنّه الكافر، والتّعبير بالفسق دون الكفر، كما هو مقتضى الظاهر لفتٌ إلى أنّهُ تجاوزَ مرحلةَ كُفرِ الحَقِّ وستره إلى مرحلة الفسوقِ :المفارقة التّامة، واستحالة التّحول فيه ، فكأنّ هذا فيه التفاتٌ إلى قولِه: (إِنَّ الَّذِين

كفرُوا سواء عليهِمْ أَأنْذرتهم امْ لَمْ تنذرهم. لا يؤمنون) (البقرة:٥) والعلاقة بَيْن فاتحة سورة البقرة ، وسُورة (الم السجدة) ظاهرة، وفيه الفتاتٌ إلى سورة (الكافرون)

أعان على هذا التَّأويل قوله (كان فاسقًا) فكلمة «كان» يُفهم منه أنّ ذلك الفِسق كان فعلا استحال جبلة وسَجية، يمارِسُه ممارستَه كلَّ ما هو عادة وجبلة وطبيعة. يُمارِسُه كما يُمارِسُ تنفسه لا يكادُ يتوقف عنْه ، استحالتْ كينونتُهُ فسقًا ، باتَ الفسقُ أمرًا متجذرًا متمكنًا فيه، وهذا بعض دلالة اصطفاء الإعراب بفعل الكينونة «كان». حين تجرَّد من القصد إلى دلالتها على مضي زمان الفعل . أنت إذا قلتَ: "كان محمدٌ مقيمًا عندنا" .فـ"كان" دالَّةٌ على وقوعِ الإقامةِ عندكُم في زمنٍ مضي، أمَّا إذا قلت: "كان محمدٌ كريمًا" فهذا دالٌ علَى أنَّ كرمَه استحال من كونِه فعلاً اصطنعه واعتد اصطناعَه إلى كونِه جبلَّةً ، وكيْنُونَةً.. وهذا يُعينك علَى حُسن فقه كثيرٍ ممَّا جاء فيه الفعل «كان» في بيانِ الوحي قرآنًا وسنة، وممَّا يحملُ السِّياقُ والقصدُ إلى الرَّغبة عَن الدَّلالة على مضيِّ زمن وقوعِ المُخبرِ به.

و"الفاء" ففي قولِه: «أفَمنْ كان» دالَّة على تفرّع ما بعدها ممّا سبق من بيانِ موعود الله ﷻ المؤمنين، وإيعادِه الكافرين: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة ١١- ١٧)

و"فاءُ التفريع" أداةٌ مُعربةٌ عَن مُستوَى من مُستوياتِ أنساب المَعاني، وفي تسميةِ أهلِ العلمِ لهَا بـ" فاء التفريع" أعلامٌ لنا بأنَّ المعاني من صور علاقاتها ما يكون كالعلاقةِ بيْن أصلِ الشَّجرةِ وساقها ثمّ فروعها وأغصانها ،وأوراقها ، وأزهارِها ، وثمارها ، وهذا من جليل ما ساقها إلينا أهل العلم في بيان "أنساب المعاني" في البيان العالي البديع الكلمة الإنسان ، وفي البيان العليّ المعجز بيان الوحي قُرآنًا وسُنَّةً

تفريعُ المعاني مدٌّ لأطنابها، وبسط لفسطاطها، ليكون المعنى رفيعَ العِماد رحيبَ النَّاد. وهذا إنّما يرادُ به أن يضرب المعنى بجرانه في القلبِ وأن ينوء بكلكلِه، فلا سبيلَ إلى أن يفلتَ القلبُ من فعلِه فيه تهذيبًا وتزكيةً ،وتذكيةً ، فإذا بالقلبِ أميرًا مطاعًا طاعةَ الحبيب لحبيبِه لا يأمره إلاَّ بمعروف ، ولا ينهاه إلاَّ عَن منكر. كذلك يفعل تفريع المعاني في القلوبِ، فتبصَّر هذه "الفاء" وافتحْ لها أبواب قلبك، فلن تجدَ منها ولا سيّما في بيان الوحي إلاَّ ما يملأُ القلبَ نورًا.

فإذا ما جاء قولُه(لا يَسْتَوون) كان هذا مؤكدًا ما حملته "الهمزة" من إنكار الاستواء، وجاء نفي الاستواء أولاً بالهمزة، وهو أقوى أثرًا في تقرير انتفاء الاستواءِ بينهما ،على ما عهده النَّاشئة في طلب علْمِ البلاغة العربيِّ من فضِيلة النَّفي بسبيل همزة الإنكارِ، ففي هذا السَّبيل يُقيمُ صانع همزة الإنكارِ السَّامع في مشد الحوار ، مشهدِ

الحضور الباحثِ عن المعاني ومقامها في الأساليب وفي القلوب، فإذا "الهمزةُ" تحملك على صَهوتها إلى اليقينِ الحَصينِ بالنَّفي لما أريد نفيه بلْ أنت الَّذي بلغت إلى هذا اليقين محمولا على صَهوتِها، وفوق هذا ما سُكبَ في هذا النَّفي من معنى الإنكارِ ، فما أنت بالطاعمِه نفيًا سائغًا، بلْ هُو المَزوج به إنكارٌ ، وتَسفيهٌ ،وتوبيخٌ وغيرُ ذلك ممَّا يصبُّه السِّياق في وعاء" الهمزة" فتجريه نميرًا في قلبك.

يأتي «لا يَستَوون» ليجمع إلى ما أفهم تلويحًا أو لزومًا أو دلالة سياقيَّة ما هو صريحٌ في الدَّلالةَ على النَّفي " لا " فدلالة " لا " على النَّفي دلالة"وضعية" لا سبيلَ إلى أن يتفاوتَ الناس في تَستوى تلَقِّيها ، فضلا عن أن يتفاوتوا في الإقرار بأنَّه الحاملُ إلى الأسماعِ والقلوب نفيًا مديدًا امتدادَ الصَّوتِ بهذه "الألف" الَّتي لا تنقطع تصويتًا إلا إذا انقطع ما في صدرك من هواءِ تَركب متنه . فهذه الكلمة (لا) تَمُدّ النَّفي في السَّمعِ والقلبِ مدًا يجعله غيرَ مغفولٍ عنه، ولا يتأتى أن يُغفَلَ عَنْهُ وتلك عطية إلى تقريرِ نفي التَساوي بين الفريقين ، مضافةٍ إلى ما أسدته همزة "الإنكار" في هذا السَّياق. جلالُ المعنى، وأهميَّته للمخاطبين اقتضَى هذا الإبلاغَ في نفي التَّساوين بين الفريقين ، كيما لا يحوم حول حمي أيِّ قلبٍ أو عقل أنَّه يُمكن يومًا أن يكون هنالك ايّ مقاربة بيْن من كان مؤمنًا، ومن كان فاسقًا لا في مَسيرٍ أو مصير.

ثمّ يأتيك التفصيلُ : (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) شئتُ أن أعيده عليك لعلك تنحيل راحلتك بل وتحط رحلك فيه ،تقيمُ في فسطاطه ، كيما تتخذَ قرارك أن يكون قرارُك في أي الفريقين.

لا يَحسنُ بِك إلاّ أن تقيمَ مُتبصرًا تصوير القرآن حال الذين آمنوا ومصيرهم. ثم تقيمُ متبصرًا حال الذين فَسقُوا وعُقباهم ,لتعرف أين أنت أو تعرف أين يجبُ أن تكون. فذلك أعظمُ سؤال وأجلّه عليك أن تحسن العِرفانَ بجوابه

.

جاء البيانُ عن الفريقينُ باسم الموصُول وصِلته، دون أن يَقُول: "مَنْ كان مُؤمِنًا" "مَن كان فاسقًا"، هنالك فرقٌ وسيع بيْن" كان مؤمنًا" و"كان فاسِقًا" و"آمنوا" "فسقُوا": في الأوَّل: "منْ كان مؤمنًا" ،"مَنْ كان فاسقًا" لفتٌ إلى من صار الإيمان له حليةٌ وجبلّةٌ وسَجيةٌ وطبيعةٌ، ومَن استحال الفِسق فيه صِبغةٌ ممزوجة بكلّ ذرة منْهُ ، هو بيان عمّن تصاعد في إيمانِه وعمله الصالحِ ، ومن تصاعَد في فسقِهِ.

بينا "الَّذِينَ آمَنُوا" "الَّذين فَسَقُوا" لفتٌ إلى من إيمانُه ما يزالُ فعلاً يعرضُ لهما يعرضُ الأفعال من الزِّيادةِ والنَّقصان ، والمحق. ، ومن ما يزالُ الفسق فعلا من أفعالِه يتنوع ، يتلوّن ، ويتصاعد حينًا ، ويتناقصُ حينًا .وبرغمِ من ذلك تبصّر كيفَ كانتْ مثوبةِ الَّذين آمنوا، أولئك الذين ما يزال الإيمانُ فعلاً من أفعالهم لمَّا يبلغوا صَيرورة الإيمان نعتًا وجبلةً "المؤمن" مثوبته « لَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا » قوله "لهم" في هذا السياق يتفجر منها في قلب من يُحسن تلقيه فيضًا من التلذذ بجمال الرَّبوبيةِ ، جعلهم كالمسْتحقين، وما هم بذلك بل هو المتفضل عليْهم أرأيت سيدًا يتفضل

على عبده، فيصورُ له تفضله عليه بأنّه مستحقه عليْه، أيّ جلال هذا، وأيّ جمالٍ ؟ أتستطعمه؟ إن استطعمت فما أنت فاعل مع ربك ﷻ وعباده؟

جعل سُبْحانَه وَتَعالَى جنة "المأوى "نزلاً " والنزلُ أوّل ما يلقَى به الضيفِ من الإكرام، يقُول الفخر الرازيّ " قال تعالى : (نُزُلًا) إشارة إلى أنّ بعدَها أشياء لأنّ النُّزُلَ ما يُعطِي الملكُ النّازِلَ ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتبَ له خُبزاً"([1]) كذلك يفهمُ العربي كلمة "نزلا" . وسميتْ "المأوى" لأنها الأجدرُ بأنْ يؤوي إليها كلّ عاقلٍ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (آل عمران:١٨٥) ([2])

وبرغم من هذا هي نزل، فكيْف بما بعدها؟ ثم يأتيك قوله : (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ليُغْريك أنْ تتقصّى حق العرفانِ بِحَقيقةِ عَملِهم (والعمل فعل مكين مبنيٌّ على عِلمٍ وثيقٍ) (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء:٣٦) وأنْ تتبيّنَ منهجهم وأدواتهم ومقاصدهم ليكون نزلك" جنات المأوى" وهذه" الباءُ" في قوله(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ليْست هي التي في قولك : "اشتريتُ الكتاب بدينار" . ما يكون لها أن تكون ، وسيّدنا رسُول الله ﷺ قد أنبأنا فيما رواه الشّيخان : البخاري في كتَب" المرضى" و"الرّقاق " ومسلم في كتاب " صِفات المنافقين" بسندهما عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » . قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « لاَ ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ » .

---

[1] مفاتيح الغيب للرازي:١٢/ ١٤٧

[2] هلا تلبثت عند "زُحزح" ألا تملأ قلبك هذا مما يُزحزحُ عنه؟

في الفعل مادّةً وصيغةً ما يجعلُ الأمرَ بالغ الرّهبة. الزُّحزحة إنّما تكون في قوة وسُرعة ؛ لأنّ ما يُزحزحُ عنه العبدُ يلاحقه في قوة وسرعة، وفي بناءِ الفعل لغيرِ الفاعل إيذانٌ بأنّ ذلك لا يكونُ إلا بأمرٍ من الله سُبْحانَه وَتَعالَى ؛ ففاعلُه الحقيقيّ هو الله سُبْحانَه وَبحمْدِه ، وهذا من أفقِ مقامِ التوحيد.

قوله (وأدخل الجنّة) كان يُمكنُ في غيرِ القرآنِ طيه، لأنّ من زُحزح عن النّارِ ، فقد فاز، فإنّه لا يدخلُ بعد الزُّحزحةِ عن النّارِ إلا الجنّة، ولكنّه جاء به مصرّحًا ليجمع في سمعك الأمرين معًا ما يجمعُ الطيُّ في قلبك تصريحًا بالزُّحزحة، وتلويحًا بالدخول، فكان مُقتضى الإعراب عن عظيمِ المنة الرّبانيّة أنْ يُصرّحَ لك بالأمرين معا ، فيمتّع سمعك بهما : الزُّحزحة عن النّار، ودخول الجنّة ، استحقاق النّارِ هو مقتضى العدل ، ودخول الجنة مقتضى الفضل ، فجمع بين الزّحزحة والإدخال في الجنّة في السّمع ليكون له من استطعامهما ما يحمل المرء على الأ يحرم منهما.

وجاء قوله تعالى : "أدخل الجنة" معطوفًا ، وهو المؤكّد لازم قوله "زُحزح عن النّار" ومقتضى هذا أن يفصل عنه ليبرز لك ما في " دخول الجنّة" من مغايرة ، وزيادة على" الزُّحزحة عن النّار" . يلفتك إلى أنّه لا يمنّ عليك بالزُّحزحة فحسبُ ، وهي جديرة بأن تكون وحدها أعظم المنن، بل هو المتبع الرّحمة بك والإكرام لك بضيفُ إليك كرامًا جليلاً . يمنّ عليك بمنّة المنن أعظم عطية يعطيها سُبْحانَه وَتَعالَى لعبدٍ من عباده في الآخرة بدخلك الجنّة، أيليق بك أن تحرم نفسك هذا الشّرف: شرف الامتنان الربانيّ المضاعف عليك .

تتوالى عوامل تثقيف النّفسِ الإنسانيّة لعلّها تتزعُ عن الانشغال بمتاع الدُّنيا عن خالق هذا المتاع سُبْحانَه وَتَعالَى ، فيأتيك قوله تعالى (وما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) ليقرر لك حال متاع الدنيا على حقيقته كيما لا تنخدع به قال: (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) جعلها كلّها كلّها متاع الغرور، ليس فيها إلا متاع الغرور خلا ما أدخلك على ربك دخول الحبيب على حبيبه. وكلمة(متاع) لا ترد إلى سمع العربيّ وقلبه إلا ويصحبها معنى الزّوال وسرعة الفناء، فهذا شأن كلّ متاع ، بخلاف " النّعيم" فالشأن فيه المكث بصحبه.

يقول الفخر:" قَالَ: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى إِشَارَةً إِلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّ اللَّهَ أَحْسَنَ ابْتِدَاءً لَا لِعِوَضٍ فَلَمَّا آمَنَ الْعَبْدُ وَعَمِلَ صَالِحًا قَبِلَهُ مِنْهُ كَأَنَّهُ ابْتِدَاءٌ فَجَازَاهُ بِأَنْ أَعْطَاهُ الْجَنَّةَ"(1)

أمّا ما في قوله تعالى: (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (العنكبوت:٣٤) فـ"الباء"هنا سببيّة، لأنّهم عوقبوا بسبب فسقهم ، ولولا تحققّه منهم ما عُوقبوا، وهذا من عدل الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

ويلفتُنا الفخر الرازيّ إلى أنّه في شأن الذين آمنوا قرن بيْن الإيمان والعمل الصّالح إعلامًا بأنَّ العملَ الصّالح مع الإيمانِ هما اللّذان بتفضل الله ﷻ على الجامع بيْنهما بالجنّة، أمّا الفسقُ (الكفر) فإنّه لا يشترطُ معه (عمل الطّالحات) بل الكفرُ وحده يكفي ، ولو مَلأ الأرضَ عملاً نافعًا للنّاسِ أجمعين فإنّه يثاب على أعمالِه النّافعة في الدّنيا ، ويبقى كفره سببًا في استحقاقه النّار.

روى مسلم في كتاب "الإيمان" من صحيحِه بسندِه عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رضِيَ الله عنها قَالَتْ :قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ ؟ قَالَ : « لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ».

وروى مسلم في كتاب" صِفةَ المنافقين "بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِى الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِى الآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِى الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا »

وفي رواية أخرى فيه بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِى الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِى الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ ».

ولم يُعرب عن ما لهم ببيان نوع النّار الّتي يدخلونها أ جهنم أم الحطمة.... فقال (فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وهذا هادٍ إلى أنّ لكلّ فاسقٍ نوعَ عذابٍ يتلاءم مع نوع فسقه ودرجته ، فأعربَ باسم "النّار" من أنّه الاسمُ الجامعُ لكلّ أنواع النّار.

جاء تصويرُ نوع من العذابِ لهم بقوله ﷻ : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) فهذا فيه دَلالةٌ على أنّ أولئك يُزادون في تعذيبهم، بأن يقومُوا مقامَ المتخيّل أنّ بملكه أن يحاولَ الخروجَ ممّا هو فيه كمثل ما كان قد فسق ، فخرج عن إيمانِه إلى الكفرِ ، فيعالجون الخروجَ فإذا ما حسبُوا جهالة وضلالةً أنّ الأمرَ قد تيسّرَ لهم أعِيدُوا إلى ما كانوا فيه قبلُ فيزدادون حسرةً ، ويبقى أمرُهم على ذلك ممّا يزيدُهم عذابًا فوقَ عذابهم.

***

ومن هذا الباب قول الله ﷻ :

---

(1) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٥ / ١٤٢

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ* هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم **مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (يونس:٢١-٢٤)

قوله تعالى {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...} هو بيانٌ لقوله ﷻ:(مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...) ذلك أنَّ قوله (متاع الحياة الدنيا) مؤذنٌ بأنَّ ما في هذه الحياة مِن متاعٍ ونعيمٍ وزخرفٍ إنَّما هُو إلى زوالٍ ، وهو إيذانٌ لا يفي بما يقتضِيه المقامُ مِن التَّفصيلِ ؛ لأهميَّةِ هذا التَّفصيلِ في إعلامِ النَّاسِ بحقيقةِ هذه الحياةِ الَّتي استعبدَت غيرَ قليلٍ منهم ، فأضحَتْ كلُّ نعمةٍ مِن نعمِها معبودَ بعضِ أهلِ الدُّنيا، فلا تكادُ تجد في هذه الحياة نعمة أو متعةً إلاَّ وأنت واجدٌ من يقفُ إزاءَها محبةً ورغبةً وتعلقًا وشغفًا بها واستهتَارًا فيها بما عداها ، فكأنّه يعبدُها. فكان تفصيلُ زوال هذه النِّعم وهلاكِها أمرًا جدَّ مهم ،فالمعنى يُفتقرُ فيه إلى أمريين : تبيينٌ يملأ القلبَ، ويُترعه، وتقريرٌ يوطنه فيه ويرسّخه، فجاء قوله ﷻ : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...) مُوفّيًا هذا الَّذي اقتضاه المَقامُ، فكان منزّلا منزلةَ البيانِ المتضمن تقريرًا، ففُصِلَ عنه لذلك.

وفي تذيل الآية المُبيّنة بقوله ﷻ : (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ما يهدي إلى أنَّ فهم المعنى الذي جاءت به هذه الآيةُ في صورة مثلٍ لا يتحققُ إلا لقوم يتفكرون ، فتبصّر قوله (لقومٍ) وهي كلمةٌ تستحضِر في النّفس معنى القِيامِ للشَّيءِ والعناية به والقصدِ إليْه والانصراف بالكلية للقيام بحقِّه، وهذا الذي يُقامُ له إنَّما هو التَّفكير الذي هو السبيلُ إلى حُسنِ الفهمِ عن الله سُبحانه وتَعالى[1]

---

[1] والفرقُ بين التفكير والتدبر أنَّ التفكير فعلٌ يصف عملية استخلاص المعاني، بينما التَّدبُّر يصفُ امتدادَ حركةِ الفعلِ الذي هو التَّفكير واستمراره وعدم توقفه. فالتدبّر ناظرٌ إلى وصف امتداد حركة سير التفكُّر.

والفرقُ بين التفكر والتعقل أنَّ التَّعقل هو عملُ جمعٍ وتحصيلٍ يقع على أمورٍ عدةٍ مبتدؤها عقلُ المسموع أو المقروء بحيثُ يبقى حاضرًا في القلب مهيئًا للقدوم حين يُستدعى غيرَ منقوص ، ولا محرف ولا مبدل ولا محول بعضه عن مواضعه.

ومنتهاه عقلُ ثمار التفكر وحفظها وحمايتها من التلف. من جهة.

وهو من جهةٍ أخرى عقل حماية فعل التفكر من الخروج عن الجادة فهو يعقله ويمنعه من الزيغ. فالتعقل له وجهان:

= عقلُ حركة التفكر وضبطها بأصول التفكر

= وعقل ثمار حركة التفكر.

فالتفكر والتعقل والتدبر ليست أفعالاً مترادفة، بل لكلٍّ مجالُه ومنهجه وأدواته ونتائجه. وهذه جميعًا عمل القلب. وهذا مما يحسُن أن يكون طالبُ العلم على ذُكر منه فإنه جدُّ مهمٍّ. قلما تجد من يلتفتُ إليه بل وقلَّما تجدُ من يُلفت الأبصار إليه.

ومن هذا قول الله ﷻ :(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) (النساء:١٠٨)

قوله ﷻ : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) بيان لقوله (يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ) ولو قيل في غير القرآن: وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ، لكان المعنى جاريًا غيرَ منقوص أصلُه ، إلا أنَّ الذي عليه البيانُ القرآنيُّ أوفى تبيينًا ، وأنجع في نفسِ السَّامعِ ، ذلك أنّه لمَّا قال: (الَّذِين يَخْتَانُون أنفسَهم) كان هذا بيانا على الإجمال الَّذي لا يملك كلّ سامعٍ تفصيلَه مِن نفسِه ، وقد يعجزُ غيرُ قليلٍ عن حسنِ استبصاره على إجمالِه ، والمقامُ يقتضي مزيدَ تبيينٍ وتجلية لحالِ أولئك وتصويرهم تصويرًا يملأ القلبَ نفرةً من حالِهم ومسلكِهم، فجاء بيانُه كاشفًا عن صَنيعِهم المصوّر حمقَهم وضلالَهم المُبين إذ يَسْتَخْفُون (يستحيُون) من النَّاس الَّذين لا يملكون من أمرِهم شيئًا ذا بالٍ ، ولا يستحيُون (يستخفون) من الله تعالى الَّذي خلقهم وهو الذي معهم علما وقدرة.

وفي هذا مِن تنفيرنا مِن أن نجعلَ حياءنا مِن النَّاس فنكفَّ عن سيئةٍ من قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ حين نتيقَّن أو نظنُّ ظنًّا أنَّ أحدًا يعلمُ أمرنا سمعًا أو بصرًا ، ولا نجعل هذا الذي جعلناه لمن لا يملك نفعًا ولا ضرًا لله تعالى الَّذي خلقنا وأحاطَ بنا علمًا واقتدارًا.

مثل هذا البيان حين يكون حاضرًا في قلبِ العبدِ وعقلِه ونفسِه يكون له سببًا في أن يرتدع ، فلا يقترف بيد أنا بشرًا قد جبلنا على أن ننسَى أوننتاسى. ولا عاصم ولا غافر ولا ساترَ إلا الله ﷻ .

***

وَمنْ هذا البابِ قولُ الله ﷻ:(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس: ٢٥-٢٦)

قوله:(والله يدعو...) بُني الفعلُ "يَدْعُو" على المسند إليه المتقدم(الله) فأفاد توكيدَ وقوعِ الفعلِ منه سُبْحانَه وبحمْدِه ، وفي إسنادِ هذا الفعل إلى اسم الجلالة إكسابٌ للفعل عظمةً وأهميَّة تلفتُ انتباه السَّامع ، فيدرك أنَّ هذا فعل جليل ، وعليه أن يُحسن فهمَه وتدبّرَه ، ثمَّ يُحسنُ الاستجابة لِمقتضياتِ هذا الفهمِ ، ثُمَّ يُحسنُ أن يكونَ له نصيبٌ في القيامِ بهذا الفعلِ ، فيدعُو إلى دارِ السَّلامِ بلسانِ حَالِه من قبلِ لسانِ مقالِه.

ويأتي الفعل "يدعُو" غيرَ مقيَّد بمفعولٍ بِه ، أطلقه لِيفهم أنَّ الدَّعوة ليستْ بالمقصُورَةِ على أحدٍ ، بل هِي دعوةٌ عامَّة ، فالخلائقُ أجمعون مدعوُّن إلى دار السلام (الجنة) والدَّعوةُ إلى الجنةِ ظاهره أنها مِن قبيل المجازِ ، فهي دعوةٌ إلى ما يكون الجزاءُ عليه من أقوالٍ وأفعالٍ وأحوالٍ هو دارَ السَّلام ، وذلك هو الإيمانُ والعمل الصالح ، ولما أراد أن يرغَبَ النَّاسَ في الاستجابة لم يُصرح بذعوتهم إلى ما يكونُ فيه مشقَّة على بعضِهم ، فيكونُ ذلك

بمثابةِ مُنفرٍ لهم ، لكنَّه دعاهم إلى ما يحبُ كلّ واحدٍ من تقيّ أو عصيّ أن يدخلَه ، وهذا ضربٌ من التّرغيب بديع.

وهذا يُستفادُ منه في منهاج الدّعوة: أن لا نُعرب في دعوتنا النّاس إلى اللهِ سُبحانَه وبَحمْدِه بِما يستشعرون به أنّهم سيُكلّفون شيئًا، بل بما سيَكتسبون منه أشياءَ هم فيها راغبون ، وإليها مفتقرون.

ألا ترَى أنّ ﷻ لما عرّفنا بنفسِه في (أم القرآن) استهلّ تعريفنا به تعالى بقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وهذا إذا ما سمعه العبدُ أدرك أنّ ربّه ﷻ متفضل عليْه يلقاه بكُل خيرٍ ، وبما يُحب أن يُلْقَى به ، فيقبلُ عليْه، ثم يأتيه قوله ﷻ : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فيعلم أنه مقدم على محاسبة إن خيرًا فخير إن شرًا فشرّ. فيستقيم على الجادة.

وسمى الجنَّةَ هنا دارَ السلام، ليبين لنا أنّ داخلها لن يكونَ إلا في سلامة مِن كلّ أذى ، ويفهم من هذا أنّ مَن لم يدخلْها لن يُحفظ مِن الأذى ، فكل دار غيرها ليستْ بدارِ سلامٍ .

والمشهورُ أنّ "دارَ السّلامِ" هي الجنةُ ،وهو حقّ مبينٌ إلاّ أنّ هذا لا يُحاجِزُنا عَن أن نفهمَ أنّ "دارَ السّلامِ" في الحياةِ الدنيا هو الإيمانُ بما امر الله ﷻ الإيمانَ به في كتابه وسنةِ رسُوله ﷺ ، والوقُوفُ عند ما أمر بفعلِه ،و ما نَهى عنه في كتابِه وسنة رسُولِه ﷺ ، من دَخَل ذلك فقد دَخل دارَ السّلام في الدُّنيا، وهو عند موتِه ينتقلُ إلى دارِ السّلامِ في الآخرةِ، فهو في حياتِه كلّها في طورِه الدّنيويّ وفي الآخرةِ في دارِ السّلامِ. وفي الإعراب بـ" دَار" لفتٌ إلى معنَى الإحاطةِ والشُّمولِ ، وأنّه حين يكونُ هو في السّلام، يدورُ السلامُ الحسيّ والمعنويُّ والعاجلُ والآجلُ ،والظّاهرُ والباطن حيثُ دار. وهذا إذا قام في القلبِ وكان الحاضر الخدين لن يصابَ هذا القلبُ بما يُعيقه عن أن يقومَ في مقامِ الرّضوانِ بما يكتبُ عليْهِ أن يفعل أوْ أن لا يفعلَ من شرائع الله ﷻ

وقوله:(ويهدِي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم) يفيد أنّ الهدايةَ هنا ليست هِي هدايةَ الإبانةِ ، فذلك مُتحققٌ في قوله تَعالَى : (واللهُ يدعُو) فالهداية ضربان:

(أ) هدايةُ إبانةٍ ، وهي عامّة (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)(البلد:١٠) (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(الشُّورى:٥٢) هذه الهدايةُ تَسندُ إلى الله سُبحانَه وبَحمْدِه ،وإلى رسولِه صلّى الله عليْه وعلى آلهِ وصَحبِه وسلّم وعلى العلماءِ والدّعاة وإلى كل منيكون منه تبيينٌ لطريقِ الحقّ والخيرِ.

(ب) وهدايةُ إعانةٍ وتوفيقٍ وتسديدٍ ، وهي هدايةٌ خاصّةٌ يختصُّ بها الله ﷻ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص:٥٦) وهدايةُ الإعانة والتّسديد تكونُ لقليلٍ من عباده .

وجملةُ (يَهدِي مَن يَشاءُ...) معطوفةٌ على المُسندِ (يدْعُو..) مِن عطف جملة على أخرى لها محلٌ من الإعرابِ لقصد الإخبار بوقوعهما معًا من فاعلٍ واحدٍ ، وفي هذا تقريرٌ لوحدانيته وعزّته وحكمتِه ، فإنّه لَو لَم يَكنْ واحدًا

عزيزًا حكيمًا لما كان له تعالى أن يفعلَ ذلك. لأنّه حينئذٍ سيجدُ مَن يعترضُ عليه تعالى الله عن ذلك عُلوًا كبيرًا.
وبهذا يتبيَّنُ له اقتضاءُ الجمع بيْن الجُملتَين ، فذلك هو الذي يفهم منه الوحدانية والقدرة والعزة والحكمة .
والهداية إلى الصِّراط المستقيم هدايةُ أعانة وتسديدٍ وتوفيقٍ هي رأس كلّ خير، ولذا كان الابتهالُ بطلب الهداية إلى الصراطِ المستقيم هو أوّل دعاء وابتهال في القرآن الكريم في سياقه التَّرتيليّ :(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ } (الفاتحة ٦- ٧) وكلُّ دُعاءٍ في القرآنِ أو السّنةِ أو جرَى في لسان صحابيّ أو تابعيّ أو عالم فإنّه منسولٌ من هذا الدّعاء الأعظم ، فهو الدّعاءِ الأم فمن استجيب له ذلك لن يلقى في حياتِه ما يشقى به أبدًا.
وقوله : (للذين أحسَنُوا الْحُسْنَى...) بيان إجمال في قوله (يَهدِي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم) قوله (من يشاء) أفهم أنّ هنالك من هو مهدِيّ ومن ليس بمهدي ، فجاء قوله :(للذين أحسنوا...) مبينا هذا المجمل . ومن أهل العلم من جعل ذلك من قبيل بدل الاشتمال أو بدل مفصل من مُجمل([1])
وقدّم المهديَّ إلى صراطٍ مستقيم: الذين أحسنوا الحسنى ، لأنه هو المصرح به في قوله (يَهدِي منْ يشاءُ) ولأنّه الأعلى مقامًا .
وفي قوله:(أحسَنُوا) طلاقةٌ في بيانِ ما يقعُ عليه إحسانُهم ، فكأنّ الإحسانَ أمرٌ واقع منهم على كلّ ما يباشرونَه فلن يصدرَ عنهم مِن قولٍ أو فعل إلا كان حسنًا. فهم لمّا علموا أنّهم إنّما يَتاجرون بأقوالِهم وبأفعالهم وبظاهرِ حالهم وباطنِه مع الله الخبيرِ البصيرِ ﷻ حرصُوا على أن يُحسنوا ما يبيعونه لله ﷻ ، فإنَّ الله طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا.
ولم يعطف قوله تعالى:(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لأنّه نتيجة لما تقدمها، والنتائجُ لا تعطفُ على مقدماتها لأنَّ المقدّماتِ مشتملةٌ عليها ، فيكونُ مِن صور كمالِ الاتصالِ .وفي الإشارة إليه بـ(أولئك) استحضارٌ لِنعتهم الذي استحقُّوا به أن يُخبرَ عنهم بأنّهم(أصحابُ الجنّة) كانوا اصحاب إيمانٍ وعملٍ صَالح، وهذا في حقيقته وفي شهور أهله إنما هو جنّةَ الله تعالى في الدّنيا، فلما توفّاهم الله تعالى انتقلُوا منْ جنّته في الدّنيا المُمثّلة في الإيمانِ الصفاء بما أمر الله ﷻ الإيمان بِه وفي العملِ الصّالح :الخالصِ لله تعالَى ، والموافق لشرعِه في الكتابِ والسّنةِ ، إلى جنّتِه في الآخرة، فمن لم يتخذ هذه الأعمال الصالحةَ المؤسسَة على الإيمان في جميع أحوال حياته جنته التي يقيم بها لا يخرجه الشيطان منها بخاعِه ووساوسِه ،لا يكون صاحبَ الجنة في الآخرة.
وجاء قوله :(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) مفصُولاً عن قوله:(أولئك أصحابُ الجنّة) لأنّه مؤكّد له ، فصحبة الجنة لا تزول . فهُم إذا ما انتقلوا من جنة الله سُبْحانَه وَبِحَمْدِهِ في الدّنيا الممثّلة في معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته بالوفاةِ فإنّهم في جنّةِ الآخرة خالدون .

---

[1]) التحرير والتنوير:١١/١٤٥

عطف على قوله تعالى:(للذين أحسنوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) قوله:(وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهو تفصيل الملوح به المفهوم من قوله:(يَهدِي منْ يشاءُ...) وأخّر البيان عنهم ؛ لأنهم لما آخّروا أنفسهم عن الإسراع إلى طاعة الله ﷻ كانوا أهلاً لأنْ يؤخّروا، ولأنهم منْ جِهةٍ أخرى قد أُبين عن عدمِ هدايتهم الصّراط المستقيم تلويحًا لا تصريحًا، فقدّم مَن صرح بحال هدايته ، وأخّر من لوّح بعدم هدايته . ففي البيانِ "لفّ ونشرٌ مرتّب" وهو صورةٌ من صُور علاقاتِ المعاني القريبِ إدراكها .

***

وممّا تنوعت في بيانِ علاقته مقالات العلماءُ قول الله ﷻ :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة: ٨- ١٠)

قوله (ومن النّاس) في مقابل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...) ومقابل (الّذين يؤمنونَ بالغَيب..) يدعوك إلى أن تتلبث لتبصر شيْئًا من عطاءِ العدول عن البيان باسم الموصول وصلته .

في الإبانة باسم الموصول وصِلته شيءٌ من التّعيين، وأنّهم في محيط الإحاطة ، وأنّهم ليْسوا الأكثر ، وفي الإبانة بقولِه:(ومن النّاسِ) لفتٌ إلى أنّ هذا الصّنف هو الأكثر عددًا وحضورًا، ونفوذًا. ذلك على أنّ (مِن) ليْستْ للتبعيض . إنّما هي بيانية كالّتي في قولنا (بابٌ من حديد)([1]) فالإبانة بقوله: (النّاس) هادية إلى حالهم . إنّه "النّوس" : الاضطرابُ الذي لا يعرفُ قرارًا، (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) (المائدة:١٤٣)([2])

الإعراب بهذه الكلمة(النّاس) لفتٌ إلى انّ هذا الصنف المتحدث عنه لا سبيلَ لنا إلى أن نملك ما تطمئن إليْه قلوبنا في معايشته . هو لا يثْبتُ على حالٍ ،وما كان كذلك كان خطره عليك جدُّ عظيمٍ ، ففي قوله(النّاس) تبيين للداءِ العضال الذي لا يأملُ عاقلٌ في أن يكون له سبيلٌ إلى علاجِه ومعايشته فضلاً عن أن يحقق له الشّفاءِ والبُرءَ منه.

---

[1] أكثر أهل العلم على أنّ(من) هنا تبعيضية، والمعنى بعض الناس من يقول، وهذا ناظر إلى أن كلمة(الناس) أريد بها ما أريد بها في قوله تعالى(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(البقرة:٢١) من العموم، والذي هو أعلى عندي أن في قوله(يأيها الناس) المعنى على العموم، وفي (ومن الناس)أريد بها خصوص المنافقين" لتمكن جذر المعنى" النوس" فيهم، فليس غيرهم من لا يفارقه نوسه واضطرابه ، وهذا في مقابل من لا يفارقه كفره في(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(البقرة:٦) فنحن بإزاء فريقين:فريق تمكن منه الكفر ، فلن يفارقه، وفريق تمكن منه النوس) فلن يفارقه فقوله (وما هم بمؤمنين) يعادل في حقهم(لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) في حق (الذين كفروا)

[2] يذهب " النورسي"إلى " أنه لم يفضحهم بالتعيين، بل سترهم تحت عنوان "النّاس" إيماء الى أنّ سترهم وعدم كشف الحجاب عن وجوههم القبيحة أنسبُ بسياسة النبيّ ﷺ ؛ اذ لو فضحهم بالتشخيص لتوسوس المؤمنون؛ اذ لا يؤمن من دسائس النفس. والوسوسة تنجر الى الخوف والخوف الى الرياء والرياء الى النفاق.. ولأنه لو شتمهم بالتعيين لقيل إنّ النبي ﷺ مترددٌ لا يثق بأتباعه.. ولأن بعضا من الفساد لو بقي تحت الحجاب لانطفأ شيئاً ، فشيئاً ولجتهد صاحبه في اخفائه ولو رُفع الحجاب - فبناءً على ما قيل "إذا لم تستحِ فافعلْ ما شئتَ" ليقول قليكن ما كان، ويأخذ في الشر ولا يبالي." (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: تأليف : بديع الزمان سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩هـ) تحقيق: إحسان قاسم الصالحي . نشر: شركة سوزلر للنشر – القاهرة، ط(٣)سنة: ٢٠٠٢م ص: ٨٩

وهذا يحملُك إلى أن لا تشغل نفسَك بإصلاحه، بل اشغلْها بأن يكون لك من أفاعيله تقيةُ حصينةُ ، تبطل كل أفاعيله .

والقرآن إذ يصوّر لك مقالهم عن أنفسهم: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) يقرر حقيقة حالهم الّتي لا يطلع عليها غيره جَلّ جلاله (مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) فحمل عنك مؤنة السعي إلى العرفان بحالهم وواقعهم ؛ لأنك العاجزُ عن ذلك ، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فقوله ﷻ (مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يستوجبُ علينا عظيم شكرِ الله تعالى عليْها، فقد أنعم علينا بما نحن أحوج ما نكون إلى العلمِ به ، ونحن أيضًا أعجزُ ما نكون عن تحصيله. ألم ينبئنا في أوّل (أم الكتاب بقوله ﷻ : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (أم الكتاب:١-٤) هذا الإنباء من فيض الرّبوبية ،والرّحمانية والرّحيميّة، وهو مما يَجبُ حمدُ الله تعالى عليه، ومن فعل فله حسْن المثوبة يوم الدّين(الجزاء)

وتبصر ما بين قوله: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) في حق "المنافقين" وقوله (لَا يُؤْمِنُونَ) في حقّ المختوم عليهم :

ما جاء في حقّ المنافقين كان نظمُه أوفرَ توكيدًا للمعنى في قلوبنا لأنّهم بما يتظاهرون به قد يخيّل لنا أنّ ثَم أملاً في إيمانهم، فكنّا بحاجة إلى ما ينتزع ذلك من قلوبنا، أمّا الّذين كفروا لما قال: (سواء عليهم...) كنا أقل حاجةً إلى ما ينزعُ الأملَ في إيمانهم من قلوبنا، وهذا يهديك إلى تصحيح موقفِك من المنافقين" : سحرة إبليس ،أحفادِ ابن أبي ابن سلول فهم أشد عليك من أحفاد أبي جهلٍ المختوم على قلوبهم.

وللزّمخشري هنا لفتٌ إلى معنى جليلٍ. يقول:" القصدُ إلى إنكار ما ادّعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدّى إلى الغرضِ المطلوب. وفيه من التّوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان. وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا) هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها."([1]) .

وفي بيان موقع قوله تعالى(يُخادعون الله ..) مما قبله تنوعت رؤى أهل العلم: ذهب عبدُ القاهر يذهب إلى أنّه توكيد لـ(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) "لأنّ هذه المخادعةُ ليست شيئاً غيرَ قولهم: "آمنا"، من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذن كلامٌ أُكّدَ به كلامٌ آخرُ هو في معناه ، وليس شيئاً سواه."

والزّمخشريّ إلى أنّه بيان لـ"يقول" ، وجوّز أن يكون استئنافًا بيانيا.

والطاهر ابن عاشور إلى أنه من قبيل بدل الاشتمال مِنْ جُمْلَةِ: (يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ) وَمَا مَعَهَا لِأَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْمُخَادَعَةِ.

---

[1] قوله (هو أبلغ) أي أكثر مبالغة، وليس أعلى بلاغة ؛ مطابقة لمقتضى الحال، فالقرآن الكريم كله على درجة سواء في بلاغته: مطابقة مقتضى الحال على اتساع كلمة(حال) وتنوع ما يندرج فيها .

ومن أهلِ العلم من ذهب إلى أنّه حال، فلا يكونُ ممّا نحن فيه ([1])

والذي هو أعلى عندي أنّه استئنافٌ البيانيّ (شبه كمال الاتصال) ذلك انّ قولهم أمنا بالله وباليوم الآخر، وهم في حقيقتهم ليسوا بمؤمنين مما يثيرُ في النّفسِ السوية تساؤلا عارمًا عن الباعثهم إلى هذا الّذي لا يمكن أن يصدرَ عمّن به أثارة من عقلٍ: فيأتي قوله تعالى:(يُخادِعُون...) تبيانًا لعلةِ القول. هم يقولون ذلك من أجْل خداع الذين آمنوا، فهو أولى بأن يجعل مِنْ قبيل الاستئناف البيانيّ. وهو تبيان يزيدُ تصورًا لما بلغ حالهم من الحُمق والسّفاهة، أنَّ من يتوهم أنّه يُمكن أنْ يخادع الله ﷻ ، أو يُخادعَ من كان الله تعالى مخبره بالغيبِ أو مَنْ كان الله تعالى له ،وكان عنه مدافعًا ؟ لا يكون.

استعليت أنه استئناف بيانيّ على أنّه عطفُ بيان مِنْ أنّ ما يحتاج إلى تبيين من الكلام ضربان:

الأول ما كان مناط التبيين هو المضمون لإجمالٍ فيه. والإجمال نوعان:

إجمال يزيله التفسير، وهو الذي يعنى به الأصوليون ([2])

وإجمال يحتاج إلى تفصيل.

أو كان مناطُ التّبيين هو كيفية المضمون ، فالكيفية عندي أدخل في المضمون ، وحينئذ يكون المبيّن(بالكسر) عطف بيان، فبين المبيَن، والمبيِّن كمال اتصال.

والآخر ما يُحتاجُ تبيينُه هُو علتُه وسببه. أو فاعله أو من وقع عليه أو زمانُه أو مكانُه أو تأثيرُه ونحو ذلك فهذا يكون التبيين من قبيل الاستئناف البيانيّ ([3])

ومن أهل العلم من يذهب إلى أن كلّ ما يحتاج إلى تبيين ، يكون المبين من قبيل الاستئناف البياني . يقول الطاهر ابن عاشور في قول الله ﷻ : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) (الأنفال : ٦٥) "فُصِلَتْ جُمْلَةُ (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ) لِأَنَّهَا لَمَّا جُعِلَتْ بَيَانًا لِإِجْمَالٍ كَانَتْ مُسْتَأْنَفَةً اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا، لِأَنَّ الْإِجْمَالَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُثِيرَ سُؤَالَ سَائِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ إِذَا كَانَ عَدَدُ الْعَدُوِّ كَثِيرًا، فَقَدْ صَارَ الْمَعْنَى: حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ."

---

[1]) التبيان في إعراب القرآن تأليف أبي البقاء العكبري:عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت :٦١٦هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي.نشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة. ١/ ٢٥والبحر المحيط تأليف أبي حيان الأندلسي،١/ ٩١

[2]) المجمل عند الأصوليين الصورة الصالة من صور البيان الخفي دونه: الخفي والمشكل،وفوقه المتشابه، وهو عندهم " ما احتمل وجوهًا فصار بحال لا يوقف على المراد به إلا ببيان من قبل المتكلم"

راجع إن أحببت كتابي :دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين:

و كتاب : أصول الشاشيّ الحنفي: تأليف: أبي علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي (ت: ٣٤٤هـ) نشر: دار الكتاب العربي ، بيروت، ص: ٨٤

و الفصول في الأصول، تأليف: أبي بكر الجصاص: أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق :عجيل النشمي، نشر وزارة الأوقاف الكويتية ج١/ ٦٤

والعدة في أصول الفقه،تأليف أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد الفراء (ت: ٤٥٨هـ) حققه أحمد المباركي ط(٢) عام ١٤١٩هـ ج:١/١٤٢

[3]) (التحرير والتنوير: ١٠/٦٦)

وإذا ما تبين لك موقع(يخادِعون) من سياقِه ، فإن قوله تعالى(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) فهو عندي بيان لما بعثهم على توهمهم أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، فهو من قَبِيلِ "الاستئنافِ البيانيّ"؛ لأنّ ما كان من سعيهم توهمًا إلى المخادعة أمرٌ جدّ عجيبٍ لا تتوقعه نَفْسٌ سويّةٌ أن يتوهمَ أحدٌ أنّه يكونُ، فجاء قوله (فِي قُلُوبِهِم مرضٌ) بيان لباعثهم على هذه الحالقة الحارقة. فشأن المريضِ ألا يشعرَ بالأشياءِ على حقيقتها، لِخَللٍ في مُدركاته الحسيّة والمعنويّة، فكان البيانُ بقوله (فِي قلوبِهِمْ مَرضٌ) كاشفًا عضن حقيقةِ أمرهمْ ، وفي هذا تَيْئيسٌ بالغٌ من الأملِ في إصلاحهم،

وفي تنكيرِ(مَرض) تعظيم لفاعليته وفحولته ،وأنّه لا يُحاطُ به، فشأن التّنكيرِ أن يستصحِب معنى الشّيوع وتَجاوز الإحاطة ، وهذا يجعلُ كلّ تصوّر لهذا المرضِ هُو فوقَه، ممّا يهدي إلى أنّه لن يكونَ سبيلٌ إلى علاجه، فأوّل خُطوات معالجة المَرض معرفتُه، ومعرفة أسبابِه . وهذا الّذي في قلبهم مستعصٍ على ذلك،

ويحسنُ بك ألا تتوهم أن" المرضَ" هنا على سبيل "المجاز" إنّما هو حقيقة الحقائق، بل هو الأولى بأن يكونَ الأعرابُ عنه بالمرض على الحقيقة ، فليس مَرضًا ما يمكنُ أن يزولَ، بل الأحقُّ بذلك ما لا سبيلَ إلى زوالِه، وحرَى بك ،وأنت تتلقّى القرآنَ ألا تُفتَنَ بالمسارعَة إلى القول بالمجاز في كلّ ما تسمعُ من بيان الوحي ، فدعوى أنّ أصلَ مدلولاتِ الكَلم محسوساتٌ إنّما هو قولٌ غير حميد.

كلّ كلمةٍ دلّت على محسوس ومعقول ، فدلالتها عليهما سواء، ليس أحدهما حقيقة، و الآخر مجاز ، بلهما حقيقة، فكلمة "اعمى" موضوعة لما يحاجز عن الإدراك سواء كانت أداةُ إدراكِه البصرَ(المحسوسات)أو البصيرة (المعقولات) فمنْ قال إنّ كلمة(أعمى) في قوله تعالى :(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ) (الرّعد:١٩) أو (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً)(الإسراء:٧٢) على سبيل الاستعارة، وفي قوله تعالى: (أَن جَاءهُ الأَعْمَى)(عبس:٢) على سبيل الحقيقة فقد أبعد ، هي فيهما على سبيل الحقيقة، فليس تسمية من عجز عن إدراك المحسوساتِ بأولى أن ينعت بالأعمى ممن عجز عن إدراك المعقولات . وكذلك كلمة "مرض" ليس ما يصيبُ الجسد من عوائقَ عن أداء رسالته على كمالها بأولى بهذا الاسمِ مما يصيبُ النّفس والعقل والقلب والرُّوح من عوائقَ عن أداءِ رسالتِه على الوجه الأكملِ .

وفي قوله ﷻ (فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً) بيان لنا أنّ من تشاغل عن مرضِ قلبِه ولم يجعلْه مناطَ عِنايته، فكأنه أحبّ ذلك، ورضِي به، فجزاؤه أن يزيدَه الله تعالى مما رضيهُ لنفسه، ومَن عُني بالبُرء من مرضِ نفسه أو عقلِه أو قلبِه أو روحِه واتخذ لذلك أسبابَه كان له من الله تعالى العونَ على ذلك.

وقال الله تعالى من بعد (وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) ما يشاكل قوله (فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً) ألا ترَى هذه (اللام) في قوله (لهم) كأنّهم هم الذين استجلبوه، واستزْرَعوه، بما كانوا يكذبون، فمن يفعل ذلك يكون ساعيًا إلى

أن يكتسِب هذا العذاب، فمِن العدلِ معَهُ أن يُمنحَ ما سعى هُو إليه، وأن تحقَّقَ لَهُ رغبتَه في ذلك، وفي هذا من التَّجهيل والتَّسفيه ما فيه، وهو ناظرٌ إلى قولِه تعالى (في قلوبهم مرضٌ) و(فزادهم) فهذه الجمل تتلاحظُ ،وتنادى.

يقول أبو الحسن الحرالّي:" وفي قوله: "ولهم" إعلامٍ بقوّة تداعي حالهم لذلك العذاب، واستحقاقهم له، وتنشؤ ذواتهم إليه، حتى يشهد عيان المعرفة به - أي العذاب - وبهم أنه لهم"([1])

وتبصر نعته العذاب بانه (أليم) وعلاقته بكلمة(مرض) فكأنّه لما رضي لقلبِه ألم المرضِ في الدّنيا كانت مثوبته العذابَ الأليم في الآخرة.

وهذه(الباء) في(بما كانوا يكذبون) هي باء المعاوضة ، والجزاء، فكأنَّ هذا أجرٌ لهم على ما قاموا به من الاجتهاد في الكذب ، وفي البيان بقوله (ما كانوا يكذبون) دون بكذبهم أو بما كذبوا ، اتساع في المعنى فـ"ما" تحتمل أن تكون مصدرية، وأن تكون موصولة، ولكل عطاءٌ ،وفي الإعراب بقوله(كانوا) لفتٌ إلى أن هذا كان من كينونتهم، وجبلتهم مردوا على الكذب ، فبات حليتهم.

روى الشيخان البخاري ومسلم بسنديهما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»

***

إذا ما كان الذي مضى انشغال بنزرٍ من حق ظاهر علم البلاغة العربي ، فحقُّ نفسك عليك أن تخطو خطوة أخرى من وراء ذلك"

هذه الآياتُ المُستفتحُ بها بيانُ قصةِ المنافقين في مقابلِ قصةِ الّذين كفروا وهما معًا في مواجهة قصة الّذين يؤمنون بالغيب ، ممّا نحن أحوجُ ما نكونُ في عصرنا ومصرنا إلى أن تكونَ لنا بها صحبةُ تبصّر وتدبّر لها في واقع حركة الحياة حولنا،

أنت إن فعلت فقهت منها بقرن تلاوتك هذه الآيات برؤية الواقع المحيط بك ما لا تفقهه إذا ما تلوت الآيات وأنت منفصمٌ عن رؤية واقع حركة الحياة من حولك ، ستجدك إن قرنت وأنت تقرأ قوله تعالى (ومن النّاس) تشير بيدك إلى ما يُحيطُ بك ، وأنت تهتف بملءِ فمك :(أولئك ، أولئك) .

سترى ببصيرتك الآيات قائمة فيما ترى ممن حولك من سَحرة إبليس، وأحفاد أبي لهب .

إنّ واقع ما حولك هو أفصحُ مفسر ومؤول هذه الآياتِ ، وأبلغه وأصدقه ،

لست بحاجة إلى مَن يشقشقُ من البلاغيين وغيرهم بلسانه في تحليل هذه الآيات.

أنت بحاجة إلى أن تبصر ما حولك ببصيرتك وبصرك معًا أن تقرأ بلسانك وفؤادك الآيات. وستجد الوافدات عليك من لطيف المعاني ما لا قبل لك أن تعبر عما تلقيت، ليس الذي تتلقاه وأنت تقرأ القرآن وتكون مقتدرًا على

---

[1] إتراث أبي الحسن الحرالي ، ص١٥٨وأو نظم الدرر للبقاعي ج١/ ٩٢

أن تعبّر عنه هو أجلُّ وأنفع ما يأتيك منه ؛لأنّ هذا هو الّذي وفدَ إلى عقلِك (مُعتقل المَعاني) ، أمّا الّذي تتلقاه ويعجزُ لسانُك وإن كنت أميرَ الإبانةِ والأفهامِ في قومِك عن أن تبين عنه ، فهو الّذي ينسربُ إلى "فؤادك" يأبى أن يحطَّ رحاله في عقلك . يجتازُه إلى روضةِ "فؤادك" ، وما يقيمُ في الفؤاد لا يُطيق اللسانُ تصويرَه ، هذا هو المعنى القرآنيّ الذي علينا أن نحرص على أن يكون لنا منه نزيرًا . هو الذي يتصاعد بنا مِنْ مقَام (النّاس) إلى مقَام (الّذين آمنوا) ثمّ إلى مقام (المؤمنون) حتى نبلغ حمى المخلَصين) (بالفتح) ، وهو أعلى من مقام (المخلِصين) (بالكسر) أولئك الّذين قال فيهم الله ﷻ (كنتُ سمعه الّذي يسمعُ به) هل لك أن تتصور ما الّذي تستجنيه حين يكون الله تعالى سمعك الذي تسمع به كلامه ؟!!!

إن قراءة بيان الوحي قرآنًا وسنةً، في صُحبة الرؤية الصادقة والنافذة السابغة للواقع الذي تعيش فيعصرك ومصرك ، ونفسِك أيضا يسوق إلى فؤادك من المعاني ما لا تجده إذا قرات هذا البيان وأنت محرومٌ من هذه الرؤية، فحسن رؤية الواقع الذي يكون عند تدبر الوحي أداة من أدوات حسن التلقّي مثلما حسن استحضار واقع الحياة زمن النزول على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كذلك عاملٌ من عواملِ حسن التلقّي، وكما أنّنا نتدبر الوحي قرآنا وسنة لنكتشف حقيقةَ الواقع الذي نعيش ونصلحه كذلك تبصر واقعنا لنحسن فقه بيان الوحي. فيكون طالب العلم الحال المرتحل بين بيان الوحي والواقع الذي يعيشه. وبهذا يتَسحيل "علمُ البلاغة العربيّ" علمًا نافعًا أمّا الاكتفاء منه بالتلذذ بما في البيان مما تستروحه النّفوس استرواحها بالكلمة الإنسان شعرًا ونثرًا، فذلك العلم الذي يستعاذ بالله تعالى منه.

***

ومنْ هذا في بيان النّبوة جدّ كثير، تراه فيما رواه الشيخان البخاري في كتاب(الأذان) ومسلم في كتاب(المساجد) من صحيحيهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّى عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ . لاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبِسُهُ ، لاَ يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ الصَّلاَةُ » .

قوله (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ) عطف بيان لقوله (تُصَلِّى عَلَى أَحَدِكُمْ) فقوله تصلي على أحدكم لمّا كان غيبًا لا يمكن الوقوف على حقيقته وكيفيته إلا بإبانته ﷺ اقتضى المقام هذا التبيين فجاء قوله(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ...) وقوله (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ) أخص من قوله :(اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ) لأن المغفرة تكون لذنب وهي ستر الذنب، فلا يراه غيره ﷻ بخلاف العفو: الغفران ترك عقوبة ومساءلة مع بقاء الذنب مذكورًا في الصحف ، ،والعفو محوٌ من الصحف. ، فهو أعلى من الغفران، والرّحمة أعمّ ، فكل أمري قائمٌ على رحمة الله تعالى بي في كل وقت وحال ومكان، عاصيًا كنتُ أو طائعًا ، فما من أحدٍ من العالمين إلا وهو في رحمة من ربه ﷻ ولو نزعها منه برهةً لهلك.
وجاء قوله (اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ) غير معطوف على منهاجِ التعديد .وهو معهود في الدعاء ونحوه

وفي هذا البيان النبوي من الحث على أن يكون للمصلي نصيبٌ من المكث في المسجد قبل أن يصلي، ومن بعد أن يصلي، وكأني بالله ﷻ يغريني بأن أستحصل مغفرته ورحمته من المكث في بيته ، فذلك قراه ﷻ للمصلي، وجائزة الضيف الماكث في بيته جلَّ جلالُهُ ،وما أعلم عظيمًا يغري حقيرًا بأن يمكث في حضرته أو سيدًا يغري عبده أن يديم البقاءَ في حضرته غير ربّي ﷻ وبرغم من ذلك نحن العبيد نفر من إكرامه لنا ،وكأننا نقول له بلسان حالنا لسنا أهلا لأن تكرمنا !!!!!.

***

وترى الفصل للتبيين في مثل ما رواه البخاريَ في كتاب(الجهاد) " بَاب مَنْ أَخَذَ بِالرِّكَابِ وَنَحْوِه" مِن صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ : يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »

ورواه مسلمٌ من صَحيحه في كتاب" الزكاة"

وفي رواية أخرى للبخاري في الباب نفسه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ ، يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »

قوله ﷺ: « يُعِينُ الرَّجُلَ فِى دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » تفسير لقوله ﷺ:

« كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ » فهو ينزل منه منزلة عطف البيان ، فيفصل عنه ، وأنت إذا ما نظرت في الروايتين رأيت أنها جمعتْ ستًا من ضروب الصدقة:

= « يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ »

= « يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ ...»

= «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ »

= «كُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ »

= « دَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »

= « يُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »

هذه ست ليست بالحاصرة ، بل كلّ ما كان منه بسبيل : كلّ ما ينفع النّاس ، وكانت صِناعته احتسابًا وعلى وفق ما شرع الله تعالى فهو من هذا باب، فإنما ينفعُ الماس بتغير ويتنوّع بتنوع الأحوالِ والأعصارِ والأمصار. وغير

قليلٍ منها لا يعجز عنه أحدٌ . لا يتطلب قوة جسدٍ، ولا يتطلّبُ مالاً ، ولا يتطلّبُ تمكنًا في علمٍ أو صنعة. وفي هذا ما يجعل كل مسلمٍ قادرًا إن أراد على أن يقوم بهذا الذي هو حقٌّ عليه .

وفي روايةٍ لأبي داود في كتاب(التطوع)من سننه قوله:« وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَكْعَتَانِ مِنَ الضُّحَى ». وهذا من عظيمِ رأفة الله ﷻ بنا.

تبيّن لك أن البيان بُني على الإجمالِ التفصيلِ ، فأورد المعنى في صُورتين ، لكلّ صورة فعلُها في نفسِ المُتلقّي فجمع له بيْن فضيلة التّشويقِ والاستشراف ،وفضيلة التّمكين والمأنسة. وهذا كما ترى فيه وفاءٌ بحقّ المعنى لأهميته من جهةٍ ووفاء بحق السّامعِ أن يجعل المعاني نسلك في قلبه سلوك المشوقِ إليْه فيدخل دخول المأنوس، فيتمكن في القلبِ فضلَ تمكّن، فيكون له بهذا من الاقتدار على أنْ يفعل في القلبِ ما يراد له أن يفعلَ فيه. وبذلك يحققُ البيانُ رسالته التّواصليّة والتثقيفية ، وذلك هو البيانُ الغَنيّ الحميدُ. الغَنيُّ بالعطايا ، الحميدُ مِمّن يتلقاه.

***

وممّا هو من قبيل الفصْلِ لكمال الاتصال بيانا ما رواه البخاري في كتاب(الإيمان) من صحيحه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما قَالَ :قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ » . قِيلَ: أ يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ:«يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ: لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ »

قوله ﷺ أوّلاً : «يكفُرن» فصل عن قوله ﷺ : «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ » للاستئنافِ البياني ، فقوله ﷺ « أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ » لابدّ أن يثور في نفسِ السّامع تساؤلاً عارمًا عن سبب هذه الكثرة لهنّ في الجنة، أمن خيانةٍ أم من ماذا ؟ فيأتي قوله : «يكفُرن» ليبيّن عن وجه كثرتهن في النار، ولكنه ﷺ أراد أن يمكّن المعنى في النفس لأهميته وعظيمِ خطره . أرادَ أن يجعلَ بيان كفرهن مستقلاً ، ولم يجمعه إلى قوله "يكفرن" وكان يمكن أن يقول بداءة يكفرن العشير، فقالها : «يكفُرن» ، وهنا يأتي السّؤال المصرح به : "أيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ " فيأتي جوابه « يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ " وقوله : "يكفرن الإحسان" أعمّ من قوله "يكفرن العشير"، لأن العشير هو المستديم الصُّحبة ، والإحسان قد يكونُ من غير المستديم العشرة، ثمّ يبيّن وجه كفرانهن العشير بقوله ﷺ وأمته: « لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ - ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ » فيقرّر هذا المعنى في نفس السّامع ويوطنه ،

فصل قوله « لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ »عن قوله « يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ » لأنّه بيانٌ لمعنى "يكفرنَ العشير" ، وبذلك يسلك النبيّ ﷺ مسالك عدّة لتقرير هذا المعنى في القلوب لِما لكفرانِ العشير والإحسانِ مِن خطرٍ شديدٍ على استقرارِ البيوتِ واطمئنانها اللذين هما ضروريان لحسن القيام بتعمير الدّنيا بطاعة الله تعالى ،وتلك التي خلق الإنسانُ لها ،واستخلف فيها.

وفي بيان النّبوّة ما يَهدِي إلى أن المستوجبَ دخول النساء النارِ أمرٌ جدّ يسيرٍ تركُهُ على من وفقه الله تعالى إلى تركِهِ فالتّحصن منه لا يكلّف جهدًا ولا مالاً، إنْ هُو إلا اعترافٌ بالفضلِ وشكرٌ عليْه لمن بذلَه ألا يكفِي أنه بذله ، وأنّه اصطفى المبذول له من بين الآخرين، فبذلَه له، أليس ذلك فضلا على فضل؟ فِي هذا الاعترافِ والشكران من المتفضّلِ عليْهِ إعرابٌ لذِي الفضل عن أنّ ما جَاد به له في القلب محلٌ أمينٌ، وأنّه جاء عن رغبةٍ فيه، وأنّه ممّا يتشوف إليْه المتفضّل عليْه ،وأنه مما يبقى ذكره عنده، فلا يُنسَى، وفي هذا إلماعٌ له بأنّه يُحسن الاختيار، ويُحسنُ وضعَ الفضلِ موضِعَه ، وأنه يُحسن استزراعَ الحسْنَى في أرضٍ نقيّة خصبة تنبت الكلأ والعشب الكثير ،وهذا يحملُه على ديمومةِ الإحسان.

كلُّ هذا يصنعُه اعترافُ المتفضّل عليْه للمتفضّل ، وترك هذا الاعترافِ والشكران يقتلُ كلَّ هذه المعاني، ممّا يترتبُ عليْها فسادٌ كبير. فمن تُعذّبُ لكفرانِها العشير إنّما تعذّبُ على كبيرٍ أثرُه ، غيرُ كبيرٍ تركُه، وهذا يصوّر لك أنّ غيرَ قليلٍ من الذنوبِ لا يكلّفُ تركها جهدًا ومالاً ووقتًا، ويكلف عدم تركها شقاء في الدنيا والآخرة.

ومن يرقب شأن الرسُول ﷺ في الاعتراف بالفضل للآخرين يجد أمرًا جد نبيلٍ وماجد لا يكونُ إلا منّه ﷺ ، وتبصر إعلانه فضلَ سيدتنا خديجة رضِيَ اللهُ عَنْها عليْه (١) وإعلانه فضلَ أبي بكر الصديق ﷺ عليْه تجد ما يملأ قلبك محبة له ﷺ.

ومخرجُ بيان النبيِّ ﷺ هذا الحال من أحوال النساء ليس التعييرَ أو المذمة حاشاه ﷺ ، وإنما هُو لفتٌ لهنّ أنهنّ يوردنَ أنفسهن المهالك بأمر يسير عليْهن تركُه. وفي هذا حقزٌ لهم أنْ لا يستصغرن شيئًا من الذّنوب، كما هداهن ألا تستصغر أحداهن شيئًا من الهديةِ تهديه صاحبتها.

روى الشيخانِ البخاري في (الهدية) و(الأدب)ومسلم في (الزكاة) من صحيحيهما بسندِهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » . فلعلَ صاحبتها أحوج إلى هذا الذّي تستقلّه، فلو تركت إهداءه لتَرك بذل نفع لأختها. وقوله ﷺ (لجارتها) دون (من جارتها) هادٍ إلى أنّ الخطاب للباذلة، وليس للمبذول إليها.

***

وروى مسلم في كتاب (الجمعة) من صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِى كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ : يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ ».

قوله ﷺ: "يغسل رأسَه وجسدَه" فصل عن قوله ﷺ : "يغتسلُ في كلّ سبعة أيام" وهذا البيانُ فيه تقريرٌ لشمول الاغتسال حتّى لا يكون هنالك احتمال مَن يكتفي بغسل بعضِ بدنه، فأكّد ذلك لأهميته .ولو أنّه ﷺ « حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى

(١) في تسميتها رضي الله عنها (خديجة) معنًى جدّ نبيل: الخداج النقصان فهي خديجة (فعيلة) بمعنى مفعلة (بالكسر) أيْ هي منقصة من قدر كل امرأة تتوهم أن تساميها في الفضل ، فلا يكون ثمّ امرأة يؤازنها إلا وكانتْ رضي الله عنها منقصة لها لما لها من الكمال المبلس كل امرأة أن تتوهم أن تلحقه، وهذا قائما في ثلاثة أربعة كمل من النساء، وإنها الوحيدة منهن التي تفردت بأمرين جليلين: أنها تزوجت نبيا بل سيد الأنبياء، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ، وولدت الرّابعة من الكوامل سيدتنا فاطمة رضي الله عنها

كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ » وسكت لتُوهم أن ما يتحقَّقُ به الاغتسال كافٍ كأن لا يغسلِ رأسه حفاظًا على شعره إذا كان ذا شعرٍ .

وفي قوله ﷺ « حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ». من التنوير والتثقيف ما فيه، جعل الاغتسال حقًّا لله تعالى ، ولم يقل حقّ على كل مسلم، حتى لا يتوهم ان ذلك حقٌّ للنّاس عليه ، فيتهاون إن كان مِمّن لا يشغله كثيرًا حقّ الآخرين ، فلمّا قال: "حقّ لله" ، أقام مَن يقصّر أو يتهاون مقامَ من أعرضَ عن الوفاءِ بحق الله ﷻ عليْه، وتلك التي ينفِرُمنها كثير.

وأقام مَن يقبلُ ويسارعُ بالوفاء مقام الفائز بالمثوبة ؛ لأنّ الله ﷻ من شأنِه أن مَن وفّى له ببعضِ حقه وفّاه الله ﷻ مِن العطاء ما لا يتصوّر ، فضلا عن أنْ يطلب، وفي هذا مِن التحفيز والإغراء ما فيه. وهذا كله من فيض اسمه (ربِّ العالَمِين الرَّحمَنِ الرَّحِيم)

وفي الاغتسالِ مِن تطهيرِ النَّفسِ ممّا اكتسبت من الآثام ما يُعين العبدَ على أن يقبل على الطاعَة لله ﷻ ، فإذا ما كان الوضوء تتساقطُ به الذنوب، فكيف بالاغتسال.

ولما قال (كل مسلم) معربًا بهذا الوصف (مسلم) كان في هذا تذكيرا له بحق هذه الصفة أن يقول سمعنا وأطعنا، وأن يُسلّمَ لما يُؤمرُ به ، ولا يُجادلُ ، ولا يتقاعصُ عن المبادرةِ بالوفاءِ.

وفي هذا دعوةٌ إلى النّظافةِ التي تمنحُ الجسدَ نشاطًا ، والنّفسَ أريحيّة، وفيه أيضًا مراعاة لحقّ الإحسان بالجارِ ، ولو كان مارًا بك عرضًا فإن الله تعالى أمرنا بأنْ نحسن إلى ذلك الجار ومن فوقه في الجوار:(وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النّساء:٣٦)

الدّعوةُ إلى الإحسانِ في هذه الآيةِ عامّة : فجعلَها للصّاحبِ بالجنبِ ، ولو كانت الصُّحبة على قدرِ الصلاة أو حضور مجلس علمٍ ، أو في وسيلة مواصلة عامّة ، كتب علينا الإحسان لكلّ من كانت له صفة الجوارِ وصفة الصحبة مسلمًا كان أو غير مسلم ، والإحسانُ إلى كلّ بحسبه .

ولو أنّ كلّ مسلمٍ استمسك بما في هذه الآيةِ لكفته ، ولتحقّق للأمة السلامُ الاجتماعيّ بين أبنائها ، وحينئذٍ تحقق لها السّلامة من أعدائها.

ولتأكيدِ الالتزامِ بذلك جعله حقًّا لله ﷻ ،ولم يقل حق للمسلم على المسلم، كيما لا يتهاون المرء في الوفاءِ بهذا الحقّ ، وليقيم المرءَ في قلبه وهو يغتسل أن هذا عبادةٌ يُثابُ عليها. مما يجعلُه الحَريصَ على أدائها، وعلى إتقانها.

وفي هذا من تثقيفِ النّفسِ وإغرائها بصناعةِ الخيرِ ما فيه. ولذا كان الاغتسال يومَ الجمعة قبل الصلاةِ من هدي النبوةِ. ويُمكن أن يُستهدَى بذلك في استحبابِه قبلَ كلّ اجتماعٍ أو اختلاطٍ بالآخرين.

***

ومن الفصل للبيانِ ما رواه مسلم في كتاب (الزهد) عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ . إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ :إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

لما استهلّ سيّدنا رسولُ الله ﷺ بيانه بهذه العبارة المثيرة لكلِّ قلبٍ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ» جاء قوله ﷺ: « إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ » بيانًا للعلة ، فكأنّه قيل لم كان أمر المؤمن عجبًا؟ فقال ﷺ: « إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ » تبصر قوله(كلّه) كيف أنه أكّد أنّه ما مِن شيْءٍ في هذا الأمر إلا كان خيرًا .

وقوله ﷺ: « إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ » على الرّغم ممّا فيه من إجمالٍ إلا أنه يُبين لك عَنْ مجملٌ العلة ، فيترقّى بكَ في كشف أستارِ المعنى استبقاءً للسّامع في أسرِ البيان . وهذا مهمٌ جدًا .

ويأتي في سِياق الإبلاغ في التمكين للمعاني في القلوب قوله ﷺ : «لَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ» تأكيدًا لما في المفهومِ من الإضافة من قوله (أَمْرَهُ) فهذه الإضافةُ يفهمُ منها تلويحًا أنَّ ذلك للمؤمنِ خاصّة ، وهذا التخصيصُ ليس مِن طرق القصرِ الاصطلاحيّة عند البلاغيين ، لكنّ فيه معنى التّخصيص

قوله: « لَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ» توكيد لما فهم تلويحًا من التّخصيص بالإضافةِ ، وكان حقُّ ظاهره أن يكونَ غيرَمعطوفٍ بـ(الواو) بيْدَ أنّه جاء معطوفًا بـ(الواو)، لفتًا إلى أهميتِه واستحقاقِه الاستقلال بكاملِ العنايةِ مِن جهةٍ، ولفتًا إلى انه لم يأتِ لمجردِ توكيدِ منطوقِه مفهومَ ما قبله، بل ليمنحَ عطاء زائدًا، فقوله « لَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ» أدلّ على الاختصاص منه في (أمرِه) لما بني عليْه من التخصيصِ بأقوى أساليبه

ويأتي قوله ﷺ : « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ». هو تفسيرٌ وتبيين لقوله (إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ) أبان عن وجه الخير في حاليه : حال إصابته السراء ، وحال إصابته الضرّاء، فبيّن لنا أنَّ الإيمانَ يجعلُه إزاءَ السّراءِ في مقامِ الشُّكرِ، وفي حالِ السّراءِ يجعلُه في مقامِ الصّبر، وكلٌّ منهما يرسّخان الحِليةَ العليا له : (العبوديّة) التي لا يحبُ الله سُبْحانَه وبَحمْدِه صِفةً في الإنسان كمثْلِ هذه الحليةِ .

في الحديثِ كما تَرى مستويان من التّبيين ، وبهذا يتصاعدُ بك البيانُ في أفقِ الإبانةِ ، فكلّما صعدَ بك استشرفت ، فتمكنَ الذي يأتي من بعد استشرافٍ وتشوفٍ فملأَ قلبك ، فلا يكادُ قلبُك عنه يغفُلُ ، فإن كنت حينئذٍ في سرّاء قمتَ في مقامِ الشّكر قانتًا، وإن كنت في ضرّاء قمت في حال الصبر متزلّفا.

كذلك يحمل البيان النبوي المعنى إلى قلبِ السّامع ويمكنُه فيه بل ويفعله ليؤتي البيان أكله.

وهذا مِن الوفاءِ بحقّ المعنى على صانِعه من جهةٍ وحقِ متلقيه عليْه من أخرى ، فإذا بلغه وقد علم أنّ ربّه قد أحسن إليهما تأتّى ، فاحسن السّامع إلى المعنى ، فرعاه وربّاه ،وأحسن إلى نفسِه فاستثمره. وتلك هي رسالة بلاغة البيان.

****

من هذا ما رواه النسائيّ في كتاب "الأشربة" من سننه بسنده : " عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ عُثْمَانَ ﷺ يَقُولُ : اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ : إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا ، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ ، فَقَالَتْ : إِنِّى وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَىَّ ، أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كَأْسًا ، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلاَمَ.

قَالَ : فَاسْقِينِى مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا ، فَسَقَتْهُ كَأْسًا. قَالَ : زِيدُونِى ، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ ، فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا وَاللَّهِ لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلاَّ لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ." (1)

قوله: " إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ" فُصلَ عمّا قبله من أنّه بيان لقول:" ، إِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ" فرأسُ المعنى ومحصله هذه الجملة، ولما كان المقام مقتضيًا تقريرَ هذا الأمر في القلوب وامتلاءَها به كيما يكون فيها حاضرًا غير مزاحمٍ بما يعانده ، جاء قوله:" إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ..." محققًا هذا الأمرَ، خادمًا هذا المعنى الأمّ بتبيينه وتفصيله ، وهذا التبيين يحمل أيضًا شيئًا من التوكيد والتقرير، فكل تبيين يلزمه تقريرٌ و توكيد، ولا يلزم كل توكيد تبيين

وكونُ الخمر أمّ الخبائثِ لا تفتقرُ النّفسُ إلى تقريره، من أنّها مذهبةٌ للعقل، وذهابُ العقل يُمكن أن يترتبَ عليه خبائثُ لا تتناهي، فالنفسُ السويةُ تقرُّ بأنّ الخمرَ أم الخبائث ،وهي تفتقرُ إلى تفصيل خروج الخبائث منها.

وهذا الأثرُ لو عقله ولاة أمرِ المسلمين لكان موقفهم من الخمر موقفهم من كلّ ما يحدثُ في الأمة وهنا وتخلفًا، فمن رعاية الإمامِ قومَه أن يحاجزَهم عما يرديهم في الخبائثِ ، وأن يقيهم كلّ مضرّة. وهذا يصور لك عظيم تقصير ولاة أمرِ المسلمين حين لا يحاجزونهم بكل سبيلٍ مشروع عن الخمر وما شاكهها. فكيف حين يُشرعُ من يّدعي أنه وليُّ الأمرِ العام صناعةَ الخمرِ في وطنِه ويأذن باستيرادها وبيعها جهارًا ،ويأخذ على ذلك الضّرائبَ والمُكوسَ، ويقدّم في مجالسِه تجّارَها، ومدمنيها على أهلِ الفضلِ والعلمِ والخيرِ، ويصطحبهم في سفرِه إلى خارج بلادِه مفتخرًا بهم متترسًا بإفكهم وبفسقِهم وبفجورِهم وبِعُهرِهم... إنّ هذا لهو البلاءُ العظيمُ.

***

ومما جاء فيه البيان مفصولا لكمال الاتصال تبيينا لكيفية ما روى الشّيخان البخاري في كتاب(الأدب) و(الاستئذان) ومسلم في كتاب (البرّ والصّلة والأدب) من صَحيحيهما بسندِهما عَنْ أَبِى أَيُّوبَ الأَنْصَارِىِّ ﷺ أَنَّ

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه باب ذِكْرُ مَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ مُجَانَبَةِ الخمر على الأحوال، لأنها رأس الخبائث، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩ هـ) حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ،الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١)، ١٤٠٨ هـ ،حديث رقم ٥٣٤٨– ج١٢ص ١٦٨

ورواه عبد الرزاق(ت:٢١١هـ) في المصنف، تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، ، المكتب الإسلامي – بيروت ط(٢)، ١٤٠٣ ،الحديث رقم ١٧٠٦٠، ج٩ص ٢٣٥)

ورواه ابن أبي شيبة في المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر بن أبي شيبة(ت: ٢٣٥هـ)تحقيق: كمال يوسف الحوت ط(١) ١٤٠٩ هـ مكتبة الرشد – الرياض ،حديث رقم(٢٤٠٦٨)ج ٥/ ٩٧ وهو صحيح موقوفًا على عثمان بن عفان ﷺ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ » .

قوله ﷺ : «يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا » .بيان لكيفية الهجر، وليس بيانًا لمعنى الهجر، ولك – على ضعفٍ عندي - أنْ تذهبَ إِلَى أنّه استئنافٌ بيانيٌ لأن قوله: ﷺ :« لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ» يستثيرُ في النَّفس سؤالا : كيف يهجرُه، إلا أنّي لا أستعلي ذلك ، فَالمسؤول عنه هُنَا هُو الكيفيَّةُ، وهِيَ عندي ،وكذلك تفصيلُ المجملُ مِن قبيل مضمون الكلام، فالفصل هو من كمال الاتصال لا من شبهه لقوّة العلاقة بين المعنى وكيفيته وتفصيله، بخلافِ السُّؤال عن العلَّة أو عَن الفاعل أو غير ذلك، والأمر قريبٌ من قريبٍ.

قولُه صَلَّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ «يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا » يصور لك كيفية الهجر، فمجرد الأعراض هجر، وإن لم يكن من أحدهما للأخر أقل كلمةٍ سوءٍ أو نظرةِ ضيقٍ .مجرَّد أعراضٍ هجر حرمه الله سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ ، فكيف بما فوق ذلك، فكيف بما يتجاوز كلّ مستويات الآدمية؟ على نحو ما تعجُّ به البلاد؟

وتدبّر قوله: « لا يحلّ» لم يقل " لا يهجرْ ،حتّى لا يؤول بأنه نهي كراهةٍ، قطع الأمر: أمد أنّه لا يحلّ بأيّ وجهٍ وإحراج النهي في صورة الخبر من عوامل تأكيد المعنى ، فهو أبلغ من الأعراب بصيغةِ النهي( )

وقوله (لرجل) يدخل في الذَّكرُ والأنثى طوى التصريحَ بالمرأة لأنّ أمرهنَّ مبنيٌّ على السِّترِ إلا إذا اقتضى المقامُ تصريحًا، وفِي هذا مِن التَّربية الخلقية الاجتماعيةِ والتّثقيفِ النَّفسيِّ ما فيه. أمرهَنَّ مبنيٌّ على السّتر حتَّى في نطقِ اللسانِ بذكرهنّ أي إكرامٍ للمرأة هذا الذي جاء به الإسلام؟ ولكن أكثرهنّ لا يرغبْن في هذا السّترِ، هنَّ لا يكفرْن بهذه النّعمةِ الربانيةِ عليهن فحسْبُ بل يردُّنها، يريْن فيها احتقارًا، كما تُفهِمُهنَّ منظَّماتُ المجتمع المدنيِّ والمجلسُ القوميّ للمرأة، وسحرةُ إبليس وربائبُ أم جميل.

وفي قوله صَلَّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ : « لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ» أعرب عنه بأنه أخوه، يستثير فيه الرَّحمَ الجامعَ بينهما ، ولا تجد أحدًا فيه مسكةُ عقلٍ يتساهلُ في هذه النّعمة "الأخوّة" إنّها أشد عرى التماسك الاجتماعيّ الذي يجعل المُجتمع بُنيانًا مرصُوصًا ، لا سبيلَ لكلّ العادياتِ ضبحًا الموريات قدْحًا المغيرات صبحًا أن يكون لها في هذا المجتمعِ البنيانِ المَرصوصُ أثارةٌ من تأثيرٍ. إنّ الأخوة هي الحصنُ المنيعُ الَّذي لا يستطاعُ استظهارُه ،ولا نقْبُه.

يعرفُ أعداءُ الإسلام من داخلِه وخارجِه ذلك، فكان تحقيق "الفرقة والتّباغضُ والتّشاحن، وتأصيلُ ثقافة الكراهية والبغضاء والتخوين والسوء الظنّةِ.

لهذا كان البيان النَّبويّ بالغ العناية بتبيين منزلة التهاجر في أدنى مستوياته من الحرمة «يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا » إنه مجرد أعراض ، وليس تعرّضًا بفاحش قول ونحوه .

وهو يُبين عمّا ينهي هذه الحالة من التهاجر المبير بقوله: « وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ » .إنه السّلام الحقيقيّ قولاً وفعلاً ظاهرًا وباطنا ، في إلقاءِ السلام صدقًا واحتسابًا ما يقتلعُ من النفوسِ شحناءها، وما يبطلُ أفاعيل إبليس وسحرته وكهنته وسدنته .ليس إلقاء السلام كلمة يلفظها لسان من وراء قلبٍ مترعٍ بالشحناء، هذا لا يكون من قلبٍ ذاق طعام الإيمان. فلِسان المسلم إنما هو مرآة قلبه .ولذا كان من هدي الإسلام أن يفشي المسلمون السّلام ليتحقق لبنهم التآخي والتحاب

روى مسلم في كتاب(الإيمان) منْ صَحيحِه بسنده أَبِى هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ ».

يعمد البيانُ النبويُّ إلى ذلك الإبلاغ في التبيين لما في التّهاجر من إفساد الأمّة ، لأنّ الله سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ وعد رسُوله صَلّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّمَ ألا تؤتى الأمة من خارجها، وإنما تؤتّى من داخلها .

روى مسلم في كتاب(الفتن وأشراط السّاعة) من صَحيحِهِ بسنده عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ رضِيَ اللهُ عَنْهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِى مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ -صلى الله عليه وسلم- : « سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً .

سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».

فهذا النبأ الكريم وضع اليد على موضع داء الضعفِ في الأمة « بأسهم بينهم» فهل لم ابتلاه الله سُبْحانَهُ وتَعالَى بأن ولي أمر المسلكين ولو ثلة منهم أن يجتهد ألا يجعل« بأسهم بينهم» وأن يجعل التآخي والتناصر والتعاون على البر والتقوى ،وعلى نصرةِ الحقّ بالحق وعلَى صناعةِ الخير ونشره هو برنامجه السياسي والاجتماعيّ والثقافي والتّربوي...

أيأتي يومًا ذلك الرّجل. خلاص هذه الأمّة في خلاصِها من أن يكون بأسنا بيننا ،ولهذا جعل البيان النبويّ التآخي هو الحقّ الّذي لا يسقط ، فجعل كل مسلم أخًا لكل مسلم، وإن تباعدت الديار ، والأنساب والألسنة المهم أن يجمع ذلك كله الإيمان بما أمر الله الإيمان به، أن يكون الإسلام هو النسب هو الحسب هو الوطن هو "ام القرى"

وأنت إذا نظرت في قولِ سيدنا رسُول الله صَلّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلّمَ: « سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً .

سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».

رأيت فيه فصلا لكمال الاتصال تبيينًا، فقوله: « سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ». جمع فيه ما سأل من غير تفصيل، والمقام يحتاج إلى تفصيلٍ وتعديد فجاء قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ « سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».

وإن شئتَ أن تجعله استئنافًا بيانًا فلا حرج عليك، وإن كان عندي مذهبًا غيرُه الأعلى. المهم أن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ : « سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».جاء مفصلا ماسأل ربّه سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ . فكان من رحمة الله عَزَّ وجلَّ أن جعلَ أمر الأمّة إليها لا إلى خارج عنها ، ليكون لها طاقة بأن تصلح شأنها إن أرادت.

ضمن الله تعالى كرامة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّمَ أن يكونَ بعناؤها أو هُلْكها بسنةٍ وقحطٍ ، وأو غرقٍ ،فكان لها من هذين أمنة وعصمة، ليبقى ما يكونُ فيها من التَّشاحن، وفي هذا هداية للقائمين على أمرِ الأمة إلى أن تكون جهودهم وافرة فتية في تحقيق المسالمة والتحبيب ،والصرف عن التنافسِ في الفساد وصناعته وإدارته إلى التنافسِ في نصرةِ الحقّ بالحَقّ وفي صِناعةِ الخيرِ ونشره في النلس كلّ الناسِ، وأن يجعلوا أنفسهم في وفاء منيع من الفرقة والتحالف والافتراق(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران:١٠٢ -١٠٥)

ففي هذا الحديث إنباء بأن من يسعَى إلى أنْ يقيم بيْن الأمّةِ الفرقةَ والتخالف والتّشاجر والتناحر، فهو السّاعِي إلى إذلالها وإلى هُلكها وفنائها، فعلى الأمة أن تتعامل معه على أنّه ربيبُ عدوِّها ،وأنه " الكنز الاستراتيجيّ" لأعداء الأمّةِ . إذا رأيت ذا ولاية لا يُعنَى بجمع شمل الأمّة ، ورأيته يرى في الفتنة والتفريق عاملا من عوامل توطيد ملكه وسلطانِهِ ، فاعلم علم يقين أنّه والذين يصدون عن سبيل الله تعالى سواء

****

ومن هذا ما جاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّم مرغبًا في مخادنة القرآن والصيام ما رواه أحمد في مسنده بِسَندِهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ حُيَىِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِىِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ :

« الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

يَقُولُ الصِّيَامُ أَىْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ.

وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ. قَالَ فَيُشَفَّعَانِ ». ([1])

إذا ما كان الإيمان المنبثقُ من العلم المحقّق الوثيق بالله تعالى ذا أثر بالغ في حياةِ المسلم على نحو ما أشرت إلى شيْءٍ منه، فإنّه من الأجمل أن يكون المرء الأحرصَ على أنْ يكون ذلك الإيمان فتيًا وهذا ما يجعل من الإحسانِ عندي أن نتبصر ما في بيان النّبوّة من كشف عمّا له أثرٌ بليغ في تحقيق فتوة الإيمان الّذي به تصلح حياة الإنسان في جميع أحوالِهِ .

****

الأخذُ بالعلم المنبت شجرة "الإيمان" الجاعلِ صَاحبه على صراط مستقيم في جميع أمرِه مُسرّه ومُضرّه هذا العلمُ يستوجبُ لتزكيةِ الإيمان ووقايةً ممّا يضيرُه أو يضعفه أو ينقضُه ، ولتحقيق ذكائه وفتائه ونمائه أمورًا منها حسنُ اصطفاءِ المصدر الذي يؤخذ منه العلم ، وذلك هو القرآن الكريم

ومنها حسن الأدواتِ التي بها يتحقق أخذ العلم من القرآن ومن ذلك الصيام.

القرآن تلاوة وتدبرصا وتأدبًا مصدر قوة الإيمان وفتائه، وكمالِه.

والصيامُ فريضةً ونافلةً معينٌ على صفاءِ القلبِ ونقائه منْ كلّ شوْبٍ، ممّا يجعل هذا القلب مقتدرًا على حسن التلقّي فقهًا وفهمًا عن الله سبْحانَه وَبِحمْدِه([2])

---

[1] رواه أحمدُ وضعف سنده من قِبَل ابن لهيعة من أنه ضعيف لسوء حفظه، لا لتهمة في دينه وخلقه ، وهو ممن لا يُحتج به إذا تفرد، فإذا توبع أخذ عنه ، وقالوا إذا روى العبادلة الثلاثة ، عن ابن لهيعة فصحيح، والعبادلة: عبد الله بن المبارك وعبدالله بن وهب وعبد الله بن المقرئ

ورواه الطّبرانيّ في الكبير، ورجال الطّبرانيّ رجال الصّحيح

وقال الهيثمي في مجمع الزائد على رجال سند الطبري رجال الطبري رجال الصحيح (مجمع الزائد للهيثمي: (حديث رقم ٥٠٨١) ج٣ص١٨١- تحقيق : حسام الدين القدسيّ نشر مكتبة القدسي . القاهرة . عام ١٤١٤هـ

وفي باب "شفاعة الأعمال" قال الهيثمي:"رواه أحمدُ وإسناده حسن على ضعف في ابن لهيعة وقد وثق) (حديث رقم٣:١٨٥٤-ج١٠ ص٣٨١

ورواه الحاكم في المستدرك ،وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: ولكن نوزع في حكمه لأنّ حُيَيّ بن عبد الله ليس من رجال مسلم ،

وقال الألباني في " حُيي بن عبد الله تكلّم فيه بعضهم بما لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن .) (الألباني في كتاب "تمام المنّة في التعليق على فقه السنة. الطبعة الخامسة، نشر دار الراية ص: ٣٩٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته . المكتب الإسلامي حديث رقم: ٣٨٨٢. ج٢ص٧٢٠) وفي صحيح الترغيب والترهيب .في باب : الترغيب في الصوم مطلقًا وما جاء في فضله وفضل دعاء الصائم" نشر المكتب الإسلامي بيروت . الطبعة الخامسة . حديث رقم(٩٨٤) ج١ص٤٢٠] قال:"حسن صحيح"

وإذا ما كان هذا حال الحديث عند الألباني فإنّ مقبل الوادعي (ت ١٤٢٢هـ) قد ضعفه في كتاب"الشفاعة" ط(٣) ١٤٢٠هـ نشر دار الآثار للنشر والتوزيع: صنعاء . ص٢٤٩(حديث رقم ١٧٠)

[2] التلقي عن الله سبْحانَه وبحمْدِه فقهًا عماده تلقي المعاني الجمهورية ومعاني التكليف عقيدة وشريعة.

، والتلقي عن الله سبْحانَه وبحمْدِه فهمًا عماده تلقي المعاني الإحسانية القائمة بتثقيف النفوس ، وتنوير العزائم ، للقيام بما كلف به عقيدة وشريعة وأخلاقًا قيم تشوف وتشرف وتحبب ، واستطعام لما هو مكنونٌ فيها من عطاءاتٍ تتصاعد بمن استطعمها إلى مقام الإحسان.

الصِّيامُ أداةٌ رئيسَة في حسن استثمارِ طلبِ العلم ، فإنَّ التُّخمة، واستقصاء ما حلّ من المأكل والمشرب لعائقٌ فتِيٌّ عَتِيٌّ عن التّصاعد في مقامات التلقّي والأخذ بالعلم الشريف.([1])

ومن ثَمَّ كانَ في بيانِ النبوةِ مزيدُ اعتناءٍ بالتّرغيبِ في الإكثار من الصّيام نافلةً وقيامِ الليلِ بالقرآن ، فأمّا الصّيام ، فإنّه لله سبْحانَه وَبِحمْدِه وهو الذي يجزي به جزاء لا تطيق العقول تصوّره، ومن ثَمّ قال الله جلّ جلالُه في حقِّه فيما رواه الشّيخان بسنديهما من حديثِ أبي هريرة رَضِيَ الله عَنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم :

« قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِى ، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ .... »

وأمّا القرآنُ فإنّه كلام الله تعالى وهو أحبّ كلامٍ إلى الله تعالى، فما جازى أحدًا على قراءة شيءٍ بمثل ما جزاه على قراءة كتابِه ، فعُظم الجزاء آيةٌ على عظم العمل.

وممّا أوثر عن خباب بن الأرث رضي الله عنه قوله :

(أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لَمْ تكنْ تراه فإنّه يراك) فمقام الإحسان له مبدأ يمثّله قوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فهو درجة كمال المراقبة والمحاسبة، وأعلاه يمثّله قوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم : (أن تعبد الله كأنك تراه) فهو درجة كمال الشهود ، أي شهود جلال الألوهية ، وجمال الربوبية في العالمين ، فما من شيء إلا ويرى فيه أهل هذه الدرجة من الإحسان هذا الجلال وذلك الجمال وهو درجة الصدّيقين.

[1] روى البيهقي في كتاب "مناقب الشافعي " بسنده عن الربيع بن سليمان يقول: قال الشافعي: لا يسكن العلم في الجسم الغليظ

وعن الحسن بن إدريس الحلواني قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن. فقيل له: لم؟ قال: لأنه لا يعدو العاقل من إحدى حالتين :

إمّا أن يهتم لآخرته ومعاده، أو لدنياه ومعاشه. والشحم مع الهم لا ينعقد فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم يعقد الشحم"

(مناقب الشافعي تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق: السيد أحمد صقر ، نشر: مكتبة دار التراث – القاهرة ،الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ ج٢ص ١٢٠)

وهذا لا يعني به الشّافعيّ رَضِيَ الله عنه من كان سمنه وراثة أو مرضًا بل يعني به من استثبت الشحم في جسده بكثرة المرعى .

ولذا لم يكن النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم عليه وسلم يأكل متكئًا.

روى البخاري في كتاب(الأطعمة)بسنده عَنْ عَلِىِّ بْنِ الأَقْمَرِ سَمِعْتُ أَبَا جُحَيْفَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « لاَ آكُلُ مُتَّكِئًا » ولا يراد هنا بالاتكاء الاضطجاع، فهذا لا يكون في حال الأكل إلا من سفيه. والاتكاء في الأكل غير الاتكاء في الجلوس :

الاتكاء في غير الأكل هو الاضطجاع ، ومنه ما جاء في السنة روى البخاري في كتاب الأدب من صحيحه عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ » . قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لاَ يَسْكُتُ .

والاتكاء في الأكل هو أن يجلس إلى طعامه متمكنًا من الأرض أو من المقعد ، فيتمكن مقعده من الوطاء الذي تحته ، كما نفعل نحن الآن في مجالس أكلنا ، بحيثُ يتمكن جسده ممّا يجلسُ عليه ، وفي هذه الجلسة دلالة على كمال الاعتناء بأن يأكل ما أمامه حتى يشبع وفوق ما يشبع ، وأنّه غير عجل

أمّا الهيئة العالية في تناول الطعام أن يجلس على قدميه غير ملصق عجزه بالأرض ، أو يجثو على ركبتيه كأنّه متحفز للقيام مستوفزًا للخلاص ، وهذه الهيئة ما تزال في بعض البدو وبعضُ العامة في قرانا في صعيد مصر على ما رأيتُ قومي ولا سيّما في المحافل ،وفيها من التواضع ما فيها.

إنّا بحاجة بالغة إلى مزيد من العلم بآداب الأكل ، ولعلّي أستجمع منها شيئًا في كتاب ، أستطعم فيه ما في هذا الأدب من كريم الأخلاق، فإنّه في الناس احتسابًا لمرضاة الله سبحانه وبحمده لعلهم يهتدون

" إن اسْتَطَعْت أَن تقرب إِلَى الله عزَّ وَجلّ ، فَإِنَّك لا تقرب إِلَيْهِ بِشَيْء أحب إِلَيْهِ من كَلامه" ([1])
ومثل هذا إذا ما ورد عن صحابي ، ولم يرفعه إلى سيِّدنا رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم فما هو من عند نفسه، لأنَّه من أفق الغيب، وما كان لهم أن يتكلموا بشيْءٍ من أفقه لم يكن قد سمعوه من سيِّدنا رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم ، فهو في قوة المرفوع إلاَّ أن كمال أدبهم وورعهم وخشيتهم أن ينطقوا بحرفٍ لم ينطق به سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم ، كان يأتي بـ" واو" بدلاً من " الفاء" ونحو ذلك ، فتراه يرويه كالموقوف ، وقد كان هذا نهجَ غير قليلٍ من أصحابِ سيِّدنا رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم كما تراه في أكثر مروياتِ سيِّدنا عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنه . فهل لنا أن نتعلم كيف نتأدب مع بيان سيِّدنا رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم رواية ودراية وتأدبًا .
جاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم مرغبًا في مخادنة القرآن والصيام ما رواه أحمد في مسنده بِسَنَدِهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ حُيَىِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِىِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ :
« الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :
يَقُولُ الصِّيَامُ أَىْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ.
وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ. قَالَ فَيُشَفَّعَانِ ».
قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم : « الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » من عظيم البُشرى التي تحملُ من أصغي إليها بقلبٍ عقولٍ إلى أنَّ يكونَ له من هذين مقدار حاجتِه إلى الشفاعة له بيْن يديْ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعالَى .
هذه البُشرى جاءت مجملة محكمة ، لا يتبين للسَّامع نوعُ الشُّفاعة وما يكون بها ، فيكتفي بهذه البُشرى المحكمة القلبُ الفقيهُ ، بيْد أنَّه ليتطلعُ إلى مزيدٍ من التبيين والتفصيل اغتناءً بجليل البيان. فيأتي من بعدُ ما فيه تحقيقٌ لهذه الطِّلبة :
يأتي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلَّم: « يَقُولُ الصِّيَامُ أَىْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ.
وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِى فِيهِ »

---

[1] الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ) تحقيق: كمال الحوت،الطبعة أولى : ١٤٠٩هـ . مكتبة الرشد ،الرياض،الأثر رقم(٣٠٠٩٨) ج ٦ص ١٣٥ ،وكتاب : السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل(ت: ٢٩٠هـ)تحقيق محمد بن سعيد القحطاني ، ط(١) ١٤٠٦هـ دار ابن القيم ، الدمام ج ١ص١٣٣ ، والمستدرك على الصحيحين للحاكم تحقيق مصطفى عبد القادر عطا باب: تفسير حم السجدة ،ط(١) ١٤١١هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت. أثر رقم(٣٦٥٢) ج ٢ ص ٤٧٩ وكتاب :فضائل القرآن للقاسم بن سلام(ت: ٢٢٤هـ)تحقيق مروان العطية وآخرين ، ط(١) ١٤١٥هـ . دار ابن كثير ، دمشق-بيروت ،ص: ٧٧

ففي هذا البيان تفصيلٌ لهذه الشّفاعة ، وبيانٌ لكيفيتها ، فقولُه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آله وَصَحبِه وسلّم: يقُولُ الصيامُ...إلخ ينزل ممّا قبلَه منزلةَ عطفِ البيانِ في المفردات. ومن ثَم أوثر ترك العطفِ بـ(الواو) لفتًا إلى أنّ هذا تبيينٌ لصدر الحديثِ.

ومَسلكُ الإجمال ثم التّبيين في الإبانةَ فيه من تقريرِ المعاني في النفُوسِ ما فيه لإيرادِ المعنى موردين: مَورد الإجمالِ ومورد التفصيل، ولكلّ عطاؤه:

منْ عطاء الإجمال بعثُ النفسِ على الاستشراف إلى مزيدٍ مِن العلمِ والعرفان بما ورد عليْها، وهذا يجعلها عظيمة العناية بما أحبتْ أن تعلمه مفصلا ، فلولا أنّه ذو قدر ما رغبتْ في تفصيله وتبيينه وتفسيره.

ومن عطاءُ التفصيلِ إمتلاء النفسِ بالمعنى وإيقافها على مكوناته وحركته وتكوينه وإبراز دقائقه ولطائفه وطرائفه ، فيترع القلبَ ، فلا يجدُ نقيضه في هذا القلب مكانًا، فينصرف القلبُ إلى ذلك غير مشاغلٍ بغيرِه ، فيوفيه حقَّه من التبصّر والتدبر والفهم . فإذا وجد المعنى عنايةَ القلب به وإكرامه له ، نشر المعنى في القلب نورَه (جزاءً وفاقا) (هلْ جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان) فإن أحسنتَ استقبال المعنى أحسن المعنَى عطيتَك وإرفادك ، فانظر موقع المعنى منك تبصر ما يكونُ لك منه.

الأهمّ أنّ البيان النّبوي أبانَ لنا أنّ الصيامَ مشغلة العبد نهاره عن طعامه وشرابه وما تشتهي نفسُه ممّا أحلّه الله تعالى.

يؤثر العبدُ الصّيامَ إيمانا واحتسابًا على الاستمتاع بتلك الملذات المباحة، وهذا آيةٌ على عظيم الرّغبة في رضوان الله تعالى ، إيثار محبوبِ الله تعالى على محبوبِ النّفسِ ومشتهاها. فيكون له يومَ القيامة من الصّيام أن يبتهل إلى ربّه سُبحانه وتَعالى جدُّهُ :

« أيْ رَبِّ ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. »

والقرآن مشغلةُ العبد ليله عن نومه وما يرغبُ فيه من الرّاحة والإخلاد ، يؤثر أن يكلم الله تعالى بكلامه وأن يتفقهه وأن يأنس به إيمانًا واحتسابًا على الاستمتاع بمنامه وسكونه ، وهذا أيضًا آيةٌ بيّنة على عظيم الرّغبة في رضوان الله تعالى، إيثار محبوبِ الله تعالى على محبوبِ النّفسِ ومشتهاها فيكون له يومَ القيامة من القرآن أن يقول :

« مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ »

تبصر كيف أن الرسولَ صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آله وَصَحبِه وسلّم تسليمًا كثيرًا في جانب الصيامِ قال:

« يَقُولُ الصِّيَامُ أيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ »

وفي جانب القرآن يقول :

«وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ »

لم يقل هنا كما قال في الصيام (أي ربّ) لأنّ القرآن غير مخلوق، فلا يجوز أن يقال عن الله تعالى : ربّ القرآن ، ومن حلف قائلاً : وربّ القرآن، فقد ضلّ ، بينما يجوز أن يقال : وربّ الكعبة ، ويقول : والقرآن الكريم. مقسما بالقرآن، لأنّ القرآن كلامُ الله تعالى ، وكلامه غيرُ مخلوق سُبحانَه وتَعالَى جَدُّهُ .([1])

إذا كان هذا عطاء مصاحبة الصيام ، وعطاءُ مصاحبة القرآن فكيف يكون العطاءُ إذا جمع العبدُ في نهارِه إلى الصوم قراءة القرآن ؟

أليس هذا يكونُ أجلّ َوأعظم، وكيفَ إذا جمع في ليلِه إلى قراءة القرآن قيامَ الليل؟ أليس هذا أجلّ وأعظم وأجودَ وأكرم ؟

بذلك يتبيّن للمسلم فضل عبادة الصيامِ وفضلَ عبادةِ القرآن عليْه ، وفي هذا من الإغراء له بملازمة هاتين العبادتَين ، وهما عبادتان بيْنما علاقة وُثقَى .

من هذه أنّ الصّيامَ تطهيرٌ للجسدِ وللنّفسِ ، فهو عبادة تخلية وتطهير وتزكيةٍ وإعداد للنفسِ والقلبِ أن يكونَ أهلاً للتلقّي،

جاء في السّنة ما رواه أحمدُ في مسنده بسنده الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِيكَرِبَ الْكِنْدِىَّ رَضِيَ الله عَنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ:

« مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثُ طَعَامٍ وَثُلُثُ شَرَابٍ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ ».

ورأس الشَّرّ في هذا أن يعيقَ امتلاءُ البطن العبد عن حسن الفقه والفهم لما يُلْقَى إليه من العلمِ. فذلك الخسرانُ المُبِير ، فإنه إن خسرَ مالاً أو منصبًا من مناصب الدنيا قد يكونُ بملْكه أن يُعوّضه بمثله أوأحسن منه ، أماإلن فاته الفقه والفهم عن الله سبْحانَه وَبحمْدِه فأنى له أن يعوضَه،

وجاءت الحكمة هادية إلى أنّه " لا تدخلُ الحكمة جوفًا مُلِئ طعامًا"

ويأتِي القرآنُ عبادة تحلية واستزراعٍ للخير في النَّفسِ والقلب الذي أعدّه الصّيامُ لحسن استزراع الإحسان بالقرآنِ في الكونِ والحياة جميعا

ولهذا قدّم الصّيامَ على القرآن على الرّغمِ مِنْ أنّ الصّيامَ فعل المسلمِ ، والقرآن كلمةُ الله تعالى وهذا وجهٌ من وجوه بلاغة التقديمِ والتّرتيب في بيانِ النبوّة .

---

[1] ما ذهب إليه بعضُ الفرقِ من أنّ القرآن هو الكلام النفسيّ والذي نقرأ في مصاحفنا ليس كلام الله القديم وغنماهو ترجمة كلامه القديم إنما هو ضربٌ من الضلال المبين .

وقياس كلام الله على كلام الناس مثلُ أحدنا إنما يقيم كلامه في نفسه ثم يصوره بلسانه إنما قياسٌ ضالٌ، فأي عاقل يقيس فعل الله تعالى على فعله ؟

إنّ فرية الكلام النفسي في حق الله سبْحانَه وَبِحمْدِه لا يرتضيها إلا من خلّي بينه وبين نفسه وشيطانه والمستعاذ به من ذلك هو الله الحيُّ القيوم

وإذا ما كانَ الصَيامُ قد جاء في فضله كثيرٌ، ومنه ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم في كتاب الصيام بسَندِهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِى ، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ . وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ . وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِىَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » . (النص للبخاري)

فإنَّ القرآنَ كلمةُ الله تعالى وكفَى بذلك فضلا، وقد قال فيه سبْحانَه وَبحمْدِه :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (البقرة:٢)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (يونس:٥٧)

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل:٨٩)

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً) (الإسراء:٨٢)

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)(النمل:٧٧)

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ *هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) (لقمان: ٢٠٣)﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٣-٤)

كلّ ذلك يجعلُ كلَّ قلبٍ معافَى من داءِ الغفلةِ وما فوقَها أشدّ شغفًا بالقرآن ومصاحبته ليكون من أهلِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى جدُّهُ ، فأهلُ القرآنِ هم أهل الله تعالى كما جاء في ما روى ابن ماجه في مقدمة السنن بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ « هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ ».ورواه أحمد في مسنده [1]

إذا ما كان لأهلِ الأمراء والوزراء وعليةِ أقوامهم منزلةٌ تشرئبُّ إليها أعناق الدهماء ، فإن لخالقِ الأمراء والوزراء وعليةِ القوم ورازقهم والمقتدر عليهم أهلا : إنهم أهل القرآن.إيمانًا وتلاوةً وتعلمًا وتعليمًا تأدبًا ودعوة به وإليه إيمانًا واحتسابًا ، فأي الأهلين إليك أحبُّ.

---

[1] صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه ,حديث رقم صحيح الجامع الصغير وزياداته ,حديث رقم(٢١٦٥) وفي صحيح الترغيب والترهيب ,حديث رقم(١٤٣٢)

وإذا ما كان النّاس يبذلون ما يملكون لا ليكونوا من أهل الأمراء والوزراءِ وعلية القوم بل ليكونوا من المقربين منهم، فكيفَ يضنّ النّاس على أنفسِهم وأولادهم أن يبذلوا نزيرًا ممّا تقبضُ عليْه أيديهم وقلوبهم من لعاعة الدّنيا ومتاعها كيما يفوزوا بذلك الشرف العظيم ؟

روى ابن المبارك (ت: ١٨١هـ)في كتابه" الزّهد" بسنده موقوفًا أنّ عبدَ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قَالَ:

« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدْ أُدْرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ، فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللهُ، وَعَظَّمَ مَا حَقَّرَ اللهُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجْهَلَ فِيمَنْ يَجْهَلُ، وَلَا يَحِدُّ فِيمَنْ يَحِدُّ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»

هذا الأثر الموقوف وهومن أفق الإنباء بالغيب ممّا يَجعله في مقامِ المرفوع يجعل صاحب القرآن إيمانًا وتلاوة وتدبرًا وتأدبًا وتعليما لا يرى ما في يدِ مَن ليس كذلك خيرًا ممّا في يده ، فإن خطر ذلك بباله إذا ما تكاثرت لعاعات الدنيا بيْن عينه فعليْه أن يجدّد إيمانه، فقد وهن ، ممّا جعل لتلك اللعاعات تأثيرًا في قلبه ، أفقده القدرة على أنْ يرى سمّو ما في يديه منكتاب الله سبْحانَه وَبِحمْدِه .

وليس ذنبٌ أنكى بعد الشرك من أن يحقر العبد ما عظمَه الله جلّ جلالُه أو يُعظّم ما حقر الله عزّ وعلا، لأن في مثل هذا استهانة بالله تعالى ، ووصفه بعدم الحكمة،وتلك التي لا تُطاق. وغيرقليلٍ من الناس تَراهم يعظّمون من قال الله تعالى في حقهم: (... أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف:١٧٩)

الصيام والقرآن هما عاملان فتيّان للحفاظ على كمال أيمان من النقصِ أو النقض،وهما عاملان فتيان يمنحان الإيمان ذكاء وفتاءً ن فيكون الحصن المنيع لصاحبهما لا يرضي الله سُبحانَه وتَعالى في أحوال العبد كلها . وذلك أجلّ ما يحرصُ عليْه العاقل في مسيره في هذا الحياة

***

ومن هذا في الكلمة الشاعرة ما جاء به أوس بن حجر راثيًا فضالة بن كلدة:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعَا * إِنَّ الذي تحذرينَ قدْ وقعَا
إِنَّ الّذي جمعَ السّماحةَ والنّـ * ـجْدَةَ والحَزْمَ والقُوى جُمَعَا
الألْمَعِيُّ الّذي يَظُنُّ لكَ الظّـ * ـنّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعا
والمخلفَ المتلفَ المرزأَ لم * يُمَتَّعْ بِضَعْفٍ ولمْ يمتْ طَبَعَا
والحافظَ الناسَ في تَحوطَ إذا * لم يُرْسِلوا تَحْتَ عائِذٍ رُبَعَا
وازدحمتْ حلقَتَا البطانِ بأقْ * وامٍ وطارتْ نفوسُهُمْ جزعَا
وَعَزّتِ الشَّمْأَلُ الرِّياحَ وَقَدْ * أمسَى كميعُ الفتاةِ ملتفعَا

وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ من الـ أقْوامِ سَقْباً مُلَبَّساً فَرَعا
وكانتِ الكاعبُ الممنَّعة الـ حسناءُ في زادِ أهلِها سبُعَا
أودَى وهلْ تنفعُ الإشاحةُ منْ * شيءٍ لمَنْ قدْ يحاولُ البدعَا

استهل أوس مرثيته بهذه الفاتحة (أيَّتُهَا النَّفْسُ أجْمِلِي جَزَعَا) مقدمًا النداء على نفسِه، مجردًا منها آخر يناديه ، فهذه الصيغة (أيتها) تحمل من المعاني ما جعلها معهودة في السنة البيانية للقرآن ، فلم يقل (يا نفس) بل قالها (أيتها النفس) حاذفًا حرف النداء دلالة على قُربه ممن يناديه ، وأنه يناديه إيقاظًا من غفلة ، بل يناديه استأنسا ، وليكون لها الرفيق فيما ألمّ بها، والنصيح لها، فحرًى ان تُصغِي إلَيه ولا تسترسل فيما هي فيه ، فتتلف، وهو الحريصُ على بقائها، فليس له إلا هي من بعد أن فقد المرثيّ . ثم يتوجه إليها بالنصح: (أجملي جزعًا) " لَم يقل لها :" لا تجزعي" لأنَّ جزَعها علَى فضالةَ لا يجوز إنكاره عليها، وإنما يطلب منها أن تجزع جزعًا جميلاً..." (١)

حثها على ألا تُفرط في الجزع، فتسترسل في تفاصيله ، بل يكون لها منه جملته منْ كلِّ ضربٍ نصيبٌ ، وأن يكون ذلك الجزع المجملُ جميلاً ، لا يتلف، ولا يعيقُ عن القيام بما يجبُ القيام به، ولا يقصّر في حق المرثيّ في الجزع من فراقه. فقوله (أجملي) يجمع أمرًا بالإجمال، وأمرًا بأن يكون هذا الجزع المجمل جميلاً. فهي صيغة من قبيل المشترك الذي يراد معنييه في سياق واحد لتآنسهما ، والمشتركُ قد يُرادُ منه أكثرُ من معنًى من معانيه إذا ما كان المراد ممّا يأنسُ السّياق به مفردًا ومجوعًا إلى غيره، فليس القولُ بالمنْع مِن إرادةِ معاني المُشترك في سِياقٍ واحدٍ على إطلاقه، بل ذلك إذا لم يكنْ كلٌّ أنسًا بالأخرِ في السّياقِ الّذي له البيانُ.
ولمّا كان هذا المنصوح به فيه ما يستثير النفسَ للعرفان بالباعثِ عليه جاء قوله (إنّ الذي تحذرينَ قدْ وقعَا) استئنافًا بيانيًا، ، وبني الاستئنافُ على هذا النّظم البالغ توكيدًا، على نحو ما تراه من الإعراب بـ(إن) وباسم الموصولِ وصِلته وبـ(قد) ودخوله على الفعل الماضي، وفي تكثيف هذه المؤكدات تقريرٌ للنبإ في النفس ،وكأنها تنازع في تلقّيه، وفي الإعراب باسم الموصُول وصلته بيان أنه لم يكن لها ما تحذره غيره كما يقول شيخنا، فكلُّ ما في الحياة لا يُخشى فقده، إن فقد فضالة ، فقد توفر ذلك الحذر لفقد فضاله وحده ، فهو الأحق بأن يحذَر فقدُه، ، فكلّ ما عداه يكونُ في غيرِه عوضًا عنه أمّا فضالة ففقدُه الفقدُ. يقُولُ شيخُنا:" ولعلّ هذا من أهمّ ما تقدم به هذا المطلع"
وهذا الشّطر هُو القصيدة أو كما تقول العرب هو بيْت القصيد أي هو فسطاطها ، وبيتُها الّذي يجمعها ،فقول العرب هذا بيت القصيد لبيت في القصيدة أو شطرة، إنما يعنون أنّ فيه أمّ المعنى وفيه يقطن مقصُودُها ومعناها الأم، وغرضها المحوري المركزيّ ، هو أمّ القرى، وهذا منهم التفات إلى أن في كل بيان عالٍ (أم القرى) فلو أنّ أوسًا

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء لشيخنا ص٢٥٧

سكتَ بعد قوله (إنّ الذي تحذرين قدْ وقعا) لكفى أهل الفهم، ولكان لك أن تسترسل في التفصيلِ من عند نفسك على قدر علمك وتصورك، فتستعذب بذلك ، فالقصيدة مجموعةٌ في هذه الشطرة ولكنّ أوسًا يأبى إلاّ أن يُفصّل، لا ليُعلِم بما يُجهَل، أنّى وكلّ الحياةَ عليمة بمنْ فضالة ، إنّما يفصّل ليشغَلَ هذه النّفس عن الاسترسال في الجزع فتتّلف، يستحضر لها سمعًا ما هي العليمة به قلبًا: فيقول لها:

إنّ الذي جمعَ السّماحةَ والنَّـ جْدَةَ والحَزْمَ والقُوَى جُمَعَا

يمضي مسترسلا، إلى أن يبلغ الخبر (أودَى) وما بينهما من تفاصيل المسند إليه .يقول شيخنا عن ذلك "أودى": أقصر خبر عن أطول مبتدإٍ في الشّعر... و:انّ "أوسًا" كان يمدُّ الكلامَ في المبتدإ ، ويمطلُه حتّى لا ينطق بالخبرِ المفزعِ له...

***

وممّا جاء الفصلُ فيه لكمال الاتصال تبيينًا قولُ الفرزدق:

أخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إنْ لَمْ يُعَافِنِي أشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ التِهَاباً وأضيقا

إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لَقَدْ خَابَ مِنْ أوْلاَدِ آدَمَ مَنْ مَشَى إلى النَّارِمَغْلُولَ الْقِلاَدَةِ أزْرَقَا

يُقَادُ إلَى نَارِ الْجَحيمِ مُسَرْبَلاً سَرَابيلَ قَطْرَانٍ لِبَاساً مُحَرّقَا

إذا شربُوا فيها الصديد رأيتَهم يذوبون من حرّ الجحيم تحرّقا

قوله: (إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ) وما بعدَه تفسيرٌ لما في البيت الأول، ومن ثم فصل عنه، لأنّه ليس شيئًا غيرَه، إلاّ أنّ ذاك مجملٌ، وهذا مفصّل.

وأنت إذا ما نظرتَ في البيْت الأول:

أخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إنْ لَمْ يُعَافِنِي أشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ التِهَاباً وأضيقا

رأيتَ أنّ الفرزدق استهله بقوله(أخاف) وهنا يشرئب القلب ليبصر ذلك الذي يَخافه "الفرزدق" وهو الذي طالما افتخر بآبائه، وشجاعته، فإذا ما جاء قوله:(وراء القبر) ازداد القلبُ تشوقًا، فإذا به يُريك أنّه لا محالة واقع في قبضة الخوف إلا أن يُعَافَى ، ولم يذكر لك الفاعلَ، إيماءً إلى أنّ ذلك ليس له إلا فاعلٌ واحدٌ، لا يحتاجُ عاقلٌ إلى أنْ يصرّح باسمه ليعلم أنّ طيّ ذكره أدلُّ عليه .

يصور" الفرزدقُ"لك ما يعمل في قلبه من بعد أن كبرَت سنّه ،وثاب إليه رشْدُه، أدرك أن القبرَ، وإن كان هو الّذي تتخلع من رؤيته القلوب، فإنّ الذي وراءه لأشد التهابًا وضيقًا، وإذا ما كان القبرُ على ضيقِه هو المتسع بالنسبة لما وراءه، فكيف يكون ما وراءه؟

هنا يهتبلُ" الفرزدق "الفرصة ، فيصوّرُ لك ما وراء هذا الذي هو أشدُّ وطأةً من القبرِ .ويمضِي في التّبيين والتّصوير .وأنت تتبصّر تبيينَه وتصويرَه، تدرك ما يعتملُ في صدر"الفرزدق: "

يصَوِّر لك نفسَه وهو مسوقٌ مدفوعٌ في قفاه، ولا حولَ له ولا قوة ،وأيّ قائدٍ وسائق إنّه لعنيفٌ ، وما هو بعنف يُطاق ،إنّه عنف ملَكٍ ، لو لَم يكنْ من العقوبةِ إلاّ سوقُه ودفعُه، لك في العاقلَ أن يفرَّ ممّا يوجبُ له ذلك الدَّفع والسوق، بدأ، بأقلِّها ، على الرُّغم من أنّها وحدها الكافية، ثمّ يمضِي بك ليبيِّن لك أنْ هذا القِياد والسّوق والدَّفع إنّما يكونُ المقودُ مغلولاً، والغل والتكبيل وحده كافٍ، وإنْ لَم يكنْ قِيادٌ وسوقٌ ودفعٌ، فكيف ، وقد اجتمعا، وفي اصطفائه(القلادة) من تصوير المهانة ما فيه، فما هو بعذابٍ أليمٍ رهيبٍ فحسبُ بلْ هو العذابُ الأليمُ المُهين .فإذا ظَنَّ ظانٌّ أنّه بجلَدِه وفتوته يقتَدِرُ على أن يصبرَ على الألم ، وإنْ عظمَ ، فأنّى له إنْ كان فتيَ النَّفسِ والجسمِ أن يُطيق العذاب المُهين؟ أثمّ مَن يُطيقُ الإهانة؟ لا يصبرُ عليها إلا قِنّ بن قِنّ .ولهذا تجدُ الطغاةَ في كلّ عصرٍ ومصْرٍ يعذّبون خصومَهم عذابًا مهينًا، فأوّل ما يفعلون يصفعونَه على وجههِ وقفاه، وكلّما كان شريفًا حَسبًا أو نسبًا كانوا أشدَّ احتفاءً ،واحتفالاً بصفعِه على وجهِه وقفاه .وتلك التي لا يطيقها حرٌّ.

يقُول المتلمس الضبعي:

لا ترضَ صَفْعاً ولو من كفّ والدةٍ   ما قالَ ربُّكَ أنْ يُستعبَدَ الوَلدُ

إذا استمرَّ على حملِ الأذى أسَدٌ تنسَى الكلابُ ويُنسَى أنّه الأسَدُ

ويمضي الفرزدق يصور لك هول ما يكون من بعدِ القبر، ومثل هذا الشعر هو الجدير بأنْ يقيمه المرءُ في وعيه، ويستحضره، ويتذوقه ،فإنّ فيه ممّا ينفع النّضيرَ الوفير.

***

ومن باب الفصل للتبيين قولُ الفرزدق:

لا فَضْلَ إلاّ فَضْلَ أُمٍّ عَلى ابْنِها كَفَضْلِ أبي الأشْبالِ عِندَ الفَرَزْدَقِ

تَدارَكَني مِنْ هُوَّةٍ كانَ قَعرُها * ثَمانِينَ بَاعاً للطَّويلِ العَشَنَّقِ

إذا مَا تَرَامَتْ بامرِئٍ مُشْرِفاتها *إلى قَعرِها لَمْ يدرِ مِنْ أينَ يَرْتَقِي

طَلِيقُ أبي الأشبالِ أصبَحتُ شاكِراً لَهُ شُعَرُ نُعْمى، فَضْلُها لمْ يُرَنَّقِ

أبَعْدَ الّذي حَطَّمْتَ عَني وَبَعْدَما   رَأيْتُ المَنَايَا فَوْقَ عَيْنيّ تَلْتَقي

حَطَمتَ قُيودي حَطْمَةً لم تَدعْ لها* بِساقيّ، إذْ حَطّمْتَها، من مُعَلَّقِ

لَعمْرِي لَئِنْ حَطّمْتَ قَيْدي لطالما مَشَيْتُ بِقَيْدي رَاسِفاً غَيرَ مُطْلَقِ

استَهل الفرزدقُ شدوهُ بحقيقةٍ سيَبني عليها تصويرَه جليلَ فضل أبي الأشبال :أسد بن عبد الله لا فَضْلَ إلاّ فَضْلَ أُمٍّ عَلى ابْنِها، مَنْ ذا الّذي يجادلُ فيها، فإذا به يجعلُ هذه الحقيقةَ شبيهة هي بفضلِ أبي الأشبالِ عليه، كأنّه يقوم بإحداث تصحيح للحقيقةِ التي تلاقتْ عليها العقولُ والقلوبُ والنّفوسُ : "لا فَضْلَ إلاّ فَضْلَ أُمٍّ عَلى ابْنِها" فقال لهم: بل الأصلُ لا فضل إلا فضل أبي الأشبال على الفَرزدق . أيبقَى لك أن تمكثَ غيرَ متشوفٍ لِتعلم تفاصيلَ هذا الفَضل الّذي أسداه أبو الأشبال على الشّاعر.

ها أنت ذا تفتحُ عقلَك وقلبك ونفسك لِتتلقَّى تفاصيلَ هذا الفضلِ الذي فاقَ فضلَ الأمّ على ابنها ، وهي الَّتي لا يمكنُ أن تُجازَى مهما فُعِلَ معها تكرمةً وبرًا وخضوعا على زفرة مِنْ زفراتِ الميلادِ .

قد امتطَى الفرزدقُ صَهوةَ الإبلاغ ، واقتدر على أنْ يغزُو العقولَ والنّفوسَ والقلوبَ، وأنْ يقتحم أسوارها، وأن يجعلها تفتحُ أبوابَها مهما أحكمت رتاجها. كلّ ذلك فعله مستهلّ القصيدة. وكذلك الشّعراءُ يفعَلون.

استهلّ الفرزدقُ تفصيلَ ما كان منْ أبي الإشبالِ عليْه مغدِقًا:

فكان هذا التفصيل جديرًا بأن لا يُعطف على ما قبلَه بـ(الواو) وقد فعل.

بدأ بالإنباءِ بأمرٍ جليل لَوْ لَمْ يَكُنْ لَمَا كان الفرزدقُ ، ولَحُرِمَ الشّعرَ وأهلُه، ففضلُ أبي الإشبال لَيس بالمُنحصِر في الفرزدقِ. إنّه لفضلٌ على الشّعرِ وأهلِه، بل علَى الإنسانِ كلِّ الإنسانِ،،فالشّاعرُ ولاسيّما مَنْ كان كَمثْل الفَرزدَق هُو نعمةٌ علَى الّلسانِ الإنسانيّ كلّه ، فكيف بالعربيّ . وإن فضلَه على جرير لا يُقاسُ: لولا الفرزدَقُ ما كان لجريرٍ أن يكونَ كما كان، فالشّاعرُ حين يقوم له عديله يكونُ ذلك الوقودَ المذكيَ أوارَ الشّاعرية المخفزَها على أن تعلُوَ على مَتنِ الآخرِ، تمتطِيه حيناً و تسوقُه مرةً، ،وتَسْحبُه أخرى إلى ما لا يُحبُّ ،وكل ذلك الفائزُ الشعرُ وأنت خدينُه وعشيقُه.

المهمّ أنّ الفرزدق ابتدأ بالّتي لولاها لما كان الفرزدقُ في النّاسِ يشْدو، ويشجُو. ويذكي العزائمَ ، وينيرُ الطرائق إلى المعالي بفخره ، وثنائه على أهلِ الفضلِ، ويُحاجز عن المساوئ بهجوه لأهلها. كذلك الشاعرُ آمرًا بكريمة، محاجزًا عن لئيمة ، هم الشّعراء، يثورون العزائم إلى المعالي، ويثبطون النفوسِ عن المسالب. كلّ شاعرٍ متحقّقٍ بالشّعر ، متحقّقٍ بِه الشّعرُ تُشرق من قلبِه الكلمة النور، يُسلّ مِن لسانه الكلمةُ السّيف لِمن أبى أن تقوم فيه الكلمة النورُ ليقوم فيها.

ويمضِي الفرزدق يعرض على قلبك ليَسْعد بما يسمع، وليعلم أنَّ في النَّاسِ من جعلهم الله تعالى مفاتيح خير، ومغاليقَ شرٍّ يَختطفون النَّاسَ مِن هوي المصائب، إلى عَليِّ المراتبِ ، ولن تخلو الحياةُ منهم ، فإنْ خلتْ أَزِفَتْ الآزِفَةُ لَيسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ .

***

ومِمّا كان الفصل فيه للبيان ما قاله محمود الوراق:

أرَى دهرنا فيه عجائبُ جمّةٌ إذا استُعرضت بالعقلِ ضلَّ لها العقلُ

أرَى كلَّ ذي مالٍ يَسود بماله وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فصلُ

وآخر منسوباً إلى الرّأي خاملاً وأنوك مخبولاً له الجاهُ والنُّبلُ

وما الفضلُ في هذا الزّمانِ لأهلِه ولكنّ ذا المالِ الكثيرِ له الفضلُ

فشرّف ذوي الأموالِ حيث لقيتهم فقولهم قولٌ وفعلُهم فعلُ

في البيتِ الأولِ أجملَ الشاعرُ الأمرَ ، ممّا يجعلُ البصيرَ بما هو قائم فيه ، وبما هو مُحيطٌ به من حال العبادِ والبلاد في مجالات الحياة كلّها مكتفيًا به. فلو أنّه قال البيت الأوّل وسكت، ثمّ نظر المرء فيما حولَه لَرأي بعينِه ما هو تبيينٌ لما أجملَ في البيتِ الأوّل . كلُّ ما حولك إنْ هو إلاّ تفسيرٌ للبيتِ الأول، ولكنّ الشّاعر أبَى كرمًا منه عليك وعلى معناه (وليد قلبِه) إلاّ أن يفصّلَ الأمرَ ويبيّن، فجاء بالأبيات الثلاثةِ الأُخر مفصّلَةً ومبيِّنة، ثم ختم قوله بنفثة مصدور تحرق ، فقال البيتَ الأخير، وفيه من التهكم والتفجع ما فِيه، وكأنّه وهو يقولها: (فشرفُ ذوي المال...) يصرخ بشكواه، وينعَى إليْك ما آل إليْه الحال. فلم يجد بدًا منْ أن يدعوك إلى ما لا يدعو إليه إلاّ منْ أُحيطَ بِه ، فكاد يَخرجُ عن سياقِ عقلِه ، فطلبها منك (فشرف ذوي المال...) إنّها سبة أيّ عصر أن يُشرَف فيه ذوو المال الأجرد من الفضل.

***

ومن كمال الاتصال تبيينا قولُ الرّاجزِ:

إنّي، وَإنْ عَيّرتني نُحولي، * أو ازْدَرَيْتِ عِظَمِي وطُولي

لأعْجِفُ النّفسَ عَلَى الخليلِ * أعْرِضُ بالـــوُدِّ وبالتّنويلِ

يريد بقولِه:" أعْرِضُ بالوُدِّ وبالتّنويلِ" أعرضُ الْودَّ وَالتّنويلَ فالباء في "بالودّ وبالتنويل" للمصاحبة فهي كالّتي في قوْلِه ﷻ :﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (الْمُؤمِنُون: ٢٠)

أيْ تنبتُ ثمرًا مختلطًا بالدّهن وملتبسًا به ، فالباء للمصاحبة ،والمعيّة، فهِيَ الّتي في قولك: ركب الأمير بجنده أي مصاحبًا جنده. ([1]) فهِي أشبهُ بـ(واو المعية) في قولك :"جئتُ والقمرَ" إلاّ أنّها لا تنصبُ ما بعدَها، وما هِي بمزيدةٍ ،كما يذهبُ بعضُ أهلِ النّظر.

ومثلها (الباءُ) في قوله تعالى :﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر:٩٨) وقوله:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (النصر:٣) أي اجعل تسبيحه مختلطا ومصاحبًا حمده، فهو جمعه بيْن التنزيه والحمد.

قوله:" أعْرِضُ بالوُدِّ وبالتّنويلِ" بيانٌ لقوله:" أَعْجِفُ النّفسَ عَلَى الخليلِ " أبان عن معنى إعجافه النفس على الخليل، بأنّه يلْقاه مؤثرًا له مصاحبًا الودّ والتّنويل ، مؤثرًا له بذلك على نفسِه، والتعجيفُ أن تؤثرَ غيرك على نفسك بما أنت في حاجةٍ إليْه وهذا الخلقُ لاَ يكون إلا عن فتوّة نفسيّةٍ ،وعن بصيرةٍ نافذة في حقائقِ الأشياء ومآلاتها، وما يحسن به المرْءُ إلى نفسه، فالذي يُعجف نفسَه، ويؤثر غيره على نفسه بما في حاجةٍ إليْه إنّما هُو في الحقيقةِ يؤثرُ نفسَه بما هو أجلُّ وأكملُ وأجملُ مِن المَثوبةِ وحُسن العقبى.

وهذا لا يكونُ إلاّ من أصحابِ الفِراسة الإيمانيّة ، ومَن له بصرٌ حديدٌ يتغوّرُ حقائقِ الأشياءِ ويدركُ مآلاتها، فهُو يُؤثِر بأجلٍ زائلٍ خداجٍ غيرَه بيْنما هو يُؤثِرُ نفسَه بعاجلٍ كاملٍ لا يحولُ هو عنه، ولا يحولُ النّعيمُ عنه.وهذا ثمرة اليقينِ المتوطن في القلبِ وهو أجلّ ما يتفاضلُ بِه العبَادُ ، فلا تقصرنّ طَلِبتك من نظم الأبيات على ما فيها من

---

[1] ينظر: معاني القرآن وإعرابه،لأبي إسحاق الزجاج (ت:٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي ط(١) عام ١٤٠٨هـ نشر عالم الكتب. بيروت. ج٤ص ١٠

فصل ، بل اجعل معه نعمةَ إفعام قلبك بما فيها من مكارم الأخلاق،وإنّما يقرأ الشعر للتمتُّع بما فيه من تهذيبِ النَّفسِ بمكارم الأخلاقِ في صورةٍ أنيقة فيّاضة بما تشتهيه الأنفسُ السَّويّة من جميل البيانِ وجليله.

***

ومن هذا قول وَدّاك بن ثميل المازنيّ

لشتّانَ ما بين اليزيدَيْن في الندى * يزيد سُلَيمٍ والأغرّ ابنِ حاتم

فهمُ الفتى الأزدي إنفاق ماله * وهمُ الفتى القيسيّ جمعُ الدّراهم

فلا يحسبِ التِّمْتام أنّي هجوْته * ولكنّني فضّلتُ أهل المكارم

يستهل الشّاعر بيانه بهذه الجملة المؤكدة، بـ"لام الابتداء" وكأنه وهو يستفتح سمعك بها يؤذن أنّ الذي هو آتيك إنّما هو أمر عنده جديرٌ بأن يعتنى بتلقيه كمثل ما اعتنى هو بالإنباء به، وهو في هذا يسعى إلى تبيان مفارقة بين حالين لتبصر الموقع الذي يليق بك. أيّ الرجلين تحبّ أن تكون وإذا ما كان الشاعر قد تصاعد في هجو يزيد سليم السّلمي ، فالذي لنا منه الآن إقامة المتلقّي أمام نموذجين متناقضين، تنفر النفسُ السويةُ من أحدهما، وترجو أن تكون هي الآخر.

وفي اصطفائه الإنباء باسم الفعل (شتّان) أعراب عن عظيم المفارقة بين الحالين، فالدّلالة على المفارقة بين شيئين باسم الفعل غيره الدّلالةُ على هذا المعنى بالفعل "افترق" : الإعراب عن المفارقة بـ" شتّان" هادٍ إلَى أن المفترقين " لا يلتقيان قطُّ . هما يستعصيان على المقاربة .كلُّ حالٍ قد تغوّر في صاحبه، وأضحى جبلّة وسجية. يمارسه ممارسَته التنفسَ. لا يتعمّلُ في إيجادِه، . ما هو على ذُكرٍ منه .

أجمل في البيت الأوّل أنّ اليزيدين ،وإن تطابقا اسمًا فما يتطابقان حالا ، وهذا يستشرف القلب إلى وجه هذه المفارقةِ في الحالِ الّتي لا سبيلَ إلَى إزالتها، فيأتيك البيتُ الثّاني مُبيِّنًا عن هذا الّذي لا يلتقيان فيه: إنّه باب انفاق المال من النفسِ والإحسانِ إليّ ذلك المال بخلودِه في يد الله المنعمَ به سُبْحانَه وَبِحَمْدِهِ : همُّ الفتى: يزيد بن حَاتِم الأَزْدِيّ المُهلّبيّ إنفاق ماله واكتنازه عند من لا تضيع عنده الودائع سُبْحانَه وَتَعَالَى . في الإعراب بقوله: (إنفاق) دلالة على أنّه لا يخرجه من يده فحسبُ ، بلْ ويحرجه أيضًا من نفسِه، بل هو الخارجُ مِن نفسه قبلَ يدِهِ، فنفوقُ مالِ الجواد المحسن إنّما هو نفوقُ حضورٍ في النّفسِ، وخلودٌ في يد مَنْ أنعمَ به سُبْحانَه وَتَعَالَى ، هذا هو المعنى الأمثل الذي يردُ إلى قلبي حين يكون البيانُ عن(إنفاق المال) ولاسيّما في بيانِ الوحي. ذَلِكَ شأنُ الفتى الأزدي المهلبي.

وهمُ الفتى السلميّ القيسي جمعُ الدّراهم ، إنها خسيسة نفسٍ ، وعمى بصيرةٍ، وعبودية لما شأنه أن يذهب ، فإنّ لكلّ مالٍ داءً يُفْنِيه ، والإعرابُ بـ" جمع الدّراهم" يستحضر في قلبك قول الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ • الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ • يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ (الهمزة: ١-٣) وهذه وحدها مغرة الدهر.

ولا تحسبَنَّ أنَّ الأعرابَ عنه بأنّه" فتى" كما صنع مع "الأزديَ أنّه سوَى بيْنهما في الفُتوَة ، فيكون هذا مِن باب الثَّناء على الأسديَ القيسيَ ، كلا. فتوّةُ كلٍّ بحسبِه، فتوّة "الأزديَ في (إنفاقِ ماله) وفتوة القيسيّ في (جمع الدراهم) إنه تصوير لما يبذلُه كلٌّ في البابِ الَّذي اختار: "إنفاق المال" و"جمع الدراهم" وهذا يجعلك تستحضر المشهدَ بيْن عيْنيك، وتتصور حال كلٍّ ، وما يملأ العيْنَ مِن كُلٍّ.

وعجيبٌ أنّه يقول من بعد:

فلا يَحسَبُ "التَّمتام" أنّي هجوتُه • ولكنّني فضّلتُ أهلَ المَكارمِ

تبصّر قوله" التّمتام" إنه لَيشيرُ إلى أنّ القيسيّ لا يحسن الفعل ولا القول، فلا هو بمسعد النّطق، وما هُو بمُسعِدِ الحال، إنّه الخلاءُ من كلٍّ .وهو برغم أنّه قد سَلح عليْه ،يقول إنَّ على "الأسديّ" ألا يتوهّم أنّي أهجوه . ، أنّي لا ألتفتُ إليْه لأهجُوه ، هُو عندي أبعدُ مِن أن يقومَ هجوه مقام المقصود إليْه قَصدًا رئيسًا ، أنّى لمثله أن يقوم هذا المقام؟!! فكم مِنْ قميئٍ يكونُ هجوُه ثناءً عليْه ، ذلك أنّك إنْ هجوتَه، فمهْما بالغت فإن بيانك هاجياً لا يكون وافيًا بحق هجوه، ،ومهْما امتدّتْ أطنابُ هجوك وترامت ساحاته فإنك لن تُحيط بمثالبه ومعرّاته ، إنّها ممّا لا يحاطُ باستحْصائها ، ولا يُحاطُ باسْتحصادها لتكاثرها ، وتوالدها ومن هذا الضربِ في عصرك ومِصْرِك ما يملأ الأفق ويسد عليك الطرقات على أتساعها، وامتدادها. إن هذا لهو البلاء المحيط.

ما ساق الشّاعر إلى الإشارة إلي " القيسيّ" هنا إلاّ أنّ بيانَه كان المسوقَ سوقًا رئيسًا إلى بيان فضلِ أهل المكارمِ .

والتّفضيلُ هنا لا يُرادُ به المُوازنَة بين شيئين . كلاّ . إنّه مِن ذِكر الفضلِ دون التفاتٍ إلى غيرِه التفاتًا رئيسًا. ، فقوله "فضلت أهلَ المكارمِ " أي ذكرت فضلهم ،لا وازنتُ بيْن شيْئين في الفضل ، فهذا يُفهم منه تلويحًا أنَّ في المفضول شيئًا مِن الفضل ، وذلك الّذي لم يكن لهذا السلميّ القيسيّ منْه شيءٌ.

•••

وممّا يحسن أن نلتفتَ إليه أنّ وجه الشبه في التّشبيه واقع موقع التّبيين لمضمون التشبيه ،والتشبيه المركب ــ كما هو حاضرٌ في عقلك - لا يكون وجهه الاصطلاحي مذكورًا بِنصِّه في البيان .

وإذا ما كان غيرَ قليل من الصّور في التّشبيه يكون فيه ما يدلُّ على وجه الشّبه ، هذا الدّال على وجه الشّبيه ينزل من جملة التّشبيه منزلةَ المبين فيفصل عنه لكمال الاتّصال بينهما. من هذا ما تراه في قولِ الشاعر:

المرءُ مِثْلُ هلالٍ حين تُبصرهُ * يبدو ضئيلاً ضعيفاً ثم يَتّسِقُ

يَزدادُ حتّى إذا ما تَمَّ أعْقَبه * كَرُّ الجديدين نقصاً ثم يَنْمحِقُ

قوله (حين تبصرة.... ثم ينمحِق) ليس وجه الشبه الاصطلاحيّ بلْ هو دالٌّ عليه ومصوره ، وهو مبين ما تضمنته جملة التّشبيه(المرْءُ مثل الهلال) ولو أنّ الشاعرَ قالها وسكت لكان في ذلك كفاية لأولى الفهم، ولكنّ من دونهم قد لا يكون منهم ما يعينُهم على الفهم، فجاء قوله(حين تبصِرُه..ثم ينمحق) كاشفًا لهم عن ما أخبر به عن (المرْء)

وفي هذا من العظةِ والاعتبار ما يجعلُ كلّ عاقلٍ على حذرٍ ، وأن يكون متطلعًا لحاله حين يبلغ المنتهى كيف يكون أمرُه ، أ إلى خيرٍ فيسعد أم إلى...؟

ومن رحمةِ الله سُبْحانَه وَبِحَمْدِهِ أن أقامَ في أنفسنا وفي الكون آيات هي الواعظةُ المذكرة التي لا تكفُ عن التبيين، والتذكيرِ وعلى قدرِ مخادنتك لها ومسامرتها على قدرِ ما تفرغ فيك من العطايا ما أنت بها في منجاةٍ من سيفِ الغفلة. فهذه المذكرات الواعظات - لمن أراد - نعمةٌ تستوجب شكر الله جلّ جلالُهُ عليها بحسن استثمارها ، فالله سُبْحانَه وَبِحَمْدِهِ لا يبذل لعباده النعم ليحوزها، ويكنزوها، بل ليستثمروها ، فيكون في استثمارها زيادة لها عندهم ، وهذا وجهٌ من وجوه المعنى في قوله سُبْحانَه وَبِحَمْدِهِ : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم:٧) (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (لقمان:١٢)

***

بقيت الإشارة إلى أن الجملة المبينة قد تأتي مسبوقةً بـ" الفاء"مما يُعرف بعطفِ المفسّرِ على المجمل أو بِعطفِ المفصّل علَى المجمل. وهذا يحسن التلبث لتبيينه.:

إذا ما كانت "الفاءُ" معقودةً للعطفِ والتَّرتيبِ على تنوع ما يقع فيه التَّرتيب :فإن "الفاء" تأتي لمعانٍ أخرَ فوق هذَين المعْنيين: تأتي للتَّفسير ،وتأتي للتَّفصيل، وقد يظن أنّ " فاءَ" التفسيرِ و" فاءَ" التفصيل" سواءٌ، والذي هو الأعلى أنّ بينهما فرقًا مرجعُه إلى سياقها ، إن كان فِي ما قبلها إجمال (إبهام) في معناه فما بعد "الفاءِ" تفسير وتبيين لما غمض من معنى ما قبلها، وإن كان الإجمالُ فِي ما قبلها أجمالَ (جمع) لا إجمال إبهامٍ فما بعد" الفاء" تفصيلٌ، فهي "الفاء" التَّفصيلية.

والشّأنُ فيما يفسّرُ أوْ يفصّلُ المجمل إن يأتي غير معطوفٍ عليْه لِما بيْنهما مِن كَمالِ الاتصالِ ، فهو في غَنَاءٍ عن عاملٍ خارجيٍّ لتأسيسِ هذا الاتّصالِ ، بيْد أنّ غيرَ قليلٍ من هذا قدْ جاء البيان مصدّرًا التّبيانَ التفسيريّ أو التفصِيليّ بـ" الفاء" وهي غير معقودة وضعًا لتعطفَ ما بعدَها على ما قبلَها بل عقدتْ للتّصريحِ بأنّ ما بعدَها تفسيرٌ أو تفصيلٌ لإجمالِ ما قبلَها، فلحاقُها وسباقُها لا يفتقران إلى ما يدلُّ على أنّهما متصلانِ ولكنْ قد يكونُ ما بعدَها بحاجة إلى توكيدِ الإنباء بأنّه تفسيرٌ أوْ تفصيلُ إجمالِ ما قبلَه، إما لأمرٍ راجعٍ إليْه أو لأمرٍ راجعٍ إلى من يُخاطبُ به .المهمُ أنّ هذه "الفاء" ما عقدت واصلةً، بل عقدتْ تبيينًا ، وهي برغمِ من ذلِك لا تتجرّد من الإنباء بما في لحاقها من مغايرةٍ لسباقِها، لا من حيثُ المضمون بل من فاعلية المضمون في المتلقّي، فليس العلمُ بالشّيءِ على سَبيلِ الإجمالِ كمثلِ العِلمِ بِه على سَبيلِ التّفسيرِ أو التفصيل

ممّا عدّ من عطف المفسّر على المجمل قول الله ﷻ (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (النساء:١٥٣)

قوله تعالى(فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) تفسير قوله سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ (سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ) ولوكان قد جرى على المعهودِ المشهورِ لما جاء بـ(الفاء) وكان يُمكن أن يقالَ في غيرِ القرآن فقد سألوا موسى أن يريهم الله جهرة ، فلا يكون في الخَبر إجمالٌ وتفسير، ولكنَّه لما كان المقامُ مقامَ تبيين لعظيمِ ما سألوا، وأن الذي سألوه رسُول الله ﷺ من أن يأتيهم بكتاب قد وقع من أسلافهم مع نبيهم ما هو أشنع من ذلك، وفي هذا تسليةٌ لسيدنا رسول الله ﷺ ، فجاء بالمجمل ، ثم فسره ، فأورد المعنى في صورتين، فتحقق بذلك للمعنى أمران :

الأول حضورُه على سبيل الإجمال

الأخرحضوره على سبيل التبيين

وتكرارُ حَضُور الشَّيْءِ في صورٍ متنوِّعةٍ فيه ما ليس في حضورِه منْ أوَّل الأمر على سبيلِ التَّبيين، بل وفيه ما ليس في تكرارِ حضورِه بغير تنوع من إجمال إلى تبيين. فالشيء إذا أعيد ذكره مرة أخرى في غيرِ صورته كانت أمكن في النفس، لأنها تتلقاه في الثانية ، وكأنه شيءٍ جديدٌ، فتمنحه من العنايةِ كمثْل ما منحت الأول ، فيأتيها هو في صورةٍ أخري فيتمكن منها فضل تمكن، وبهذا يكون له انتشارٌ في النَّفسِ لم يكن له في المرَّةِ الأولى. مما يحقِّقُ له مزيدَ اعتناءٍ به، فليس يخفاك أن تأثرَ النَّفسِ بما جاء عليه النظمُ القرآنيُ من الإجمالِ ثم التَّفسيرُ أقوى من تأثرها بقولنا فقد سألوا موسَى أن يروا الله جهرة .

وهذه (الفاء) تجهرُ بانَّ الذي بعدها تفسيرٌ لما قبلها، وأنَّ سؤال الله جهرة أكبر من سؤال الاتيان بكتاب ، لأن الإتيان بكتاب منعندالله متحقق مع كثيرٍ من الرسل، أما رؤية الله تعالى جهرة في الدنيا، فهذا لا يتحقَّق لأحدٍ من الرُّسل ، فضلاً عن أن يتحقَّق لهم ، ولذا جاء البيان بقوله تعالى : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ) فكانت (الفاء) فيه هاديةً إلى أنَّهم لم يهملوا فكان عقيبَ سؤالهم أن أخذتهم الصاعقة، ولم يقل فصعقوا، بل جاء بقوله(أخذتهم) بما يدل عليه من قوة ما حلّ بهمْ وما في(الباء) من معنى التَّسبيب مغن عن دلالة(الفاء) على التَّسبيب في (فَأَخَذَتْهُمْ) لتتجرَّد للتعقيبِ ،وتعقيب كلّ شيءٍ بحسبِه كما يقول أهلُ العلم.

وقد يقالُ يحتمل أن تكون (الفاء) في (فقالُوا أَرِنا الله جَهرَةً) عاطفةً على مطوي ، يُمكنُ أن يقدَّر: تمادوا في العَنت فقالوا أرِنا الله جهرة ليدل على أن السؤال لم يكن عفو الخاطر، وإن كان في نفسِه عظيمًا، بل هو ثمرة تعمل وتمادٍ وإصرار على ما هم فيه، أي أن ما بعد (الفاء) مرتبٌ على أمرٍ مطوي في الذِّكر لأنه مطوي في داخلهم وهو العنت والإصرار عليه وهذا أمر دفين موغل متغور، أثمر هذا السؤال الذي يتعاظمه كلُّ عاقل ، ولاسيما إذا ما قلنا إن قوله (جهرة) معمول لقوله (أرنا) وليس لقالوا، فمن اهل العلم من ذهب إلى أن المعنى فقال جهرة أرنا الله ، وجمهور أهل العلم على أنه معمول أرنا أي أرنا الله رؤية جهرية كالتي يراه بعضنا بَعضًا، وفي هذا من سوء الأدب ما فيه.

وعجيبٌ أن يالوا رسولهم هذا ،وهوالذي قال لربه سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) فقال له ربه سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ وهونبيه وكليمه (لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) علق تحقيق طلبه

على أمرٍ لا يتحقق ،فأرها بعيني رأسه أنه ليس مؤهلاً لأنْ يرى ربه في الدنيا بعيني رأسه، فما هو أجل منه خلقًا وقوةً لا يطيق ذلك،وأراه ذلك رأي عين: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(الأعراف:١٤٣) فإذا ما كان هذا من تجليه ﷻ للجبلِ، فكيف بتجليه عليْه، ثم كيف بتجليه لموسى،بل وتجليه على موسى ﷺ ، إن الأمر أعظم من أن يتصور مجرد تصوره. وبرغم من ذلك تمادى بنو إسرائيل في العنت والحمق فقالوا أرنا الله جهرة.

***

ومن هذا قول الله ﷻ : (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)(هود٤٥)

قوله تعالى (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) تفسير لقوله تعالى(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) وهو مصدربـ" الفاء" وكان مقتضى الظاهرأن يقال في غيرِ القرآن: (ونادى نوح ربه قال ربّ إن ابني من أهلي...) والتصدير بـ(الفاء) لا يكون عقيمًا بل من وراء ذلك معنًى هومحل الاعتناء الرئيس، وإلا لما لفت إليه بالعدول عن المعهودِ. ففي كلّ عدول دلالة على عظيم الاعتناء بما عدل إليْه.

قوله (فقال ربّ أن ابني من أهلي) فيه تصوير لعظيم ما حلّ بسيدنا نوح ﷺ من عطف على ولده، واستعطاف لربّه ﷻ وبرغم من هذا لم يلق نداؤه استجابة، لأنه في حق كافر[1] فلوكان الدعاء من نبي لكافر ما استجيب، لأن المدعوّ له غيرأهل لأن يستجاب في حقه دعاء من دعا له ، فإن يكن حال الداعي مهمًا ومقامه عند ربّه ﷻ أيضًا مهمًا، فإن حال المدعوّ له يجبأن يكون صالحًا لأن يستجاب في حقه دعاء من عظم قدره عند المدعو .وفي هذا من تثقيفنا أن علينا أن نجعل أنفسنا أهلا لأن يُستجاب لنا دعاء الصالحين لنا ، فلا يستهتر العبد في عصيان الله تعالى ثم يطلبُ من صالحٍ أن يدعو له ، فليس الأهم أن ينزل الغيثُ بل كذلك من الأهمّ أن تكونَ الأرض خصبةً تستجيبُ للغيث، فكمْ من قوم مطروا،ولم تنبت أرضُهم شيئًا فكان المطرُ وبالاً عليهم فستحال ما شأنه أن يكون نعمة إلى نقمة ، وهذا المعنى إذا ما تحقق في قلبِ العبد سعى سعيًا حثيثًا إلى أن يجعل قلبه مؤهلاً لأن يُستنبتَ منه بالغيثِ .

***

ومما جاءت فيه " الفاءُ" لحاقُها تفصيل لإجمال الجمعِ في ما قبلها ما رواه الشيخان البخاريُ في كتاب الاستئذان وكتاب القدر ومسلمٌ في كتابِ القدر بسنديْهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَ : مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ » .(النصّ للبخاري)

---

[1] ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: "الفاء" و"ثم" تأليف أ.د: محمدأمين الخضري، نشر مكتبة وهبة ط(١) عام ١٤١٤ﻫ ص٥٩.

استهل البيانُ النّبوي بنبأ يجُبه السّامعَ يدهشُه، يقيمُه أمام حقيقةٍ قد غفل عنها، وهي القائمة فيه ، كلا بلْ هو يمارسُها صَباح مساء ، ولا يسألُ نفسه عَنْ هذا الذي يمارسُه كلَّ يوم ما منخلُه فيه؟ ما بعثُه؟ ما السبيلُ إلى أن ينعتق منه، كيف السّبيل إلى استلاب حريّته من قبضته . يستهلّ النّبيُّ ﷺ النّبأ قائلا: "« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ » نبأ كأنّه يريك نفسك واقعًا في قبضة ما كتب ،ليرى ما أنت الفاعله إذا هذا الذي عليك كتب هو ينظم النبأ على نحو كأنّه يغرسُه فيك غرسًا ليضعك أمامَ هذا الذي كتب عليْك مقامًا فاعلية هذا الذي كتب فيك : مسيرًا ومصيرًا. تبصر بناء الفعل (كتب) على اسم الجلالة(الله) وهو الذي يقيم في القلب مهابةً ممزوجة بعظيم الطمع في كمال الجلالِ والجمال، والفعل (كتب) يحمل من حضوره في سياق البيان القرآني معنى الإحكامِ والصرامةِ ، فهو أدل على ذلك من الفعل(فرض) الحاضر في أربع مواضع من البيان القرآني، والله ﷻ ينبئُ أنه كتب على نفسه :(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(الأنعام: ١٢) (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(الأنعام:٥٤)

وفي اصطفاء الإعراب عن الإنسان بقوله(ابن آدم) تذكير بما كان من أبيه حين نسي فلم يكن له عزم ، وما كان من رحمةِ الله تعالى به (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة: ٣٧) فله ممّا كان لأبيه ،حين ينسى، ولم يمض مستهترًا فيما نسي فوقع منه وهذا من فيض الرّحمانيةِ الجميل الجليل ، وفي الإعراب بقوله(حظه) دون ما كتب عليه، فيبصر العبد حظه من العطاء فيما وقع منه بالاستغفارِ، فذلك محبوب خلقه منه أن يقع منه الذنب حين ينسى ، فإذا ما تذكّر فرّ إلىربّه مستغفرًا . روى مسلم في صَحيحِهِ بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»

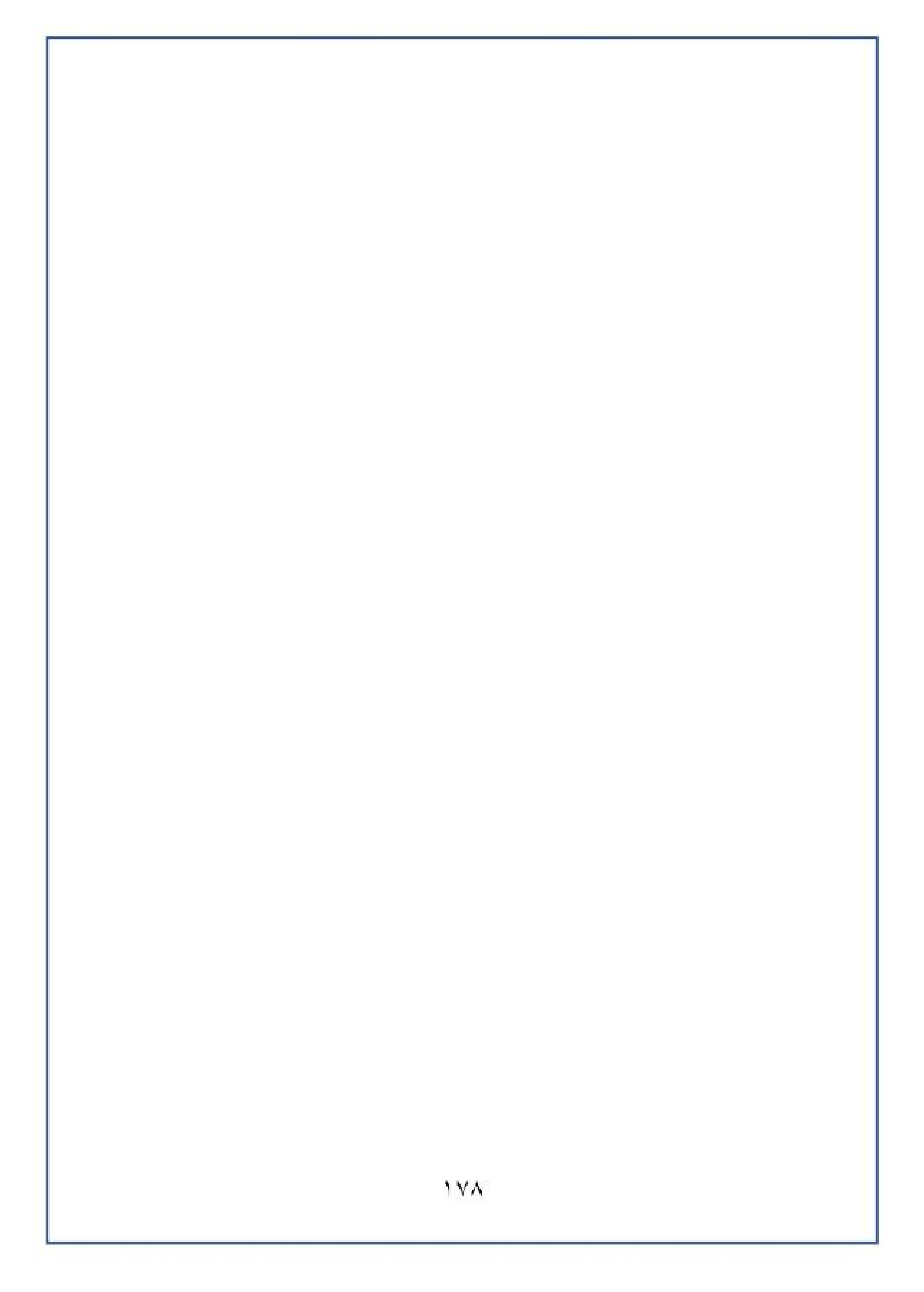
فحين يسمع القلبُ :« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ » وإن تَستحضر هذا السلطان الألهي ، فإنّه لا يغفُلُ ما يحمله منْ معنى العطاء أيضًا ، ممّا يجعلُه يبحثُ عن ما له إلى ما فيه من هذا العطاءِ ،فيكون له من هذا الذي كُتب، فلا يَجعله مخلدًا عجزًا مستسلمًا إزاء عوالج النّفسِ وعوادي الشّهوات ، متعللًا : ألَمْ يكتب الله تعالى ذلك عليّ ؟ ألم ينبئُ بذلك سيد خلقه ﷺ ؟

لا يعني أن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزّنا أن يستسلم، فيجري في هذا متعللا بأن ذلك مكتوبٌ عليه .

إنّ عليه أن يتخذ الأسباب التي تقيه من أن يجري إلى منتهى حظه، (زنا الفرج) أو يجري إلى إدمان زنا العين... إنباء الرسولِ ﷺ:« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ » ليس تثبيطًا، ودفعًا إلى الإخلاد بل هو تثوير وحفز إلى الاتقاء من الاستهتار فيه ، وإنباء بان ذلك إذا ما وقع منه عفو الخاطر، ولم

يتكرر فهو لمم معفو عنه ، يقتلعه إسباغ الوضوء والسَّعي إلى المساجد، وفي طلب الرزق إلى آخر المكفرات، وهي جد كثيرة، ومتنوعة. فليست العُتَبى على من ويقَع ذلك منه عفو الخاطر أو لغفلة بشرية، بل العُتَبى وما فوقها لم أخلد إلى ذلك، فإذا به في أعلاها. زنا الفرج.

وممَّا يُستجنى من هذا أن يكُون العبدُ على ذكرٍ دائمٍ أنَّه بغيرِ عون الله سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ ورعايته لا يكون منه إلا التردِّي في هذا الذي كان له حظٌّ منه ، فاليقين بانتفاءِ الحول والقوة ، يقيم العبد في فسطاط التذلل لله عزَّ وجلَّ والتضرعِ إليه أن يجعله في حماه ورعايته ، وتلك إذا ما أضحت حليةَ العبدِ كان في فسطاطِ العِنايةِ الرَّبانيَّة، وتلك الَّتي يسهرُ أهل الفضلِ استجداءً لها من ربِّ العالمين.



مجيء الجملة بيانًا لمفرد

من بعد أن ابان السعد عن أنّ المقام قد يقتضي حضور "الواو" في ما بيْن دملتيْن بينهما كمال اتصالٍ تبيينًا، الفت إلى أن الجملة المبينة لا يلزم أن تكون مبينة عن مضمون جملة بيل قد تكون مبينةً عن مضمون مفردٍ ، فيقول: :

وقد يكونُ قطعُ الجملةِ عمّا قبلها ؛لكونِه بيانًا وتفسيرًا لمفردٍ مِن مفرداتِه ، كقولِه تعالى: (عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ)(هود:٣-٤) فإنّه بيّن عذابَ اليومِ الكبيرِ بأنّ مرجعكمْ إلى من هو قادرٌ على كلّ شيْءٍ، فكان قادرًا على أشدّ ما أراد منْ عذابكم..

يشير السعد إلى ان المبان عنه بالجملةِ قد يكطون مفردًا كما في قول الله تعالى:

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤))(هود)

يقُول الزمخشري:" وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادرٌ على كل شيء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه."

يتبيّن لك أن " السعد" حمل مقالة " الزمخشري" في هذا ، ذاهبًا إلى إن مقالةَ الزمخشري مفيدة أن قول الله تعالى (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) تبيين لقوله:(عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) وهومفردٌ بينا قوله: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) بيْنا شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) في حاشيته عبلى الكشاف :" فتوح الغيب" ذهب غلى ان هذا من قبيل بيان جملة بجملة. يقُول:"

قوله: (وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء)؛ ليس المراد أن جملة قوله: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) بيان لنفس العذاب، بل المراد أن هذه الجملة بيان للجملة التي ذكر فيها العذاب، فيلزم منه بيان شدة العذاب، كأنه قيل: أخاف عليكم عذاب اليوم الكبير يوم ترجع الأمور كلها إلى القادر العظيم السلطان الواحد القهار، فأعظم بعذاب معذبه من هذا شأنه."(فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)ج:٨ص١٣)

والذي حرًى أن تكون معتكفًا في محراب تدبره ما جاء في شأن الاستغفار والتوبة وما يترتبُ على ذلك من مكاسب دنيوية،وأخروية، فهذان: الاستغفار ،والتوبة هما سبيلا النجاة من ذل الدنيا والآخرة.

وغير قليلٍ يغفلُ عن معاصٍ لا يحسبون انها الأوْلى بالاستغفار والتوبة، ولا سيّما الّتي تكون متعلقة بحقوق الآخرين،و أشدها نكالًا لمقترفها المعاصي التي يكون أثرها السّيء مقيمًا عميمًا، ومن أهمتلك المعاني بعض الشرك باللهِ تعالى خذلان أخيك المسلم، وإسلامك إياه إلى عدوّه، والسكوتُ على الظالمِ، وإن لم يمسك ظلمه، يكفي أنه ظالمٌ أخاك المسْلم .

إذا ما استحضرت ذلك تجدنا جميعًا لا أستثني غارقين في هذه المعاصي. إنا جميعًا مسلمون إخواننا في فلسطين

لأعدائهم ، ومسلمون أخواننا في كل قطرٍ مسلم لظلم ولاة أمرهم الطغاة، الذين اتخذوا منهاج فرعون موسى مع بني إسرائيل في زمان موسى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ – منهاج حكمٍ: يسومونهم سوء العذاب .

بقيت إشارة إلى أنَّ السعد لو قدمَ هذه الفقرة على التي قبلها المتناولة وقوع الواو بين جملتَيْن بيْنهما كمال اتصالٍ لكان أجسن

وكذلك لو انّه التفت إلى هذه الواو كما تقع بيْن جملتين الثالية بيان للأولى هي أيضًا تقع بين جملتين التلية توكيد للأولى،وأو بدلا منها. لو أن لفت غلى ذلك لكان حسنًا.

تتمـة مهمة

صور من وقوع "الواو"

بين التابع والمتبوع في الجمل

لمَّا كانتْ البلاغةَ مطابقةُ البيانِ بكلّ مكوناته وتكوينِه مقتضَى الحالِ ليتَحقق له حُسنُ الدلالةِ وتمامُها وتبرُّجها في صُورةٍ هِيَ أبهَى وأزين وأنَقُ وأعجب ، فيكون له الاقتدارُ الأمجد على إيصَالِ المعنى إلى القلبِ وتقريرِه فيه وتوطينه ليَفعلَ فيه ما يرادُ للبيان أن يفعل فيه ، وليفعلَ القلبُ ما يُرادُ له أن يفعل تعميرًا بطاعة الله تعالى للكونِ والحياة كلّها ، ولما كان للحالُ ظاهرٌ وباطنٌ ، وكانت مطابقةُ مقتضاه بضربيه الظَّاهر والباطن أمرًا متحققًا فِي البيانِ العليّ المعجز بيان الوحي قُرآنًا وسنة ، وفِي البيان العالِي البديع شعرًا ونثرًا ـ لمّا كان ذلك كان مِن القِيام بحُسنِ الوفاء بحقّ ذلك أن لا يَقتصرَ النّظرُ فيما جاء من البيانِ مطابقًا لمقتضَى ظاهر الحال ، وأنْ يكون للنّظرِ النافذِ السَّابغ فِي ما جاء مِن البيانِ مطابقًا لمقتضَى باطنِ الحالِ نسبٌ وثيق ، وهذا ما ينعقدُ للوفاءِ ببعضِه هذا المبحثُ ..

والعدولُ عن مطابقَة مقتضَى ظاهر الحالِ إلى مطابقَة باطنِه، لا يكون تشهيًا ، بل ثَم ما يحملُ المبين على هذا العدول ، وما يحمله على هذا جدُّ كثيرٍ ومُتنوع . وأنت لا تكادُ تَجدُ أسلوبًا من الأساليبِ البلاغيّة ، إلاّ وفي البيانِ العليّ المعجز، والبيانِ العالي البديع ما يقتضِي العدول عمّا عُهدَ فيه من القَواعدِ الكليةِ إلى ما لم يُعهد ، ذلك أنّ الكلمةَ السُّلطانَ في هذا ليستْ للقواعدِ الموروثة المعهودة ، فليس ثم معيارٌ يجبُ الالتزامُ به ، بل الكلمةُ السُّلطانُ للسِّياق والقصد ، وما يرمَى بالبيانِ إليْه ثم للقواعدِ الكلية . وهذا يجعلُ مُلاحظةَ السّياقِ على تنوّع امتداداته وملاحظةَ مقاصد المُبين ، ومُلاحظةُ مَرامِي بيانه أمرًا لا يستقيمُ البتّةَ التَغافلُ عنه ، بل ولا التقصير فِي الوفاء بحقّه.

***

= العدول إلى عطفِ الجملةِ المؤكِدة(بالكسر) على الجملةِ المؤكَدة: يقولُ الله (:

(أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(التوبة : ١٣ - ١٥).

في سورة "براءة" جاءت هذه الآيات تحثّ الذين آمنوا على قتالِ من نكثوا أيمانهم من بعدِ عهدهم وطعنوا في الإسلامِ وهمّوا بإخراجِ الرسول صَلّى اللهُ عليه وسلّم، وكانوا هم أهلَ الاعتداءِ ، وكلُّ واحدٍ من هذه الثلاثةِ كافٍ في وجوبِ قتالِهم ،فكيف وقد اجتمعَتْ. إن قتالَهم قد أضحى أمرًا لازمًا.

وجاءت تَحملُ وعدًا صادقًا لِمَن قاتلَهم إيمانًا واحتسابًا ، وقد بُسطت عبارةُ الوعدِ بسطًا يملأُ كلّ قلبٍ بما يُحيي مواتَ العزائم ، فلا يبقَى إلا المسارعةُ في الوفاء بحقّ ما أُمروا به إيمانًا واحتسابًا.

جاءت العبارةُ عن الوعدِ لمن قاتلهم إيمانًا واحتِسَابًا في خمسِ جملٍ كلّ واحدةٍ منها باعثٌ قوي على المُسارعةِ إلى الوفاءِ بحقّ قتالِهم ، فكيف إذا ما جُمعتْ ؟

ومن ثَمّ عطف بعضها على بعضٍ ليدلّ على ما فيها من تنوّع ، أنّها ليست شيئًا واحدًا له وجوهٌ ، بلْ هِي نِعَمٌ تتلاقى في أصلٍ ، وتتباينُ تباينًا يجعلُها كالمستقلةِ ، فجاءتْ(الواو) لفتًا إلى ذلك إنّها لـ(واوٌ) وفيرٌ عطاؤها وفرةً تتلاءمُ مع رحابة وعائك(قلبك) وعمقِه وطهرِه من قبل ذلك ،فاعملْ وأنت تتلقّى هذا البيانَ القرآنيَّ على أنْ يكونَ وعاؤك طهورًا رَحيبًا عميقًا.

هذه الخمس :

= يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

= يُخْزِهِمْ

= يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

= يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ

= يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وهي جميعًا جواب الأمر (قاتلوهم) ([1])

وجواب الأمرِ في قوّة جواب الشّرط ؛ كأنّه قيل: إنْ تقاتلوهم يعذّبْهم الله بأيديكم ، إلاّ أنّ في الإبانة بأسلوبِ الأمر قوّةً وعزمًا وحسمًا، بينما في أسلوبِ الشرط شيْءٌ من التّخيير.

وفي هذا إغراء للذين آمنوا أن يُقاتلوا بأن جعلَ فعلهم مجرد سببٍ لأن يوقع الله تعالى ذلك ، وفي هذا من التكريم ما فيه ، ولذا لم يقل اقتلوهم أو عذّبوهم. لم يقلْ ذلك بل أمرَ بشَيْءٍ واحدٍ (قاتلوهم) إنّه عَزَّ علا ربُّ العالمين الرّحمن الرّحيم. فلوكان الإسلامُ دين قتلٍ ما شرع لجنده أن يأسروا عدوهم إذا تمكنُوا منه وأن يمنّوا عليهم بالحرية إن أرادوا،(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا..)(محمد: ٤) ولأوجبَ عليهم قتلَ كلّ أسيرٍ ، والإجهازَ على كلّ جريح، ولَما جعل لغيرِ المحارب من النّساءِ والشّيوخ والأطفال والعباد والضّعفاءِ ... ممن لم يؤمن به عصمةَ دمٍ ومالٍ وعرضٍ في أثناء القتال .إنّه دين الرّحمةِ، ولكن أهله في عصرنا أساءُوا الدّعوة إليه بلسان حالهم ومقالهم

وجاء الوعدُ في خمسِ جُملٍ ، هذه الخمسُ يلزمُها أمورٌ أُخرُ هي ممّا وعدَ الله سُبحانَه وتَعالَى جدُّهُ من يقاتلهم إيمانًا واحتسابًا.

في كلّ جملةٍ من الخمسِ إهانةٌ للكافرين وإعزازٌ وإكرامٌ لمن يقاتلهم إيمانًا واحتسابًا. ولو أن أهل الإيمان أحسنوا فقه هذا الوعدِ الإلهي لمن يقاتل إيمانًا واحتسابًا الذين كفروا لما بقِي فاقةٌ هذ الوعد إلاّ وهو قائمٌ في شرفِ جهادهم بماله وبنفسه وبلسانِه.

وجاء التّصريح بما هو الأهمُّ في كلّ : في قوله تعالى: (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) تصريحٌ بتعذيبِ الكافرين ، وهو أمرٌ يشمل صنوفًا عديدة منها القتل ومنها الأسر ، ومنها استلاب الأموال والغنائم ، ومنها كسر الشوكة ....وجاء

[1] القرآن ما أمر بقتلهم بل بقتالهم، دفعًا لبغيهم واستعلاءً عليهم لعلّهم يستشعرون أو يسالمون أو يسلمون، فالإسلام إنما شرع مجاهدة البغاة الطغاة دفاعًا عن حقّ الإسلام في أن تبلغ دعوته الناس جميعًا ثم يتركهم يختارونه طوعًا أو يقيمون على حالهم شريطة الاستسلام والمسالمة، وشرع الجهاد دفاعًا عن حقّ الآخرين في أن يسمعوا الحقّ، وأن يتخذوا قرارهم بأنفسهم، وشرع الجهاد نصرة الطغاة على أنفسهم، فإنهم إذا ما أبقوا أنفسهم يقاتلون فيقتلون إن أصرّوا على بغيهم ولم يستسلموا أو يسالموا كفّوا عن بغيهم، فكان هذا نصرًا لهم على أنفسهم الأمارة بالسوء المبير

التَّصريح بأنَّ هذا التعذيبَ واقعٌ بأيدي المؤمنين ، وفي هذا تكريمٌ للمؤمنين ، ، وفيه من إمتاعهم بتعذيب من كانوا يفعلون بهم ويستهينون بشأنهم ما فيه.

من جليلِ النِّعم أن يُمنحَ المَظلومُ نعمةَ أنْ ينتصرَ هو بنفسِه على ظالمِه ، وأن يقتصَّ منه بنفسِه ، وأن يباشر هذا الذي لم يكنْ يومًا يَحسبُ أنَّه يكونُ. وهذا لا يستشعِرُه إلاَّ مَن مُنح القُدرة على أنْ يَنتصفَ بنفسِه مِن ظالمِه.

نسبَ تعذيبَهم إليه (يُعذِّبهم الله) وجعَل أيديهم أداةَ التعذيبِ. فأيُّ تكريمٍ أن يجعلَك الله تعالى أداة لتعذيبِ الظَّالمين والكافرين. إنَّه لجدُّ عظيم .

والجملةُ الثَّانيةُ: (يُخْزِيهم) تَحمل تعذيبًا معنويًا للكافرين ما كان عربيٌ يُطيقُه ، فهذا ترقٍ في التَّعذيب، فألم الإهانةِ والخِزي عندَ العَربيِّ أنكى من ألم الذَّبح والتقطيع ، ولذا كان مِن صنوف العذاب يوم القيامة العذابُ المهين ، بجانبِ العذابِ الأليم . وفي خزيِ الكافرين عزّة للمؤمنين

وجاء قوله: (يُخزيهم) معطوفًا على (يعذبهم الله) وفي التعذيب خزيٌ، فجاء معطوفًا ليفتنا إلى ما في الخزيِ من التعذيب ما ليس في غيره. وأن الله تعالى جامعٌ عليهم الأمرين معًا.

والجملة الثالثة (وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) يلزمه هزيمة الكافرين ، صرَّح فيها بما يكونُ للمؤمنين ، وجاء ما يكون للكافرين بطريقِ اللزوم.

وعطف قوله: (ينصركم عليهم) وهو لازم من لوازم تعذيب الكافرين بأيدي الكافرين ليلفت إلى ما في التَّمتّعِ بالنَّصر من النِّعمة فوقَ التَّمتّع بنعمة تعذيب الكافرين بأيديهم، وفي التَّصريحِ بالنَّصر وعطفه بـ"الواو" إشارة إلى أنَه نصرٌ مكينٌ لا تكون للكافرين بعده دولةٌ.

ولذا كان في العطف معنى ليس في تركه ، ولو أنّه قال ينصركم عليهم لكان هذا سائغًا في سنن بيان العربية. بيْدَ أنَّ البيان القرآني عدل عن هذا السائغ لما في العطف من لفت الانتباه إلى ما فيه من معنى زائد على سابقه

وفوق هذا تحقيقُ النَّصر فيه آيةٌ على أنَّ الذين آمنوا لن يكون منهم ما يمنعهم من العلو ، فقد يعذب الله الكافرين ويخزيهم ، ولكن قد لا يتحقق النصر للذين آمنوا على الوجه الذي يعدّ نصرًا، فلما قال: (وينصركم عَلَيهم) فُهم من هذا العطفِ ومن التصريح بالنصر أنَّ هذا النَّصر تامٌ وأنَّ الذين آمنوا خلاءٌ من أسبابِ نقصان النَّصر. وهذا فيه ترقٍّ في العطاءات التي وعدهم الله (بها.

والجُملةُ الرَّابعة : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) تصرِّح بما لبعضِ المؤمنين وهم قبيلة خزاعة ، ويلزم هذا أمران :

الأول شفاء صدر كلّ مؤمن ، لأنَّ ما يَشفي صدر مؤمنٍ إنّما هو لزومًا يشفي صدرَ كلِّ مُؤمنٍ، لأنَّ المؤمنين سواءٌ في هذا ما يسرّ واحدًا يسرُّ الأمّة كلّها ، وما يُؤذِي واحدًا يُؤذِي الأمّة كلّها، فإذا رأيت هذا الأصلَ قد غابَ أو غامَ في قومٍ ، فاعلمْ أنَّ هذا آيةٌ بيّنةٌ على قدرهم في بابِ الإيمان.

وهذا يَهديك إلى مقدارِ الإيمانِ في قومٍ ينتسبُون إلى الإسلام لا يكتفون بأن لا يَشفِي صدورَهم ما يشفي صدرَ بعضٍ من إخوانِهم ، بل ذلك يُمرضُ قلوبَهم ويؤذيهم ، بل هم يسعون إلى إيذائهم وحصارهم وإهلاكِهم وإخزائهم ، ومناصرة من يفعلُ بهم ذلك .

وجاء قوله: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) معطوفًا على قوله تعالى: (وَيَنصُرْكُم عَلَيْهِم) على الرّغم من أنّه لازمٌ من لوازمِ النَّصرِ ، وكان مقتضَى الظّاهرِ أن يُفصلَ عنه ، بيْدَ أنّه عطفه بـ(الواو) للفتِ الانتباهِ إلى ما فيه من زيادة على ملزومه ، ولِيمنحَه السّامعُ عنايةً كاملة في التبصّر ، فكأنّه نعمةٌ مستقلّةٌ .

وشفاءُ الصّدرِ بالنّصرِ على الكافرين يُصوّر لك ما كان يَعتمِلُ في صُدورهم من ألمٍ ،وهذا لا يكون إلا إذا كان هذا الصّدر سليمًا معافًى، فالصّدر المريض لا يتألّمُ بعُلوّ شأنِ غيرِ المسلمِ على المسلم ، فكيف بالذي يهنّئُ غيرَ المسلمِ بعلو شأنِه على المسلمِ.؟!! إنّ هذا لقائمٌ بيْن يديْك وعيْنيك وفي سَمعِك مِن بني جلدتك

ويلزم قوله : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) أن يُترع قلوبَ الكافرين بالمرضِ والهمِّ والغمّ والكمدِ والخزي والانكسارِ والمَذلّةِ .

والجُملة الخامسة:(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) مترتبةٌ على الرّابعة ولازمة من لوازمها ، وكان يُمكن عربيّةً ألا تعطف عليْها بـ(الواو)

وعدل البيانُ إلى العطفِ ليلفتَ إلى اجتماعِ الأمرينِ معًا ففي إذهابِ الغيظِ ما ليس في سابقِه: في إذهابِ الغيظِ دَلالة على استئصاله ، فلن يكونَ ما يستنبته بَعدُ ، فهو وعدٌ بما سيكونُ في قابلِ الأيام ، بيْنما الذي قبله أدلّ على ما هو كائنٌ في الحال. فالشّفاء لا يلزمُه الدّيمومةُ، ولكنّ الإذهاب فيه دلالة على ديمومته ، لأنّ معنى المُفارقة فيه جِدُّ قويّ .

ويلزم من إذهاب غيظِ قلوبِ المؤمنين تقريرُ هذا الغيظ في قلوب الكافرين وهذا يلتفتُ إلى الجملة الأولى والثّانية. لأنّ هذا من التّعذيبِ والخزي بمكان.

تدبر قوله : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) عادلاً عن الخطاب ، وكان يُمكن عربية أن يقال وَيَشْفِ صُدُورَكم وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِكمْ ، ولكنّه عدل إلى البيان بقوله (قوم مؤمنين) لتجديدِ الإعلام بما كان سببًا في استحقاقِ هذا الوعدِ ، وكان يمكن أن يقال أيضًا وَيَشْفِ صُدُورَ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، ولكنه عدل إلى البيان بقوله(قوم) إشارة إلى ما تحمله هذا الكلمةُ من سمتِ القيام بصفةِ الإيمان ومقتضياتها واستحقاقاتها النّفسيّة والعمليّة. فكلمة (قوم) في البيانِ القرآنيّ تلفتنا إلى هذه السّمة سمةِ القيام للشّيْءِ والقيامِ به. وما سُمي القوم كذلك إلا لقيامهم للشّيءِ وقيامهم بِه. ولذا غلب إطلاقه على الرّجال، وعلى من يقومُون للنُّصرة والوفاء بحق الصحبة والرحم.. ([1])

وخُصّتْ هاتان النّعمتان(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) لأنهما تُمثّلانِ ذروة الوعد وخلاصته وجماعه . شفاءُ الصّدر وإذهابُ الغيظ لن يكون إلا بعظيم تحقيق الثّلاث الأُول : تعذيبِ الكافرين وخزيهم ،ونصرِ الّذين آمنوا . فكانت هاتان النّعمتان أحقّ بأن يصرّح فيها بقوله (قوم مؤمنين)

([1]) بعضُ أهلِ العلمِ إلى سببِ نزولِ الآية وأنّها تلحظ حال قوم مخصوصين(قبيلة خُزاعة إحلافه النبي (إذا كانَتْ نُفوسُهم مترعة بالغيظ على بني بكر بن كنانة الّذين اعتَدوا عليْهم بالقتلِ وأنّ قوله تعالى(قوم مؤمنين)يراد به هذه القبيلة، وإذا كان شفاءُ الصدور وإذهاب الغيظ أولى بهم؛ لأنّهمهم تكاثر في صدورهم الغيظُ على الكافرين لما كان من الكافرين معهم ,وهذا وإن كان إلا أنّ فتح العبارة وبسطها ليدخل فيها غيرهم أولى وأعلى ، فخصوصُ السّبب لا يُحتجزُ عن الدلالة وبسطها ما يكن مانع معتبرٌ في أصول الفهم والتأويل وضوابطه ولم يتبيّن لي مانعٌ من ذلك .

أمَا قولُه (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ) فليس من جملة جوابِ الأمر لأنّ تبوته على من يشاء غير مترتبة على قتال الكافرين. بل هذه نعمة مستأنفةٌ مطلقة غير مقيدة بقيد ، سوى قيد مشيئتِه.

وجلالُ الألوهيّة يبدو ظاهرًا جدًا في قولِه (على منَ يشاء) بينما جمالُ الرّبوبيّة يبدو أكثر ظهورًا في قول (يتوب الله) فالتّوبة من جمالِ الرّبوبية، والمشيئة من جلال الألوهية .

هذه الجملة مستأنفةٌ بغرض كليّ عامٍ يُقرر حقيقةً عامّةً هي اتساعُ بابِ التّوبةِ ونيمومتِة وإنّ ذلك مرهونٌ بمشيئةِ الله تعالى ، فليس ثَم ما يمنعُ من شاءَ التّوبةَ أن يتوبَ ومن تَابَ تَاب الله تعالى عليْه .

وهذا وجهٌ من وجوه التّأويل، ومن أهل العلم من يرى غيرَ ذلك : يرى أن من وجوه التّوبة قتال الكافرين الّذين نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي الإسلام وهموا بإخراج الرسولِ وبادروا بالغدرِ والاعتداءِ، فذلك القتالُ هو توبة للّذين قال لهم :(أَلا تُقَاتِلُونَ)(قَاتِلوهم) وعلى ذلك تدخلُ التوبةُ في شرطِ القتال

والزَّمخشري يذهبُ إلى أنّ قراءة (ويتوبَ اللهُ على مَن تاب) بالنّصب بإضمار «أن» ودخولَ التوبةِ في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى"

وذهب بعضُ أهلِ العلمِ إلى أنّه ليس ما يمنعُ أن تكون المقاتلة سببًا في تحقيق المنافع الخمسة، وحصول هذه المنافع الخمسةِ باعثٌ على إقبالِ العبدِ على التّوبة ،فالعبدُ إذا ما توالت عليْه عطاءات سيده انكسرت نفسُه الأمارة بالسُّوء مِن تبصّره فِي فضلِ ربّه فيستحيي فيتوب، فتتحققِ توبتِه فيقبلها منه

ويذهبُ البقاعي إلى أنّه " لما كان التّقدير: قاتلوهم فإنّكم إن قاتلتموهم كان كذا، عطف سبحانه على أصل هذه الجملة قوله: (ويتوبُ الله على من يشاء) أي منهم فيصيروا إخواناً لكم أولياء، والمعنى قاتلوهم يكن القتال سبباً لهذه الخمسة الأشياء، وأمّا التوبة فتارة تسبَبُ عنه وتارة عن غيرِه، ولأجلِ احتمالِ تسببها عنه قُرئ شاذاً بالنّصب على أن (الواو) للصرف "([1])

وهذا من البقاعي لفت إلى أنّ هذه الخمس لابدّ لها من سببٍ يتولاه الذين آمنوا، فالله تعالى قدّر ترتُّبها على ذلك السّبب ،وإن كان هو المقتدر على أن يوجدَها بغير ما سبب ، وما قدّر أن يترتبَ على سببٍ وجبَ عبادةً وعقلاً أن يجتهدَ في استفراغِ الجُهد في تحقق السّببِ ، والتوكل على الله تعالى في تحقيقِ ما قُدّر ترتّبه عليْه ، وفي هذا أيضًا لفتٌ إلى أنّه بمقدارِ استفراغِ الجُهدِ في تحقيقِ السّببِ يكونُ إيقاعُ ما قدّر الله تعالى ترتّبَ وقوعِه عليْه إن كاملاً ، فكاملٌ وإن غيرُه فغيرُه، وفي هذا مِن الحثّ على الاجتهادِ في اتخاذِ الأسبابِ وتركِ التّواكل، والتّصايُح بأنّ للبيتِ ربًا يحمِيه ، ثمّ لا نتخذُ الأسبابَ منتظرين أن يأتيَ النّصرُ بغير اتّخاذِ ما قدّر الله سُبحانَه وتَعالَى جدُّه أن يرتّب وقوعَ النّصرِ على تحقّقه.

أمّا التّوبة فمِن فيضِ الرّحمةِ أنّ لم يربِطها بهذا السّبب : قتالِ الكافرين ، فما كلّ عاصٍ أو شاردٍ بقادرٍ على قتالِهم بنفسِه أو مالِه أو مأذون له من قبلِ وليّ أمرِه بقتالِهم ثم إنّ التّوبة أمرٌ فرديّ ، بينما الخمسةُ السابقة أمر جمعيّ للأمّة، فرتّب ما هو للأمّة على ما لا تخلو الأمّة عن الوفاء بحقه بينما لم يجعل ذلك فيما كان أمرًا فرديًا .

---

[1] انظر المحرر الوجيز لابن عطية. ج3 ص14 ، و الكشاف، ج2 ص253 ، ومفاتيح الغيب (تفسير الرازي) ج16 ص 7 ، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي ،ج8 ص397

وثمّ احتمالٌ أن تكون التوبة هنا مرادًا بها توبةً بعض من أمر الذين آمنوا بقتالهم، فمن قوتلوا ولم يقتلوا إن تابوا تاب الله تعالى على من يشاء ، ففي هذا إعلامٌ بأنّ قتالهم الذين كفروا سيترتبُ عليه توبة بعضِ أولئك الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ،وقد تحقق ذلك .

***

وممّا جاء معدولاً به عن ما هو مقتضى ظاهر الحال ، فعدلمن ترك العطف بالواو إلى العطف بها قول الله تعالى
(فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ * وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ) (يس: ٥٤- ٥٩)

من فيضِ رحمةِ الله تعالى بعباده أنّه لم يكتفِ ببيان ما يحبُّ منهم وما يسخط ، بل أضاف إلى ذلك ما يحملهم إلى الإقبال على طاعتِه إقبال محبة بإتيان ما يُحِبُّ ، وبالإعراض عمّا يسخطُ ، فصوّر لهم ما سيكونُ يومَ القيامة ، وما سيلقاه من أطاع ومن عصى فقال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :
(فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ * وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ) (يس: ٥٤- ٥٩)

هذا بيان مصورٌ ما يكون يوم القيامة ، ليكون في استحضار القلبِ له في حال المسيرِ إلى الدّارِ الآخرة ما يُعينُه على أن يتخذَ لنفسِه ما يُحب من العُقبى.
وهذا من فيضِ رحمانيّةِ الله تعالى، وهو من أبوابِ ربوبيّته ، فهو ربُّ العالمين الرّحمنُ الرّحيم.
في قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يفتقرُ السّامع إلى تفصيله وتبيينه لما له من عظيمِ الأهمية ، فهو متعلقٌ بمصيرِ العبادِ ومثلُ هذا لا يكفي فيه الإجمال والإحكام فضلاً عن أن يغني .
وجاء قوله جلّ جلالُهُ :(فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) لافتًا إلى حال أهل الجنّة ، ذلك أنّ هذا يشعرُ قلبَ أهل الطاعة أنّ الله تعالى لا يَلِتهُم مِن أعمالِهم شيئًا.
وقوله تعالى: (وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يقيمُ في قلبِ أهل السّوءِ يأسًا من النّجاة. ففيه تعريضٌ بأنّهم سيلقون ما كانوا يصطنعونه من السّوء ، فيزدادُ شقاؤهم ويستفحلُ عظيمُ أساهم على ما كان منهم وما فاتهم من صِناعةِ الخيرِ .
وفي صياغةِ هذه الجملة ما يلتفت إلى قوله قبله (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) فالعدول عن نحو وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، فيه إشارة إلى أنّ العمل هو الجزاءُ سواءً بسواء، فلا يُزاد على عملِهم شيْءٌ ، وهذا هو العدلُ المُطلق ، فهو قائمٌ بالإبلاغ في الإنباءِ بكمال العدل الذي صرّح به قوله (الْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً)
و كان يُمكنُ في غيرِ القرآن أن يُكتفي بـ (الْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) لأنه يتضمّنُ معنى (وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فعدمُ ظلمِ النّفسِ شيئًا مقتضٍ أن لا تُجازَى إلا ما عملت سَواءً بسواء ، وعلى هذا يكونُ بيْن الجملتين تلاقٍ في المضمون ، وكان مقتضى الظّاهر ألا يُعطف قوله تعالى: (لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) على قولِه تعالى : (

الْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) إلا أنّ العطفَ بـ(الواو) جاء ليلفت إلى ما بيْن المعنيين من تغايرٍ ، لما بيْن أصحاب الجنّةِ والمجرمين من تغاير ، فقوله تعالى (الْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) أقربُ إلى أن يوجّه إلى أصحابِ الجنة، وقوله تعالى (لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أقربُ إلى أن يوجَّهَ إلى المُجرمِين، فلا يستقيمُ أن يُقالَ لأصحابِ الجنّة (لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فإنّه لو كان ذلك لما دخل أحدُ الجنة. كما هدت السنة إليْه.

روى البخاريّ في كتاب (المرضى) من صحيحه بسندِه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ:

« لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » . قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « لاَ ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ » .

وإن استقام عقلاً أن يُقال للمجرمين: (الْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) فهذا أعمُّ من قوله تعالى:(لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وبهذا تتبين له العلاقةُ بيْن المعنيين.

وممّا يحسنُ الالتفاتُ إليْه أنّه عبّر عن الطّائفة الأولى بمصيرها:" أصحاب الجنة" وعن الطائفة الأخرى بمسيرها، وفعلها، لينبئ عن مقتضى هذا الامتياز عن أصحابِ الجنة ، في هذا الموقفِ ومباعدتهم ، فكأنهم لما امتازوا في مَسيرِهم ومنهجِهم في حياتِهم كان جزاؤهم أن يمتازوا عنهم في مصيرِهم وعُقبى أحوالِهم ، وفي هذا تنفيرٌ بالغٌ مِن هذا المنهج في المَسير ، فالإجرامُ هو المُفضي إلى أن يكونوا أصحابَ النّار ، فسواءٌ أن يُسمَّوا مجرمين أو أصحاب النار، ذلك أنّ من صحب الإجرام وخادنه كان مصاحبًا لنار تلتهم فيه كلّ معاني الخير، فهو في نارٍ في مسيره وفي مصيرِه معًا.

وفي هذا هداية للناسِ أن اقترافَ الإجرام يقيمُ صانعه في عذابٍ نفسيّ وإيلام معنويّ جديرٌ وإن بدا أهل الإجرام ولا سيّما في عصرنا ومصرنا في أعين الدهماء أنهم أهل العزة والسعادة والبلهنية ،وواقع أمرهم على غير ما يبدو ، فحرًى بكل ذي عقلٍ أن يحاجزَ نفسه عنهم وعن مسيرهم وسيرتهم كيما لا يقولوا ما قال الذين يريدون الحياةَ الدنيا من قومِ قارون (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:٧٩)(١)

وتبصّر ملاحظة ما بين قوله تعالى (وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقوله (امتازوا اليوم) من تشاكل في منهاج الإبانة ، جاء في الموضعين التفات إلى الخطاب،ومن البيّن أن الالتفاتَ إلى الخطاب في مقام العقُوبة والتهديد دالٌ على عظيم الغضب وشديدِ التّهديد . لأنّ الخطاب من مستتبعاتِه الاستحضارُ وحين يكونُ ذلك في سياقِ الاستحضارِ يكون أشدَّ وأنكى، فالسّلطان في دنيا النّاسِ إذا غضِب على أحدٍ من رعيّته استحضره وهدّده على مسمعٍ ومرأى ، بخلافِ تهديدِه وهو غيرُ مستحضَرٍ.

المهمُ أنّ هذا الإجمال والإحكام غير كافٍ في هذا المقامِ ،لأن هذه المعاني مدلولٌ عليها تلويحًا والمقام مقتضٍ التصريحَ ، ومن ثَم جاءَ البيان من بعدُ مفسرا ومبيّنًا ومفصّلا على نحو يقضِي حاجةَ النفسِ ويقُوم بالوفاء بما هو

---

(١) المقترف للمعاصي وصنوف الظلم للنفس والآخرين يشعر في أول أمره بهذا الألم النفسي، ثم إذا ما أدمن هذا وبات سمة من سماته، ومنهج حياته عوقب بتجرده من الإحساس بالألم لصنعه الشر، بل يزداد عليه بأن يجد لذة في ظلم الناس، فيجتهد في ذلك بل يجاهر ويتفاخر على نحو ما نراه في من حولك من الطغاة والفجرة وأدعياء الحجاج الثقفي الذي بات سفكه دماء العباد لأدنى سبب أمرا يسيرا عليهم، فهو يقتل أخاه الإنسان وكأنه يقتل فأرا .
إذا لم يتلجلج في القلب الإحساس بألم ظلم الآخرين فاعلم أن صاحب هذا القلب قد بلغ من الشر مبلغا يعسر على مثله أن يعود إلى شيء من الخير فلا تسألنّ عن مثله .

مستشرفةً إليْه ، فقال تعالى : (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)
وجعل مصير الصالحين أبسط تبينًا وتفصيلا، ليتلذذ أهل القرآن بتلاوة هذا والاستماع إليه ، وبتدبره، فيزدادُ شوقهم إليْه .
وتبصّر علاقة قوله عزَّ وعلا: (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ) بسابقه تجده بيانًا له وتفسيرًا وتصويرًا. لاسيّما أنه قال (في شغل) فجعل ذلك ظرفًا لهم محيطًا بهم .وتبصر العلاقة بيْن دلالة كلمة(جنَّة) ودلالة (في) على الظرفية المحيطة السّابغة ، وهذا من تلاحظ المعاني وتناديها وتآخيها.([1])
وتبصر قوله تعالى :(وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ) فذلك من إيجاز القصر البالغ حدًا لا تطيقُ النفسُ الوفاء بمعشار حقه تفصيلا.
وهو أصلٌ لما جاء في بيان النبوة روى البخاري في كتاب(بدء الخلق) وغيره بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) .(ورواه مسلم في كتاب (صفة الجنة)
وفي هذا عزاءٌ بالغٌ لفقراء المسلمين ، فإذا ما حرموا ممّا تمنت نفوسهم من متاع الحياة الدّنيا الذي لا بدّ أن يفارقَهم يومًا وأن يفارقوه ، فإنَّ لهم ما يدّعون من نعيم مقيم في الدار الآخرة ، لا يفارقُهم ، ولا يفارقونه.
وجاء قوله (سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) غير معطوفٍ ، وكان ظاهر الحال أن يقال في غير القُرآن ويقال لهم سلام ... ، عدل البيانُ القُرآني إلى ترك العطف ليلفت الانتباه إليْه ، فهو أجل ممّا سبقَ ، فالسلام من ربّ رحيم هو أعظم نعم الآخرة ، فهو متعة صِرفة للنفسِ ، بينما ما سبقه متعة غالبة للجسد. وفي قوله تعالى: (من ربّ رحيم) ما يهدي إلى عظيمِ هذه المنّة، ولو لم يكن في الجنةِ غيرُها لأغنَتْ
وفي تنكير" سلام" ما يهدي على فخامته وعظمته وجلاله ودوامه.
وكلُّ هذا يزداد الشّعور بجلاله وجماله في صحبة ما لَحِقَهُ مِن مقالةٍ تُلقَى في أسماع المجرمين: (امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)
هذه المقابلةُ بيْن القولين تصوّر لنا عظيم المفارقة بيْن الجزاءين.
وهذا وحده كافٍ في أن يصرفَ المرء إلى ما يكُون جزاؤه (سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) عمّا يكونُ جزاؤه (امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

([1]) في مثل هذا السياق لا يشتغلُ طالبُ علم بلاغة العربي بما تجادله البلاغيون من أطراف النظر في الاستعارة في (في شغل) فإنك مما يفسدُ عليك هذا نعمة التمتع بفقه المعنى القرآني وفهمه. فكثيرًا ما يكون في التورك العقلي في تلقي الأساليب ما يخدشُ وجه تذوقها فيذهبُ موقعها إحسانُ القلب به .

وليس هذا دعوة إلى الانصراف عن هذا المجال من تلقي المعرفة، كلا، بل هو دعوة إلى الالتفات عنها في مثل هذه السياقات التي يكون الأعلى عدم شغل القلب عن التلذذ بتلقي معاني الهدى هو الأجل والأنفع .لهذا حرصت على أن أجعل القسم الثاني من هذا الكتاب خالصًا لذا استشعارًا نعمة التدبر والتذوق ، بينما جعلت القسم الأول الأعلى فيه تحقيق النظر العلميّ وتحريره ، ومناقشة مذاهب العلماء وآرائهم في القضايا والمسائل مناقشة تفسيرية وتقويمية.

أمّا ممارسة النظر فيما قام بيْن أهل العلم من مناقشات وما يجري بينهم من تورك عقليّ فإن أتى ما يجتنيه طالبُ العلم هو الرياضةُ العقلية التي تزيده قوة، وفحولة، فيقدرُ على أن يجري في مضماره فلا يُعطسُ بغباره، وكفى بذلك فائدة

وهذا يهدينا أيضًا إلى عظيمِ المُفارقةِ بين مسيرةِ الصَّالحين ومنهاج حياتِهم، ومسيرةِ المُجرمين وما يسلكونه في صناعةِ الشَّر وإدارة الفسادِ في الأرضِ.
وهذا هو الفرقُ البالغُ بيْن أحفادِ أبي بكرٍ الصّديقِ ، وأحفادِ أبي لهب، فاخترْ لنفسك.
كلُّ هذا يُبينُ لك عن السّنة البيانيّة للقرآن الكريم في تثقيفِ النّفوسِ وحملِها إلى علِيِّ الأقوال والأعمالِ والأحوال ، وجليلها وجميلها وحملِها على محاجزتها عن مسالك الشّيطان وحزبِه الاشتراكيِّ الدِّيمقراطيِّ التقدّمي اللبراليِّ الطليعيِّ التحرري القومي ...إلخ هذه الأضاليلِ التي لا واقع لها في واقع الأحزاب السياسة في هذه الديار .إن هي إلا شعارات يرفعها جنادليس ليغووا الدهماء ،ويصرفوهم عن الصراط المستقيم (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)(الشورى:٥٣)
***
وإذا ما كان البيانُ القرآنيُّ هنا قد بَسط القولَ في ما يكونُ لأصحابِ الجنّة ، فإنّه أجملَ البيانَ عن مصيرِ المُجرمين جاعلاً الالتفاتَ إلى خطابِهم بعقُوبتِهم محلّ تفصيلِ العقوبة ، مصطفيًا قوله تعالى (امْتَازُوا) ليُفهمَ منها أنّ ما كان لأصحابِ الجنّةَ ممّا فُصِّلَ، يكونُ للمجرمين نقيضُه، وكأنّ في القولِ للمجرمين حينذاك : امتازوا عن أصحابِ الجنةِ الذين لهم كيت وكيت ، فيه ما هو كافٍ عن تفصيل العقوبةِ ليدعَ النَّفسَ تدرك هذه التفاصيل بنفسِها، فيكونَ لها في أثناء استجماعِ هذه التفاصيل ما يُمانِعُها مِن مقاربةِ ما يُؤدِّي إلى ذلك المصيرِ.
فهنا تقابلٌ في منهجِ الإبانةِ بيْن مآل أصحابِ الجنَّة ، والمجرمين .
وفي اصطفاء صيغةَ الأمر(امتَازُوا) وهو أمرٌ تكوينيّ ، لا تكليفيّ ، لأنّه في سياقِ الآخرة ، دون أن يقال وامتازَ المجرمون ما يفهمك شيْئًا مِن شِدة غضبِ الله تعالى عليْهم وما يدلُّ على سرعةِ حصُول هذا الفعل ، ولذا اصطفى صيغة المطاوعة والانقيادِ (افتعلوا)
وفي حذف أداة النّداء(يا) ما يهدي إلى أنّ النّداء هنا للتسجيل عليهم ما نعتوا به ، ولِبيانِ أنّهم هُمُ الذين اختاروا لنفسهم هذا المصير، بما اقترفوه من الإجرامِ ومَرَدُوا عليه ، وبالغوا في اصطناعه وفي إدارتِه وفي رعايةِ تلاميذهم فيه ، فباتَ الفعل صِفة ملازمة لهم ، ولذا قال: (أيُها المُجرمون) ولم يقل أيّها الذين أجرموا، فإنّهم قد تجاوزا مستوى الإبانةِ عنهم باسم الموصول وصلته الفعلية إلى الإبانة عنهم بالصِّفة (اسم الفاعل) الدَّالةِ على التَّمكُّنِ والثَّباتِ .
وفي هذا من النَّعي على كلِّ مُجرمٍ أنّ اقترافَه للإجرام قَتلَ إحساسَه بالنّدم عليْه، وشعورَه بمجانبةِ الفطرة التي ولد عليْها فلم تلمْه نفسُه على فعلتِه، بل استولتْ عليْه نفسُه الأمّارة بالسُّوء ، فمضي في إجرامِه حتى بلغ مبلغ الإستاذيّة فيه.
وفي كلّ هذا إنباء لنا بأنّ منطق العقل يوجبُ علينا أن نزايل أولئك، فلا يجمعُنا معهم مكانٌ ولا مسيرٌ ولا مأمٌ ، ويُوجبُ علينا أن نفرّ منهم فرارَنا من الأسد وأشدّ :
(وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) (هود:١١٣)
(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً) (النساء:١٤٠)

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:٦٨)
وهذا ما يحسُن أن نأخذ به ، وأنْ نزايل أهل الإجرامِ سافكي الدماء ومنتهكي الأعراض، الذين يصطنعون الشرّ ويناصرون مَردتَهَ . وهم اليوم يُحيطون بنا ،والله غالبٌ على أمره.
***
وممّا هو من قبيل عطف المُؤكّد(بالكسر) على المؤكد على وجهٍ من تأويل قول الله تعالى: (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (يوسف:٧٧) مِنْ وُجوهِ التأويل أن يكون قولُه جَلَّ جَلالُهُ :(لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) مؤكِّدًا قولَه تعالى (أَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ) ويكون هذا العطفُ لفتًا إلى ما في الجملةِ المؤكِّدة من إضافةٍ إلى ما في الجملة المؤكَّدة، تتمثل في قولِه تعالى:(لهم) فالأولى أفادتْ أنّه أسرّها في نفسِها على الإطلاقِ ، ولم يقيّدْ هذا الفعل بقوله (عنهم) ، وفي التاليةِ ما يفيدُ أنّه لم يبدِها لهم ، ولعلّه أبداها لغيرهم ، كأخيه الّذي اتهم بالسَّرقة، فيكونُ قولُه(لهم) قيدًا له مفهوم مُخالفةٍ.
وهذا يفيدُ أنّ الجملةَ المؤكِّدة (بالكسر) إذا ما كان فيه فائدةٌ زائدةٌ على ما الجملة المؤكَّدة (بالفتح) ، فذلك يجعلُ فصل الجُملةِ المؤكِّدة ووصلها بـ(الواو) محلَّ احتمالٍ، يرجّحُ أحدَهما القصدُ ، فإن قُصدَ اللفتُ إلى تلك الزّيادة، فالأعلى تَرْكُ الفصل إلى العطف بـ(الواو) الهاديةِ إلى مغايرة لِحاقِها سِباقَها، وكأنّ ثَمّ لفتًا إلى أنّ يوسُف عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أسرّ إلى أخيه ما أسرّه في نفسِه عنهم ، ليدخلَ الطمأنينةِ في قلبِ أخيه ، وأنّه لن يقعَ تحتَ العقوبةِ لما اتُّهم به ؛ لأنّه عليمٌ بأنّه بَرِيءٌ ، وهذا مِن الوفاءِ بشَيْءٍ مِن حقّ أخيه عليْه. أنْ لا يقيمَه في سياق الرَّهبِ مِن معرّةِ شيوعِ الاتهامِ بِالسَّرقةِ ،وتقريرِه عليْه .
وفي هذا تصويرٌ لِمنقبةٍ من مناقبِ سيّدنا يوسفُ عليْه الصّلاةُ والسلام التي تجعلُه قمينًا أن يحوزَ من قلبِ أبيه مكانًا رحيبًا ، وأنْ يقومَ فيه مقامًا مكينًا.
وفي هذا أيضًا فضيلةٌ تربويّة لنا : أنْ يكونَ المرءُ لأخيه لا يسلِمُه لألمِ الخوفِ مِن أن يُظلم ، فإذا ما كان مِن هَدْيِ البيانِ النّبويّ ما رواه البخاري في كتاب (المظالم) من صَحِيحِه بسنده عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (قَالَ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . فإن الذي كان من سيّدنا يوسف عليْه الصّلاة والسّلام هو من هذا البابِ الشّريفِ النّبيل. فليس حقُّ أخيك ألا يقعَ منك ظلمٌ عليْه بل من حقّه أن تَدفعَ عنه التّخوُّفَ من أن يُظلم مِنْ غيرِك ، وأنتَ مقتدرٌ على دفعِ الظُّلم عنه ، لأن عدمَ هذا الدّفعِ عنه هو بابٌ من بابِ إسلامِه وخذلانِه .
وقولُه تعالى : (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) تصور لنا حالهم حين بوغِتوا باتّهام أخيهم بالسَّرقة:(ثُمَّ استخرجها مِن وعاءِ أخيه) فصدرَ عنهم ذلك القولُ الّذي لم يَسْعَ إلى نفي السّرقة عن أخيهم ، وادعاء أنّه قد وقعت به أو بهم مكيدة ، وأنّ ذلك قد دس عليه ، وأنه لَبريءٌ من تلك الجريرة، لم يتجهوا إلى المجاهدةِ في تبرئة أخيهم، بل اتجهوا إلى تثبيت ذلك ، وإعلان أنّ ذلك قد ورثه مِن جهةِ أمّه لا من جهةِ أبيه ، وأن له أخًا منْ أمّهِ قد سقطَ في

مثل هذا ([1]) ومثل هذا لا يكون من إخوةٍ يعرفون حقّ الأخوةِ في شأن اتهامِ أخيهم ، وإنْ كانوا على يقينٍ من أنّه قد فعل ، فالمعتادُ أن يجاهدوا في نفي التُّهمةِ عن أخيهم ، وأن يدَّعوا أنَّ ذلك مكيدةٌ، ذلك هو المعهودُ في دنيا النَّاسِ ولكنَّهم لم يفعلوا، ممَا يصورُ لك حالَهم مع سيِّدنا يوسف عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأخيه، وأنَّهم أقربُ إلى توكيدِ ما يلحقُ به المضرة ، وكُلُّ ذلك يصوِّر لك عظيم أثرِ إحساس الأخوة بتفضيلِ أحدهم عليهم ، وإن كان أهلاً لأن يُفضّل عليهم لِما فيه من المناقبِ ولما فيهم من المثالبِ .

وفي هذا من الهدي التربويّ للآباء ما يحسنُ أن يُقرّب إلى النّاس ليتخذوا منه ما يحفظهم من التّردّي في مثلِ هذه المضرّة: تفضيل أخٍ على أخ ، وإظهار ذلك لهما. فمثلُ هذا يغرسُ في أحدِهما حقدًا ، وفي الآخرِ تخوفًا وتوجسًا ،وإحساسًا بكراهة أخيه له. وتلك تقطَّع بها الأرحام .

وقوله تعالى: (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) يفهم أنّ ما قالوا كان على مَسمع من سيِّدنا يُوسف عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو نقلَ إليْه ذلك عنهم ، فترتَّبَ على ذلك ما يليقُ بمقامِه (فأسرّها يوسف في نفسِه) فالضمير في (أسرّها) يرجع إلى مقالتهم والعدول إلى تأنيثِ الضّمير (أسرّها) ومقتضى الظاهر أن يقالَ :(فأسره) أي قولهم لفتًا إلى ما في هذا القول من الكذبِ ، فمن دلالاتِ العدول عن التّذكيرِ إلى التأنيثِ الإشارة إلى ضعف ما أنثِ أو بعدِه عن الحقّ أو سُهولتِه ويسره .

يقول الله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحجرات:١٤) فهذا دالّك على ضعف مقالتهم وبعدها عن الحقّ ، وكان يُمكن عربيةً أن يقال: قال الأعراب .

ويأتي العدولُ للتذكير لفتًا إلى قوة أثر الفعل كما في قول الله تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(يوسف:٣٠)

عدل إلى التذكير (قال)، وكان يُمكن عربية أن يقال: (قالت نسوة) لفتًا إلى قوة أثر هذا المقالة من النسوةِ في المجتمع.

المهم أنّ قوله (فأسرها) في التأنيثِ لفتٌ إلى خَورِ هذا القولِ المسْرورِ وبعده عن الحقيقةِ، وعمّا كان يجبُ عليهم أن يقولُوه ، وقوله:(أسرّها في نفسِه) أي حملها ولمْ يرتبْ على سماعِه لها أمرًا يقابلُهم بِهِ، فما غضبَ ولا التفت عنهم. فكأنّه ما سمع. وهَذا من مناقبه وعظيم إحسانه بهم.

ويحتمل أن يكون الضمير في (أسرها) يراد به قوله : (أنتم شرّ مكانًا) أي لما سمع مقالتهم الكذوب قال في نفسِه : أنتم شرٌ مكانًا في هذا الباب : أنتم فعلتم ما هُو أدخل في الشرّ بما فعلتموه معي . وعلى هذا يكون قوله (أنتم شرًا مكانًا) تفسيرًا للضمير في(أسرها) ([2])

وعلى الوجه الأول يكون قوله(أنتم شرّ مكانًا) مستأنفًا على نهج التقاول، والتحاور (استئناف بيانيّ)

---

[1] ينظر :تفسير مقاتل بن سليمان البلخي [ت150 :هـ] ج2ص 346، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ج 7 ص2177 ، وتفسير الطبري :جامع البيان ج 16 ص195، وتفسير الرازي :مفاتيح الغيب ج18ص490

[2] معاني القرآن وإعرابه للزجاج [ت311 : هـ] تحقيق :عبد الجليل عبده شلبي .نشر :عالم الكتب. بيروت. الطبعة الأولى 1408 هـ .ج 3 ص 123 الكشاف للزمخشري ومعه فتوح الغيب للطيبي .ج 8 ص403- 401

وقوله:(لَمْ يُبدِها لَهم) إن جعلنا الضميرَ في(يبدِها) عائدٌ على ما عاد إليه الضّمير في أسرّها: (سَرَقَ أَخٌ لَه مِنْ قَبْلُ) يكون هذا من قبيل التوكيد، وعدلَ إلى العطف بـ(بالواو) لما صدرت به القول قبلُ. وإن جعلنا الضّمير في (يبدِها) مرادًا به أثرُ (سَرَقَ أَخٌ لَه مِنْ قَبْلُ) أي لَمْ يُبد لهم غضَبَه من قولِهم الكذوب الفاجر. أي لم يبد لهم أثرها عليه ، وأنثَ الضميرَ لفتًا إلى سهولةِ الإخفاء وعدمِ الإبداء لأثرِ مقالتهم في نفسِه على الرّغم من أنّها مقالة فاجرة، لما له من قوة النفسِ والقدرة الفنية على ضبط النّفسِ وعدمِ الذّهاب إلى الانتصار للنفسِ ، وهذه منقبة من مناقبِه ، تبينُ لنا عن عظيمِ استحقاقِه التّفضيلِ .

وجاء قوله تعالى: (واللهُ أعلمُ بِما تَصفون) تذييلاً يقيم في أنفسِهم من الرّهبِ ما لا يُطاق لأنهم يعلمون أنهم في فجورِ الكذب والبهتان، وأنّ الله تعالى عليمٌ بذلك، فهو تفويضٌ منه لله رب العالمين .

***

من هذا ما تراه في قول الله (:(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (البقرة: ٢٥٣)

قوله تعالى:(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا) توكيد لقوله:(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

يقول الواحدي:" كرّر المشيئة باقتتالهم تأكيدا للأمر، وتكذيبا لمن زعم أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم لم يَجْرِ به قضاءٌ من الله تعالى ولا قدر"([١])

وكمثله قال الزمخشريُ فعلق ابن المنيّر قائلاً: "ووراء التأكيد سرٌ أخصُ منه، وهو أنّ العربَ متى بنت أوّلَ كلامِها على مقصدٍ ثمّ اعترضها مقصدٌ آخر وأرادت الرّجوع إلى الأوّل، قصدت ذكره إمّا بتلك العبارةِ أو بقريب منها. وذلك عندهم مَهيعٌ مِن الفصاحة مسلوكٌ، وطريقٌ مُعتَدّ. وكان جدّي لأمّي أبو العباسِ أحمد بن فارس الفقيه الوزير يَعُدُ في كتاب الله تعالى مواضعَ في هذا المعنى: منها قوله تعالى: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً) ومنها قوله تعالى: (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) إلى قوله: (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ) وهذه الآية[أيْ آية تلك الرُّسُل] من هذا النّمط، لمّا صدّر الكلامَ بأنّ اقتتالهم كان على وفقِ المشيئة. ثمّ طال الكلام، أوْ أُريدَ بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت في هذا الأمرِ الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهي نافذة في كلّ فعل واقع، وهو المعنى المعبّر عنه في قوله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ) طرا ذِكرُ تعلّق المَشيئة بالاقتتالِ لتلوه عمومَ تعلّق المَشيئة لِتناسب الكلامِ وتعرّف كلّ بشكلِه. فهذا سرٌ ينشرحُ لبيانه الصّدرُ ويرتاحُ السّرُ، والله الموفق"([٢])

ابنُ المنيّر في الوجهِ الأوّلِ الّذي حمله عنْ جدّه رحمه الله تعالى يُشيرُ إلى أنّ إعادة ذكر العِبارة بنصها أو معناه قد يأتي لاستحضار الكلام السابق الذي طال مدى افتتاحه، ليبنَى عليه الكلام، عناية بتحقيق اقتدار السّامع على ضبطِ رؤيته حركة المعنى كي يبلغ شرفه. فاستيعاب المعنى من مفتتحه إلى مختتمه له أثرٌ بالغ في الوقوف على المقصدِ

([١]) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تأليف :أبي الحسن الواحدي: علي بن أحمد بن محمد النيسابوري)ت468 :هـ (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين ،نشر :دار الكتب العلمية، بيروت ط (1)عام1415 هـ ج 1/ 363:

([٢]) حاشية) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف (لابن المنير الإسكندري) ت (683 على تفسير الكشاف) م.س (ج1/ 298:

الأعظمِ للكلامِ، لأنّ عَدمَ الإحاطةِ بكمالِ البيانِ عن المعنى لا يجعلُ المتلقّي بصيرًا بعصبِ المعنى وجوهرِه ، وهذا فيه مِن المضرّةِ ما لا يطاقُ في بابِ الفقهِ والفهمِ عن اللهِ سُبْحانَه وَبِحَمْدِه .

ومن أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أن لا تكرارَ في الآيةِ وأنّ الثانيةَ "ليست لتأكيدِ الأولى، بل أفادتْ فائدةً جديدةً، والمغايرةُ حَصَلَتْ بتغايرِ متعلَّقهما متعلَّقُ الأولى مغايرٌ متعلَّقَ المشيئةِ الثانيةِ، والتقديرُ في الأولى: " ولو شاءَ اللهُ أن يَحُولَ بينهم وبين القتالِ بأن يَسْلُبَهم القوى والعقولَ، وفي الثاني: ولو شاءَ لم يأمرِ المؤمنين بالقتالِ، ولكن شاءَ أَمْرَهم بذلك."([1]) أو المرادُ بالأولى جميعُ الخلقِ وبالثانيةِ المؤمنون ، فاختلفتا فعلى القولِ بالتّأكيدِ لسابقه يكونُ فيه عدولٌ عن المعهودِ لفتًا إلى ما بينهما من المغايرة، وانتفاءُ التكرارِ لا يوجبُ انتفاءَ التأكيدِ لأنّ التأكيدَ لا يلزمُ فيه الاتفاقُ في صورةِ الكلامِ ، فقد يكونُ مناطُ التأكيدِ هو مضمونُ المعنى أو الغرضِ ، وكلُّ ذلك الأصلُ فيه تركُ العطفِ بـ"الواو" بيْدَ أنّه عدلَ إلى العطفِ بـ"الواو" لفتًا إلى ما بينهما مِن مغايرةٍ، لتكونَ عديلَ مناطِ الاتفاقِ في مقدارِ العنايةِ بالتلقّي

***

وممّا جاءَ البيانُ على مقتضى الظّاهرِ فصْلاً وَوصْلاً في موضعٍ وعلى خلافِهِ في موضعٍ قولُ اللهِ (:(إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسارًا) (فاطر: ٣٨ -٣٩)

جاء قوله تعالى :(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ(مفصولا عن قوله (إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ (لما بينهما من التلازم ، فمن كان عالمًا بغيب السّموات والأرض ، فإنّه عالمٌ لا محالة بذاتِ الصّدور، فالعلاقة بيْن الجُملتين علاقة تلازمٍ ، فبيْنهما كمالُ اتصالٍ بطريقِ اللّزوم الّذي هو منْ أقوى صُور التّبعيةِ المُقتضيةِ للفصلِ .

وجاء البيانُ عن علمه بذات الصّدور في صورة (فعيل / عليم) ليلفت انتباهَ السّامعين إلى ما هو أهم لشأنهم ، وفي هذا من التّهديدِ ما فيه ، فمن كان على ذُكر بأنّه (عليم بذات الصّدور كان على حَذَرٍ بالغٍ جدًا من أنْ يقُوم في صدرِه ما يؤخَذُ عليه، فيرقب اللهَ تعالى في سرّه وعلنِه. وكان مقتضى الظّاهرِ أن يُردفَ قولَه تعالى(إنّه عليم بذاتِ الصُّدورِ(بقولِه (فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ(لأنّه متفرعٌ عنه ، ولكنّه أقام قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ (فيما بينَهُما لتوكيدِ ما يُفهم من قوله تعالى (إِنَهُ عليمٌ بذاتِ الصدورِ(من عظيمِ سلطانه عليهم ، فمن كان هو الجاعلهم خلائفَ في الأرضِ، فهو بالضّرورةِ العليمُ بما في ذاتِ صدورِهم ، فكانّ قولَه تعالى:(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ (قائمًا مقامَ جملةٍ معترِضةٍ بين ما هو متفرّعٌ وما هو متفرّعٌ عنه، ليفيدَ هذا الاعتراضُ توكيدًا لما هو مناطُ العنايةِ .

ويأتي قولُه تعالى (وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا (يحملُ مزيدًا من البيانِ لما تضمنه قوله تعالى (فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ(لأنّ من كان عليه كفره ، فإنّ كفرَه لا يزيدُه عند ربّه تعالى إلا مقتًا : بغضًا ممزوجًا بالخزيِ والهوانِ والمذلّةِ، كما يشيرُ إليه البيانُ بقولِه تعالى: (عليه(.

---

[1] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ,تأليف أبي العباس السمين الحلبي , أحمد بن يوسف بن عبد الدائم ت756 هـ ,تحقيق :أحمد محمد الخراط ,نشر :دار القلم ، دمشق ج2 /537

ولما كان موقعُ جملة (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا) من قوله تعالى (فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) موقعَ الْبيان كان مُقتضَى الظَّاهرِ ألاَّ يُعطفَ عليه لما بينهما مِن كمالِ الاتصالِ بيانًا، بيدَ أنّه خرج البيانُ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ ، فجاء معطوفًا بـ(الواو) وفي هذا لفتٌ إلى ما في المعطوف(الجملة الثانية التَّالية للواو) من معنى زائد على معنى المعطوفِ عليهِ (الجملة الأولَى) فقوله تعالى :(عليْه كفرُه) لما فيه من إجمالٍ قد لا يصوّر عظيم ما هو عليْه ، فجاءت الجملة الثانية لتبين لنا ما هو عليه ، وهو ازدياده مقتًا عند ربه ، وتأمل قوله (ربّه) وهو من أسماء المودة ، وكأنّه يشيرُ إلى أنّه كان الأولى به أن يكون محلّ مودته لو آمن إلاّ أنّه لمّا كفر انقلبت المودّةُ والرّعايةُ والعنايةُ مقتًا ، فعلى قدر ما يكونُ له من المودّة لو آمن يكونُ له مِن ازْديادِ المقت لمّا كفر، وفي هذا مِن التّرهيب ما فيه ، فالعطف يلفتُ النّفسَ إلى ما في المعطُوفِ منْ معنى زائدٍ، وأنّه محل الاعتناءِ، ولفتٌ إلى أنّه جديرٌ بأنْ يُمنح من استقلالِ النظرِ ما يليق به ، فلا يُجعلُ النّظرُ فيه تابعًا للنَّظرِ في غيره ، وهذا مسلكٌ من مسالك توكيد المعاني في القلوب .وهو مزية بيانيّة كاللازمةِ من مزايا الخروج على خلافِ مقتضَى الظاهر.

***

ومن هذا قول الله (: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) (هود:٩١)

قالوا له أربعةً:

= يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ

= إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا

= لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

= مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

أمّا الأولَى فأردوا بها أنّه يقول لهم ما لا يُفهم ، ولا يريدون أنّهم هم لا يفهمون، لأنّ هذا مَسبة لهم ، ولا يريدون أنّه حبيس اللسان عيا فقد كان مفوها خطيبًا بل هم يريدون نعت كلامه الذي جاء به ، يريدون أن ما جئت به ليس أهلا لأن يُفهم، وإن كنّا نحن من الفقه والفهم في مكانة عليّة ، وإن كنت أنت من الفصاحة والبيان وشقشقة الكلام لا تُضارع ، فهذا منهم طعنٌ في الرّسالة نفسها ، وهذا من المكر الدّفين .

والثانية طعنٌ في قوته الحسية ومنعته (إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) إيذانا بأنّه يستحقّ أن يُدحضَ ، ويُنكّل به وليس له من نفسه ما يمنعُه ، وصيغت هذه العبارة على نحو يدلّ على أنّ هذا الحكم جاء عن تبصّرٍ ومتابعة بدلالة (لنراك) وفيه أنّهم يُلوّحون بأنّهم صبروا عليْه وأنّهم قادرون أن يفعلوا، فلا يَستغلنّ ذلك ، فما هو إلاّ ضعيفٌ .

والثالثةُ تُبينُ عن أنّهم يحفظون لرهطِه مكانتهم ، ولولا ذلك لكان منهم مَعه ما يجبُ أن يكون ، فلا يصدّهم عن ذلك إلا مراعاةُ حرمةِ رهطِه ، ورهطُه هُم عشيرتُه ،وهُم بالنسبة إليْه كبني هاشمٍ بالنّسبة لسيّدنا رسولِ الله ([١]

---

(١) في هذا ما يُشير إلى أنّه كان من أخلاق السّابقين الحفاظ على ما يوجبه الرّحم ، وتحمل ما يؤذيهم رغبةً في الوفاء بحق الرّحم، وكانت قريش كذلك مع رسول الله (حرصُوا على حرمة أبي طالب وتحملوا ما زعموه إيذاء لهم . فإذا كان هذا حال أهل الباطل ، فنحن أهل الحق أحقُّ بذلك الخلق الكريم أحقُّ أن نجعل لحقّ الرحم والقربى سلطانًا يحملنا على أن نحمل وأن نصبر وأن نتجاوز عن إيذاء من له بنا وشيجة رحم. إنّا أبصرت هذا الخلق في قوم يُوصفون بالجاهلية والتّخلف الحضاري، ونفتقده بحالنا في عصرنا ومصرنا عند من هو الأحقّ بأن يُوصم بالجاهلية والتّخلف الحضاري .

وجاء قوله تعالى: (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) معطوفًا على قوله : (لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) مع أنّ قوله :(لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) يتضمّن أنّه ليس كمثل رهطِه عزّةً فهي تتضمّن أنه ليس بالعزيزِ الّذي يمتنعُ بنفسِه ، فجُمْلَةُ (وما أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) تؤكّدُ مضمونَ قولِه: (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) وكان مقتضَى الظّاهرِ أن تفصلَ عنها لكمالِ الاتصالِ، بيْدَ أنّ البيانَ عدلَ عن مقتضَى الظّاهر وعطفَها بـ"الواو" وفي هذا العطف لفتٌ إلى أنّ عدمَ عزتِه عليهم أمرٌ متمكّنٌ وأنّه هذا خاصٌ به من بيْنِ رهطِه. وكلّ ذلك ليفتوا في عضده، وليكسِرُوا عزيمتَه على دعوتِهم ، وليقيموا في نفسِه أنّه إن استمرَ على ما هو عليْه فإنّهم سَينصرفون عن ملاحظة مقامِ رهطِه ، أو يستأذنونهم في دحضه، كلُّ ذلك لينالوا من عزيمته . وتكثيفهم هذا دالّ على أمرٍ في أنفسهم قائمٍ: دالّ على استشعارِهم قوتَه في دعوتِه ، وعزيمتَه الفتيّة وإصراره على القيامِ بما جاء به مهما كان ، فكثرةُ التّهديدِ والوعيدِ من الخَصم يلفتُ إلى إحساسِه بقوةِ خصمِه ، ولولا ذلك لاكتفى باليسيرِ من ذلك. ([1])

وفي هذا كشفٌ لما يعتَملُ في صدورِ أهلِ الباطلِ أمامَ الحقّ وإن كان القائمُ له وبه واحدًا، فهم يُبصرون قوّةَ الحقّ في نفسِه ، وضعفَ الباطلِ في نفسِه ، وأنّ قوة القائمين للباطل مهما عظُمت، فضعفُ الباطل في نفسِه يبطلُ أثرَ قُوّة القائمين له وبه ، ولذا قال الله (: (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ((الإسراء:٨١)

تبصّر قوله تعالى (كان زَهوقا) أيْ أنّه في نفسِه كذلك ، فهو لا يحتاجُ إلى قوّة بالغة ليُزهَق، بل يحتاجُ إلى عزيمةٍ فتيّة ممّن يتصدى له وإن كان واحدًا. فإن تصدّيت لباطلٍ فليس عليْك إلا أمران:

(أ) عزمٌ فتيٌ فتكون كمَن قيل فيه:

إذا همّ لم يردع كريمة همّه ولم يأت ما يأتي من الأمرِ هائبا
أخا غمراتٍ لا يُريدُ على الّذي يهمّ به مِن مقطع الأمر صاحبا
إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

(ب) واجتهاد في امتلاك ما تقدر عليه من أسباب النُّجح واستثمارها. وإن كنت وحيدًا في أقوام متكاثرة القائمة لنصرةِ الباطل، فأنت حينئذٍ الأمّة وإن كنت وحدك.ﭠ

وفي هذا مِن تربيتنا وتثقيفنا وهديِنا في معركتِنا مع أهلِ الباطلِ ما إن استحضرناه واستمسكْنا به ما يجعلنا أهلاً لأن نُشرَّف بزهقِ الباطلِ على أيدِينا.

الباطلُ سيزهقُ لا محالة بنا أو بغيرِنا ، فتلك قدرٌ إلهي لا يتخلّفُ ابدًا ، والذي لنا أن يزهق على أيدينا، أن يكون لنا شرف السعي إلى إزهاقِه.

هذا ما يجبُ أن يحمله طلّابُ العلم وكلّ مسلم مِن النّظر في مثلِ هذه الآيةِ.

***

---

[1] هذا في حق النّاس أما في حق ربّ النّاس سُبحانه وتعالى فإنّ وفرة التّهديد للكافرين والعصاة من عباده إنّما هو من فيضِ رحمانيّته ، فهو الذي عرفنا بنفسه جَلّ جلالُه في مفتتح سورة (أم الكتاب (فقال) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة : 1-4].

ومن هذا قولُ الله (: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (غافر:٣٨- ٤٠)

قوله تعالى :(إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) يقرّر أنّ ما في هذه الحياة الدّنيا من النعيم زائلٌ لا محالة، ولذا عبّر بقوله (متاع) فكلُّ شيْءٍ ذي نفع ينقطعُ هُوَ أو ينقطعُ من ينتفعُ به إنّما هو متاعٌ ، فدلّهم على أنّ ما في هذه الدّنيا من النعيم وإن بلغ ما بلغ من جودته وكثرته وتنوعه منقطعٌ في نفسِه أو أنتم منقطعون عنه. بالإعراب عنه بقوله (متاعٌ) وأنتَ تجدُ تناظرًا وتآخيا بيّنًا بيْن قولِه (الدّنيا) وقوله (متاع) وكان يُمكنُ أن تُسمى "الأولى" في مقابلِ "الآخرة" لكنَّ البيان التفتَ إلى قولِه (الدُّنيا) ليستحضرَ في النُّفوسِ معنى حقارتها، وأصحاب النُّفوسِ الشّريفة ترغبُ عمّا هو دانٍ أو حقيرٌ ، وتعزفُ عنه. وكلُّ هذا من تثقيف النّفسِ وتربيتِها ورعايتِها([1]).

هذه الحقيقةُ يقرِّرها منطوقُ قوله عزّ وعلا: (إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) وجاء تقريرُها في أسلوب قصر بإنّما ليضيفَ إلى ذلك تقريرَ نفي ما يَضدّها : أن تكون هذه الحياة الدّنيا خالدةً لا يزولُ نعيمُها، وإن زالَ أهلُها. فهو من قصر الموصوفِ على الصّفةِ قصرًا إضافيا يقلبُ به ما تمكّن في قلوبهم من زعم أنّ الدّنيا خالدٌ نعيمُها ([2])

وإذا ما كان هذا معنى منطوق هذه العبارة فإنَّ هذا المعنى يهدِي إلى أنّ هنالك حياةً أخرَى هي التي يكونُ نعيمها خالدًا وهنا يأتي قوله تعالى: (إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) ليقرّر معنى منطوقِه ما فُهم من مَعنى منطوقِ سابقتِها ، فمعنَى منطوقِ قولِه (: (إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) مؤكدٌ مقرّرٌ مفهوم معنى قوله ((إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) وهذا يقتضي ظاهرُه ألا يُعطف قوله (: (إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) لأنّه ينزل منزل المؤكد لما قبله.

من المعهود أنّ الجملةَ المؤكّد معنى منطوقِها لازم معنى منطوق جملةٍ أخرى أن ثَم تغايرٌ، فإذا كانت العناية إلى تقرير ما بيْنهما من التطابق غابت (الواو) وإذا كان ما بيْنهما من التغاير محلَّ قصدٍ واعتناءٍ حضرت (الواو) ذلك أنَّ (الواو) مِن شأنِها ألاّ تكونَ بيْن مُتطابقين. فإذا حضرت لفتتْ إلى ما بيْن طرفيْها مِن تباينٍ.

وقوله: (إنّ الدّار الآخرة هِي دارُ القَرارِ) فِيه لفتٌ إلى ما هو أعمّ من زوالِ نعيم الدُّنيا:

الأولَى تكلّمت عَن زَوال نعيمِ الدُّنيا، وهذه جاءتْ بِما هو أعمّ:جاءت بتقريرِ قرارِ كلِّ ما فيها وديموميّه وخلوده الأبديّ ، من نعيمٍ أو عذابٍ ، ولذا اصطفى كلمةَ: (مقيم) وهو يتآخَى مع اصطفاء كلمة (الآخرة) كما تآخى اصطفاء

---

[1] عُني البيانُ القرآنيّ كثيرًا بتصريف البيان عن هذا المعنى ، وأنّ الدُّنيا مهما بلغ نعيمُها كثرةً وتنوعًا وجودةً فهو نعيمٌ زائلٌ . واستجاع الآياتِ القائمةِ بهذا التّصريف البيانيّ وتكرّره في سياقاته يملأُ القلبَ والعقلَ والنفس زهدًا في أن يكون مطمحُ المرء امتلاكَ كلِّ ما فيها ، وزهدًا في أن يكون لها عليه سلطانٌ، وزهدًا في أن يفتح القلبَ والعقلَ لها بابًا ، وإصرارًا على أن تحلّ محلا طيّبًا في اليد لا تتجاوزها إلى القلب والعقل والنفس ، وإصرارًا على أن تكون هي المسخَّرة لنا ، ولسنا المسخَّرين لها (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية :13).

[2] جعلته قصر قلبٍ لأنّهم لا يعتقدون أنّ هذا لها ولغيرها ، فهم لا يؤمنون بغيرها ليكون قصر أفراد، وهم لا يترددون بين الحياتين، فليست إلا حياة واحدة عندهم هي الدنيا، ومن ثم وجب أن يكون القصر هنا قصر قلب . وهو أكثر ما يكون له القصر بـ(إنما) وإن جاءت للإفراد في بعض السياقات ، بخلاف ما قرره عبد القاهر أنها لا تكون إلا لقصر القلب، وكأني بعبد القاهر يذهب إلى أن ما كان غير كثير كأنه لا يكون ، ذلك أنّ عبد القاهر أكبرُ وأعقل من أن يذهب إلى أن (إنما) لا تكون البتة للإفراد ، فذلك قائم بيّن جليّه في بيان الوحي وغيره من بيان، وفي بيانه هو في كتابيه أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز"

والذي يحسن التلبثُ عنده أنّ (إنما) تستعمل غالبا في قصر القلب ، وقصر القلب يحتاج إلى قوة في الدلالة ، وظاهر الأمر أن هذا أولى به النفي والاستثناء، ولكن لما كانت (إنما) الشأن فيها أن تستعمل فيما شأنه أن يكون مسلمًا غير متنازع ولا متوقف فيه ولا متردد جيء بها في ما هو قصر قلب إيذانًا بأن هذا الذي قصره يجب أن يكون مما شأنه أن يسلّم ، ولا يدفع، بل لا يتوقف فيه ولا يتردد. وهذا مسلك فنيّ من مسالك الحجاج والمجادلة بالتي هي أحسن . .

متاع مع (الدُّنيا) فلم يقل (وإن الدّار العليا) في مقابل (الدُّنيا) لأنّ الحياة الأولى هي دُنيا لكلّ من فيها ، من أهل الطاعة ، وأهلِ المَعصية، بينما الحياةُ الآخرة ليست عليا لكل من فيها من أهل الطاعَة ، وأهل المعصية، فاصطفى لكلّ ما يناسب واقعَه وفي الوقت نفسه ما يناسب ما أخبر به عن كلّ (مَتاعٌ)(مقيم)

وجاء مجموع قوله (إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) بيانًا لقوله (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) فَفصل عنه فدلّ على أنَّ سبيلَ الرَّشاد متحققٌ مِن العِرفانِ بهذين الأمرين معا : العرفان بأنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ والعرفان بِأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ .

هما متعادلان في وجوبِ العرفان بكلٍ ، وهذا ما يقويّ مجيئ (الواو) فلو لم تأتِ لكانت المعرفةُ بأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ هو عين المعرفة بأنَّما هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، فيكون لدينا معرفة واحدة ومستتبعاتها . فجاءت (الواو) فعادلتْ بينهما في وجوب المعرفة بأن سبيل الرشادِ من اليقين بكلٍ على حدٍّ سواءٍ والعمل على مقتضى اليقين بكلٍ([1]).

***

وممّا هو ظاهر الفصلُ فيه لكمال الاتصال توكيدًا قول الله (:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)(الحشر:١٨-٢٠)

لما قال (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) كان في الإعراب بقوله: (النار)و(الجنة) ما يدل دلالةً قاطعة على أن أصحابَ الجنة هم الفائزون ، فلن تجدَ أحدًا به مُسكة يُمكن أن يتوقف في القضاء لأصحاب الجنة أنهم الفائزون ، وزاد هذا المقرر تقريرًا فجاء قوله(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) بملأ السمعَ والقلبَ بما فهم لزومًا من قوله :(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) فلا تكون الدلالة عليه بطريق اللزوم بل تكون عليه أيضًا بطريق المطابقة التي هي أقوى إحكامًا وتبرجًا ، فجمع لهذه الحقيقة الكمال في حسن الدلالة عليها، وتمامها، وتبرجها في أحسن صورة من البيان مشاكهة لشأن المتحدث عنهم المقضي لهم بأنهم الفائزون، فهم الأحق بأن يكونوا أهل اعتناء بشأنهم ، والإبلاغ في تقرير شأنهم.

هذا الاعتناء الأعظم الأكمل بالإبانة عن شأن أصحاب الجنة، وعظيم مفارقتهم أصحابَ النار لتملأ هذه الحقيقة السمع والقلب فتكون حاضرةً لا تغيبُ ولا تغيم، فهذه إذا قامت في السمع والقلب كان للعبد من حضورها وقاءٌ بالغ التحصين من أن يكونَ له بأهلِ النّار شائبة علاقة ، فضلاً عن أن يكونَ له بهم صحبة ، فكيف بأن يكونَ مواليًا لهم في أيِّ شأن من شؤون الحياة . كلُّ ذلك ليبقى العبدُ في منعة من أن يطوف حول معاطن أولئك وحظائرهم.

هذا الإبلاغ في المحاجزة عن أصحاب النار هو من أفق تعريفه سبحانه وتعالى لنا بنفسه في فاتحة (أم القرآن) :(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)(الفاتحة:١-٤)

---

[1] يلفتنا شيخنا إلى دقائق ورقائق من معاني الهدى في هذه الآية يُحقق العمل بها فيضًا من تهذيب النفس وترويضها، وحفزها على الديمومة في سبيل الطاعة لرب العالمين ، ولا يليق بعاقل ناصح نفسه إلا أن يتشرف باستطعام ما بسطه أعزه الله بطاعته بين يدينا في كتابه : آل حم -غافر - فصلت دراسة في أسرار البيان | مكتبة وهبة 1430 هـ ، ص153-149.

وعلينا أن نكونَ على ذكر بالغ أن صحبة النار أو الجنة، ماهي بصحبة في الآخرة فحسبُ ، بلْ هي صُحبة في الدنيا والآخرة، فأصحابُ النار هُم أصحابُها في الدنيا، فمكثُهم في الكُفران أو العصيان هُو في حقيقته صُحبة للنار، فالكُفران والمعصية إنما هُما نارُ الله تعالى في الدنيا لصَانعي أيهما ، فمن قارف شيئًا من ذلك فإنما يتردي نار الدنيا..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(البقرة:١٧٤) (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)(النساء:١٠)

ومن يعتكف في محراب صناعة الخير ونشره ومناصرة الحق بالحق إنما هو مقيم في جنة الله تعالى في الدنيا ،وهو يستمتعُ بصناعته هذه لا يعدلُ بها شيئًا من متاع الحياة الدنيا مهما عظم . روى مسلمٌ في كتاب(البر والصلة والأدب) من صَحيحه بسنده عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِىِّ (وَفِى حَدِيثِ سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (« عَائِدُ الْمَرِيضِ فِى مَخْرَفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ »

لتستطعم قوله (« فِى مَخْرَفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » ألا تراه في الجنة؟

ولتصغ إلى قول الله (في الحديث القُدُسي الذي رواه مسلم في كتاب(البر والصلة والأدب) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ ... » أرأيت إلى قوله عَزَّ وَجَلَّ. « لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ ... »

فأصحابُ الإيمان والإحسان بالأعمال الصالحة هم في جنة الله تعالى في الدنيا، وسينتقلون بفضل من الله (منها إلى جنته في الآخرة.(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)(الأعراف:٤٩)

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل:٣٠-٣٢)

***

ومن هذا قوله (:(الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (النور :٣)

عطف قوله تعالى (حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤمنين) على قولِه: (الزَّانِي لا يَنكِحُ) وهو في بعضِ وجوهِ التأويل مقرر معنى ما عطف عليه ، ومقتضى ظاهر البيانِ أن يفصلَ عنه ، وعدل البيان عن ذلك إلى العطف وهذا ما يحسُن التلبثُ عنده لِتَبيّنِ وجهه .

قوله تعالى:(الزاني لا ينكحُ) ([1]) على قراءة الرّفع صيغته صيغةُ الخبر وهذا يحتملُ أن يكون بيانا لواقع قد كان ،وأن يكونَ نهيًا في صُورة خبرٍ، وأن يكون إنباءً بأنَّ من كان منه لم يكن مؤمنا أي حين يفعل لا يكون مؤمنا فهو من بابِ ما رواه الشيخان : البخاري في المظالم وغيره،ومسلم في الإيمان بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (قَالَ النَّبِىُّ (: « لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ » (النص للبخاري)

أو يكون تصويرًا لحالِ من مرَد على الزّنا لا ترغبُ نفسُه إلا في مثلِه وهو ما نقل عن القفّالِ قال:" إِنْ كَانَ عَامًّا لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الأَعَمُّ الأَغْلَبُ، وَذَلِكَ لأَنَّ الْفَاسِقَ الْخَبِيثَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الزِّنَا وَالْفِسْقُ لا يَرْغَبُ فِي نِكَاحِ الصَّوَالِحِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّمَا يَرْغَبُ فِي فَاسِقَةٍ خَبِيثَةٍ مِثْلِهِ أَوْ فِي مُشْرِكَةٍ، وَالْفَاسِقَةُ الْخَبِيثَةُ لا يَرْغَبُ فِي نِكَاحِهَا الصُّلَحَاءُ مِنَ الرِّجَالِ وَيَنْفِرُونَ عَنْهَا، وَإِنَّمَا يَرْغَبُ فِيهَا مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهَا مِنَ الْفَسَقَةِ وَالْمُشْرِكِينَ، فَهَذَا عَلَى الأَعَمِّ الأَغْلَبِ كَمَا يُقَالُ لا يَفْعَلُ الْخَيْرَ إِلا الرَّجُلُ التَّقِيُّ، وَقَدْ يَفْعَلُ بَعْضَ الْخَيْرِ مَنْ لَيْسَ بِتَقِيٍّ فَكَذَا هَاهُنَا."([2])

أمّا أنه خبرٌ بمعنى أنَّ ذلك لا يكونُ ، فهو ممّا يخالفُ الواقع ، فقد ينكحُ غير زانٍ زانيةً وهو عليم بأمرِها ، وقد ينكح زانٍ غيرَ زانيةٍ وزهي عليمةٌ بأمرِه ، وعلى أيٍ من الاحتمالات الصّحيحة فمآلُ المعنى تحريمُ ذلك على المؤمن ، فيأتي قولُه تَعالى :(حُرم ذَٰلك علَى المُؤمنين) ليقرِّرَ بمنطوقِهِ ما لَزِم من معنًى منطوق صدر الآية، وكان مُقتَضَى الظّاهر أن يُفصلَ عنه ، فعدلَ إلى العطفِ لفتًا إلى أن يجعلَ المستمعُ عنايتَه بهذه الجملةِ عديلَ عنايتِه بالجملةِ المُغايرةِ سابقتَها ، وكلُّ جملةٍ مغايرةٍ تَحملُ معنًى جديدًا يستوجبُ عنايةً جديدةً ، وفي تجديدِ العنايةِ مزيدِ تقريرٍ للمعنَى.

وفي التّصريح بالتّحريم تقريره في القلب وتمكينه فيه فما يُدل عليه بطريقِ الّلزومِ دون ما يدلُّ عليه بطريقِ التّصريح إحكامًا فاجتمعَ للجملة أمران: التّصريحُ بالتّحريمِ ،وإخراجُ الجملةِ في صورةِ الجُملةِ الجديدةِ فيما تحملُهُ من خلالِ العطفِ بـ(الواو) فالغالبُ على الجملةِ المؤكِّدة إذا عُطفت بـ(الواو) أنَّ ذلك يُقيمُها في صورةِ جملةٍ جديدةٍ ، وهذا يمنحُها مزيدًا مِن العنايةِ في التّلقّي. ويلفتُ لإلى ما تحمله فوقما تحمله التي هي مؤكدة له، وكأن في الخادم شيئًا ليس في المخدوم وفي هذا مايلفتنا إلى أنّ علينا في حياتنا الاجتماعية إذا ما ابتلانا الله تَعالَى جَدُّهُ بأن جعلنا متبعين ، ولنا من يخدمنا أو يتبعنا أن نوقن بأنّ أولئك الخادمين لنا بأجرٍ أو غيره وأولئك التابعين لنا بإرادة منهم أو بغريها فيهم ما ليس فينا من الفضل ، فليس من النّصح للنّفسِ أن نعرضَ أونتغافل أونتشاغل عما فيهم من الفضل ، بلْ علينا انْ نتعلمه منهم ، وأنْ نحمله عنهم وأنْ نذكرهم به وأنْ نشكرهم عليه شكرًا عمليًا وشكلا لسانيًا صدوقًا .

---

[1] الإيراد بالزاني والزانية من وقع منه ذلك مرة، بل من كان ذلك فعله ودينه فترد عليه وأمثاله كأصحاب الرايات.... ويؤيد هذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية ، روى أبو داود في سننه بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ (فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْكِحُ عَنَاقَ؟ قَالَ فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ (وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) [النور: 3] فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ، لاَ تَنْكِحْهَا

[2] مفاتيح الغيب للرازي ج23 ص498

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ... » . (متفق عليْه من حديث ابن عمر رضيَ الله عنْهما . ([1])

النّاسُ للناسِ مِن عربٍ ومِنْ عَجمٍ

بعضٌ لبعضٍ وإنْ لَم يشعروا خدَمُ([2])

وفوقَ هذا في عطفِ المؤكّد(التّابع النافع للمتبوع) إبرازُ فداحةِ هذا الأمرِ ، فإنّ الله تعالى لا يُحرّمُ على المؤمنِ إلا ما كان ذا خطرٍ على إيمانِه، وفي هذا مِن الهُدَى أنّ مقاربةَ أصحابِ هذه الآثامِ لا يسلمُ إيمان المرْءِ منهم ، فحرًى أن يتحاجزَ المؤمنُ عن كلّ ما يلمُّ بشيْءٍ منهم ، ولو كان مِن قبيلِ العلمِ بأخبارهم، أو الاستماعِ إلى ما يقولون أو يقالُ عنهم. ([3])

ويقوّي هذا قوله (إلا زانية أو مشركة) (إلا زانٍ أو مشرك) فالقرنُ بيْن من أدمن الزّنا والمشرك فيه من التّرهيب والتّنفير ما يُقيمُ الفرار من هذه الجريرةِ (الزّنا) مقامَ القرب من الشّرك ، وكأنّ مآلَ إدمانِهِ هو الشّرك، ولذا جاءَ البيان القرآني مصورًا النّهي عنه تصويرًا بالغ التّوكيد ، فقال (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً)(الإسراء:٣٢) ولم يقل : لا تزنوا، بل (لا تقرَبُوا الزّنا) ولقربانِه صورٌ عديدةٌ متنوّعةٌ:

(أ) منها رؤيةُ من تدعو رؤيتُه إليه أو محادثتُه أو الاستماعُ إليه أو سماعُ أخبارِه

(ب) .ومنها الجلوسُ في مجالسَ يثيرُ الحديثُ فيه الرّغبةَ في الزّنا أو في أهلِه

---

[1] غيرُ خفيٍّ عليك أن قوله(لا يظلمه ، ولا يسلمه) بيانٌ لقوله ﷺ :"المسلم أخو المسلم" ويحسن بك أن تلتفت مليًّا لتبصر ما في الجملة المبيّنة من اتساع وما بين ظلمه وإسلامه دون مناصرته على الآخرين وعلى حاجاته وعوزه الحسيّ والمعنوي من اختلاف واتفاق ، واجتماع وافتراق

[2] بيّنٌ أن قوله :" بعض لبعض ..." توكيد وتبيين لقوله (الناس للناس) وما في هذا المعنى من التآخي ومن التكافل والتناصر ،وكيف أن ذلك يشد عضدا الكبر في النفس الإنسانية: بطر الحق وغمط الناس.

البيتُ وإن كان الفقير من مقومات الشعرية، فإنه الثريّ الغنيّ الحميدُ عطاءً في تثقيف النفس وتهذيبها وتثبيتها في طريق السلام الاجتماعي الذي نحن أحوج ما نكون إليه في عصرنا المتلاطم بالنكبات المصنوعة على أعين أحفاد أبي لهب وفي عصرنا المبتلى بضعة غير قليل ممن ولدوا على أرضه.

[3] مما حمله عن بعض أشياخي في العلم ، وأشياخي في التربية النفسية الخلقية أن هنالك ثلاثة مجالس لا تحم حول حماها البتة :

(أ) مجلس الأمراء ، ولو كان أميرَ (رئيس) حضانة أطفال أو رئيس عمال "التراحيل" فإنهم الفئة التي تزكي أوار الرغبة في أن تتأمر على الآخرين، (فتتأمر عليهم) وأن هذه الرغبة (رغبة أن تكون في القوم أميرًا) هي خلية نائمة مميزة في كل إنسان ، فاحذر إيقاظها .

(ب) ومجلس الأثرياء فإنهم بما يحيطون به من متاع الدنيا وزخرفها يجعلونك ناقمًا على ما يمنيك من عطية الله تعالى جدُّه لك، فتخرج من عندهم ناقمًا على ربك.

(ت) ومجلس النساء ، فقلّه ما خالطهم أحمسُ "الذكران" وإن كان في السبعين من عمره ، إلا وشغلت نفسه بهنّ عن أخراه .

من قارب تلك المجالس خرج منها ناقص الإيمان.

إنّهم يأخذون من دينك أضعاف ما قد يمنحوك منّةً من دنياهم .

وأخطر هذه المجالس مجالس النساء (لا ريب في أني لا أقصد مجالسهن للعلم) فإنهن فيها ليسوا بأجسادهن ومفاتنهن عن عقولهن والسنتهن

وكل امرأة ذهبتْ إلى مجلس علم، وهي تحمل أنوثتها ومفاتنها وزينتها الظاهرة والخفية ، فما هي من أهل العلم في شيء إنها حبائل الشيطان، وليس أحمق من يجعل نفسه حبالة شيطان ، فالشيطان حينئذٍ خيرٌ منه.

عليهنّ حين يذهبن لمجالس العلم طالبات أو عالمات أن يسمعن ويطعن هذا النداء الإنجيلي (اخلع نعليك) ونعليها أنوثتها وزينتها.

اللهم إني قد بلغت ، اللهم ، فاشهد.

(ت) ومنها النظرُ النافذ في ما يثيرُ الشهواتِ واستماع الغِناء... ([1]) كلُّ ذلك هو ضربٌ من ضروب قُربان الزّنا .

***

ومن هذا البابِ قوله (" (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ((الأنعام:١١٤- ١١٧)

قوله تعالى:(إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) مؤكِّدٌ قوله (اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ) على وجه من التأويل ، ذلك أنّ قصر اتباعهم على اتباع الظَّنّ يلزمُه أن يكونوا خارصين ، فيكون قوله: (إِنْ هُمْ إِلا يَخرصُون) مؤكدًا معنى منطوقِه ممّا يلزم من معنى منطوقِ(إن يتبعون الا الظنّ) وكان مقتضى الظاهِر ألا يعطف عليه بـ(الواو) لما بينهما مِن التّلاقِي ، بيْد أنّ البيان عدَلَ عن ذلك إلى العطفِ بـ(الواو) لفتًا إلى الجانبِ الذي يقع فيه التّغاير بيْن الجُملتين لأنّه محلُّ اعتناءٍ ، فليس القصدُ إلى الاعتناء بتقرير ما التقيا فيه، بل القصدُ إلى الاعتناءِ بما زادتْه الثّانيةَ على الأولى. فما أسّسته جملةُ (إنّهم ألاّ يَخرُصُون) مقدمٌ الاعتناء به على الاعتناءِ بما أكّده من المعنى القائم من الجملةِ السّابقةِ عليها.

والمعنى الزّائدُ على ما في الأولى يتمثّلُ في ما تحملُه كلمة (يخرصون) فالخرصُ مؤسّس على الكذبِ والافتراءِ، وهما لا يكونان عَن غفلةٍ بل عن تعمّد وتعمّل. بينما أتباعُ الظّنِّ قائمٌ على الغفلةِ والتّساهل في التّحقّقِ والتّيقُّنِ، فجاء قوله تعالى: (إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون) لافتا إلى جمعِهم بيْن الأمرين معًا:

الأوّل: اتباع ما أنتجته الغفلةُ والتّساهلُ في التّحققِ والتّيقين.

الأخر: الاجتهاد في تعمدُ الكذبِ والافتراءِ .

وكأنّ هذا يشيرُ إلى أنّ بعضَ أمرهم قائمٌ مِن الأوّل ، وأنّ بعضَه الآخرَ قائمٌ مِن الآخر ، فلفتَ إلى تحقق الأمرين فيهما بالعطف، ولو أنّه فصل لكان في هذا إشارةٌ إلى الاعتناءِ بتقرير الأمر الأول ، وأنّ الأمرَ الثّاني غيرُ كثيرٍ أو ليس عديلَ الأمرَ الأوّل . فيكون في هذا ضعفٌ في ذمّهم والنّكير عليهم وضعفٌ في تقريرِ التّنفير منهم، ولمّا كان المقامُ مقتضيًا الإبلاغَ في منافرة حالِهم جاء ما يحققُ ذلك ، وهو العطف بـ(الواو)

وقوله: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) جاء استئنافا بيانيًا عن قوله تعالى (إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فهذا ممّا يثير في النّفس تساؤلا كيف يكونُ رأي الأكثرية والأغلبية مثمرًا اتباعه الإضلالَ عن سبيلِ الله تعالى ، ومنطق العقلِ يقضِي بأنّ ما تلاقت عليْه الكثرة هو ممّا سبرتْ غورَه وتجسّسته وتحسّسَتْه فبقِي على السّبر والتّفتيش، والتنقيشِ مكينًا حصينًا، فكان أحقَّ بأن يكونَ الحقَّ . فما أنتجتْهُ عقولٌ إنّما هُو أوكدُ ممّا أنتجَهُ عقلٌ واحدٌ وإن كان مِن اللّقانةِ والعبقريّة ما كان.

---

[1] المعهود في دنيا الغناء أنّ أداة الغناء " الحناجر" تلك يوم كان في الناس من يسمو إلى شيء من الإنسانية، أما في عصرنا ووطننا العربي فإن الغناء بات أداته الرسم وربما الوحيدة إنما هي مفاتن الأجساد ذكورًا وإناثًا فهو غناء يرى ولا يسمع وهذا رأس الإبداع في تطوير فن الغناء !!!!!! ثم يسألونك عن حكم الغناء في الإسلام ،أيّ غناء تسألون عنه؟!!!

وهذا ما فُتِنَتْ به الأنظمةُ السّياسيّةُ النّاعقةُ بفريضة الأخذِ برأيِ الأغلبيّةِ والأكثريّةِ ، يفضّلون ما زاد على الآخرِ ولو بواحدٍ ، فيجعلونَ للكمّ (العدد) - وإن كانَ عُظْمُه في الغفلةِ والجهالةِ والضّلالة والحمقِ غارقًا - سلطانًا على (الكيف) فلو أنّ الباطلَ والمنكرَ والمُحرم شرعًا والمنقوضَ عقلاً زادَ الرّاغبون فيه على الرّاغبين في الحقّ والمعروفِ والمباحِ أو الواجبِ بواحدٍ كانت أنظمتُهم (الديمقراطية) مقرّرة فريضةَ الأخذِ بالباطلِ؛ لأنّه رأيُ الأغلبيّةِ والأكثريّةِ ، وهذا مِن الضّلالِ المُبين ، فمنطقُ العقلِ الفِطريِّ يقضِي أنّ الاعتدادَ بالنّوعِ لا بالكمّ ، واللهُ (قد صرّف البيانَ عن أنّ رأيَ الأكثريّةِ في النّاسِ ليس هو الأجدر بأن يؤخذَ به(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ((البقرة:٢٤٣) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ((الأعراف:١٨٧) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ (هود:١٧)(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ((يوسف:٣٨) (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ((العنكبوت:٦٣)([١])

وفي بعضِ التّأويلات أن قوله تعالى: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ) راجعٌ إلى ما توارثوه عن آبائهم، فهم يتّبعون فيه الظّنّ ، أي هم مقلدون لا يقفون آثار آبائهم عن علم وتبصر وتيقّن.

وقوله تعالى :(إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) راجعٌ إلى ما يستخرجونه بأنفسهم ، فهم في هذا الاستخراجِ خرّاصون. ومن هذه الجهةِ عطف قوله: (إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) على قوله : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ)

من هذا يتبيّنُ لَكَ أنَّ فِي العدولِ عَن فصلِ الجملةِ المؤكّدة(بالكسر) عَن الجُملةِ المؤكّدة إلى عطفها بـ(الواو) معنًى زائدًا على ما يكونُ لَكَ لو كان الفصلُ، ففِي العدولِ مِن العَطاءِ ما في الأصلِ المَعهودِ وزيادة.

***

---

[١] في هذا ما ينقض ما قامت عليه نظم الحكم مما يسمونه "الديمقراطية" ففي هذه "الديمقراطية" أمران: الأول الإلحاد والآخر التلبيس والغرر.

أما الإلحاد فإنها قائمة على أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، ومعنى أن يحكم نفسه بنفسه أن تكون الحاكمية للشعب، فمرجعية كل شيء هو رضا الشعب، فالحلال ما أحل الشعب والحرام ما حرم الشعب وإن كان ذلك مخالفا للكتاب والسنة.

فإذا قضى بيان الوحي قرآنا وسنة الوثيق ثبوتا الصريح دلالة بأمر ما، ولم يرتض الشعب فإن الديمقراطية توجب الأخذ بما رضي به الشعب والإعراض عما جاء به بيان الوحي الوثيق ثبوتا الصريح والقطعي دلالة. إذا اختار الشعب المسلم حاكما كافرا، فالديمقراطية توجب أن يكون ولي الأمر الذي لا ينازع، وإن كان الشرع يمنع أن يكون الحاكم كافرا، ولكنهم يتخذون الديمقراطية قرآنهم وسنتهم.

هذا هو جوهر الديمقراطية وأصلها الفلسفي، وواقع الديمقراطية في كل الأنظمة التي تزعم الأخذ بها، وانظر في التشريعات التي يأخذ بها القضاء في عصرنا ومصرنا تجد غير قليل مما ارتضاه نواب الشعب القائمون بالتشريع - وعظمهم لا يحسن تلاوة سورة في كتاب الله (ولا يحفظ حديثا من حديث رسول الله (إنما هو مخالف مخالفة جهيرة لما قطع به القرآن والسنة الصحيحة الصريحة الدلالة.

ومن هنا كانت تسمية هذه المجالس بالمجالس التشريعية اعترافا بأنها مجالس حاكمية تشرع، وليس مجالس تنظم ما شرع الله تعالى وتقرب تطبيقه، ومن ثم كانت هذه التسمية إبليسية.

لو أن جوهر الديمقراطية أن يختار الشعب من يحكمه بكتاب الله تعالى وسنة رسوله (لكان هذا حسنا شريطة ألا يكون فيما يحكم به أمر مخالفا لبيان الوحي قرآنا وسنة، ولكن واقع الديمقراطية ليس كذلك.

وأما التلبيس والغرر فقائم في الجانب الإجرائي للديمقراطية، ما يسمى بالانتخاب أو الاستفتاء أو التصويت على إنفاذ أمر أو إبطاله، فالديمقراطية تسوي بين أهل العلم والاختصاص في مسألة ورأي أهل الجهالة والغباء في مسألة متعلقة بمعضلة في السياسة الخارجية أو الداخلية أو نحو ذلك بين رأي عالم خبير خريت جهبذ في باب السياسة الخارجية أو الداخلية أو نحوهما، ورأي عجوز لم تمس يدها قلما، ولا تعرف من أمر الدنيا إلا نزرا.

يتعادل الرأيان في تقرير هذه المعضلة بدعوى أن كل مواطن له حق إبداء الرأي في ما يخص وطنه وهذا من الإضلال البعيد.

لهذا أرى أن القول بالديمقراطية والأخذ بها على هذا النحو ضرب من الإلحاد والتلبيس، والمشاركة فيها بهذه الصورة هو من صناعة الفساد وإدارته، وكل من رضي بذلك رضي بكبيرة، وبمنكر مبير، ومن مات على ذلك مات وهو على كبيرة والمستعاذ به هو الله تعالى. السبيل الأقوم هو نظام الشورى الذي يأخذ في كل مسألة بأهل الاختصاص، فلا يؤخذ برأي طبيب في مسألة زراعية، ولا يؤخذ برأي زارع في مسألة طبية أو سياسية ... لأن هذا من استفتاء من ليس بأهل لما يُستفتى فيه وتلك هي الحالقة.

ومن هذا البابِ قَولُ الله (: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥)

قوله (لا تكن من الغافلين) توكيد لقوله (اذكر ربك ..) وكان مقتضى الظاهر أن يفصل عنه ، فلايعطف بـ(الواو) بيْد أن البيان القرآني عدلَ عن ذلك،فجاء به معطوفًا بـ(الواو) لفتًا لما في المعطوف من معنى أعمّ ممَا في المعطوف. ولما في المعطوف مِن إفادة وجوبِ التَّباعد عن ثلة الغافلين ، وتنبيهٌ إلى أنّه لا محالة أن سيكون مِن حوله ثلة منهم ، فعليه أن لا يكونَ منهم ، وأن لا يَجمعَه بهم أمرٌ ، فيُعدَى بما ابتلوا به من داء الغفلة، وفي هذا من التنبيه إلى أنّ الغفلةَ داءٌ لا يقبعُ في داخلِ مَن ابتلي به، بل هو منتقلٌ لامحالة إلى كلّ من قاربه. ففرَّ من الغافلِ فرارك من المجزوم.

هذه اللطائف تفهم من قوله (لا تكن من) ولهذا لم يقل له : لا تغفل كما قال له (اذكر). نهاه عن أن يكون من الغافلين، وهذا يفهم أن النهي عن أن تكون الغفلة صناعته، وأن يكون الغافلون حزبه وشيعته، وعشيرته.

***

ومن هذا قَولُ الله تَعالى:﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (القصص:١٨-١٩)

في سياقِ تصويرِ ما كان من شأن سيِّدنا موسَى على نبيِّنا وعليْه الصلاةُ والسلامُ من قبلِ النبوّة، وما كانَ من شأن نصرتِه لمن استنصَره من قومِه بني إسرائيل حين همّ القبطي بظلمِهِ ، كما كان منْ شأنِ القبطِ معهم ، وما كان هذا بالذي يُريح سيّدنا موسَى على نبيِّنا وعليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لأمرين:

الأوّل :أنّه ظلمٌ والآخر أنّه ظلم لقومِه ، فنصرَ موسى على نبيِّنا وعليْه الصلاةُ والسلامُ من استنصره من قومِه فوكزَ القبطيَّ ، فقضى عليْه ، وما كان بالمريدِ أن يقضِي عليْهِ بل هو المُريدُ أن يدفعَ ظلمه عن واحدٍ من قومِهِ استنصَره، ومِن هنا لم تكنْ فعلتُه هذه في عدادِ الجريمةِ والاعتداءِ من أنّه دفاعٌ عن مظلومٍ ، فإذا ما كان الدِّفاعُ عن النَّفسِ فريضة ، فإنِ الدِّفاعُ عن المظلوم فريضةٌ مسلمًا أو غيرَ مسلمٍ ، وإذا كان قتلُ المعتدِي مسلمًا أو غيرَمسلمٍ على النفسِ المسلمةِ أو غيرِ المسلمة ليس قتلاً يستوجبُ العقوبةَ فِي الدّنيا والآخرةِ ، فكذلك قتلُ المعتدِي مسلمًا أو غيرَ مسلمٍ ظلمًا على آخر مسلمًا أو غيرَ مسلمٍ ليس قتلاً يستوجبُ العقوبةَ فِي الدُّنيا والآخِرةِ ، (انْصُرْ أخاك ظالمًا أومظلومًا) والناسُ أخوة في الإنسانية. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)

قَول القبطيّ لسيّدنا موسَى على نبيِّنا وعليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسّلام: ﴿ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ هو في معنى قوله له: ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ ذلك أن من لا يريدُ إلا أن يكون جبارًا في الأرض هُو هُو لا يريدُ أن يكون من المُصلحين ؛ لأنّ إرادة أن يكون جبارًا لا تتلاقى مع إرادةِ أن يكونَ مِن المصلحين. وكان مقتضى الظّاهر أن يفصلَ عن سباقه، وعدلَ البيان عن ذلك إلى العطف بـ(الواو) لفتًا إلى أنّ هذه إرادة الكون من المصلحين لا سبيل إليْها، تحقيقًا لإرادة أن يكون جبارًا صرفًا ، فهو يريدُ أن يسجّل عليْه

عدم تهيئه لأن يكونَ منه شيْءٌ من الإصلاح ، لما سبق من قتله القبطيّ ، ولما بدا منه الإقبالُ على تكرارِ ذلك معه وهو يريدُ أيضًا أن يسجّل عليْه أنّ الفسادَ باتَ متجذرًا فيه، ولذا عطفه عليه ليبرزَ هذا المعنى الزّائدَ ، ولو أنّه ترك العطف لكان اللفتُ إلى العنايةِ بما التقت الجملتان عليْه ، ولكنّه لمّا عطفَ كان الالتفاتُ إلى المعنى الذي التقيا عليه ، والمعنى الّذي زادته الجملةُ الأخرى (ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِين (

وقوله له:(إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ(وصيغ في أسلوبِ قصرٍ بالنّفي والاستثناء تقريرًا لهذا المعنى، تنفيرًا لموسى عليْه وعلى نبيّنا أفضلُ الصّلاةِ والسّلامِ من أقدامِه على ما أراد من قتلِه.

جعل إقدامَه على مناصرة الإسرائليّ إرادةَ الكون جبارًا في الأرض ، تصويرًا للفعل في صورةٍ تنفرُ منها كلّ نفسٍ سويّةٍ ، فكيف بنفسِ موسَى عليْه وعلى نبيّنا أفضلُ الصّلاةِ والسّلامِ .

ذلك نهجٌ عليّ نافذٌ في النّفسِ لدفعِها عمّا تريدُ الإقدامَ عليْه ، فالقبطيّ أحسن العبارةَ عنْ مُرادِه مِن مدافعةِ موسى عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ عن قتله ، وزادَ الأمرَ قوة وفتوّة بأن قال له (ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِين (أقامَه في صورةِ من يأبَى أن يكونَ مِن المُصلحين ، وتلك لا يقدِمُ عليْها مَن به ذرةٌ من عقل ، فكيف مُوسى على نبيّنا محمدٍ وعليه الصّلاةُ والسّلامُ؟

كذلك جاءت الصّياغة فنيّة غنيّة بعواملِ التّأثيرِ في النّفسِ، قادرةً على إيصالِ المعنى إلى قلبِ سيّدنا مُوسَى على نَبِيّنا مُحمّدٍ وعليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ.([1])

***

وممّا هو من كمال الاتصال تلازمًا قولُ اللهِ تعالى : (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ((الشعراء: ١٣٦ ـ١٤٠)

في هذه الآية يبين الله تعالى ما عليه أولئك الكافرين من العنت إزاء رسولهم، وكيف أنّهم يجتهدون في بثّ آفة اليأسِ من اتّباعِهم له، فيقررون له أنّ وعظه وعدمه سواءٌ عليهم، فاجتهادك في وعظهم عقيمٌ ، لن يجدي شيئًا ،فحرَى بك أن ترفعَ عن نفسِك مؤنةَ الوعظِ ، وكانوا مبالغين في العبارةِ عن عدمِ الوعظِ لأنّه هو طَلِبَتهم ، فقالوا: (أَو لَم تكنْ مِنَ الواعظين(أيْ لم تكنْ بالكليّة ، وفي أصلِ جبلّتك من جملةِ الواعظين أو ممّن يتأتى لهم القيام بذلك

([1]) لعلك تتساءل ما بالكم تتفرسون دقائق البيان ، على الرغم من أنه مقال من لا ينطق بالعربية ،وما تذكرون إنما هو من خصائص العربية المحكيّ أعجمي والحكاية عربية أفتكون أسرار البلاغة للمحكي أم الحكاية ؟سواء يحضر عند كل تدبر لإنباء الله تعالى عما كان من السابقين الناطقين بغير العربية وهو سؤال قديم، لم يغفل عنه أهل العلم

يقول ابن جني في تأويله قول الله تعالى) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) طه". [65]فإن قيل: إنّ السحرة لم يكونوا من أهل اللسان، فيذهب بهم إعرابهم وإعرابُهم فيه هذا المذهب من صنعة الكلام. قيل: ألا تعلم أن جميع ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرآن من القول الحكاية إنما هو مفهومٌ من معانيهم ، وليس بحقيقة ألفاظهم ،أو تراك تشك أن قوله (: قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) طه [63 ،أتظن أن هذه الفصاحة والألفاظ في المنطق كانت جارية على ألسنة العجم ،ومن ليس من أهل اللغة أصلاً ؟ وكذلك عامةُ ما في القرآن مما هو حكايةٌ عن غير أهل اللسان إنما هو كلام مفهومٌ عن كلامهم ، ومنبئٌ عما كان عبارةً عن معانيهم " الخاطريات لابن جني تحقيق علي ذو الفقار شاكر ،نشر دار الغرب الإسلامي ،بيروت ط1408(1)هـ ص119

يشير ابن جني إلى أن ما حمله البيان القرآني من دقائق المعاني ولطائفها في نظمه كان قائمًا في صدورهم والله سبحانه عليم بذات صدورهم وصدور كل من خلق فجاء بيانه تعالى معربًا عن مكنون صدورهم ، فلسانهم لم يكن تام الدلالة على ما في صدورهم لأمر راجع إلى اللغة التي يعربون بها من جهة ولعجز في قدراتهم هم أيضًا عن الإبانة عن تمام ما في صدورهم، فكان بيان الحقّ جل جلاله معربًا عن مكنون هذه الصدور

، وكان يمكنهم أنْ يقُولوا سواءٌ علينا أوعظتَ أوْ لمْ تعظ، ولكنَّهم انحرفوا إلى هذه الصياغةِ المُنْبِئةِ عن استشرافهم لعدم وعظهم، وكفِّ الرُّسلِ عن ذلك.
وجاء قولُهُ تعالَى:(إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ(مفصُولاً عمَّا قبلَهُ، وهُو في وجه من وجوه التَّأويل من جملة قولهم ، وهو الأرجحُ لعطف (وما نحنُ بمعذبين(ليبرزوا له علَّة ما ذهبوا إليْه من استواء الأمرين فيهم، وكأنَّهم يقولون له أيملكك أن تبدِّل جبلَّة الأولين فينا ؟ وهذا فيه بيانٌ لمزيد رغبة منهم في تيئيسه من اتباعِهِمْ دعوتَهُ . فترك العطفِ هنا لكمال الاتصال بيْن المعاني فهو واقعٌ ممَّا قبلَه موقعَ العلةِ مِنْ المعلُول ، وهما لا يفتقران إلى رابطٍ خارجيٍّ لاستغنائهما بالرَّابطِ الدَّاخليِّ المتمثِّل في رابِطِ التلازم.
وجاء قولهم (وَما نحنُ بمعذبين(مؤكدًا مع تقديم المسند إليهِ (نحن) على خبره المشتق (معذبين) وهو مفيدٌ لتوكيد نسبة انتفاء وقوعِ العذاب عليهم على زعمهم ، ممَّا يجعلهم في زعمهم أحقاء بأن لا يلتفتوا إلى وعظه ..
ولا يصلح أن يقال إن التقديم هنا مفيدٌ للقصر كما يحتمله قوله (: (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ((البقرة:١٦٧) وقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ((المائدة:٣٧) فالتقديمُ هنا يحتملُ إفادة التَّخصيص ، وتقرير أنَّ هنالك من هو خارجٌ من النَّار غيرهم . أمَّا(وما نحنُ بمعذبين (ونحو (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ((الأنعام:٢٩) (إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ((المؤمنون:٣٧) (إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ((الدخان:٣٥) لأنه إن قِيل إن التَّقديمَ يُفِيدُ القصرَ كان هذا مفيدًا اعترافهم بالبعثِ ، وهو مناقضٌ ما همْ عليه ، فما هُم عليه من اعتقادٍ قرينةٌ ما نعةٌ من القولِ بإفادةِ التَّقديمِ هنا الحصرَ.
ويبقى النَّظر في وجه الوصل في قوله سُبْحانَه وَتَعالَى: (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ((الأنعام:٢٩) (إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ((المؤمنون:٣٧) (إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ((الدخان:٣٥) وظاهرٌ أنَّ (مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ((الأنعام:٢٩)(مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ((الدخان:٣٥) إنَّما هو توكيدٌ لما قبله المفيد قصر حياتهم على الحياة الدّنيا ، وقصر موتتهم على الموتة الأولى على زعمهم .
كان مقتضى الظَّاهرِ أنْ يفصل لما بيْن الجملتين من توكيد ، ولكنَّ البيان هنا لفتنا بالعطف بـ(الواو) إلى مابين الجملتين من مغايرة هي محل الاعتناء ، ففي الجملة الثانية:(مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ((الأنعام:٢٩) (مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ((المؤمنون:٣٧) (مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ((الدخان:٣٥) معنى زائد هو إفادة أنهم يقصدون إلى تقرير هذا الَّذي يؤكِّده لهم الرَّسول، فعمدُوا إلى إبرازِ ردِّه وتأكيدِ هذا الرَّدِّ ، وهذا إنَّما يكون بأن تجعلَ الجملة الحاملة معنى هو محلّ القصد في صورة مستقلّة لتفردَ بالعنايةِ والقصدِ كي لا تكونَ في العناية بها تابعةً للعناية بما قبلها، هو ما يحققه العطف بـ(الواو) وأنت تلحظ هذا في جملة الحال حين تكون مقرونة بـ(الواو) كما في "جاء محمدٌ وهو يضحك " فهذا يلفتك إلى أن محل العناية الرئيس ليس الإخبار بالمجيئ بل الضحك ، أمّا "جاء محمدٌ يضحك" فالعناية بالإخبار بالضّحك تابع للعناية بالإخبار بالمجيئ .
***

ومن هذا أيضاً قول الله (حكاية عن منكري البعث :(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ *إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الدخان:٣٤-٣٦)

قولهم: (مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ(توكيدٌ لقولهم(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى(بيد أن البيان جاء به معطوفًا لا ليجعله مشاركًا له في حكمه الإعرابيّ، فذلك متحققٌ مع الفصل أيضًا لأنَّ تأكيدَ المقول أخذُ حكمَه الإعرابيّ ، بل العطف جاء ليلفت الانتباه إلى هذا المعنى ، وأنّه متأصلٌ فيهم، فهم يلحُّون عليْه ويمنحون تقريره العنايةَ البالغةَ ، فلذلك يتحاشون به عن مقامِ التّبعية في القصد ، فيأتون بـ(الواو) التي تهدي السّامع إلى أن في ما بعدها ما ليس في ما قبلها، فَلْيُعْنَ بتلقيه كأنّه جملةٌ مُستقلّةٌ ، فجعلوا ما زاد فيها على ما قبلها، بمثابة الاستقلالِ عنها ، وكأنّها غيرُها.

وهذا يهدينا إلى أنّ قليلاً من إضافتك إلى كلّ ما عداك يجعلك مستقلاً غير أمعةٍ تابعٍ لغيرك،وظلٍ له، تحت قدميه، فاحرص على أن يكون فيك من الفضل ما تزيدُ به على غيرك

وتبصّر صياغتهم ما حسبوه حقيقةً (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى(فجاءوا بضمير القصة، فجعلوا من هذا الزّعمِ قصةً، لفتًا إلى أهميتِها واعتناءً بشأنِها، وأنّها من الأصولِ الرّئيسة في حياتِهم.

وفي هذا مايُفهم منه أنّهم يدّعون أنهم ما اتخذوا هذا أصلاً إلا من بعد نظر ، فلذلك هي قصة ، وأنت تعلمُ أنّه لا يأتي ضمير القصة إلا فيما كان ذا قدرٍ وشأنٍ بالغ عند من يُعبّرُعنه بضميرِ القصّة ، فإذا ما سمعت (إنْ هي) من قبل أن يأتيك ما يُخبرُ عنه، استجمعت قواك الإدراكيّة للتلقّي هذا الآتي الذي أنبأك المتكلم أنّه قصة ، وحقه عليك أن تثقَ بما يخبرك ، ولا تتردّدَ أو تقف فضلاً عن أن تَرُدَّ وتدفع إلامن بعدِ سبرٍ ومناقدة ومناقضة.

كذلك يهيؤك ضميرُ القصة للتلقي ما يأتي بعده تلقيًا يَرْغبُ فيه المتكلم ؛لأنّه يراه من حقّ ما يُخبرك به ، فإذا جاء قوله (موتتنا الأولى) تغوّرت في نفسِك الّتي نهضَت واستشرفتْ وفتّحت الأبواب .كذلك يسعى أولئك لتقرير هذا الأمر.

وقولهم (ما نحن بمنشرين) ولا يفهم منه أنّ غيرهم في حسبانهم منشَّرٌ، لأنّهم لا يؤمنون بالبعثِ ، فهذا التركيب في مثلِ هذا السّياق لا يُفيد التّخصيص، بل هو مقصُورٌ على التّوكيد والتوطيد ، ومتفرغٌ له ، يستفرغُ كلّ طاقاته الدّلالية لتقريره في قلبِ السّامع.

وجاء البيانُ ليرسُم لك موقفَ منكري البعثِ من الحقّ، إنّهم لا يكتفون بالسّعي إلى تقريرِ باطلِهم في القلوب، بل يسلكُون مَسلك الاستخفافِ والاستحقار، فيطلبون ممن يخبرُهم بحقيقةِ البعث أن يأتوا بآبائِهم إن كانوا صادقين فيما زعمُوه مِن أمر البعث.(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وهم يعلمون أنّ إخبارَهم بالبعث ليس إخبارًا بأنّه يقعُ من بعدِ الموت ، بل لذلك أجلٌ معلومٌ عن الله (، ولكنّها (السّفسطة) والمجالدة بالّتي هي أسوأ.

***

ومن عطفِ المؤكّد على المؤكّد قول بشار بن برد:

وكأنّها لمّا مشَتْ * أيْمٌ تأوّد في كَثِيب

وكأنّني مِنْ حُبّها * ظَـارٌ أهابَ به مُهيبٌ

خلقَ النّساءُ خلافُها *ضربًا ، وليْسَ لها ضَريبٌ

قوله (لَيسَ لها ضريبٌ) توكيد لقوله(خلِقَ النّساء خلافها ضربًا) وكان ظاهر الأمر أن يفصل عنه ، بيْدَ أنّه عطف ليبرزَ لك أنّها على القطع ليْس لها ضريبٌ ، فكأنّه خبرٌ جديدٌ، وليس التّابع لما قبله ، فحقُّه أن يستوفى التلبثُ عنده ليوفَّى حقّه من التلقّي، وكأنّه يريدك أن تتفرسَ خبرَه في الواقعِ لتكون نصيرًا له، لأنّك إن تلبثتَ ، وتفرستَ الواقع، وقايستَ لم يكن لك إلا أنت تكونَ نصيرًا له فيما أنبأ به عنها من أنّها ليس لها ضريبٌ

وفي هذا مِن تقريرِ أنّه إنّما أنبأ عن يقينٍ ، وأنّه لا يُبالغُ ولا يتجوز في هذا إنما ينطِقُ بالحق عن الحق ، وهذا مِن عظيم النّسيبِ . ولا تهشُّ المرأة بشيْءٍ كمثلِ ما تهشّ بتقرير فرادتها في شيْءٍ من الحُسن والفضل، فالنّساء راغباتٌ عمّا يشاركن فيه، وإن كان في نفسِه جليلاً. تراها إذا ما لبستْ أفخمَ ثوبٍ وأجمله وتاهتْ بِه ودهشت، ثم رأت مثيله على غيرها، رغبت عنْه، وربّما مقتته، كأنّها تعاقبُه أن رَضِيَ بأن يكونَ على غيرها ،وكأنّها تنتقِم منه أن رأى في غيرها ما يُمكِن أن يأنس به أو أن تمنحه شيئًا ممّا منحته هي إذ لبسته ، وما كان له أن أن يفعل. أخلق الله تعالى لها مثيلاً ؟!!! ما باله، وهي التي منحته من حسنها، فبرز في الأعين على غير ما يمكن له أن يبْرز له من الحسن من غيرها ؟!!! أينكر فضلها عليه.؟!!!

وممّا يدخلُ في عطفِ المؤكّدِ على المؤكّدِ بـ(الواو) قول الشاعر:محمد بْن الْمولى ليزِيد بن حَاتِم بن قبيصَةَ بن الْمُهلب

وَإِذا تبَاع كَرِيمَة أَو تشترى فسواك بَائعهَا وَأَنْت الْمُشْتَرِي
وَإِذا توعرت المسالك لم يكن مِنْهَا السَّبِيل إِلَى نداك بـأوعر
وَإِذا صنعتَ صَنِيعَةً أتممتها بيديـن لَيْسَ نداهمـــا بمكدر
وَإِذا هَمَمْت لمعتفيك بنـــائل قَالَ الندى ، فأطعتــــه لَك أَكثر
يَا وَاحِد الْعَرَب الَّذِي مَا إِن لَهُم من مَذْهَب عَنهُ وَلَا من مقصر

قوله: "وَإِذا تبَاع كَرِيمَة "أي تعر ضُ للبيع أو يرغبُ في شرائها ،جاء قوله(أنت المشترِي) مؤكدًا لازم معنى قوله: (سواك بائعها) ذلك انّه إذا ما كان ك من عداه هو البائع المكرمة، فلا بدّ لها من مشترٍ ، ولم يبق غيره مشتريا ، فجاء قوله:(أنت المشترِي) مصرحًا بهذا اللازم ، وجاء معطوفًا بـ(الواو) ومقضى ظاهرهذا ألا يعطف المؤكَّد على المؤكِّد ، فإنه هو. ولكن الشّاعر عدل،فعطف بـ(الواو) ليلفتك بها إلى أنّه وإنْ كان قوله: (أنت المشترِي) متلاقِيًا مع قوله (سواك بائعها) ومؤكدًا ما يلتقيان فيه، فإن قوله :(أنت المشترِي) يحمل أمرًا زائدًا هو جديرٌ بأن يلتفت إليْه وأن ينظرَ إليه كأنّه جديدٌ مستقلٌ ، وليس بتابعٍ، ذلك المعنى الجديد الزائد نسبة شراءِ كلّ مكرمةٍ إليه ، مبرزٌ عظيم رغبته في كل مكرمةٍ ، وأنه البحاثُ عنها ،وأنها الملجأ الذي تثوبُ إليْه ، وأنّ كلّ عرضٍ من الدّنيا هو في جانب أي مكرمة لا يعدلُ شيئًا، فليس له في هذه الحياة رغبة إلا في كلّ كريمةٍ ، ومن كان هذا حالُه ، فإن النّاسِ في أمنةٍ منه من جهةٍ ، وفي رجاءٍ لنوالِه ورعايتِه من أخرى، فهو الذي يحقّق للناس أمنهم ممّا يحذرون ، ويحقق لهم قضاءَ ما فيه يرغبون ، فلا يجدون سبيلاً إلى غيره ، فقد سدّ بشرائه كلّ مكرمة سبيلَ السّعي إلى غيره،فتعيّن لهم الطّريق وتيسّرت.

التَّصريح بذلك يمنحُ النَّفسَ معنى لا يمنحه ترك التَّصريح به، والعطف بـ(الواو) يمنحُ النَّفسَ استشرافًا إلى أنَّ هنالك من المعاني الجديدة ما هو جديرٌ بحسن الالتفاتِ إليه والاعتناء بِه.

وهنا يتبين للسَّامع المفارقة البالغة بيْن المَمدوح وكلّ مَن عداه : كلُّ مَن عداه بائع كلّ كريمةٍ مفضّلٌ عرضَ الدّنيا عليها من جهالتِه بقدرِ تلك الكريمةِ ، والمَمدوح مفضّلٌ أيَّ كريمةَ على كل عرضٍ من الدّنيا من عرفانه بقدر أيّ كريمةٍ. كذلك يكونُ المدحُ .

وهذا البيت: وإذا تباعُ كريمة .... قد كُتبت له سيرورة لم تكتب لبيت من أقرانه في القصيدة ولا في شِعر الشّاعر ، فهو حاضرٌ في أسفارٍ كثيرةٍ من فنون العلم والمعرفة والثقافة. وهو بيتٌ قد اتَّسم بفضيلة إيجازِ القصر، فهو إذا ما رغبت في تفصيله أعوزك الجُهد والوقت عن الوفاءِ بحقّ هذا التفصيل، فهو من جوامعِ الكلمةِ الشّاعرة.

***

ومما يدخل في هذا الباب ما يعرفُ بعطف اللازم على الملزوم. من البين أنّ الشّأن في البيانِ العالي أن يكون لمنطوقِه معنى، ويكون لذلك المعنى معنى يلزمه ، وقد تتوافد اللوازم بمقدار ثراء البيان.

العلاقةُ بين اللازم والملزوم هي علاقةُ كمال الاتصال مما يجعلُه جديرًا بأن يُفصلَ عنه، إلا أنَّ غيرَ قليلٍ مجيئُ عطفُ اللازم على الملزومِ بالواو، فإذا ما قلت لولدك: (صَه) لازمه (لا تتكلّم) وهذا أصلُه أن لا يعطفَ عليْه من أنّه مؤكدٌ لازم معنى منطوق (صَه) فاذا قلت له:(صَهْ ولاتتكلم) كنتَ قد عدلْتَ عَن الأصلِ.

ولعلماء الأصولِ كلامٌ وسيعٌ عميق في هذا: أيكون الأمرُ بالشّيْءِ المُعين نهيًا عَن ما يكون ضدًا له سواءٌ كان الضدُّ واحدا أو كان الضّدُّ متعددًا. وهو بابٌ جدُّ عامرٍ بالدَّقائق، ولا يستغني طالبُ علمِ البلاغة العربيّ عن الإحاطةِ به، وعَن حُسنِ النّظرِ فيه [1]

وهذا ما جاء في بيان الوحي، مِن نحو قول الله (: (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) (النّساء:٣٦)

فقوله تعالى: (لاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً) مؤكّدٌ لازم منطوق (اعْبُدُواْ اللّهَ) وكان مقتضى الظّاهر أن يُقال في غير القرآن:(اعْبُدُواْ اللّهَ. لا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً)

---

[1] ينظر :الفصول في الأصول ,تأليف أبي بكر الجصاص ,أحمد بن علي أ الرازي(ت370هـ)تحقيق :عجيل جاسم النشمي ,نشر وزارة الأوقاف الكويتية) , التراث الإسلامي (14 ,ط (1)عام1405 ,هـ ج159-165 /2:

أو كتاب :العدة في أصول الفقه ,تأليف :القاضي أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء) ت458هـ (تحقيق :أحمد بن علي بن سير المباركي ط (2)عام 1410 ,هـ ج 368 /2:

أو كتاب المحصول ,للفخر الرازي ,محمد بن عمر بن الحسن الرازي) ت606هـ (تحقيق:طه جابر فياض العلواني ,نشر ,مؤسسة الرسالة ,ط (3)عام 1418 ,هـ ج199 /2:

أو كتاب المسودة في أصول الفقه ،تأليف :آل تيمية الجد والابن والحفيد ,تحقيق ,محمد محيي الدين عبد الحميد,مطبعة المدني ,القاهرة ص44 :

أو كتاب:التلويح على توضيح التنقيح في أصول الفقه الحنفي,لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود المحبوبي(ت747 هـ , تأليف سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني(ت793هـ ,(مراجعة وتعليق ,مجيب الماحي,و حسين الماجد ,نشر : المكتبة العصرية ,صيدا، بيروت ,ط(1)1426هـ ج 464 /1:

أو كتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول,تأليف ,محمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت1250هـ)تحقيق أبي مصعب ,محمد سعيد البدري ,نشر ,دار الفكر ,بيروت ,عام 1412 هـ ص . 181 :

وانظر حاشية على المطول , تأليف حسن جلبي الفنري, مطبعة شركة صحافية عثمانية ,تركيا ,سنة1903 م، ص425 :

لو جاء البيانُ (اعبدُوا الله وبالوالدين إحسانا) لدخلَ فيه كلُّ مَن يعبدُ الله تعالى ومعه غيرُه؛ لأنّ ما أمرَ به ظاهرُه أنّه متحقِّق ، فإذا قلتَ لولدِك :"أكرم أختك" فأكرمَها ، وأكرمَ معها أخاها أو صديقتِها، ألا يكونُ قد أكرمَ أختَه؟ كذلك (اعبدوا الله) .إذا أفرِدَ ، ولم يُشفعْ بقولِه (لا تشركُوا بِه شَيْئًا) كان كلُّ مَن عبده قد قام بما أُمرَ بِهِ ، وإن عبد ألفًا معَه، وهذا يغايرُه لو قِيل:(لا تَعبُدوا إلا الله) فما جاء عليه نظمُ آيةِ سورةِ(النّساء) جامعٌ بيْن الإنْباءِ تصريحًا بالتَّبرّؤ مِن عبادةِ مَن عدا الله تعالى، والإنباء تصريحًا بتقرير عبادته هو، فكانا بمثابةِ كلمة التّوحيد(لا إله إلا الله) إلاَّ أنَّ البيان هنا جاءَ مفصّلاً غيرَ مُجملٍ كما في كلمة التوحيد، و(لا تَعْبُدُوا إلاالله) والتفصيلُ فيه مزيدُ إبانةٍ وتقريرٍ حتّى لا يدعَ مجالاً لأيِّ صورةٍ مِن صُورِ الشِّركِ ، ولذلكَ جاءَ قولُه:(شيْئًا) فقرَّرَ النّهي عَنْ كلِّ صُورِ الشِّركِ ومستوياته ومجالاتِه، وهذا هُو تقريرُ صَفاءِ التَّوحيدِ الَّذِي تُبْنَى عليه كلّ الأعمالِ والأحوالِ.(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف:١٠٦)

وجاءَ مِن بعدِه تَفْصيلُ الإحسانِ إلى النَّاسِ ، وكان يُمكنُ أن يُقالَ :(وبالنَّاس إحسانا) فيدخلُ في ذلك كلُّ مَن ذكرَتهم الآيةُ ، لكنَّ المقامَ يقتَضِي تقريرًا لهذا الإحسانِ وإبرازًا لمزيدِ العنايةِ به إلى مَن ذكرَتهم الآيةُ فبدأَ بالإحسان إلى الوالدين (وبِالْوَالِدَيْنِ إحسانًا)

ذلك أنَّ هذه الآيةَ جاءتْ في سياقِ سورةِ(النِّساء) وهي سُورةٌ معقودَةٌ لتقريرِ القيمةِ العُليا في العلاقةِ بيْن الخلائقِ فِي الإسلامِ، وفي مقدمتِها العلاقةُ بيْن الزَّوجَيْنِ والأبناءِ : قيمة العدلِ والرَّحمة. والرَّحمةُ كما لا يخفَى مستَوَى أعلى مِن مُستوَى العدلِ.

روى التِّرمِذيّ في كتاب(البِرّ والصِّلة) من جامعِه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنهما قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.(صححه الألباني)

ويذهبُ أبو الحسن الحرالّيّ(٦٣٨هـ) إلى أن الإسلام " بناءٌ ذو عمودٍ وأركانٍ وله حظيرةٌ تحوطُه، فأمّا عمودُه فافرادُ التذلّل لله سبحانَه وتعالى توحيداً وطليعته آيةُ ما كان نحو قوله سبحانه وتعالى (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)(النّساء : ٣٦): طهّرهم حرفُ الزّجر من رجزِ عبادةِ إلهٍ آخر فأثبتَ لهم حرفُ الأمرِ التّفريدَ حتّى لا يشركوا معَه في التّذلل شيئاً أيَّ شيْءٍ كان آخر، وهو أوّل ما أقامَ الله تعالى مِن بناءِ الدِّين ولَم يفرضْ غيرَه نحوَ العشرِ مِن السِّنين في إنزالِ ما أنزل بمكة "([1])

فقوله تعالى :(لا تُشرِكُوا باللهِ شيْئًا) جاء معطوفًا لإبرازِ جهة الاختلاف والاتفاقِ بيْن ما أمرَ به وما نهي عنْه، من جهةٍ ، ولتقرير معنى النّهي عن الشّرك، لأنّ الإبانة عنْه تلويحًا بطريقِ اللّزوم قد لا يكون كافيًا في تقريرِ هذا المعنَى وتوطينِه في القلب، فلمّا كان النّهي عَن الشّرك بهذا المَحلّ كان جديرًا بِأن يُصرَّح به، وأن يُعطف على الأمر بالعبادةِ، وهذا يهدينا إلى أمرٍ بالغ الأهميّة:

[1] تراث أبي الحسن الحرالّي المراكشي في التفسير ،جمع وتحقيق :محمادي الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط،ط(1)عام 1418 هـ: ص 66 ،أو كتاب :نظم الدرر للبقاعي ج12 /3

أنْ تكونَ عنايتُنا بتعلّم طرائقِ الشّرك ومساربه إلى أقوالِنا وأفعالِنا وأحوالِنا مقدمًا على تعلّمنا كيفياتِ العبادةِ ، وتحسيناتِ هذه الكيفياتِ، فالتّقصيرُ في شيْءٍ من هذه الكيفياتِ وتحسيناتِها قد لا يترتبُ عليْه مَحقُ العبادةِ كُلِّها، بل قد لا يتجاوزُ النّقصانَ من ثوابِها دون محقه بينما أدنى شيْءٍ في الشّرك هو ماحق للعبادة، فقليلُ الشّرك محقٌ: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) (النّساء:٤٨) (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً) (النّساء:١١٦) فحسنٌ أنْ تكونَ العنايةُ بالإبانةِ عَن مسالكِ الشّرك وصوره، والتّحفظِ مِن ذلك كلّه عناية فنّيّة، وهذا ما يُقصّر فيه كثيرٌ مِن الّذين يقومُون للنّاس أخذًا بأيدهم في طريقِهم إلى الله سُبْحانَه وبحمدِه ، غيرُ قليلٍ منهم لا يعنى بتعليم أتباعِه مسالك الشّرك وصوره، ومناهجَ الاتقاء والتحرز من ذلك كله، على الرّغم من دعاوِهم أنّهم قائمون لتزكية النفسِ، ورأسُ هذه التّزكية تزكيتُها من كلّ صورِ الشّركِ مهْما دقّ.

***

ومن هذا قول الله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (هود:٨٤-٨٦)

جاء قوله تعالى(وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)،(أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) ،(لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) وهْي كما ترى تجري في أمرٍ واحدٍ هو الحفاظ على حقوقِ العباد في باب الكيل والميزان وإن يكن الثالث (لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) عامًا يشمل ما قبله. وكان مقتضى الظاهر أن لا تأتي معطوفة بالواو، لما بينها من كمال الاتصال توكيدًا، بيْد أنَّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن هذا . جاء بها معطوفة بـ(الواو)

ممّا لا يخفَى أن قومَ شعيبٍ عليه الصّلاة والسّلام كانوا قومَ تجارة، وهذه الصّنعة، يسلك الشّيطان فيها مسلكَ الإغراء بالتطفيف ممّا يلزمُه أمران:

الأوّلُ: ظلم العباد، وهذا ممّا لا يطاقُ التحلّل منه في كثيرٍ من الأحوالِ

والآخر: اختلاطُ الأرزاقِ بما حرم اللهُ تعالى ممّا يجعلُ أصحابها أبعدَ عن الله سُبْحانَه وبحمْدِه توفيقًا ورحمةً وسترًا.

ومَن ابتلي بهذين كان شأنُه في الفسادِ والإفساد جدَّ عظيم، ممّا يجعلُ تطهيرَه مِنْ ذلك أمرًا بالغَ العُسر.

وكلُّ هذا يستوجبُ أن يكونَ البيانُ القائمُ لإيقاظِ النّفوس لتتقي هذه الآثام والتّطهر ممّا تلبّث به منها بيانًا فنيًا مقتدرًا على النفاذِ في هذه النفس المغلّقة بحواجز وسدود متكاثفة.

ومِن ثَمّ كان البيانُ القرآنيّ ذا عنايةٍ بالغةٍ بتأكيدِ الإغراءِ بالعَدلِ في المِيزان والمِكيال، وبتأكيدِ التّنفير مِن التّهاوُن في مقاربةِ بِبَخسِ النّاسِ حقوقَهم.

مِن هنا جاء هذا المعنى في صُورٍ ثلاثٍ ، كلُّ صُورةٍ تقرّرُ ما تقرّره الأخرَى، وتضيفُ إليه شيئًا يجعلُ تقريرَها له ذا خصُوصيّة في تلقِيه والانفعالِ به.

وإذا ما كان قوله (وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) قد جاء معطوفًا على قولِه(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وهو داخلٌ فيه لا محالة، وذلك بناء على أن قوله (اعبدوا) أمر بالعبادة اعتقادًا،وسلوكًا على وفق مرادِ الله الشّرعي تكون جامعة للإيمان والإسلام فيكون عطف (لا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ والميزان) من عطف الخاصّ على العامِ ؛ فَعبادته (تستوجبُ أن لا يَظْلمَ العابدُ ربَّه (أحدًا من الخلائقِ فِي شيْءٍ من الأشْيَاءِ ، ومِن ذلك أنْ لا ينقصَ المكيال والميزان، وعدم نُقصان المكيال والميزان من أفراد عبادتِه فكان في هذا العطفِ مزيدُ اعتناءٍ بالمعطوفِ ، وأنّه مَن كان حريصًا على أنْ يوفّي الله سُبحانه وتَعالَى جدّه حقّه في أن لا يَعبد غيرَه ، وأن لا يُشرِك معَه غيرَه ، فحقَ على العابد أن يوفّي عبادَ معبودِه حقوقهم ؛ لأنّهم عبيدُه، وهُو مُحِبّ أن لا يُظلم أحدٌ مِنْهم ومِن ثَمّ حرّم الظُّلمَ علَى نفسِه، وجعلَه بيْن عبادِهِ مُحرّمًا.

وفي الإعراب بكلمة (المكيال والميزان) ([1]) وكان المتوقع أن يقال في غيرِ القرآن(لاتنقصوا المكيلَ والموزون) لأنَّ النّقصان يقعُ علي ما يُوزن ويُكال، لا على أداتهما، لفتًا إلى ألاّ يكونَ منهم نقصًا في أداةِ الوزنِ والكيلِ. فكان في الأعراب بكلمةٍ(مكيال وميزان) لفتًا إلى ألا يكون في أداتي الكيلِ والوزن أي عبثٍ.

وجاء قوله (إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ) حثًا لهم على أن ينقصُوا المكيال، فهم أغنياء عن ذلك، فإذا ما كان هذا قبيحًا ممَّن كان فقيرًا، ومَن يحسبُ أنّ فيه منجاةً ممّا هو فيه مِن عوز ، فكيف يقعُ مِمَّن هو بخيرٍ عميم، فالشّأن في الأغنياء الأسوياء أن يوفُّوا النّاسَ حقوقَهم، وأنّ يزيدوهم عليها تكرمةً، فكيف إذا ما انقلبَ الأمرُ ؟ أيُّ معرّة لحقت بهم إذْ يفعلون، فقوله: (إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)ممّا يلهب ظهورهم ليحاجزهم عن تلك المَعرّة.

ولذلك تهدّدهم إن لم يذعنوا للحقّ قائلاً:(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ) فجعل اليوم محيطًا،والإحاطة للعذاب، أبلاغًا في الأعراب عن إحاطةِ العذاب بهم. تهديدًا لهم أنّهم لن يستَطيعوا منه مهربًا مهما كان لهم مِن مكرٍ، وحيلةٍ . فالشّأنُ في الّذين يصطنعون التّجارة حرفة أنّهم يعتمدون على عقولهم، ومكرهم ودهائهم، ويظنون في أنفسهم أنّ لديهم من القدرة ما يختالون به على كلّ عصيّة، فكان في تهديدهمبأن لم يقيموا أمرهم على العدلأن يحل بهم غذاب يوم محيط.

وجاء قوله تعالى:(أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) معطوفًا على (لاتنقصوا)، وتكرارُ النداء(ياقوم) لفتٌ إلى وجوبِ اعتنائهم بما يدعوهم إليْه وإبلاغٌ في إيقاظهم،وتذكيرهم بأنّه قومُه، وأنّه لن يكونَ لهم منه إلاّ ما هو خيرٌ لهم، فما هُو بالغريب فيهم ، بلْ هُم قومُه، ومَن شأنِهم أن يقُومُوا إلى ما يدعُوهم إليه ليقيمَهم في شرفِ العزّةِ والنّجاءِ مِن كلّ سُوءٍ.

عطفَ (أوفوا) على (لا تنقصوا) وهذا الإيفاءُ إنّما هو لازمُ ترْكِ الإنقاصِ فما أمرَ به لازمُ ما نهى عَنه ، فكان حقّه في عرف البيان المعهود أنّ لا يُعطف، لكنه عدل إلى عطفِه ليجمعَ أمرين: التوكيد لما سبقَ ،والزيادةعلى عطائه، لأن في كلمة(التوفية) معنى فوق معنى ترك النّقصان. ترك النقصان يكون صَاحبه همه العدل،وصاحب التوفية همّه الإحسان، فمن كان الحريَص على أن يوفّي لا يقف على العدل، ومَن كان همّه ألا يقعَ في النقصان يرضيه أن لا يكونَ منه نقصٌ ،وإن لم يكن منه زيادة ما، فكأنّه دعاهم إلى أن يتجاوزوا الحرص على عدم نقصان المكيال والميزان

---

[1] كلمة (لاتنقصوا) و(المكيال) من فرائد القرآن في سورة هود. لم يردا في أي موضع، والذي ورد في غيرها بجاء (أوفوا، وأقيموا، لا تطغوا، لا تخسروا)، وجاء البيان بكلمة (كيل) في غيرها.

إلى ما يَليقُ بهم مِن الحرصَ على التَّوفيةِ،والزيادةِ على ما يُستحقّ منهم .فحثهم على الاحتياط من أن يحوموا حول حمى النقصان حتى لايقعوا فيه، ولايكون هذا إلا بالإيفاءِ الذي فيه زيادة على الحق.ومن سنة الوحي أن يتصاعد بالعباد في معاملاتهم من مستوى العدل إلى مستوى الفضل. حتى في باب المعاقبة، والمقاصّة:(وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى٤٠ (الشورى:٤٠)

تبصّر تذييل الآية(إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) كأنه يلوح بأن ةالدحمن استوفي فقد يقع في الظلم، فمن العسير أن تقتصّ ولا تُفرط أو تفرط ، ومن احتاط لنفسِه فقد أحسن إليها. وهي جديرةٌ بأن يُحسن إليها صَاحبُها، فإنّها عاريةٌ مُستردَةٌ لمالكِها سُبْحانَه وبحَمْدِه فالإسلام دين يحثُّ على أنْ يكونَ المرءُ سمْحًا في علاقتِه بالآخرين:

روى البُخاريّ في كتاب (البيوع) من صَحيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (قَالَ « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى » .

ويأتي قوله تعالى : (لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) على ما قبله عطف عام على خاصّ ، لأنّه نهْي عن البخس في أيِ أمرٍ سواء كان كيلا أووزنا أو غيرهما ، فيلزم مِنْه أن يكون نهيًا عن البخسِ فِي المكيالِ والمِيزانِ ، وبهذا يتأكّدُ النّهي عن مجاوزةِ العدلِ في جميع الأمرِ، ولا سيّما المُكيال والميزان، ثم يترقّى في التوكيد فيعطف عليهما هو أعمّ (لا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) وبهذا يتصَاعدُ المعنى القرآني، ويرتقّي بهم إلى الأفقِ الأسمَى الّذي يليقُ بهم (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

****

ومن هذا في بيان النّبوة ما رواه الترمزي في كتابِ "البيوع" "بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ بَيْعِ الْمُغَنِّيَاتِ "وفي كتاب"تفسير القرآن" من جامعه والإمام أحمد في مسنده: عَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (قَالَ : لاَ تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ وَلاَ خَيْرَ فِى تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ فِى مِثْلِ هَذَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ ».[1]

---

[1] لا يتسع هذا المقام لتخليص هذا البيان فضلاً عن تلخيصه وبسطه وتفصيل ماهو مكنون فيه منمعاني الهدى التي بات المعروف منها منكرًا والمنكر معروفًا، فمسخت نفوس وعقول وقلوب وبات ماجن" الغناء "ثقافة وتنويرًا وتقدما. وبات القيناتاللاتي يغنين بأجسادهن العارية بل عاهر هن رموزًا وطنية ، وأسوة ثقافية ، وأمهات مثاليات.

، وحسنٌ جدًا إن لم يكن واجبًا لازمًا لازبًا أن يرجع طالب العلم إيمانًا واحتسابًا إلى المصادر والمراجع التي بسطت القول في روثاقة رفعه إلى النبي (وضعف هذا الرفع . وأن يحسن التبصر والفهم ،ومن ذلك :

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني) ت1420 :هـ] ط [1]مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض -6/1015) حديث (2922 :

وضعيف الجامع الصغير وزيادته، للألباني أشرف على طبعه زهير الشاويش،الناشر :المكتب الإسلامي]ص893حديث رقم = [6189 وصحيح وضعيف سنن الترمذي، للألباني ،] حديث رقم [1282 :

وتراجع العلامة الألباني فيما نص عليه تصحيحا وتضعيفا ، لأبي الحسن الشيخ، اختصار :محمد بو عمر ، طبع بعناية دار المعارف بالرياض .

وكتاب الإعلام بآخر أحكام الألباني الإمام،جمعه وقدم له :محمد عبد الحكيم القاضي،الناشر :دار ابن رجب

وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية]ج 1/239]وما بعدها [

وتخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين الزيلعي) ت762 :هـ]تحقيق :عبد الله بن عبد الرحمن السعد، ط [1]عام1414 هـدار ابن خزيمة – الرياض (3/67)

ومجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز] المتوفى1420 :هـ]أشرف على جمعه وطبعه :محمد بن سعد الشويعر 3/402)]وما بعدها. [

قوله (: "لا خيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ " لو جاء بغيرِ عطف لكان فصله أقربَ إلى أن يكون استئنافًا بيانيًا يكشفُ عن وجه النّهي عن بيع القيان وشرائهن وتعليمهن. بيْد أنَّ الرواية جاءت عطفا بالواو على خلافِ مقتضى ظاهر الحال ، وهو خبرٌ يتضمنُ نهيًا، وهو على هذا يصحُّ أن يكونَ توكيدًا لما سبقه ، لأنّه لا يُنهى عن البيع والشّراء والتّعليم إلا إذا كان في هذا خلاءٌ مِن الخيرِ ، فكلُّ نهي من الوحي مقتضٍ للفسادِ في نفسِه والإفسادِ لفاعلِه وَمن رضيَ بفعلِه، وتوكيده ما اقتضاه النهي السابقُ عليْهِ يقتضِي ظاهرُه أنْ يُفصلَ ، فلمّا جاءت الرّواية عطفا بـ(الواو) لَفَتَنا هذا إلى أنّ المعطوفَ يتضمن إنباءً بأنّه يزيد بأمرٍ مهمٍّ جدًا علَى الإنباءِ بالنّهي السّابقِ: أنبأنا بأنّه إذا كان الشّأنُ في كلّ تجارةٍ أن يَسعَى أهلُها إلى ما فيها من خيرٍ ، وأن ينصرفوا عَن تجارةٍ لا خيرَ فيها ، فإنَّ التّجارة فِي القِيانِ المُغنياتِ لاخيرَ فيها البتّةَ علَى الحقيقةِ، فمنطقُ التّجارةِ وأدبُها أنْ لا يُقدِمَ عاقلٌ على التجارة في القِيانِ المغنياتِ.

وجاء قوله: (ثمنهنّ حرامٌ) ليُضيفَ معنى زائدًا على ما سبقَه بِهِ يتجاوزُ مستوَى الخلاء مِنَ النّفعِ إلى مستوى اكتساب الضُرِّ (السيئات في نفسِها وأثرها) فهي تجارةٌ لا تحقّق كسبًا، ولا يكونُ صاحبُها لا لَه ولا عليْه، بل هِي تجارةٌ على صاحبِها من الإثمِ ما لا يُطيق. فإذا كان التّاجر يفِرُّ مِن تجارةٍ لا يكسبُ فيها، وإن لم يخسرْ ، بأنْ يبيعها برأسِ مالها ، فكيف فرارُه مِن تجارةٍ هُو علَى يَقينٍ أنّه بِها في خُسْرٍ .

كذلك يَسعَى البيانُ النّبويّ إلى ترهيبنا مِن هذا الأمرِ لِمَا فِيه مِن الأخطارِ الّتي تؤولُ بالأمّة إلى الوَهنِ : حُبّ الدُّنيا وكراهيةِ الموتِ، فينزِعُ الله تعالى من قلوب أعدائها المهابة منها ، من بعد أنْ كانت ينصرُها الله تعالى بالرُّعبِ مَسيرة شهرٍ، يقذفه في قلوبِ أعدائها، فلا تُوسْوسُ لهم أنفسُهم أن يُفكروا في الاعتداء عليْها.

وَتَبَصَّرْ نسقَهُ النّهي فِي صَدر الحديث:" لاَ تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ" :

بَدأ بالبيعِ، وهذا لِمن كانت عنده قينةٌ غناءٍ قبل البيان، فهذا لا يبيعُها، وإنّما يُصلحُ أمرَها ويجعلُ لها مهارةً أخرَى غيرِ الغناء، كالحياكة أو التّطبيب أو نحو ذلك أيْ عليْه أن يُعيدَ تهيئتَها لعملٍ نافع ثمّ يبيعُها إنْ شاء، فإن لم يفعل ، فلا يبيعنّها حتى لا تقعَ في ملك مَن تُغويه فتُرديه ، فيكون سببًا ببيعها له في إفساده .

وفي هذا هدايةٌ لنا أن نعملَ على إصلاح ما قام فيه الفسادُ ، فليس الأمرُ متوقّفًا على أن تكونَ أنتَ صالحًا في نفسِك، بل عليْك أن تُصلح ما حولك ، فالمسلم صالحٌ في نفسِه مصلحٌ لغيره .

وليس الأمرُ متوقفًا أيضًا على أنْ لا تكونَ أنتَ فاسدًا بل عليْك أن تَمنع فسادَ الآخرين بما شرعه الله (:(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ((القصص: ٧٧) ([1])

وثنّي بشراء القَينات المغنيات ، وهذا لمن لم تكن عنده قينية مغنية عند البيانِ وبعدَه ، فلا يُقدِم على هذا الشّراءِ لهذه العِلة، فإنْ اشتراها وهو لا يعلم أنّها تغنّي فلا ضيرَ عليْه على ألا يأذن لها بالغناء ، فإن غنّت نهاها وعلمها الخير.

---

[1] هذه الآية حكاية مقالة قوم قارون فالخطاب منهم له، فلا يقال إن ذلك خاصٌ به ، لأن منهج القرآن انه إذا ما حكى أمرًا حسنًا أو غير حسن عن قوم ولم يعقب عليه بنسخ أو بما يفهم عدم الاعتداد به في الكتاب أو السنة كان هذا فيما هو حسن أمرًا به، ودعوة إليه،وكان فيما هو غيرُ حسنٍ نهيًا عنه وتنفيرًا منه، ذلك نهج في بيان الوحي في الأمر والنهي.

وثلث بالتَّعليم وذلك لمن كانت عنده قينةٌ غير مغنيَة، لا يجوزُ له أن يعلّمها الغناء، وبذلك أغلقَ البابَ أمامَ هذا العمل، وفي هذا مِن الجَمع وحُسنِ التَّقسيمِ واستيفاءِ الأقسامِ ونسقها ما فيه. كلّ هذا يهدِي إلى خطرِ هذا الأمرِ على من يقترفُه.

وقد أضحَى اقترافُ هذا الإثمِ الذي بالغت السُّنَّةَ في التَّنفير منه، وفي سدّ كلِّ الطُّرقِ إليْه – أضحَى في زماننا آيةً على التَّحضُّر، والتَّثقف، ورقَّةِ الطَّبعِ والتَّقدُّمِ ، وأنَّ مَن لم يكنْ له نصيبٌ منه فهو الظَّلاميّ المُتحجّر المُتخلِّف عندهم .

***

يقول (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِن اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنزَلَ الحَقَّ لِيُذْهِبَ بِهِ الْبَاطِلَ ويُبْطِلَ بِهِ اللَّعِبَ والزَّفنَ والزَّمَّاراتِ والمَزاهِرَ والكِنَّارات.)

(الزفن: الرقص ،والكِنَّاراتِ؛ هِيَ، بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، الْعِيدَانُ، وَقِيلَ البَرابطُ، وَقِيلَ الطُّنْبُورُ،)(لسان العرب(كنر)، هذا من عطف الخاص على العام لمزيد اعتناء بهذا الخاص لما له من أثرٍ بالغ في صرفِ النّفوسِ عن الاشتغال بالحقّ، فهذه التي اختصت بالذكر من الباطل للنفس بها مزيدُ تعلق، ممّا يجعلُ صرفَ النّفسِ عنها يحتاجُ المَرء ،ولا سيما النِّساء والشّباب إلى مزيد إيمان وقوة نفسٍ وصبرٍ واحتسابٍ ، لأنّه سيجد في صرف النَّفس عنها منازعة فتيَّة.

كان يمكن ألا يعطَف هذا الخاص ليكون بدلَ بعضٍ منْ كلّ، لكنّه حينئذٍ لن يلفت النفسَ إلى ما فيه من مغايرة هي جديرة بأنْ تكونَ على ذُكر منه، فـ(الواو) في مثل الموقع تكون دَلالتها على المغايرة أظهرَ من دلالتها على الجمعِ بيْن لِحاقها وسباقِها ما يكون الكلام له

***

ومن هذا قولُ الْحَرْثِ بنِ همام الشيباني:

أيا ابْن زَيابةَ إن تلقني * لا تلقني فِي النَّعم العازب

وتلقني يشْتَدِ بِي أجرد * مستقدِمِ البُركَةَ كالراكب

يقُول الشّاعر يا ابن زيابة إنك لا تجدني راعياً يبعد في المرعى بإبله. وكأنّه يعرّضُ بِه ، بل إنّك تلقني يعدو بي فرسٌ أجرد ذو صدر متقدمٍ مشرف إشراف راكبِه أي أنّ الفرسَ يتقدم في الحرب تقدم راكبه، فهو فرسٌ متآخٍ مع راكبِه لا يخذله . هما على نهج سواءٌ في الإقدام ، وهذا من فيضِ شجاعةِ راكبِه فقد فاضت شجاعته على الفرس ، فاكتسبَ الإقدام من فيضِ أقدام فارسِه. وهذا من عظيمِ الفخر. وإذا كان قوله (لا تلقني في النَّعم العازب) من لازمه أن يلقاه على خلاف ذلك وهو أن يلقاه فارسًا ممتطيًا جواده ، كان قوله من بعد (تلقني يشْتَدِ بِي أجرد) مؤكدًا هذا اللازم ، ولذا يصح أن يقوم مقامه، فلو أنّه قال : أيا ابْن زيابة إن تلقني تلقني يشتد بي أجردُ. فكان مقتضَى الظّاهر أن لا يعطف بـ(الواو) لكنّ الشّاعر عدل عن ذلك فعطفه بالواو ، وفي هذا لفتٌ إلى ما جاء من معنًى زائد في قوله : تلقني يشتَدُ بي أجردُ تراه فيما تمثل من عليّ الفخر من قوله:(يشْتَدِ بِي أجرد مستقدم البُركَة كالراكب) فهذا ليس عين اللازم من قوله : لا تلقني في النعم العازب، ذلك أن هذا اللازم يتمثل في أنه فارسٌ ، وما زاد على

هذا جاء به البيتَ الثّاني، وما جاء بِه البيتُ الثّاني مهمّ جدًا. وهو الذي يُفعم نفسَ المتلقّي بهجةً واسترواحًا بفضيلة الإقدام

***

وممّا هو من عطف المؤكد قول امرئ القيس في معلقته:

ألا رُبَّ يومٍ لكَ مِنهُنّ صَالحٍ * ولا سيَّمَا يومٍ بِدَارةِ جُلْجُلِ

وَيَوْمَ عَقَرْتُ للعَذارى مَطيّتي * فيا عجبًا من كورِها المُتَحَمّلِ

فظلَّ العذارى يرْتَمينَ بلحمِها * وشحمٍ كَهُدّابِ الدِّمقسِ المُفَتَّلِ

ويومَ دخلتُ الْخِدرَخدرَ عُنَيزَةٍ * فقالتْ لكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي

قوله:(ويوم عقرت للعذارى مطيتي) يحتمل أن يكون يومًا غيريوم دارة جلل، فيكون معطوفًاعليه ، ولا كلام لنا في هذا ، ويحتملُ ان يكونَ عينَ يوم دارة جُلل ، أبان أوّلاً عنه بالمكان الّذي كان مَسرح الأحداث (دارة جلجل)هل لنا أن نستشعر من اختياره هذا الاسم ليلفتنا إلى ما في كلمة(دارة) من دلالة على حركة دائرية لا تهدأ، وكلمة (جلجل) من دلالة على الحركة والصّوت الفتيّين، وكلّ من الصوت والحركة دالٌّ على وفرة نشاطٍ وتجدد الحياةِ ، وتفتق البهجة في النّفوس، فهن لا يتضاحكن وهن قابعاتٍ، بل يتضاحكن، ويتسامرن وهن في وفرةِ نشاط تراها أيضًا في قوله (فظلَّ العذارى يرْتَمينَ بلحمها) فكلمة(ظلّ)الدالة على ديمومية الفعل طول النهارِ وكلمة (يرتمين) الدالّة بمادتها وصيغتهاعلى ما في هذا الفعل من نشاط واعتمالٍ واستغراقِ نفسٍ في التلذذ به ، فكأنّه غايةٌ في نفسِه ، وكأنّه ينكي فيهن البهجة واشراق الحياةِ في نفوسهنّ، فهاتان الكلمتان(ظلّ) (يرتمين) صورتا ديمومة الحركة ونشاطها والاجتهاد فيها ، ثم أبان عمّا كان فيه من أحداثٍ، فإن كان هذا الاحتمال الثّاني هوالمسترضى كما عند شيخنا، فمقتضى الظاهرأن يقول (يوم عقرت للعذارى مطيتي) لأنه ليس إلا هو، بيد أن الشّاعر عطفه بـ(الواو)"إشارةً إلى أنّ هذا اليومِ تميّز بحدثٍ عجيب ،وهو عقره مطيته، وتحمّل مطايا العذارى رحله، فصار كأنّه يوم آخر، وهو كثيرٌ في كلامِ العربِ ...")[1](

وكذلك قوله: (ويومَ دخلتُ الْخِدرَ خدرَ عُنَيزَةٍ ...) البيت

فهذا اليومِ هو يوم دار جلجل، وكانَ شأنُه ألا يعطف، غير أنه عطف"لمّا تميّزَ بفعلٍ غريبٍ عجيبٍ نادرٍ ،وهو اقتحامه هودجَ أمرأةٍ حرةٍ كريمةٍ، وهذا أوّل اقتحام للممنوع وأول وصول إلى المحفوظِ المصون،ولهذا ميّز زمنه ، وجعلَه يومًا غيرَ يومِ العقرِ مع أنّه منه...")[2](

وليس يغيبُ عنك ولا سيما إذا كنت قد قرأت كتاب شيخنا(الشعر الجاهلي) ما في البيان بقوله:(مطيتي) من دقائق الفوائد، وكيف أنّ هذه الكلمة لا سبيل لغيرها أنْ يقوم مقامها . لا يصلحُ مكانها ناقتي أو راحلتي ، ونحو ذلك، ففعل الامتطاء هنا له دلالة بالغة في قيمتها، فليس كلُّ مركوبٍ مطيّةً ، فكم من مركوبٍ هو إلى أن يكون أداة تعذيب أقرب منه إلى أن يكون مطيّةً لماتعانيه وأنت على ظهرِه مِن سوءِ حركته ، لكنّ كلمة مَطيّة أبانتْ لنا عمّا فيها مِن سهولة

---

(1) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء. 45/

(2) السابق 48:

إيقاع حركتها ، وامتدادها ، ولينها، ومثلها لا يُجازف بنحرها إلاَّ لمن كان فيه من العوض عنها ما فيه. فكلمةٌ كهذه مترَعة بما يعتلج في صدرِ الشَّاعرِ من تعلقه بها ، وإيثاره العذارى بها.

وفي البيان بكلمة (عذارى) ما يصَوِّرُ لك عظيمَ الحياءِالذي يملؤهن، وأنَّهن لسْن في هذا الذي كان منهن معه بالخبيراتِ الممارساتِ من قبلُ ، وكأنّه يُريك من نفسِه اقتدارًا على أنْ يُخرجُهن من سياج هذا الذي ملأهنّ مِن الحياءِ والتَّحاشِي ، والتحاشُمِ فلم يستطعن أن يبقَيْن في حِصن الحياءِ وفسطاطِ الحِشمةِ والتَّحاجز الّذي كنَّ فيه مكنونات، وهذا تصويرٌ لفاعليته فيهنّ(امرؤالقيس حفيّ بإبراز فاعليته في النساء، ففي شِعره مواضع عدة ترى هذا منه ظاهرًا) بل هو مضى بنا إلى ماهو أبعدُ في هذا : صوَّر لنا كيف كان أثرُه فيهِنَّ فظَللن يرْتَمين بلحمِها وشحمِ كَهُدَّابِ الدِّمَقس الْمُفَتَّلِ ، جمع لك في هذا أمْرين جليلين: ماكانتْ عليّه مطيتُه من فتاءٍ واكتناز، وما كان مِنهُنَّ حين تحررن ممَّا كنَّ فيه، فتلاعبنَ بلحمِها وشحمِها عديلَ تلاعبِه بعقولِهنَّ وقلوبهن، وكأنَّهن يثأرْن منه بما يفْعلنه بحلمِ مطيِّته وشحمِها . عجزْن عَنْ أن يفعلْن فيه ما فعلَ بهِنّ، فلم يكنْ إلا القَودُ مِن لحمِ مطيتِه وشحمِها، ثم تأمّل وصف شحم مطيته (كهُدَّابِ الدِّمَقس الْمُفَتَّلِ) وقد أبان شيخُنا عن هذه الصورة،

المهمَ أنَّ الشاعر اتَّخذ هذا الحدثَ فسطاطًا ما كان منهُن ، وقد بلغ منهن النَّشاط والمرح وميعةُ الشباب مبلغًا، تجاوزن به ما مقدَسًا.

***

والذي يحسنُ تكرارُ التَّذكير به أنّ كلّ جملةٍ مؤكِّدة لأخرى في اصطلاح البلاغيين هي جملةٌ ليست بالمطابِقةِ لما تؤكِّده لفظًا ونظمًا ومعنى ولازم معنى ، وهذا يترتَّب عليْه أنّ ثَمّ مفارقةً بيْن الجملتين، ذلك أنّه إذا ما كان الّذي هو الأعلَى في عُرف جمهرةِ أهلِ العلم أنَّ اختلاف اللفظين في أدنى شيْءٍ من مكونهما وتكوينها ، ولو كان حركة أو سكونًا ، فإن المعنى لا يكون متطابقًا، بل لابدَّ من مفارقة في المدلول. فهم يفرقون مثلاً بين جَهدٍ وجُهد ، فرقَ بيْن أن تقول : بذلْت في هذا جَهدِي (بالفتح) وقولك : بذلت في هذا جُهدي(بالضم) الأول أدنى من الآخر على ما لا يخفَى عليْك.

وعليْه فكلُّ جملة مؤكِّدة أخرى في اصطِلاح البلاغيين هي تحتملُ وجهين:

الأول : أن تفصل ، وهُو الغالبُ في البيان البليغ. وحيًا وإبداعًا نظرًا إلى ما التقتا فيه.

والآخرُ : أن تعطف بالواو، وهذا غيرُ غالبٍ ، نظرًا لما بيْنهما من مفارقة في المحمول المعنويّ . ويكون القصد حينذاك إلى لفت الانتباه إلى المعنى المفارقِ ، لأهميته في هذا السياق التي عطفت فيه.

وهذا يجعل المتدبِّر مفتقرًا إلى مزيدٍ من العِناية بملاحظة السِّياقِ والقصدِ . وهذه العناية هي بعضِ العوامل التي تجعل تفاوتًا بيْن ما يجود به أهل التبصر والتدبرِ .

****

ومن باب العدول إلى عطف المبيَّن على المبيِّن قول الله تعالى:(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا

آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى((طه: ١١٥-١٢١)

قوله تعالى:(إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى) بيان قوله تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ (في الآياتِ المبيّنَة (بالكسر) تفصيلٌ للعهدِ وتفصيلٌ للنسيانِ والخلاءِ من العزمِ، وكان مقتضى هذا أن يأتِي مفصُولا إلا أنَّ البيانَ القُرآني عدلَ عن ذلك فعطفه بـ(الواو) المقتضيةِ للمغايرةِ لفتًا إلى منحِ الجملة المُبينة (بالكسر) قدرًا من العناية يعدلُ ما يُمنح للجملةِ المبيَّنة (بالفتح) فلا ينظرُ إليها في توفية الحقّ على أنّها تابعةٌ ما قبلها ، بل تُعاملُ في النّظر معاملةَ المُستأنفة القائمة بمعنًى جديدٍ . فهي حاملةٌ معنًى زائدًا على ما أكّدت به ما حملته سابقتها ، فمِن المعهودِ عندَ غيرِ قليلٍ أنْ ينظرَ في الجملةِ المؤكِّدة أو المبيِّنَة إلى ما التفتَ فيه معَ سابقتِها ، ولا يكاد يُعنَى بما زادته على سابقتِها ، فللوفاء بحقِّ ما زادتهُ جاءتْ (الواو) لتنبه على أنَّ في ما بعدَ (الواو) معنًى زائدًا على المَعنى الّذي أكّدتْه في سابقتِها.

ولمّا كان في ما فُصِّل به العهدُ والنّسيانُ والخلاءُ من العزمِ فيضٌ من معاني الهدى يفتقرُ إليها المخاطَب كان هذا جديرًا بالعناية به وبالالتفاتِ إليه.

حينَ تتبصّر في ما فُصِّلَ به العهدُ :(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى(تجد فيضًا مِن جمال الرُّبوبيَّة وفيضًا من رحمته سُبحانَه وتَعالَى جدُّهُ بأبينا آدم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وامتنانِه عليه ، وكلّ هذا كان باعثًا قويًا على أنْ يلزم عليْه الصَّلاة والسَّلامُ ، وأن يدركَ أنَّ ما كان من إبليسَ ـ لعنه الله ـ مِن معصيةٍ لخالقِه (إنّما باعثُه العداءُ لآدم عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفسِه ، وليس الكفرُ بالله (، وهذا يستوجبُ عظيمَ الحَذرِ منه ، فمَن يَحملُه العداءُ لك على أن يَعصيَ أباه هو الذي قدبلغ عداوه لك مبلغًا لا يُحاجزُ ، وأنَّ عداءه لك قد ملكَ عليْه أمرَه ، فلا يملكُ أن يدافعه عن شيْءٍ وإن كانَ عصيانا لأبيه ، فكيف بالّذي حملَه عداوه لك على أن يعصيَ الله (!! . إن هذا لأمرٌ جللٌ .

كذلك يُصوِّر الله تعالى لسيِّدنا آدم عليْه الصلاة والسلام قدر عداوة إبليس له، ليكون حالُه من التَّحرّزِ مِنه وحاله من الاستعاذةِ بالله (من مكره معادلاً لعداء إبليس له .

هذه المعنى حملتْه الآياتُ المبيّنَة (بالكسر) فكانت جديرةً بأن تكونَ في الاعتناءِ بها ذاتَ حظٍ بالغٍ ، وألاّ تعاملَ مُعاملةَ التّابع في قدرِ الاعتناءِ ، وكذلك ما جاء في تفصيلِ النسيان والخلاء من العزم.

كُلُّ ذلك اقتضَى العدولَ عن نظم البيان على نسق التَّبيينِ وفصلِه، وهذا يلفتنا إلى ثراء (الواو) حين يُؤتَى معدولا بها عن ما اقتضاه ظاهرُ الحال.

***

(تم القول غي الجزء الأول ويتبعه – إنْ شَاءَ الله تَعَالى -الجزء الثاني من شرح المطول اوله.(ولنا فرغ من كمال الانقطاع)